قُطُوفٌ مِنَ المَعِينِ الرَّائِقِ

فِي سِيرَةِ خَيْرِ الخَلَائِقِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دراسات تحليلية فى السيرة النبوية

إعداد وتأليف الدكتور

سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ بْنِ صَوَابِي

أستاذ الحديث الشريف وعلومه

كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

الطبعة السادسة

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

رقم الإيداع
بدار الكتب والوثائق المصرية
٢٠١٥/١٠٩٤٣م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَـــة

الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وعصمنا من الضلالة، وعَلَّمنا بعد الجهالة، ومنَّ علينا بالتوفيق: والهدايةِ إلى أقوم طريق، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتِم النبيين، ورحمةِ الله للعالمين: سيدنا محمد الذي شرح الله له صدره، وحط عنه وزره، ورفع له ذكره، وأعلى مكانته، وعظَّم رتبته، وشرَّف به أمته، فاللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا وحبيبِنا... سيدنا محمد الذي عَمَّت فَواضِلُه، وكَثُرَت نَوافِلُه، وعَظُمت شمائلُه، وعلى جميع آله وأصحابه الذين شهدوا أول الضياء، فاهتدَوْا به ونالوا كل نَعماء، والتابعين لهم بإيمانٍ وحُسْنِ اقتداء، أما بعد:

فقد دُرِّست بحوث هذا الكتاب: (المَعِينُ الرَّائِقُ مِن سِيرَةِ خَيرِ الخَلائِقِ ﷺ – دراسات تحليلية فى السيرة النبوية) لطلاب وطالبات جامعة الأزهر فى: كليات أصول الدين والدعوة، والقرآن الكريم وقراءاته من عام ١٩٨٩م حتى طباعة هذه الطبعة السادسة، وقد اختزلتها فى جزئين بدلا من أربعة، وسجَّلتُ ما لم أذكره فى هذه الطبعة فى كتبى الأخرى المنشورة فى الأحاديث الشريفة والدفاع عنها، وأضفت بحوثًا جديدة وتحقيقات كثيرة فى السيرة العَطِرَةِ خلال هذه الطبعة الأخيرة تتعلق بالوقت المعاصر الذى نعايشه؛ حيث تنكَّرَ فيه الكثيرون لهذا الدين، وفشا فيه الجاهلون من أدعياء الدنيا وأصحاب الهوى وأذناب السلطان... وعجز عن نصرة هذا الدين علماؤه، وبخل عليه أغنياؤه، وخذله حكامه، وصار الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون يلقون من البلاء والعنت ما الله به عليم.

وهذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية تجمع بين الغرس النافع والثمر الصالح المسقِيِّ بالوابل الصيب على ربوة بأرض طيبة: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ

طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

كما وشَّحتُ هذه الطبعة ورَصَّعتُ كثيرًا من بحوثها بأبيات من أُرْجُوزَة الشيخ محمد بن سالم البيحاني العدنى اليمنى المتوفى سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، المنشورة فى كتابه: (أشعَّة الأنوارْ على مرويَّات الأخْبَار في سيرة النَبي المختار وآلِهِ الأبرَار وصَحَابتِهِ الأخْيار) نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، لوجازتها وسهولة ألفاظها؛ دون التزام بترتيب المؤلف لأبيات تلك الأرجوزة؛ مع التصرف اليسير الذى يوافق مُعتَقد أهل السنة ولا يخل بالوزن أو القافية، وقد أنبه فى هامش فرعى على بعض ما أستبدله من كلمات مخالفة: هكذا(*)، وذلك فى جزئى هذا الكتاب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى مطلع تلك الأرجوزة بعد حمد الله والثناء عليه:

وَفِي كِتَابِهِ المُبِينِ الشَّافِي ۞۞۞ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَالأَسْلافِ

وَقَصَّ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ ۞۞۞ مِمَّا رَأَت أَوْلَمْ تَرَالعُيُونُ

وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى خَيْرِالبَشَرْ ۞۞۞ مِنْ قَارِىءٍ وَكَاتِبٍ وَوَاعِي

وإن السيرة النبوية بالرغم من اتساعها، وكثرة المُصَنِّفِينَ فيها؛ لكنها يمكن جمعها في جملة واحدة مكونة من مبتدأٍ وخبرٍ.

فالمبتدأ هو: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ باعتباره بشرًا من ذرية آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ، وهذا العَلَم قد ذُكر صريحاً في القرآن الكريم أربع مرات، منها قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

(*) ذكر فى أكثر من بيت «المدينة المنورة» باسم: «يثرب» فأبدلتُها بكلمة: «طَيْبَة» للمعنى المذكور فى هذا الجزء ص٢٩٠.

كما أن هذا الاسم: ﴿مُحَمَّد﴾ هو الذي يتعين النطق به في شهادة الحق التي تجعل قائلها من جملة المسلمين، وبدهيٌ أن شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله هي الركن الأول في هذا الدين.

ثم هو ﷺ أسوتنا في سائر عباداتِنا ومعاملاتنا كلِّها، ومثلنا الأعلى في جميع طرائق الحياة: عنه نأخذ، ومنه نتلقى، وبه نقتدي، لا نسبقه بقولٍ ولا بعمل... فلا يجوز لأحدٍ أن يستبدل في الأذان أو الإقامة أو الصلاة اسمَ النبي محمد باسمٍ آخرَ له ﷺ حتى لو كان هذا الاسم: «أَحْمَد» الذي ورد في القرآن الكريم على لسان عبدِاللهِ ورسوله عيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

أخرج الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث جُبَير بن مُطعم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»(١).

---

(١) البخاري: كتاب المناقب/ باب: ما جاء فى أسماء رسول الله ﷺ ٦/ ٥٥٤، ٥٥٥، وفى كتاب التفسير، تفسير سورة الصف ٨/ ٦٤٠، ٦٤١، ومسلم (واللفظ له): كتاب الفضائل/ باب: فى أسمائه ﷺ ٤/ ١٨٢٨، والترمذى: كتاب الأدب/ باب: ما جاء فى أسماء النبى ﷺ ٥/ ١٣٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد ٤/ ٨٠، ٨٤، ومالك: كتاب أسماء النبى ﷺ ص ٦٢٠ مرسلاً، وهو آخر حديث فى الموطأ.

وأما خبر ذاك المبتدأ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ فى تلك الجملة الاسمية المتقدمة فهو: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الجملة المكتملة بركنيها هي التي افتتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها الآية الأخيرة من السورة التي تلي سورة محمد في ترتيب المصحف: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩].

فالناس قد عرفوا محمدًا ﷺ بشرًا سويًا في حياته الأولى التي استمرت بينهم أربعين سنة، أما هو ﷺ عند ربه؛ فإنه لم يوجد إلا: لأداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، وإقامة هذا الدين في العالمين، فهو ﷺ خاتم النبيين، وقدوة المؤمنين فى كل حركاته وسكناته، وسفره وإقامته، ونومه ويقظته، وعقيدته وشريعته، وعباداته ومعاملاته، وآدابه وأخلاقه... وجميع أحواله فى فترة الرسالة التى استمرت ثلاثةً وعشرين عامًا؛ لأنه ﷺ بشرٌ من الناس؛ قد فُطِرَ على الأخلاق الفاضلة، والآداب السامية، وكفاهُ فخرًا: وصفُ ربِّه له وثناؤهُ عليه فى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

إذًا: فهدفه ﷺ الأسمى هو: دعوة كافة المكلفين للامتثال بهذا الشرع والتزامهم به، ولعلنا نلحظ ذلك في أسلوب الحصر والقصر من قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكذلك الإخبارُ الوارد في قوله تبارك اسمه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فالإسلام هو الهدف الذي أُرسل من أجله خاتم النبيين، والغاية التي بُعث لتحقيقها ونشرها في العالمين، وهذا واضح في القرآن الكريم: المكي منه والمدني على السواء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [سورة ص] وهى السورة الثامنة والثلاثون فى ترتيب النزول وترتيب المصحف الشريف.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وقد ورد هذا الجزء من الآية الكريمة ثلاث مراتٍ في سور هي من أواخر سور القرآن نزولاً بالمدينة [٣٣: التوبة] وهي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، و[٢٨: الفتح] وهي السورة الحادية عشرة بعد المئة، و[٩: الصف] وهي السورة التاسعة بعد المئة نزولاً على النبي ﷺ.

وقد آثرت أن أكتب سيرته ﷺ التحليلية من الكتاب والسنة على هيئة بحوث مترابطة، تبدأُ بتحقيق النظر فى مراحل حياته ﷺ الواحدةَ تلو الأخرى؛ من عالَمَ الغيب إلى عالَمَ الشهادة: مع التحليل والتمحيص.

ومن ثَمَّ: بدأنا هذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية بالإشارة إلى ما ورد فى حقه ﷺ في عالَمَ الغيب؛ منذ أن أخذ الله عز وجل الميثاق على النبيين: أن يؤمنوا به وأن ينصروه إذا أدركوا بعثته وحياته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران].

ثم تابعنا مراحلَ حياته ﷺ في عالَمَ الشهادة من المَوْلِدِ والنشأةِ والكدحِ والبعثةِ والهجرةِ؛ وتأسيسِ الدولةِ وقيادةِ الأمةِ والمعاملةِ مع الغير، والإشارة إلى الغزوات التى تكفل القرآن بتفصيل أحداثها: كغزوة بدر فى سورة الأنفال، وغزوة أحد فى سورة آل عمران، وغزوة الخندق وبنى قريظة فى سورة الأحزاب، وصلح الحديبية وفتح خيبر وفتح مكة فى سورة الفتح، وغزوة تبوك فى سورة التوبة، وكثيرًا ما يضيف تفصيلات دقيقة كحديثه عن أموال العير التى نجا بها أبو

سفيان؛ حين أرصدها المشركون لحرب النبى ﷺ وأصحابه فى يوم أحد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال].

وكذلك التذكير بإمداد الله ونصره فى يوم بدر؛ فى معرض الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران].

وعند عرض وقائع وأحداث السيرة النبوية الشريفة: راعيت قدر الوسع والطاقة؛ الترابط الفكري بين أجزاء كل موضوع، فضلاً عن التناسق بين موضوعات البحث الواحد؛ حتى تظهر فائدة الوحدة الموضوعية والتاريخية في فهم أحداث السيرة النبوية دون إغفالٍ لتحليل أجزائها المكوِّنةِ لها والمتعلقة بها.. وذلك كله فى جزئين اثنين طبق المنهج الجديد للكليات النظرية بجامعة الأزهر.

وهنالك بحوث أسهبنا فى سردها نوعًا ما: سيطالعها كل متأمل فى هذا الكتاب، ليتأكد لدى كلِّ منصفٍ: أن حياتَهُ ﷺ كلَّها كانت خالصةً للهِ؛ يُبَلِّغُ شرْعَه ويُعَلِّمُهُ للناس، ويجاهد ﷺ فى تربيته للأصحاب، وإعداد الخلفاء من بعده لتحمل تلك الأمانة والقيام بهذا الواجب، ومَن تأمل الفهرس العام لكل جزء من هذين الجزئين عرف ذلك بلا ريب.

فعلى سبيل المثال: استفدنا مِن سيرته ﷺ فى هذه البحوث التى تضمنها هذا الكتاب: أنَّ سيرتهُ ﷺ بدأت قبل خلق آدمَ بالميثاق الذى أخذه الله على النبيين وهم فى عالم الغيب، وظهر ذلك على ألسنتهم بالتبشير به ﷺ بما ورد فيما أنزل عليهم من صحفٍ وكتبٍ، ثم تتابعت سيرته ﷺ بإعداد اللهِ له وصيانتِهِ عن كل ما يستقبح واصطفائه ﷺ ليكون خاتمًا للنبيين ورحمةً للعالمين.

ثم عرفنا: كيف أنه ﷺ قد أوذي في إقامة الدين بما لم يؤذ به أحد؛ حتى خرج من مكة عدة مرات توقيًا من إيذاء المشركين! وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم يعذبون ويؤذَوْنَ؛ حتى هاجروا أكثر من مرةٍ إلى الحبشة، وصبروا على الحصار والاضطهاد فى مكة، إلى أن أكرمهم الله عز وجل باختياره المدينة المنورة دارًا لهم يهاجرون إليها ويستقرون بها... وهكذا: كانت حياتُهُ ﷺ خالصةً للهِ؛ يُبَلِّغُ شرْعَه ويُعَلِّمُهُ للناس، ويجاهد ﷺ فى بنائه للأمة وإرسائه للدولة، وإعداده ﷺ خلفاءَه من بعده لتحمل تلك الأمانة والقيام بهذا الواجب.

ويضاف إلى ذلك: البحوث المتخصصة فى تحقيق المسائل المتشابكة؛ مع القول الفصل فى كل منها.

وأخاطب كلَّ مُحِبٍّ لرسول الله ﷺ قائلاً: إن كنت من أحبابه: فانصرْه بِاتِّباعه، ولا تخف عليه من اعتداء المجرمين لقول الله له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر].

فنبيُّك رفيع المقام عند ذى الجلال والإكرام، ولو وُكِل الأمر لنا كأفراد فى الدفاع عن نبينا: لضحَّينا بأرواحنا، وانتقمنا ممن تطاول على نبينا بكل صارم مسلول على شاتم الرسول؛ لكننا ننصُرُه ﷺ فى أنفسنا ومجتمعاتنا بإحياء سنته، والاقتداء بسيرته وإحسان التأسى به فى كل مجالات الحياة، فمن الناس مَن آمن بالرسول النبى الأمى واتبع نهجه: فوجبت له السعادة فى الحياتين، وتحقق له الفلاح فى الدارين: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف]... فهؤلاء حقًا هم الفائزون الذين يتبعون رضوان الله

وصراطَه وسبيلَه وهديَه وأنبياءه وما صدر عنهم من حق فى العسر واليسر والمنشط والمكره(ب).

ومن الناس أصناف كثيرة تنكبت الصراط السوى(ج)، وأعرضت عن ذلك كله، وباءت بسخط الله، واتبعت الباطل والشيطان والشهوات وكل جبار عنيد(د).

ولا ينسَ المؤمن أن الله عز وجل توعَّد مُبغِض نبيهِ ﷺ وبَشَّر. لامزه وشانئه: بالخزى والذل والرغام وسوء الختام والعذاب الأليم المهين من الله شديد الانتقام والطرد من رحمته فى الدنيا والآخرة وتصليته سقر والجحيم(هـ).

وبهذا يكون رسول الله ﷺ حيًّا بيننا بسنته وشريعته، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات](و).

وهذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية: لَبِنة نضعها بين أيدي العلماء، إسهامًا في رفع البناء،

(ب) اقرأ على سبيل المثال الآيات: آل عمران: ٢٠، و٣١، و٥٣، و٦٨، و٩٥، و١٧٤، والمائدة: ١٦، والأنعام: ١٥٣، ويوسف: ٣٨، وطه: ١٢٣، و١٣٥، ويس: ١١، وغافر: ٧.

(ج) من أمثلة ذلك ما ورد فى آل عمران: ١٦٢، وطه: ١٢٤، ومحمد: ٣، و٢٨.

(د) راجع على سبيل المثال الآيات: البقرة: ١٠١، والنساء: ٢٧، والأعراف: ١٧٥، و١٧٦، وهود: ٥٩، و٩٧، و١١٦، ومريم: ٥٩، والحج: ٣.

(هـ) اقرأ فى ذلك الآيات: النساء: ١١٥، والتوبة: ٦١، والحجر: ٩٥، و٩٦، والنور: ٦٣، والأحزاب: ٥٧، والآيات الأولى من سورتى: القلم والمدثر.

(و) ولهذا نظائر فى القرآن كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ آل عمران: ١٠١، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤﴾ النساء.

ونفعًا لكافَّةِ الإخوانِ والأبناءِ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد].

كل ذلك مع الالتزام بالتوقير الذي طلبه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ منا لنبيه ﷺ في قوله جل في علاه: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩].

حيث خاطب الله جَلَّجَلَالُهُ نبيه ﷺ وناداه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة٤١، ٦٧].

كما ناداه عز وجل في ثلاث عشرة آية بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [٦٤، ٦٥، ٧٠: الأنفال]، و[٧٣: التوبة]، و[١، ٣٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩: الأحزاب]، و[١٢: الممتحنة]، و[١: الطلاق]، و[١، ٩: التحريم].

والالتزام كذلك بالإكثار من الصلاة والتسليم عليه ﷺ استجابةً لأمر الله لنا في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

وجزى اللهُ كُلَ خيرٍ مَن قال:

إنْ شِئْتُمُ أَنْ تَسْلَمُوا ۞۞۞ يَومَ الحِسَابِ وتُرحَمُوا
وَتُعَظَّمُوا وتُكَرَّمُوا ۞۞۞ فَلِهَدْيِ أَحمَدَ فَالْزَمُوا
وكُلَّمَا سَمِعْتُمُ ذِكْرَهُ ۞۞۞ صَلُّوا عَلَيهِ وسَلِّمُوا

ونختم بالرجاء من كل مطالعٍ لهذا العمل: أن ينظر فيه بعين الرضا؛ حتى تقر عينه بما يقوم به من إصلاح وخير، وينشرح صدره بما يبذله من معروف وبر، وله مِنَّا ومن كل طلاب العلم: عظيم التقدير وجميل الشكر، وخالص الدعاء بكمال المثوبة وكريم الأجر، لأن الكمال إنما هو لله

وحده، وأن الخطأ من طبع البشر؛ إلَّا من أكرمهم الله بالرعاية والعصمة، والصيانة والحكمة: وهم الأنبياء والمرسلون؛ صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين، واللهَ نسألُ: أن يرزقنا جميعًا الإخلاص والقبول، وأن يَمُنَّ علينا بالكرم والتوفيق، وأن يعفو عن الزلل والتقصير، ويوفق له من يُصلِحُهُ، وأن ينفعَ بهذا العمل: كلَّ من ساهم فيه بجهدٍ، وأصلح زلله، وسدد خلله، حتى يكون في الأولى من منارات الدين الواضحة، وفي الآخرة من مثاقيل الفضل الراجحة، لكلِ من طالعه ونظر فيه، أو قرأه وانتفع بما فيه، وهو سبحانه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد لله أولاً وآخرًا، وله الشكر ظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه، والتابعين لهم بإيمانٍ وإحسانٍ إلى يوم الدين: آمين.

أ.د/ سعيد صوابى
أستاذ الحديث وعلومه بكلية أصول الدين – القاهرة.

تم اختيارهذه القطوف من أصل الجزأين لهذا الكتاب
في يوم الجمعة غرة شهرالله المحرم ١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٧/٩/٢٢م.

خَصائِصُ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وثَمرَةُ دِراسَتِهَا

إن علم السيرة النبوية من أَجلِّ وأشرف العلوم الدينية، لأن موضوعه ذاتُ النبي ﷺ وصفاته، وسيرته وحياته، فهو ﷺ قد جعل الله فيه جميل الأسوة، وعظيم القدوة، وشرفه خَلقاً وخُلُقاً، وطهره عادةً وعبادةً، واصطفاه بشراً ورسولاً، وجعل في حياته المثل الأكمل، والنموذج الأمثل: لكل وجهٍ من وجوه البر، وكل مسلكٍ من سبل الخير، وصدق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

فسيرة رسول الله ﷺ: فسيحة الأرجاء، متسعة الجوانب والأنحاء: حيث انتشرت في طول الزمان، وشملت عموم المكان: فما بعث الله نبيًا إلَّا وبشر به قومه، وكلفهم بتصديقه ومؤازرته، والإيمان به ومناصرته: إذا أدركوا زمانه، وشهدوا بعثته وحياته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران][1].

ولا يوجد في الدنيا حدثٌ ولا حركة إلَّا ولرسول الله ﷺ فيه المثل الأعلى، فهو ﷺ اليتيم المُربَّى، والأُمِّيُّ المُعَلِّم، والتاجر الصدوق، والزوج المثالى... وصدق اللهُ فى وصفِهِ له وثنائه عليه إذ يقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

---

(١) وسيأتي سرد لأقوال العلماء من السلف والخلف في تفسير هاتين الآيتين ص٢٤: ٢٩.

ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو عن ذكرٍ له تصريحًا: كالسور التى اختصت بالحديث عنه ﷺ، مثل: سورة الضحى، والشرح، والكوثر، والنصر... وأما غيرها من سور القرآن الكريم؛ ففى كُلٍّ منها حديثٌ عنه ﷺ أو إشارة إليه تلميحًا، مثل سورة الإخلاص فإن أول لفظٍ فيها ينبئُ أنه ﷺ هو المكلف بالتبليغ، وقد بَلَّغ الناسَ كلَّ ما أوحاه إليه ربه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص].

وسورةُ المسد؛ فإن أبا لهبٍ وزوجَهُ ما حل بهما البوار والخسار إلَّا بإيذائهما لرسول الله ﷺ وعِنادَهُما لدعوته.

كما لا تخلو ترجمة أحد من أصحابه ﷺ من حديثٍ له أو سيرةٍ عنه، وقد اجتمع منهم حوله ﷺ فى حَجة الوداع نحو مائةٍ وثلاثين ألفًا؛ يقتدون به ويسمعون منه ويتلقَّوْن عنه، وقد جمع الحافظ ابن حجر أكثر من اثنى عشر ألف صحابى وصحابيةٍ فى كتابه (الإصابة).

ثم إنَّ سيرته ﷺ ممتدةٌ بعد لحوقه بالرفيق الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك فى شخص كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ يُحسن التأسى برسول الله ﷺ ويتبعُ سنته... فلا يَعمَلُ أحدٌ فى الخافقين خيرًا إلَّا ورسول الله ﷺ هو الدال عليه، ولا يُتوقَّى في الدارين شرٌ إلَّا ورسول الله ﷺ قد حَذَّرَ منه، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات].

وبهذا: كانت سيرتُه ﷺ أكبرَ دليلٍ على نُبوتِهِ؛ كما قال الإمام ابن حزمٍ فى بيانِ عظمةِ سيرةِ النبى ﷺ ما نصُّه: «وأما محمدٌ ﷺ فلا يختلف أحدٌ في مشرق الأرض ومغربها أنه ﷺ

أتى إلى قومٍ لَقَاحٍ(٢) لا يقرون بملكٍ ولا يطيعون لأحدٍ ولا ينقادون لرئيسٍ، نشأ على هذا آباؤهم وأجدادُهم وأسلافُهم منذ أُلوفٍ من الأعوامِ، قد سرَى الفخرُ والعِزُّ والنخوةُ والكبرُ والظلمُ والأنفةُ في طباعهم، وهُمْ أعدادٌ عظيمةٌ قد ملؤوا جزيرة العرب... قد صارت طباعُهُم طباعَ السباعِ، وهم ألوف الألوف؛ قبائلُ وعشائرُ، يتعصبُ بعضهم لبعضٍ أبدًا، فدعاهم ﷺ بلا مالٍ ولا أتباعٍ؛ فلم يطعه قومه: بل خذلوه وعادوه... ثم تبدلت طبائعُهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلى العدل ومن الجهل إلى العلم ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم... وأسقطوا كلُّهم أوَّلهُم عن آخرهم طلب الثأرِ، وصحب الرجُلُ منهم قاتلَ ابنِه وأبيه وأعدَى الناسِ له: صحبة الإخوةِ المتحابين؛ دون خوفٍ يجمعهم، ولا رياسةٍ ينفردون بها.. ولا مالٍ يطلبونه، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال].

وأيضًا: فإن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها؛ تقتضي تصديقَهُ ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقًا، فلو لم تكن له معجزةٌ غيرَ سيرته ﷺ لكفى؛ وذلك أنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نشأ كما قلنا في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب، ولا خرج عن تلك البلاد قط إلَّا خرجتين، إحداهما: إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ورجَعَ، والأخرى أيضًا: إلى أول الشام ولم يطل بها البقاء، ولا فَارَقَ قومَه قط، ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلِّها فلم تتغير نفسُهُ ولا تغيرت سيرته ﷺ إلى أن مات؛ ودرعه مرهونة في شعيرٍ لقوتِ أهله أصواعٍ ليست بالكثيرة، ولم يبت قط في مِلْكِهِ دينارٌ ولا درهمٌ، وكان يأكل على الأرض ما وجد، ويخصف نعله بيده، ويرقِّعُ ثوبه، ويؤثرُ على نفسِهِ... وهذا أمرٌ لا تسمح به نفسُ ملكٍ من ملوكِ الأرض؛ ولا أحدٍ من أهل الدنيا

---

(٢) قوم لَقَاح، أى: لم يخضعوا للملوك، ولم يُملكوا، ولم يُصِبهُم فى الجاهلية سبيٌ. المعجم الوسيط ص٨٣٤.

من أصحاب بيوت الأموال بوجهٍ من الوجوه»(٣).

فالله جَلَّجَلَالُهُ هو المتفضل على نبيه ﷺ بكل خيرٍ، والعاصمُ له ﷺ من كل شر، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

وكفى رسول الله ﷺ عزًا وتكريمًا... ما خصَّه به ربه في الدنيا والآخرة؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر].

ومن ثَمَّ: افْتَرَضَ الله على المؤمنين محبته ﷺ وأوجب عليهم طاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وأخرج الشيخان وغيرُهما من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٤)، وفي رواية لمسلم:

---

(٣) الفِصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/٣٤١: ٣٤٣ باختصار وتصرف يسير، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/٥٨، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ١/٦٧، وسنن ابن ماجة: المقدمة/ باب: في الإيمان ١/٢٦ وسنده صحيح،

«لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وأخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»(٥).

وعند البخاري وغيره عن عبداللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»(٦).

قال القاضي عياض وغيره: «المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقةٍ ورحمةٍ كمحبة الولد، ومحبة استحسانٍ وموافقة كمحبة سائر الناس، فجمع الله لنبيه ﷺ أصناف المحبة، وحقق فيه كل أسبابها، وكل من استكمل الإيمان: علم أن حق النبى ﷺ آكدُ عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأنه الهادي من الضلال والمنقذ من النار، ومن محبته ﷺ: نصرةُ سنته، والذبُّ عن شريعته، وتمني حضور حياته: حتى يبذل نفسه وماله فداءً له ﷺ»(٧).

ومسند الإمام أحمد ٣/١٧٧، ٢٧٥: بلفظه، وفي ٣/٢٠٧، ٢٧٨: مطولاً، وأسانيده صحيحة، وصحيح ابن حبان – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – كتاب الإيمان/ باب: ذكر إطلاق اسم الإيمان ... ١/٢٠٢، والطبراني في الأوسط بسند حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الإيمان/ باب: فيمن حبهم إيمان ١/٨٨، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: قيس بن الربيع، وثقه: شعبةُ وغيره، وضعفه: يحيى بن معين وغيره.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/٥٨.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور/ باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ ١١/٥٢٣، ومسند الإمام أحمد: ٤/٢٣٣، ٢٣٦ بسند صحيح.

(٧) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم ١/٢١٩، وفتح الباري ١/٥٨: ٦٠ بتصرفٍ يسير، وقارن ذلك بما سيأتي: في العهد

ولذا كانت دراسة السيرة النبوية: ليحقق المسلم في نفسه الأسوة في النبي ﷺ والاقتداء به ﷺ قولاً وعملاً ومنهجًا وسلوكًا وآدابًا وأخلاقًا... وليؤصِّلَ كلُّ مؤمنٍ في قلبه الحُبَّ للنبي ﷺ بمعرفته لأفضاله وخصائصه وصفاته الخِلْقِية منها والخُلُقية، وإن كانت الصفات الجسمية لا يستطيع أحد أن يتأسى فيها بأحد، لأن الخَلْق بيد المصور سبحانه، لكن حُسن الصورة وكمال الهيئة: أحد أسباب المحبة التي تُتَمِّمُ عناصرَها وتَجمعُ أسبابها؛ إذ الحب يكون: لجلب نفعٍ، أو لدفع ضررٍ، أو لصفة في الشيء ذاته، وقد تحققت هذه الثلاثة واجتمعت في شخص رسول الله ﷺ وصفاته.

ومن هنا: كانت دراسة الخصائص والميزات، والخوارق والمعجزات والأوصاف الخِلْقية للنبي محمد خير البرية: مصاحبةً لدراسة الأحداث والعبادات، والأحوال والمعاملات، والصفات الخُلُقية التي بلغ فيها رسول الله ﷺ أسمى الدرجات، حتى أثنى عليه ربُّهُ واصفًا ومادحًا بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم][8].

ومما يزيد هذا العلم رفعةً وسموًا، وتقديرًا وعلوًا: أن دراسته التحليلية، وقضاياه الأساسية: مستمدةٌ من صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحسنة منها والصحيحة؛ التي تجمعُ عناصر البحث وجزئياته وتستوفي قضاياه وموضوعاته، وسرد وقائعها مستفادٌ كذلك مِن المقبول من الأخبار، والثابت المروي من الآثار؛ بعيدًا عن كل زيفٍ ودخيلٍ، أو شُبَهٍ وأباطيلَ، ونقيًا من كل ما جمعه حاطبو الليل من المؤرخين، أو دسه أعداء الإسلام من المستشرقين، وغيرهم من الحانقين الشانئين لهذا النبي وهذا الدين، وإن دعت حاجة لنقل شبهة فإنى أُعقِّبُ

المكي من نصيحة المقداد بن عمرو المشهور بالمقداد ابن الأسود ص١١٠، وفي العهد المدني حديث حذيفة ص٢٦٠.

(٨) فى السطور التالية عرض وتمحيص لقضايا وأحداث هذه السيرة العطرة.

عليها بما يدحضها ويُزيلها.

وقد خرَّجت نصوص الأحاديث والآثار من أمهات كتب السنة ومصادرها الأصيلة: تخريجًا علميًا مستوعبًا؛ مع الحكم على كل منها، وفى أكثر الأحيان أستغنى عن بقية كتب السنة بالصحيحين أو أحدهما إذا كان الحديث مخرجا فيه: وذلك لتمام النفع، وعموم الفائدة، وتوثيق المعنى المستنبط منها.

وبعدَ جمعِ النصوص المتعلقة بالموضوع الواحد، وإزالة ما يبدو من تعارضٍ بينها، وذكر ما يستفاد من فقهها وأحكامها وفوائدها التي ذكرها العلماء بعباراتٍ سهلةٍ تيسر الإفادة النافعة من هذه الأحاديث... أُدَوِّنُ ذلك كلَّه فى أصل الكتاب بأسلوبٍ ميسر. وتراكيبَ متناسقة؛ لتكون المعانى صافيةً والفكرةُ رائقةً.

وبالرغم من وفرة هذه الخصائص، وكثرة تلك الميزات للسيرة النبوية: فإن العجز ملازمٌ لكل مَن كتب فيها، والقصور واضحٌ في كل مَن حاول جمعها: وذلك بسبب وفرة الكمالات في كل حال من أحواله ﷺ، وكثرة الفضائل في كل شأن من شؤونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكل ما دُوِّن من سيرته، وصُنِّف في شمائله: إنما هو محاولة للتعرف على حقيقة قدره العظيم وخُلُقه الكريم، وكماله البشري ووصفه الزكي، وغير ذلك من أحواله وشمائله ﷺ.

ونستغفر الله أن يكون هذا انتقاصًا منا لأحد، أو هضمًا لصاحب جهد، فنحن أعجزُ الخلقِ وأفقرُهم إلى عفو الله القدير، وستره الجميل: وإنما هي الحقيقة التي لا مِراء فيها، ولا اختلاف عليها.

إن هذه الجهود المتضافرة: لَبِناتٌ في صرح السيرة الشامخ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجزي الجميع بفضله ومَنِّه: خيرَ وأكرمَ وأوفَى الجزاء: بإخلاصهم ونُصحهم لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

دُعَاءُ إبراهيمَ ببعثةِ خاتمِ النَّبيِّين ﷺ

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ بُصْرَى وَبُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ» الحديث: صححه الحاكم وأقره الذهبى على ذلك، وقال الحافظ ابن كثير: هذا إسنادٌ جيد(٢٤).

وللحديث شاهد آخر أخرجه الإمام أحمد بسند حسن، والحاكم وابن حبان (واللفظ له) وصححاه، من حديث العِرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ(٢٥) فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّيَ الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»(٢٦).

---

(٢٤) (بُصرَى) مدينة تاريخية تتبع الآن محافظة درعا بسوريا وتبعد عنها بنحو ٤٠كم، كانت قبل الإسلام عاصمة دينية ومركزا تجاريًا هامًا وممرًا على طريق الحرير الذي يمتد إلى الصين، وبها دير الراهب بحيرا الذى توسم النبوة فى شخص رسول الله ﷺ لمَّا رآه مع عمه فى الرحلة التجارية إلى أرض الشام، وسيأتى ذكر قصته تحت عنوان: «تحقيقُ خبرِ بَحِيرَا والتعقيبُ عَليهِ».

والحديث فى: السيرة النبوية لابن هشام ١٦٦/١، والمستدرك: كتاب التاريخ، ذكر أخبار سيد المرسلين ٦٠٠/٢، وذكره ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٨.

(٢٥) أى: ملقى على الجِدالة – بكسر الجيم – وهى الأرض. النهاية ٤٨/١.

(٢٦) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٤ ح١٧١٥٠، ١٧١٥١، ١٢٨/٤ ح١٧١٦٣، ومستدرك الحاكم: كتاب التاريخ ٦٠٠/٢، ٦٠١، وصحيح ابن حبان – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – كتاب التاريخ/ باب: صفة النبى ﷺ وأخباره ١٦٠/٨.

وفى روايةٍ أخرى تتقوى بها قبلها، يقول ﷺ: «وَسَأُحَدِّثُكُمْ تَأْوِيلَ ذَلِكَ، دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، دُعَاءُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، وَبِشَارَةُ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ، قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف]، وَرُؤْيَا أُمِّي: رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّهَا وَضَعَتْ نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»(٢٧).

وفى رواية الحاكم: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَبِي مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ» وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ، وَأَنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ لَهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب](٢٨).

---

(٢٧) قال الهيثمى: رواه أحمد بأسانيد، والبزّار، والطبرانى بنحوه، وأحد أسانيد أحمد: رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان. مجمع الزوائد: كتاب علامات النبوة/ باب: قدوم نبوته ﷺ ٨/٢٢٣، وقال ابن حجر: روى عن العرباض بن سارية؛ وربما أدخل بينهما عبدالأعلى بن هلال، وروى عن: عبيدة الأملوكي، ورحل إلى معاوية، وله قصة مع عمر بن عبدالعزيز، وروى عنه: معاوية بن صالح وأبو بكر بن أبى مريم، وذكره ابن حبان فى الثقات، وقال البخارى: لم يصح حديثه، يعنى: الحديث الذى رواه معاوية عنه مرفوعًا: «إنى عبدالله، وخاتم النبيين فى أم الكتاب» وخالفه ابن حِبان والحاكم فصححاه. تعجيل المنفعة ص١٥٢ ط دار الكتاب العربى، بيروت، وقال البزار: شاميٌّ، لا بأس به. كشف الأستار ٣/١١٣، وسكت عنه البخاري. التاريخ الكبير ٣/٤٧٦ ترجمة رقم١٥٩٣، وأقول: سعيد هذا فى الثقات لابن حبان ٦/٣٦١، لكنه ذكره فى أتباع التابعين، وأما قول البخاري: لم يصح حديثه، فلم أعثر عليه، سوى ما ذكره ابن حجر آنفًا، وعلى فرض ثبوته، فلعله يعني: لم يصح هذا الحديث عنه من هذا الوجه، أو أنه أراد: أن الحديث لم يبلغ درجة الصحة، وأما عبدالأعلى بن هلال: أبو النضر. السلمي، فمن أهل الشام، يروى عن العرباض بن سارية، ويروى عنه خالد بن معدان، ذكره ابن حبان فى الثقات ٥/١٢٨، وأما الحديث فصحيح بمجموع طرقه وشواهده التى مر بعضها، وسيأتى بعضها الآخر مع تعقيبات الأئمة على كل حديث منها، والله أعلم.

(٢٨) مستدرك الحاكم: كتاب التفسير ٢/٤١٨، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وأخرج أحمد والطيالسى وغيرهما بسند ضعيف من حديث أبى أمامة الباهلى قال: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ ﷺ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ»(٢٩).

ويؤكد تلك الأحاديث: ما امتن الله به على المؤمنين ببعثة خاتم النبيين؛ حيث شرَّف به العرب خاصة، والخلق كافة، وذكَره بالأوصاف التى نص عليها أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى دعائه لمكةَ وأهلها، وهو يرفع قواعد البيت الحرام، وهذا واضح فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

قال الحافظ ابن كثير: «والمقصد أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لم تزل تنعته ﷺ وتحكيه فى كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بُعث، وكان أول ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده»(٣٠).

ونلحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلما خاطب العرب، وامتن عليهم ببعثة نبيه ﷺ فيهم ومنهم وصفه بالأوصاف نفسها التى حددها أبوهم إبراهيم، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة].

---

(٢٩) مسند أحمد ٥/٢٦٢، والمعجم الكبير للطبرانى ٨/٢٠٥، ٢٠٦ ح٧٧٢٩ من طرق إلى الفرج بن فضالة، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢٢٢ وعزاه إلى أحمد والطبراني، وقال عن إسناد أحمد: وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/٦٣، ٦٤، وفى سنده: الفرج بن فضالة وهو ضعيف. تقريب التهذيب ٢/١٠٨.

(٣٠) تفسير ابن كثير ١/٢٦٨.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ونبعُ زَمْزَمَ

كان والد الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولَ من هجر قومه فى الله، حيث خرج من بلاد العراق إلى أرض الشام، بعد أن أقام الحجة على قومه، وأبلغهم شرع ربه الذى أرسله به، ولكنهم كما ذكر الله عنهم فى غير آية من كلامه العزيز: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء].

ونلحظ: ماذا أراد به قومه؟! وكيف أراد الله به وبهم!! حيث أعزه وأذلهم، ونصره وخذلهم، وفرَّج عنه وكبتهم... ومع ذلك لم يؤمن به ولم يصدقه أحد، بعد أن رَأَوُا الآيةَ البينةَ، سوى النبى الكريم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم إن الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن أعزه الله وأنجاه؛ لم ييأس من تجديد الدعوة لقومه أن يعبدوا الله ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يتركوا وينبذوا كل ما سواه، ومن ثَمَّ: أكرمه الله فى عَقِبِهِ من بعده، حيث وهبه ذريةً صالحةً، تعبد الله وتوحده؛ بل جعل فيها النبوة والكتاب على توالى العصور والأزمان، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

وقد لخص ذلك الحافظ ابن كثير فى تفسيره للآيات ٩٩: ١٠١ من سورة الصافات، حيث قال: «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة: هاجر من بين أظهرهم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات].

يعنى: أولادًا مطيعين، عوضًا عن قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]»(٣١).

ولقد هاجر هجراتٍ طويلةً، لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نعلم أنه خرج من نواحى الكوفة بأرض العراق، إلى أرض الشام، ومعه زوجه سارة، ونبى الله لوط عليهما السلام، ثم هاجر إلى مصر، وعاد إلى الشام، وارتحل رحلاتٍ طويلةً عديدةً إلى مكة، حيث البلد الحرام، بالرغم من كبر سنه، وذلك واضح فى ثنائه على ربه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

ثم بارك الله له فى عمره حتى أقر عينه برؤية ولد ولده: يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو نبى يوحَى

---

(٣١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٢، ٢٣.

إليه، قال سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم].

قال الحافظ ابن كثير: «لما هجر قومه فى الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأتُه عاقرًا، لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، وهبه الله تعالى بعدَ ذلك الأولاد الصالحين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب، فكل نبيٍ بُعث بعده، فهو من ذريته، وكل كتابٍ نزل من السماء على نبيٍ من الأنبياء من بعدِه، فعلى أحد نسله وعَقِبِهِ؛ خِلعةً من الله وكرامةً له، حيث ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلدٍ يتمكن فيها من عبادة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودعوة الخلق إليه»(٣٢).

وكان من الهجرات العديدة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيت الله الحرام؛ رحلته بولده إسماعيل وهو رضيع مع أمه، حيث أنزلهما بجوار البيت الحرام، ثم عودته إليهما أكثر من مرة؛ ليحقق الرؤيا التى رآها: أنه يذبح ولده إسماعيل، وليعيدا سويًا رفع قواعد البيت وتشييد بنائه، وكان من دعائهما تتميم النعمة ببعثةِ خاتمِ النبيينَ، كما فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة].

وسيأتى -بمشيئة الله تعالى- بيان نسب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آدم أبى البشر عند الحديث عن تسميته ﷺ وبيان نسبه الشريف.

وأما أم إسماعيل فهى: «هَاجَرُ» عليها السلام وأصلها من قرية (أَنْصِنَا) على الجانب الشرقى لنهر النيل قرب أسيوط بصعيد مصر، وقد اندثرت تلك القرية، وحل محلها قرية الشيخ عبادة من

(٣٢) البداية والنهاية ١/١٣٩، ١٧٥، وتفسير ابن كثير فيما يتعلق بالآيات المتقدمة وغيرها مما يتصل بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

سنة ١٢٣٠هـ وقيدت بزمام مركز ملوى التابع الآن لمحافظة المنيا، وكانت هاجر هِبَةَ ملكِ مصر لسارَّةَ زوجِ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أثناء هجرتِها إلى مصر، فوهبتها سارةُ لزوجها إبراهيم، فلما أنجبت هاجرُ منه إسماعيل؛ اشتدت الغيرة بسارة... والقصة معروفة مشهورة(٣٣).

ثم احتمل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر مع رضيعها إسماعيل بأمر الله تعالى فأسكنها بوادى مكة بين الجبال، حيث لا أنيس به ولا حسيس، ثم ذهب وتركها هنالك، وليس عندهما سوى جرابٍ فيه تمر وسِقاء به ماء، فلما نفد ذلك: أكرم الله هاجر ورضيعها إسماعيل ثم جميع الناس بعد ذلك بماء زمزم، الذى هو طعام طُعْمٍ وشفاءُ سُقْمٍ(٣٤).

أَسكَنَهُ أَبُوهُ إبراهِيمُ ❁❁❁ أُمَّ القُرَى ومَا بِها مُقِيمُ

واللهُ قَد أَكرَمَهُ بِزَمزَمْ ❁❁❁ وَقَبِلَت هَاجَرُ سُكنَى جُرْهُم

وَحينَ شَبَّ صَاهَرَالجِيرَانَا ❁❁❁ وَمِنْهُ بُورِكَت بَنُو عَدنَانَا

أخرج البخارى وغيره من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ(٣٥) فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ(٣٦) فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ،

---

(٣٣) ينظر: صحيح البخارى ح٣٣٥٨، وصحيح مسلم ح٢٣٧١، وفتح البارى ٦/ ٣٩٠: ٣٩٥، والقاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى القسم الثانى: البلاد الحالية ٥٩/٤: ٦٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣٤) انظر: تفصيل قصة هاجر وإسماعيل فى البداية والنهاية ١/ ١٥٠: ١٥٤، ٢/ ١٨٤، والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٥٦، وصحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: إسلام أبى ذر الغفارى وقصة زمزم ٥٤٩/٦، ٥٥٠.

(٣٥) (الشَنَّة) بفتح المعجمة والنون المشددة: وهى القربة العتيقة.

(٣٦) (الدَوْحَة) بفتح المهملتين بينهما واو ساكنة – وهى الشجرة الكبيرة.

وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى(٣٧) إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ(٣٨) حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾. وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ(٣٩) فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا»(٤٠) فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا

---

(٣٧) (قَفَّى) أي: رجع.

(٣٨) (الثَّنِيَّة) بفتح المثلثة المشددة، وكسر النون وفتح المثناه التحتانية مع تشديدها: المكان المرتفع من الأرض.

(٣٩) (يتلبط) آخره موحدة تحتانية فمهملة، ومعناه: يتمرغ ويضرب الأرض برجليه من شدة الظمأ.

(٤٠) هذا اللفظ مرفوع قطعًا، وفيه إشارة إلى مشروعية اتساع السعى بين الصفا والمروة؛ حيث كان فى أوله سعيًا لأم إسماعيل وحدها، ثم كان مع النبى ﷺ فى حجة الوداع أكثر من مائة ألف يقتدون به ويسعون معه، ثم أصبح اليوم بضعة ملايين من البشر... ولا يزالون بحمد الله يزيدون ولا ينقصون إلى قرب قيام الساعة، وجو المسعى يأخذ حكمه؛ كما يقال ذلك فى جو الحرم والمسجد والكعبة، والله أعلم.

فَقَالَتْ: صَهٍ(٤١) تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ! أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ(٤٢) وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ! لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ» أَوْ قَالَ: «لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا»(٤٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ: يَبْنِي(٤٤) هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ(٤٥) حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ(٤٦) فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ! لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ؟ أو قالوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ

---

(٤١) (صَهْ) فتح المهملة وسكون الهاء وبكسرها منونة: اسم فعل أمر، ومعناه اسكتى، فكأنها خاطبت نفسها بذلك لتحسن الاستماع.

(٤٢) (تُحَوِّضُه) بفتح المهملة، وكسر الواو المشددة، وضم المعجمة، أى: تجعله مثل الحوض، مخافة أن يسيل الماء على الأرض.

(٤٣) وهذا لفظ مرفوع آخر قطعًا، ومعنى: (مَعِينًا) أى: ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض، قال ابن الجوزى: كان ظهور زمزم نعمة من الله، خالصة بغير عمل عامل، فلما خالطها تحويط هاجر: داخلها كسب البشر، فقصرت على ذلك.

(٤٤) فى بعض النسخ: (يبنيه) مصرح فيها بالمفعول به.

(٤٥) أى: استمرت هاجر على تلك الحال تغتذى بماء زمزم، فيكفيها عن الطعام والشراب.

(٤٦) (كَدَاء) بفتح الكاف والدال المهملة ممدودًا: موضع بأعلى مكة، شمال غرب الحرم، أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٢ خريطة رقم ٣٨، د/حسين مؤنس ط دار الزهراء للإعلام العربى القاهرة.

النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ»(٤٧) فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ(٤٨).

والحديث ذكره الحافظ ابن كثير فى تاريخه نقلاً عن البخارى، ثم قال: «هذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفى بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات!!».

وعقب عليه الشيخ أحمد شاكر، بقوله: «وهذا عجب منه، فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات، ثم سياق الحديث يفهم منه ضمنًا أنه مرفوع كله، ثم لو سلمنا أن أكثره موقوف، ما كان هناك دليل أو شبه دليل على أنه من الإسرائيليات؛ بل يكون الأقرب أنه مما عرفته قريشٌ وتداولته على مر السنين، من تاريخ جديهم إبراهيم وإسماعيل، والظاهر عندى أنه مرفوع كله فى المعنى، وَاللهُ أَعْلَمُ»، ونحو ذلك حكم الحافظ ابن حجر على الحديث، يعنى: إن كان بعضه مرفوعا لفظًا؛ فإن جميعه مرفوعٌ معنىً، وَاللهُ أَعْلَمُ(٤٩).

---

(٤٧) وهذا لفظ آخر مرفوع قطعًا، ومعنى: (تُحِبُّ الإِنْسَ) أى: تحب جنسها من الناس وتأنس بهم، وتكره الانفراد وتستوحش منه، وبهذا تُفسر الرواية التى بضم الهمزة (الأُنس) وهو: ضد الوحشة.

(٤٨) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الأنبياء باب ٩، ج ٦/٣٩٥: ٣٩٩ وتكرر فيه أربع مرات عن ابن عباس، الأول ح٣٣٦٢ مختصرًا، والثانى ح٣٣٦٣ معلقًا ومختصرًا، والثالث ح٣٣٥٦ مطولاً، والرابع ح٣٣٦٤ مطولاً، ومنهما لفظ الرواية المذكورة هنا، والنسائى فى السنن الكبرى ح٨٣٧٩، و٨٣٨٠، وفى كتابه الآخر: فضائل الصحابة/ باب: هاجر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ص٨٢: ٨٤ ح٢٧٣، ٢٧٤ ط دار إحياء السنة النبوية، والإمام أحمد فى مسنده ١/٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٠، وعبدالرزاق فى مصنفه ح٩١٠٧، والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٩٨، وشرح الكلمات الغريبة فيه وضبطها مستفاد من: فتح البارى ٦/٤٠٠: ٤٠٣ بتصرف، والله أعلم.

(٤٩) ينظر: البداية والنهاية ١/١٥٤: ١٥٦، والمسند ٥/٨٦، ٨٧ ح ٣٢٥٠ تحيق الشيخ أحمد شاكر، وفتح البارى

خَبَرُ تُبَّعٍ وإسْلامِه

تُبَّعٌ: لقبٌ لِمَن مَلَكَ اليمن، مثل كسرى عند الفرس، وقيصر عند الروم، والنجاشى فى الحبشة، وفرعون لكل مَن مَلَكَ مصرَ كافرًا، قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر].

وتُبَّعٌ المذكور فى القرآن الكريم هو أحد ملوك اليمن الذى كانت حياته قبيل مولد عيسى ابن مريم عليهما السلام وكان يدين بالزبور الذى أنزله الله على داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقد ورد ذكر تُبَّع فى القرآن الكريم مرتين، الأولى فى قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان].

والثانية فى قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة ق].

ونلحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يذمَهُ؛ وإنما ذم قومَه كقوم نوح وغيرِهم مِن الذين كذبوا رسلهم، كما ورد فى السنة المشرفة أحاديث وآثار يشُدُّ بعضُها بعضًا تفيد إسلام تُبَّعٍ، وتَنهى عن سَبِّه، وكذلك ذكر الأئمةُ الثقات قصتهُ فى السِيَرِ والتاريخِ، والله المستعان:

٤٠٢/٦ ولذلك: توسعت فى تخريج الحديث فى الهامش الذى قبله ليؤكد ما رجحه المحققون فى تعقيبهم على الحافظ ابن كثير؛ لاسيما أن فيه ألفاظًا لا تُذكَرُ من قبيل الرأى أو الاجتهاد كخطاب الملَك لأم إسماعيل: «لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ: يبنى هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ..» والله أعلم.

أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لا...» الحديث(٨٠).

قال صاحب بذل المجهود: «هذا قبل أن يوحى إليه ﷺ فى أمر تبع، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه أسلم، ثم أشار إلى حديث ابن عباس، وسهل بن سعد، وذكر أن ابن مردويه أخرج مثل حديثهما من حديث أبى هريرة فى النهى عن سب تُبَّع»(٨١)، وقال الحافظ ابن عساكر: «إن هذا الشك كان من النبى ﷺ قبل أن يتبين له أمره، ثم أُخبر أنه كان مسلمًا».

وبهذا يتفق هذا الحديث مع الأحاديث والآثار الأخرى التى ورد فيها النهى عن سب تبع؛ لأنه كان مسلمًا، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد والطبرانى وابن أبى حاتم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ»(٨٢).

وله شاهد من حديث ابن عباس عند الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ

---

(٨٠) سنن أبى داود: كتاب السنة/ باب: فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٤/٢١٨، والمستدرك للحاكم: كتاب الإيمان، تبع وذو القرنين كانا نبيين أم لا؟ ١/٣٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وعزاه ابن كثير إلى ابن أبى حاتم وابن عساكر من طريق: عبدالرزاق به، وسنده صحيح.

(٨١) بذل المجهود فى حل أبى داود ١٨/١٩٧، ١٩٨.

(٨٢) المسند ٥/٣٤٠، والمعجم الكبير للطبرانى ٦/٢٠٣ ح٦٠١٣، والمعجم الأوسط ٤/١٧٦ ح٣٣١٤، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب الأدب/ باب: النهى عن سب الأموات ٨/٧٦، وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه: عمرو بن جابر، وهو كذاب، كما ذكر الحديثَ أيضًا الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٧/٢٤٤ عن ابن أبى حاتم بسنده إلى سهل بن سعد، وفى إسناده عندهم: عمرو بن جابر الحضرمى: أبو زرعة المصري، قال فيه الحافظ ابن حجر: ضعيف شيعي. تقريب التهذيب ٢/٦٦، وقال ابن أبى حاتم: سألت أبى عنه، فقال: عنده نحو عشرين حديثًا، هو صالح الحديث. الجرح والتعديل ٦/٢٢٤، وقال أحمد: روى عن جابر مناكير، وبلغنى أنه كان يكذب. ميزان الاعتدال ٣/٢٥٠، وحديثه هنا فى تبع يتقوى بما بعده، ويشهد له.

قَدْ أَسْلَمَ»(٨٣).

وقد أورد ابن جرير وابن كثير فى التفسير(٨٤) آثارًا عن الصحابة والتابعين فيها النهى عن سب تبع، فعن قتادة قال: ذُكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نِعْمَ نعتُ الرجلِ الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعًا، فإنه قد كان رجلاً صالحًا، وقال سعيد بن جُبَيرٍ: كسا تُبَّعٌ الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبِهِ – كذا قال ابن كثير – وعند عبدالرزاق بسنده عن عطاء بن أبى رباح قال: لا تسبوا تبعًا، فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه.

وأخرج الثعالبى فى كتاب: «مغايص الجوهر فى أنساب حِمْيَر» أن تبعًا كان يدينُ بالزبور، وأخرج الحافظ ابن عساكر موقوفًا على ابن عباس بلفظ: «لا يشتبهن عليكم أمر تُبَّع، فإنه كان

---

(٨٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧٦/٨: رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه: أحمد بن أبى بزة المكي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

قلت: الحديث حسنٌ لغيره، وهو فى المعجم الأوسط للطبرانى ٢٤٧/٢ ح١٤٤١ وأما ابن أبى بزة المكي، فهو: أحمد بن محمد بن عبدالله البزى بن أبى بزة المكى: أبو الحسن المقرئ، مؤذن المسجد الحرام، قال الذهبي: إمام ثَبْتٌ فى القراءة، لكنه لين الحديث، وقال ابن أبى حاتم: قلت لأبي: ابن أبى بزة ضعيف الحديث؟ قال: نعم! ولست أحدث عنه، فإنه روى عن عبدالله بن موسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله، عن النبى ﷺ حديثًا منكرًا {الديك الأبيض حبيبي...} وقال ابن حجر: ضعفُ البَزى فى الحديث ناشئٌ عن عدم الإتقان فى الحديث، فلا يقدح فى عدالته والاحتجاج بنقل القراءة عنه. ميزان الاعتدال ١٤٤/١، ١٤٥، والجرح والتعديل ٧١/٢، ولسان الميزان ٢٨٣/١. عن شيخِهِ: مُؤَّمل بن إسماعيل أبى عبدالرحمن البصري، نزيل مكة، أخرج له البخارى تعليقًا، والترمذى والنسائى وابن ماجة، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ توفى سنة ٢٠٦ هـ. تقريب التهذيب ٢/ ٢٩٠، وبقية رجال إسناد الطبرانى ثقات.

(٨٤) تفسير الطبرى ٧٧/٢٥، وتفسير ابن كثير ٢٤٣/٧، ٢٤٤.

مسلمًا»، وأخرج عبدالرزاق عن وهب بن مُنَبِّه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ الناس عن سب أسعد، وهو تبع، فقال له أصحابه: يا أبا عبدالله وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم(٨٥).

وقد ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق من خبر تبع؛ واسمه: أسعد أبو كريب، ملك اليمن، المتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو سبعة قرون: ما يفيد إسلامه حين أُخبِرَ بمبعث النبى ﷺ وذلك أثناء قدومه بجيوشه على مكة ويثرب فى ذهابه للحيرة، وخلف ابنًا له بين أظهر أهل المدينة، فَقُتِل فيهم غِيلةً، فلما رجع تُبَّع حارب أهل المدينة، وعزم على استئصال أهلها، لقتلهم ابنه، وزاد من تصميمه على تنفيذ ما اعتزمه: ما وقع من أحد بنى عدى يقال له: الأحمر مع أحد رجال تبع حين وجده اعتدى على تمرِهِ، فضربه بمنجلةٍ فقتله.

قال ابن إسحاق(٨٦): «وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له: أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجده فى عَذْقٍ له يجزه، فضربه بمنجلةٍ فقتله، وقال: إنما التمر لمن أبَّرَهُ(٨٧)، فاقتتلوا، فتزْعُمُ الأنصار: أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويقْرُونَهُ بالليل، فيُعجِبُهُ ذلك منهم ويقول: والله إن قومَنا لكرام(٨٨).

فبينما تُبَّع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة، عالمان

---

(٨٥) أورد له الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق ترجمة حافلة، ينظر: تهذيب تاريخ دمشق ٣/٣٢٨: ٣٤١، وتاريخ بغداد للخطيب ٢/٢٠٥، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/١٠٣، ١٠٤، وعمدة القارى للعينى ٤/١٧٦، ١٧٧، وتفسير ابن كثير ٧/٢٤٢: ٢٤٤.

(٨٦) البداية والنهاية ٢/١٦٣: ١٦٧ (الخبر بطوله)، وفى السيرة النبوية لابن هشام ١/٢١: ٢٨.

(٨٧) بتشديد الموحدة: أصلحه بوضع اللقاح له. القاموس المحيط ١/٣٧٤.

(٨٨) أى: إنه لم يقصد غزوهم، وإنما قصد قتل اليهود الذين كانوا فيها، وذلك أن الأوس والخزرج كانوا باليمن، ثم نزلوا المدينة مع اليهود بشروط وعهود، فلم يفِ بذلك اليهود، فاستغاث أهل المدينة بتبع فقدمها. ينظر: هامش السيرة النبوية ١/١٧.

راسخان فى العلم، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك: لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد: حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: وَلِمَ ذلك؟ فقالا: هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علمًا، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، واتبعهما على دينهما».

قال ابن كثير: «وكأنه والله أعلم، كان كافرًا ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»(٨٩).

قال ابن إسحاق: وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة، وهى طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عُسْفان وأَمَج أتاه نفرٌ من هُذَيل بن مُدرِكة، فقالوا له: أيها الملك: ألا ندلك على بيت مالٍ داثرٍ أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى، قالوا: بيت مكة يعبده أهله ويصلون عنده، وإنما أرادَ الهُذَيْلِيُّون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده، فلما أجمع لِمَا قالوا؛ أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندِك، ما نعلم بيتًا لله جَلَّ جَلَالُهُ اتخذه فى الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعَوْك إليه لتهلِكَنَّ وليهلِكَنَّ من معك جميعًا، قال: فماذا تأمرانِنِى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله: تطوفُ به، وتعظمهُ وتكرمهُ، وتحلقُ رأسَكَ عندهُ، وتَذْلُلُ له حتى تخرج من عندهِ، قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنه لكمَا أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله، وبالدماء التى يريقون عنده، وهم نجس أهل شرك، أو كما قالا له، فعرفَ نصحهما وصدق حديثهما، وقرب النفر من هُذيلٍ فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتى قدم مكة، فطاف

---

(٨٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٢٤٣/٧.

بالبيت ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون: ينحر بها للناس، ويطعم أهلها، ويسقيهم العسل، وأُرى فى المنام أن يكسوَ البيت: فكساه...

وكان تبع فيما يزعمون أول من كسى البيت، وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره، وألا يُقَرِّبُوه دما، ولا ميتة ولا مئلاتًا – وهى المحايض – وجعل له بابًا ومفتاحًا، ففى ذلك قالت سبيعة بنت الأحب تُذكِّر ابنها (خالد) به، وتنهاه عن البَغْى بمكة، وتذكر له ما كان من أمر تُبَّع فيها:

أبُـنَـىَّ لا تَـظلِـم بِـمَـ ـكَّةَ لا الصَّغيرَولا الكَبِير
واحـفـظْ مَـحـارِمَـهَـا بُـ ـنَىَّ ولا يَغْـرُنْكَ الـغُـرُور
أبُنَىَّ مَـنْ يَـظـلِـمْ بِـمَـ ـكَّةَ يَلقَ أطرافَ الشُّرور
أبُنَىَّ يُـضـرَبُ وجـهُـهُ ويَـلِـجُ بِخَـدَّيـهِ السَّـعِـير
أبُنَىَّ قَـد جَـرَّبـتُـهَـا فَوجدتُّ أنَّ ظَالِمَها يَبُور
اللـهُ أمَّـنَـهَـا ومَـا بُنِيَتْ بِعَـرْصَتِها قُصُور
واللـهُ أمَّـنَ طَـيـرَهـا العَـصْـمَ تَأمَنُ فى ثَبِير
وَلَـقَـد غَـزَاهـاتُـبَّـعٌ فَـكَـسَـا بِنْيَتَـها الحَبِير
وَأذلَ رَبِّـى مُـلْـكَـهُ فِـيـها فَـأوفَى بـالـنُّـذور
يَـمـشِى إلـيـهـا حَـافِـيًا بِـفِـنائِـهـا أَلْـفَـا بَـعِـير
ويَـظَـلُّ يُـطـعِـمُ أهـلَـهـا لَحمَ المَهَارِى والـجَـزُور
يَسقيهِمُ العسلَ المصفَّى والـرَّحيضَ مِنَ الـشَّعير
والـفـيـلَ أَهـلَـكَ جيشَـهُ يُـرْمَـونَ فيها بالـصُّخـور
والمُلْكَ فِى أقصى البلا دِ وفِى الأعـاجـمِ والجزيـر

فـاسمعْ إذا حُدِّثْتَ وافـ ـهم كيفَ عاقبـةُ الأمـور

قال ابن كثير: وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبى آخر الزمان، اسمه: أحمد، قال فى ذلك شعرًا، واستودعه عند أهل المدينة، وكانوا يتوارثونه خلفًا عن سلف، وهذا الشعر هو:

شَهِـدتُّ عَلَى أَحْمَـدَ أَنَّـهُ رَسُـولُ اللَّـهِ بَـارِى النَّسَمْ

فَـلَوْ مُـدَّ عُـمْرِى إِلَى عُـمْـرِهِ لَكُنْتُ وَزِيـرًا لَـهُ وَابْنَ عَـمْ

وَجَـاهَـدْتُ بِالـسَّـيْفِ أَعْدَاءَهُ وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَـمْ

وذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن تبعًا أقام بالمدينة سنةً، رجاء أن يدرك محمدًا، فلما اعتزم الرحيل: كتب كتابًا جاء فيه: أَمَّا بَعْدُ، يا محمد! فَإِنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ، وَأَنَا عَلَى دِينِكَ وَسُنَّتِكَ، وَآمَنْتُ بِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شيء، وَآمَنْتُ بِكُلِّ مَا جَاءَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ شَرَائِعِ الإيمان والْإِسْلَامِ، وإنى قبلت ذلك، فَإِنْ أَدْرَكْتُكَ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِنْ لَمْ أُدْرِكْكَ فَاشْفَعْ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تَنْسَنِي، فَإِنِّي مِنْ أُمَّتِكَ الأَوَّابِين، وَبَايَعْتُكَ قَبْلَ مَجِيئِكَ، وقبل إرسال الله تعالى إياك، وَأَنَا عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وكتب عنوان الكتاب: إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صلوات الله عليه، مِنْ تُبَّعٍ الْأَوَّلِ... أمانة الله فى يد من وقع إليه أن يوصله إلى صاحبه، ثم دفع الكتاب إلى العالم الذى نصح له فى شأن الكعبة، وأمره بحفظه، حتى يدفعه إلى محمد ﷺ إن أدركه، وإن لم يدركه فأَمْرُهُ موكول إلى أولاده أبدًا ما تناسلوا إلى حين مجئ رسول الله ﷺ، وبنى للنبى ﷺ دارًا ينزل بها إذا قدم المدينة، فتداول الدار الملاَّك إلى أن صارت لأبى أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من ولد ذلك العالم الذى دفع إليه الكتاب، إلى أن بعث الله

رسول الله ﷺ، فلما هاجر وسمعوا بخروجه، استشاروا فى إيصال الكتاب، فأشار عليهم عبدالرحمن بن عوف– وكان قد هاجر قبل النبى ﷺ– أن يختاروا رجلاً ثقة، وأن يبعثوا بالكتاب معه إليه ﷺ، فاختاروا رجلاً يقال له: أبو ليلى، فلما رآه ﷺ قال: «أنت أبو ليلى ومعك كتاب تُبَّع» فبقى الرجل متفكرًا! ولم يعرفِ النبىَ ﷺ فقال: مَنْ أنتَ؟ فإننى لم أر فى وجهِك أثرَ السِّحْرِ، وتوهم أنه ساحر، فقال ﷺ: «أنا محمد، هاتِ الكتاب» ففتح الرجل رحله، وكان يخفى الكتاب، فدفعه إليه، فقرأه أبو بكر على النبى ﷺ، فقال: «مرحبًا بتبع الأخِ الصالح» ثلاث مرات، وأمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة، فرجع وبشر القوم، فأعطاه كل واحدٍ منهم عطاءً على تلك البشارة، وجاء رسول الله ﷺ، فسأله أهل القبائل أن ينزل عليهم وتعلقوا بناقته فقال: «دعوها، فإنها مأمورة» حتى جاءت دار أبى أيوب الذى كان من أولاد العالِمِ الناصح لتبع فى شأن الكعبة، وكانوا ينتظرونه، فهم من أولاد العلماء الذين سكنوا يثرب فى دُورِ تبع التى بناها لهم، واسم أبى أيوب الأنصارى: خالد بن زيد بن كُليب من بنى النَّجَّار، وبهذا رفع الله فى الخافِقَيْنِ ذكره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعلى بين الأنامِ قدره، حيث اختار داره لينزل بها رسوله ﷺ(٩٠).

---

(٩٠) راجع قصة تُبَّع ومروره بيثرب، فى: البداية والنهاية ٢/١٦٣: ١٦٧، ومختصر تاريخ دمشق ج٥ ص٢٩٥: ٢٩٨، وترجمة أبى أيوب الأنصارى، فى: الإصابة ٢/١٩٩: ٢٠١، وكتاب: «صور من حياة الصحابة» للدكتور: عبدالرحمن رأفت الباشا ص٦٦: ٧٥، وكتاب: «المسجد النبوى عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص١٧، وسيأتى بعدُ بمشيئة الله تعالى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب: تفصيل هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

مَوْلِدُهُ ﷺ

قد تظاهرت الأخبار على أن مولد رسول الله ﷺ كان فى صبيحة يوم الاثنين من شهر ربيعِ الأول من عام الفيل، فأخرج الإمام مسلم فى صحيحه من حديث أبى قتادة الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ، قَالَ ﷺ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ...» الحديث مطولاً(٩٣).

قال ابن كثير: وهذا ما لا خلاف فيه أنه ﷺ ولد يوم الاثنين، والجمهور على أن ذلك كان فى شهر ربيعِ الأول.

ونص ابنُ إسحاق أنه: كان يوم الاثنين لاثنتى عشرةَ ليلةَ خلت من شهر ربيعِ الأول، عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور.

وقد حقق محمود باشا الفلكى أن ذلك كان يوافق التاسع من ربيع الأول، العشرين من شهر إبريل ٥٧١م، وذكر فضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون: أن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ووراء ذلك خلاف عريض فى زمن ميلاده يومًا وشهرًا وعامًا لا طائل تحت استقصائه(٩٤).

واليقين فى ذلك هو: أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فى العام الثالث والخمسين قبل الهجرة؛ لحديث مسلم المتقدم وغيره، وبعد طول بحث واجتهاد تبين أنه اليوم التاسع من الشهر نفسه، الموافق ٢٠/٤/٥٧١م، والله أعلم.

---

(٩٣) صحيح مسلم: كتاب الصيام/ باب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفةَ وعاشوراء والاثنين والخميس ٨١٩/٢ ح١١٦٢.

(٩٤) ينظر كتاب: «نور اليقين» للشيخ محمد الخضرى ص١٦، وكتاب: «محمد رسول الله ﷺ» للشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون ١٠٢/١.

ولعل ذلك الإخفاء لزمن مولده: كان حفظًا وصيانةً وتكريمًا لرسول الله ﷺ؛ لأن مولده ﷺ قد وقع بعد حادثة الفيل بزمن يسير، ولم يزل الناس مشغولين بذاك الحدث الجلل العظيم، فلم يخطر ببال أحد من اليهود أو من غيرهم الذين عرفوا صفة رسول الله ﷺ ونعته؛ أن يبحثوا عنه ليقتلوه أو يؤذوه، قال ابن سعد: وكان قدوم أصحاب الفيل للنصف من المحرم، فبين الفيل وبين مولد رسول الله ﷺ خمسٌ وخمسونَ ليلةً، وكذا نقل ابن عساكر وابن كثير، وقال خليفة بن خياط: والمُجتمع عليه أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولد عام الفيل(٩٥).

وَعَامُ خَمْسُمِائَةٍ وسَبْعِينْ ۞ وَوَاحِدٍ أَشْرَقَ وَضَّاءُ الجَبِينْ
شَهْرُ رَبِيعِ الأَوَّلِ المُنَوَّرْ ۞ فِي يَومِ تَاسِعٍ أَو الثَّانِي عَشَرْ
مَوْلِدُهُ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجرِ ۞ شَمْسٌ عَلَى الأَرضِ وَشَمْسٌ تَجْرِي
وَعَلِمَ النَّاسُ مِن الآياتِ ۞ والمُعْجِزَاتِ أنَّ أمْرًا آتِ
وَجَاءَنا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ۞ مَا فَعَلَ اللهُ بِأَهلِ الفِيلِ
لَمَّا أَرَادُوا غَزوَ بَيتِهِ الحَرامْ ۞ وَالجَارُ عِندَ الأَكرَمِينَ لاَ يُضَامْ

ومن ثَمَّ: ذكَّرَ اللهُ جَلَّجَلَالُهُ رسوله ﷺ بتلك النعمة بعد إرساله له ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل].

وفى آيات تلك السورة وكلماتها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ... ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

(٩٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/٦٢، وتهذيب تاريخ دمشق ١/٢٨١، ٢٨٢، والبداية والنهاية ٢/٢٦٢، وكان ذلك يوم الخميس الخامس عشر من المحرم عام٥٣ قبل الهجرة الموافق ٢٦/٢/٥٧١م.

﴿أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أبلغ ردٍّ وأوضح حُجَّةٍ على مَن يسمون أنفسهم فى العصر الحديث: أصحاب المذهب الذاتى الذين لا يرَوْن حرجًا فى أن يقحم المؤرخ نزعته الذاتية أو اتِّجاهه الفكرى أو السياسى أو الدينى فى تفسير ما ينقله من أحداث، وتعليلها والحكم عليها، حسب ما تُسَوِّلُهُ له نفسه، ويمليه عليه هواه؛ بل يرَون أن هذا هو عمل الكاتب وواجبه، فأخذوا يستبعدون من السيرة النبوية الخوارق والمعجزات، وكل ما يخالف المألوف، ولو ورد به صريح القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، فيؤولون الطير الأبابيل وما فُعِلَ بأصحاب الفيل بأنه مرض الجدري، وتغافلوا عن كلمات السورة الصريحة: التى تتحدث عن أشياء تُحَسُّ وتُرى بالعين المجردة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ .. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾!!.

وقد يستندون فى ذلك إلى ما كتبه بعض شيوخ الأزهر، كالشيخ محمد عبده والشيخ المراغى رَحِمَهُمَااللَّهُ تفاديًا لتكذيب المنكرين لأمثال هذه الخوارق والمعجزات التى لا تقبلها عقولهم، ولو صرحت بها آيات القرآن الكريم، أو صحيح السنة المشرفة.

ولو صح زعم المستشرقين ذاك؛ لكان أول المعارضين لرسول الله ﷺ الذين شاهدوا ما وقع لأصحاب الفيل، ثم عاشوا إلى زمن بعثته وسمعوا منه آيات التنزيل(٩٦).

ومن ثَمَّ: ينبغى أن نتنبه إلى خطر أولئك الكتاب من المستشرقين الذين يستبدلون فى كتاباتهم تلك بموازين الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه: طريقةَ الاستنتاج الشخصي،

---

(٩٦) يُنظر فى ذلك: تفسير المراغى ٣٠/٢٤٣، ٢٤٤ ط مصطفى الحلبى، وصورته دار إحياء التراث العربى- بيروت: حيث وصف الطير بأنه الذباب والبعوض، ونقل عن الإمام محمد عبده أنه مرض الجدرى والحصبة. تفسير جزء عم ص١١٩، ١٢٠ ط الشعب، وفقه السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى ص٢٤: ٣١ ط دار الفكر.

والهوى النفسي، ومذهب الظن الذى لا يُغنى من الحق شيئا، ولا ضابط له إلا الشهوة العارضة، والرغبة الجامحة.

وربما غفل الكثيرون عن هذه المكيدة الخطيرة وانخدعوا بما يزخرفه أولئك النفر من الأساليب البراقة، والكلمات الرنانة تزيينًا لباطلهم، وطمسًا للحقيقة، أو تعميةً عليها، كأن يروج بعضهم لرسول الله ﷺ صفات العظمة، والعبقرية، والبطولة... وما شاكلها؛ شغلاً للقارئ بها عن صفات النبوة، وحقائق الوحى والرسالة(٩٧).

لَمَّـا رَأَى اللهُ فَـسَــادَ الأَرضِ ❁❁❁ بِـفِـعْـلِ أَهلِهَا الـذِي لا يُرضِي

مِـمَّـا ذَكـرْنَـاهُ مِـنَ الـمَعَـاصِي ❁❁❁ وَكُـفْـرٍ دَانٍ مِـنْـهُـمُـو وَقَـاصِي

أَرْسَلَ أَحمَدَ النَّبِيَّ الهَاشِمِيْ ❁❁❁ وَطَـهَّـرَ الأَرضَ مِـنَ الـمَـآثِـمْ

واخْـتَـارَهُ مِـن أَكْـرَمِ الآبَــاءِ ❁❁❁ وَأَفـضَـلِ الـرِّجَـالِ وَالـنِّـسَـاءِ

وَمَنْ يُدَانِي أَبَوَيْهِ فِي الشَّرَفْ ❁❁❁ وَالـدُّرُّ لا يَخرُجُ إِلا مِنْ صَدَفْ

ومن أقوى ما وقفت عليه من المبشرات فى ليلة مولده ﷺ: ما أخرجه الحاكم وصحح إسناده، وابن عساكر فى تاريخه واللفظ له، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سكن يهودي بمكة، يبيع بها تجارات، فلما كانت ليلة وُلِدَ رسول الله ﷺ قال فى مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مولُودٍ هذه الليلة؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أخطأتُ والله!! حيث كنت أكره، انظروا يا معشر قريش، وأحصوا ما أقول لكم: ولد الليلة نبى هذه الأمة: أحمد الآخر، فإن أخطأكم فبفلسطين،

(٩٧) وستأتى بحوث فى هذا الكتاب تشرح ذلك وتؤكده، انظر على سبيل المثال ص٧٦: ٨٩ وص١٥٥: ١٧٤، والله المستعان.

به شامة بين كتفيه سوداء صفراء، فيها شعرات متواترات، فتصدع القوم من مجالسهم وهم يتعجبون من حديثه، فلما صاروا فى منازلهم، ذكروا لأهاليهم، فقيل لبعضهم: ولد لعبدالله بن عبدالمطلب الليلة غلام وسمَّوْه: محمدًا، فالتقوا بعدُ من يومهم، فأتوا اليهودى فى منزله، فقالوا: أعلمْتَ؟ إنه ولد فينا مولودٌ! قال: أبعد خبرى أم قبله؟ قالوا: قبله، واسمه: أحمد، قال: فاذهبوا بنا إليه، فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم، فرأى الشامة فى ظهره، فغشى على اليهودي، ثم أفاق، فقالوا: ويلك!! مالك؟ فقال: ذهبَتِ النُّبوةُ من بنى إسرائيل، وخرج الكتابُ من أيديهم، وهذا مكتوبٌ بقتلهم وببَيْرِ أحْبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرِحتم يا معشر قريش؟ أما والله! ليسْطُونَّ بكم سطوةً يخرج نبأها من المشرق إلى المغرب».

وفى رواية الحاكم أن اليهودى قال: «هَلْ وُلِدَ فِيكُمُ اللَّيْلَةَ مَوْلُودٌ؟ فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُهُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أَمَّا إِذَا أَخْطَأَكُمْ فَلَا بَأْسَ...» وزاد فى آخره: «وَكَانَ فِي النَّفَرِ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ الْيَهُودِيُّ: مَا قَالَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَمُسَافِرُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ شَابٌّ فَوْقَ الْمُحْتَلَمِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي مَنَافٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وفى رواية ابن سعد: «فإن أخطأكم فبفلسطين» يعنى: إذا لم يولد منكم بمكة فإنه سيكون من اليهود، ويولد بفلسطين(٩٨).

---

(٩٨) يراجع: مختصر تاريخ دمشق٢/٤٧، ٤٨،ط الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار الفكر بدمشق، وينظر أيضًا: تهذيب تاريخ دمشق ١/٣٥١، ٣٥٢ ومستدرك الحاكم: كتاب التاريخ ٢/٦٠١، ٦٠٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: لا. أي: ليس بصحيح، قلت: فى سنده: يحيى بن على بن عبدالحميد بن يسار الكنانى المدني، قال عنه ابن أبى حاتم: كان على شرطة المدينة، ادعى أنه سمع محمد بن إسحاق، روى عنه ابنه أبو غسان: محمد بن يحيى، سمعت أبى يقول ذلك. الجرح والتعديل ٩/١٧٥، ولعل تعقيب الذهبى على تصحيح الحاكم لسند الحديث بقوله: لا، هو من أجل ذلك الراوي، وإلا فالحديث سنده جيد من ابن إسحاق، كما أخرجه ابن سعد من وجه آخر إلى: هشام بن عروة،

نَشأتُه ﷺ يَتيمًا وتَربِيَةُ اللهِ لَه

قد أراد جل وعلا أن ينشأ نبيُّه يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجده، حتى لا يكون للمبطلين سبيلٌ إلى إدخال الرِّيبة فى القلوب، أو إيهام الناس بأن محمدًا إنما نشأت فيه حب الرسالة واصطناع النبوة ليصل إلى جاه الدنيا، وأيضًا: حتى لا يزعم أحد أن اليُتْم نقمةٌ تَحُولُ بينها وبين صاحبها عن بلوغ أسمى المراتب؛ بل تكون الأسوة الحسنة لكل يتيم فى شخص رسول الله ﷺ الذى كانت تربية الله وعنايته به أفضل وأكمل وأحكم وأحسن من أى تربية أخرى، وصدق الله حيث أظهر مِنَّته على نبيه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى].

وما نشأة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وتربيته فى بيت فرعون بعيدًا عن أهله وأقاربه بخافية على أحد، كما هو جلى واضح فى أول سورة القصص.

وليس معنى هذا أن يهمل الأبوان أبناءهما أو أن يقصرا فى ذلك؛ بل لهما دورٌ ينبغى أن يقوما به، وعليهما واجب ينبغى أن يؤدياه(١١٩)، ثم بعد ذلك يكون من الله وحده التوفيق والهداية: إنه هو الذى هدى إسماعيل أن يجيب أباه حين عرض عليه ذبحه بقوله: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات].

وفى الصورة المقابلة نجد نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يدعو ابنه للنجاة من الغرق والموت: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ فأبى الولد، وأجاب: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ

عن أبيه، عن عائشة. الطبقات الكبرى ١/١/١٠٦، ١٠٧، والبداية والنهاية ٢/٢٦٧، وراجع ما سبق ص٤٤: ٤٩.

(١١٩) للاستزادة: يراجع كتابنا: «ثمار من السنة» تحت عنوان: «تربية الأبناء إكرام للأمهات والآباء» ص٥٥: ٦٩ ط الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود ٤٢: ٤٧].

والقصة معروفة، فَمَنِ الَّذى وفق ذاك وخذل هذا؟!! إنه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اقترفت، الخبير العليم بكل شئ.

شَقُّ الصَّدْرِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ

وهذا حدَث آخر حِسِّى ملموس يَظهر فيه تعهُّدُ الله جَلَّجَلَالُهُ لنبيه ﷺ وصيانتُه له منذ صغره، فيُحَدِّثُ خادمُ رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة؛ أنس بن مالك الأنصارى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ- أى: مرضعته- فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»(١٢٠).

ولقد تكرر حادث شق الصدر أكثر من مرة لرسول الله ﷺ غير تلك التى وقعت له فى بادية بنى سعد، ففى زوائد المسند: أن شق الصدر قد وقع له ﷺ وهو ابن عشر سنين وأشهر(١٢١).

---

(١٢٠) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: الإسراء برسول الله وفرض الصلوات ١/١٤٧، حديث ٢٦١، وانظر: مسند الإمام أحمد ٣/١٢١، ١٤٩، ٢٨٨.

(١٢١) الفتح الربانى ٢٠/١٩٥، وقال المرحوم عبدالرحمن الساعاتى: رجاله ثقات، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢٢٣ رواه عبدالله، ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، أقول: هو فى المسند ٥/١٣٩ من زوائد عبدالله ابن الإمام أحمد، فى حديث طويل سأل فيه أبو هريرة رسول الله ﷺ: عن أول ما رأى من أمر النبوة... الحديث، وفى سنده: محمد بن معاذ

وفى كُتب السنة بأسانيد صحيحة من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فى معراج رسول الله ﷺ أن شق صدره ﷺ قد وقع له ليلة الإسراء بعد أن تجاوز الخمسين من عمره(١٢٢).

فأى رعاية، وأى عناية أعظم من هذه؟!!

وبالرغم من تعدد تلك الحادثة فى حياته ﷺ والكلمات الصريحة من أنس بن مالك راوى الحديث الذى يقول: «وَقَدْ كُنْتُ أَرى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ» إلا أن كثيرين من أصحاب المدرسة العقلانية من المستشرقين وبعض المفتونين بهم من المسلمين ذهبوا إلى تأويل تلك الحادثة، زاعمين أنها أمر معنوى، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].

ومنهم من أنكر وقوع حادثة شق صدر النبى ﷺ بالكلية دون التفات إلى ثبوتها وصحة الأحاديث المصرحة بوقوعها أكثر من مرة فى نشأته ﷺ الأولى؛ بل وبعد بعثته.

كما أن من البدهيات المسلمة؛ والحقائق التى لاشك فيها: أن ميزان قبول الخبر هو استيفاؤه لشروط الصحة، فإذا ثبتت: فلا ينبغى رده ولا تأويله.

بن محمد بن أُبَيِّ بن كعب، قال ابن المدينى: لا نعرف محمدًا ولا أباه، وهو إسناد مجهول، وكذا لم يعتبر الحافظ ابن حجر توثيق ابن حبان له حيث قال عنه: مجهول. تهذيب التهذيب ٤٦٣/٩، وتقريب التهذيب ص٥٠٧.

(١٢٢) انظر: صحيح البخارى: كتاب مناقب الأنصار/ باب: المعراج ٢٠١/٧، ٢٠٢، وصحيح مسلم: فى الكتاب والباب المتقدمين قبل هذا، وانظر: ٢٢٣/١: ٢٢٦ بشرح النووى، وجامع الترمذى: كتاب التفسير/ باب: ومن سورة ألم نشرح ٤١٢/٥، ٤١٣، ح ٣٣٤٦. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وسنن النسائى: كتاب الصلاة/ باب: فرض الصلاة وذِكرِ اختلاف الناقلين فى إسناد حديث أنس ٢١٧/١، ح ٤٤٨ الطبعة الأولى المفهرسة، وللحديث شواهد أخرى، عن أبى ذر وهو متفق عليه أيضًا: وعن عقبة بن عبدالسلمى عند الحاكم فى المستدرك: كتاب التاريخ، ذكر شق صدره ﷺ ٦١٦/٢، ٦١٧، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى، وينظر: المسند ١٨٤/٤، ١٨٥، ومجمع الزوائد ٢٢١/٨، ٢٢٢.

وقد كفانا شيخنا المرحوم الأستاذ الدكتور: محمد محمد أبو شهبة فى الرد عليهم وألقمهم أحجارًا، فجزاه الله خير الجزاء[١٢٣].

ومن أوجز ما قيل فى حادثة شق الصدر قول الحافظ ابن حجر: «وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير فى بنى سعد، ولا إنكار فى ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم فى الدلائل، ولكل منهما حكمة، فالأول: وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: «فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ» وكان هذا فى زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة فى إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى فى أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة فى هذا الغسل لتقع المبالغة فى الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر فى شرعه ﷺ، وجميع ما ورد فى شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة: مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك»[١٢٤].

---

(١٢٣) انظر: السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ٢/٢٠٣: ٢١١ حيث ناقش المنكرين لشق الصدر والمشككين فيه.

(١٢٤) فتح البارى ٧/٢٠٤، ٢٠٥، وانظر: دلائل النبوة لأبى نُعيم ص ١٧١.

حِمَايَتُهُ ﷺ مِنَ الْبَاطِلِ وَنَهْيُه ﷺ لِمَنْ رَآهُ يَفْعَلُه

وهكذا حفظ الله نبيه ﷺ من كل مفاسد الجاهلية ومساوئها، فلم يشهد لهم عيدًا، ولم يحضر معهم مشهدًا، وما تمسح بصنم قط، ولا حلف به، ولا أكل مما ذبح على أنصابهم.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط الشيخين، عن عروة بن الزبير قال: حَدَّثَنِي جَارٌ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ! وَاللَّهِ لا أَعْبُدُ اللاَّتَ أَبَدًا، وَاللَّهِ لا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبَدًا»(١٤٦).

بل كان ﷺ ينكر عليهم صنيعهم، وينهى من كان يشاهده منهم يتمسح بالأصنام، فعن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: طُفْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمَسْتُ بَعْضَ الأَصْنَامِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تَمَسَّهَا» فَقُلْتُ: لأَعُودَنَّ حَتَّى أُبْصِرَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ مَسَسْتُهَا، فَقَالَ: «أَلَمْ تُنْهَ عَنْ هَذَا؟»(١٤٧).

---

(١٤٦) المسند ٤/٢٢٢، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب علامات النبوة/ باب: عصمته ﷺ من الباطل٨/٢٢٥، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وأقول: وهذا الحديث أحد الأدلة التى تبطل افتراءات المستشرقين على رسول الله ﷺ، وسيأتى فى البحث الثالث توضيح لذلك ص١٤٤: ١٥٠.

(١٤٧) قال الهيثمى: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح ٨/٢٢٦، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/٣٤، وسيأتى ص ١٠٩: ١١١ وغيرها: نماذج تؤكد ذلك.

تَحْكِيمُه ﷺ فِى وَضْعِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَشَهَادَةُ قَوْمِهِ لَهُ

وهذه شهادة جميع معاصريه المخالطين له.. وذلك حين اشتد بهم الخلاف، واحتدم بينهم النزاع، أيهم يحوز شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة.

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى مجاهدٍ، عن مولاهُ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ يَبْنِي الْكَعْبَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: وَلِي حَجَرٌ أَنَا نَحَتُّهُ بِيَدَيَّ، أَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَأَجِيءُ بِاللَّبَنِ الْخَاثِرِ الَّذِي أَنْفَسُهُ عَلَى نَفْسِي، فَأَصُبُّهُ عَلَيْهِ، فَيَجِيءُ الْكَلْبُ فَيَلْحَسُهُ، ثُمَّ يَشْغَرُ فَيَبُولُ(١٤٨)، فَبَنَيْنَا حَتَّى بَلَغْنَا مَوْضِعَ الْحَجَرِ، وَمَا يَرَى الْحَجَرَ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسْطَ حِجَارَتِنَا، مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ، يَكَادُ يَتَرَاءَى مِنْهُ وَجْهُ الرَّجُلِ، فَقَالَ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ: نَحْنُ نَضَعُهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: نَحْنُ نَضَعُهُ، فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الأَمِينُ، فَقَالُوا لَهُ، فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ دَعَا بُطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ(١٤٩).

وهذا عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لما انهدم البيتُ بعد جُرْهُمٍ فبنته قريش، فلما أرادوا وضْعَ الحجَرِ

---

(١٤٨) يعنى: أن الكلب يرفع إحدى رجليه ليبول على الصنمِ بعد أن يلحس اللبنَ الذى كان يصبه عليه مَن يعبده ويحرم منه نفسه، وكان الصحابيُّ يخبر بذلك؛ ليبين ما كانوا عليه قبل الإسلام من سفهٍ وضلال، والله أعلم.

(١٤٩) حديثٌ صحيحٌ بشاهده الآتى، مسند الإمام أحمد ٣/٤٢٥، وفى سنده: هلال بن خباب العبدى، أبو العلاء البصرى: صدوق، وثقه أحمد وابن معين، وغيرهما، وقال ابن عدى: أرجو أنه لا بأس به، وقال ابن حبان: يخطئ ويخالف. تهذيب التهذيب ١١/٧٧، ٧٨ وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط فى تحقيقه للمسند ح١٥٥٠٤ وقال: ومولى مجاهد، هو: قيس بن السائب، كما نص على ذلك ابن سعد ٥/٤٤٦ انظر: الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم ٧٢٧، والمعجم الكبير للطبرانى ١٨/٩٣١... وجعل الإمام أحمد؛ مولى مجاهد، هو: السائب بن أبى السائب، ونظن أنه وهمٌ، وحقه أن يفرد، والله تعالى أعلم. المسند ٢٤/٢٦٢، ٢٦٣ بتصرف يسير.

تشاجروا مَن يضعُهُ؟ فاتفقوا على أن يضعَهُ أولُ من يدخلُ من هذا الباب، فدخل رسول الله ﷺ من باب بنى شيبة، فأمر بثوب فوضع، فأخذ الحجر ووضعه فى وسطه، فأمر من كل فخذٍ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فيرفعوه وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه»(١٥٠).

فتشرفَ رسول الله ﷺ بوضع الحجر فى الثوب بيده الشريفة، ثم حمله منه، فوضعه فى مكانه من بناء الكعبة، والحمد لله على ذلك.

وبالجملة: فقد خالط النبى ﷺ فى حياته الأولى وفترة شبابه المجتمع الذى كان يعيش فيه بأرقى أنواع المعاملة؛ وأسمى درجات الطهر والنقاء: محفوظًا بحماية الله له من كل ما يسئ إلى شخصه ودعوته، وهكذا جرت سنته سبحانه أن يصون عباده الذين سيكونون أئمةً للناس من العلماء والدعاة؛ حتى لا تفقد الثقة بهم، ويكونَ لهم تأثير فى من يعلمونهم، فكيف بالأنبياء والرسل؟!! بل كيف بأفضلهم وأشرفهم وأكملهم وخاتمهم الذى جعل الله فيه جميل الأسوة وعظيم القدوة صلوات الله وسلامه عليه؟!!

وفى القرآن الكريم شواهد ونماذج كثيرة لمثل هذا الطهر والنقاء الذى نشأ فيه أنبياء الله ورسله قبل الوحى والرسالة، فقد قص القرآن علينا مقالة قوم ثمود لنبيهم صالح: ﴿قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَـٰذَآ﴾ [هود:٦٢].

وقول أهل مدين لنبى الله شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هود].

وكذلك قول السجينين ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف].

---

(١٥٠) منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود: كتاب السيرة/ باب: التبشيربنبوته ﷺ...،٨٦/٢.

كَيْفِيَّةُ زَوَاجِهِ ﷺ الْمُوَافِقَةُ لِاصْطِفَاءِ اللهِ لَهُ كَمَا نَقَلَهَا الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ

ثبت فى الأحاديث الصحيحة: أن النبى ﷺ تزوج بأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها قبل البعثة ببضع عشرة سنة، وكانت يومئذٍ أفضل نساء قومها نسبًا وعقلاً وفضلاً وشرفًا ونبلاً وطهارةً وعفة... وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل الإسراء والمعراج، وكان النبى ﷺ يثنى عليها، ويظهر محبتها، ويتأثر عند ذكرها بعد وفاتها، لتطمينها إياه عند نزول الوحى عليه ﷺ، ولمبادرتها إلى تصديقه والإيمان بما نزل عليه، وغير ذلك من مواقفها المحمودة التى تدل على مكانتها السامية فى الإسلام.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، حيث ولدت له أولاً: القاسم – وبه كان يكنى– ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبدالله– وكان عبدالله يلقب بالطيب والطاهر– ومات بنوه كلهم فى صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، غير أن الوفاة أدركتهن فى حياته ﷺ سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ﷺ بستة أشهر، ثم لحقت به(١٥١).

وقد ظلت أم المؤمنين خديجة تؤازر وتناصر وتؤنس رسول الله ﷺ لاسيما عند الشدائد.. إلى أن تُوُفِّيت رضي الله عنها قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين فى العام نفسه الذى توفى فيه أبو طالب؛ كما ذكر ذلك هشام بن عروة، عن أبيه، عند البخارى(١٥٢).

---

(١٥١) ستأتى الأحاديث المستنبط منها هذا التمهيد؛ مع تعقيبات العلماء عليها، ليتبين بعد ذلك لكل منصف: شذوذ المستشرقين ومَن وافقهم من المسلمين فى استنادهم إلى الأحاديث الضعيفة والأخبار المُعَلَّة: ينظر مع هذا المبحث ص١٣٠: ١٣٩، و١٧٠: ١٧٣، و١٧٥: ١٨٢.

(١٥٢) صحيح البخارى: فتح البارى ٧/ ٢٢٤ ح٣٨٩٦.

فَأَصبَحَتْ أُمَّ البَنَاتِ وَالبَنِينْ ❁❁❁ سِتَّتُهُمْ وَنِعْمَ أُمُّ المُؤمِنِينْ
قَاسِمُ، وَعَبْدُاللهِ وَهُوَ الطَّيِّبُ ❁❁❁ رُقَيَّةٌ فَاطِمَةٌ وَزَيْنَبُ
وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَقَدْ مَاتَ الجَمِيعْ ❁❁❁ إِلاَّ البَتُولُ قَبْلَ أَنْ مَاتَ الشَّفِيعْ
ثُمَّ قَضَتْ خَدِيجَةُ عِشْرِينَا ❁❁❁ وَبَعْدَهَا سَبْعًا مِنَ السِّنِينَا
بِنَفْسِهَا وَمَالِهَا وَالجَاهِ ❁❁❁ رَاضِيَةً تَفْدِي رَسُولَ اللهِ
وَكَانَ فِي إِحْسَانِهَا يَشْكُرُهَا ❁❁❁ وَظَلَّ بَعدَ مَوتِهَا يَذكُرُهَا

قال الحافظ ابن حجر: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى، تجتمع مع النبى ﷺ فى قصى، وهى أول من تزوجها ﷺ، وهى من أقرب نسائه إليه فى النسب، ولم يتزوج غيرها من ذرية قصى إلا أم حبيبة»(١٥٣).

وقد تزوج النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة؛ وهو فى سن الخامسة والعشرين، فى قول الجمهور.

وقد أجمع أهل العلم على أن النبى ﷺ تزوج من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل البعثة، وذلك استنباطًا من الأحاديث الصحيحة، كما ترجم البخارى فى: كتاب مناقب الأنصار، فى صحيحه بقوله: باب تزويج النبى خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

(١٥٣) فتح البارى ٧/١٣٤، واسم أم حبيبة: رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصى، وقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة أثناء هجرتها إلى أرض الحبشة، وبالرغم من صغر سنها: إلا أنها أقرب فى النسب إلى رسول الله ﷺ حيث تلتقى معه فى عبدمناف بن قصى، أما أم المؤمنين: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى؛ فإنها تجتمع معه ﷺ فى قصى بن كلاب.

وأما تفاصيل الزواج، وكيف حصلت الخِطبَة وتم العقد، ومن الذى كان وليها فى النكاح؛ فقد اختلفت الروايات فى ذلك، وكلها ضعيفة؛ بل منها ما هو واهٍ، وفى هذه الحالة يجب على كل مؤمن أن يقبل منها ما رجحه الجمهور، وما يليق بمقام خاتم الأنبياء وخير الخلائق على الإطلاق ﷺ.

وما يتفق مع حفظ الله وصيانته وعصمته لنبيه ﷺ، ورعايته وعنايته به، وما يوافق الشرع الشريف وسنة الله تعالى فى اصطفائه لأنبيائه وتطهيرهم من كل دنس أو شائبة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة ص].

بل: كيف يكونُ تعهده -تبارك اسمه- لصفوتهم وأشرفهم وأكملهم... صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين(١٥٤)؟!!

وَاشْتَغَلَ النَّبِيُّ بِالتِّجَارَةْ ❁❁❁ وَعَرَفَتْ خَدِيجَةُ الأَمَارَةْ

فَانْتَدَبَتْهُ المَرأَةُ المُطَهَّرَةْ ❁❁❁ فِي سَفَرٍ مَعَ الغُلامِ مَيسَرَةْ

وَعَنْهُ قَدْ حَدَّثَهَا الغُلامْ ❁❁❁ بِأَنَّهُ تُظِلُّهُ الغَمَامْ

وَلا تَسَلْ عَن كَثْرَةِ الأَرْبَاحِ ❁❁❁ وَعَن صِفَاتِ سَيِّدِ البِطَاحِ

فَخَطَبَتْ مُحَمَّدًا بَعْلاً لَهَا ❁❁❁ وَالنَّاسُ يَعْرِفُونَ مِنْهَا فَضْلَهَا

وَإِنْ تَكُنْ فِي سِنِّهَا كَبِيرَة ❁❁❁ فَإِنَّهَا فِي حُسْنِهَا شَهِيرَة

وَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يَخْطِبُهَا ❁❁❁ فَغَيرُ هَذا الزَّوجِ لَا يُعجِبُهَا

وَالنَّاسُ فِي مَكَّةَ أَجمَعُونَا ❁❁❁ يَرَونَ فِيهِ الصَّادِقَ المَأمُونَا

---

(١٥٤) سبقت الإشارة فى هذا المبحث إلى أن النبوةَ اصطفاءٌ واختيارٌ، وليست كسبًا كما يزعم بعض المتكلمين.

وَاخْتَلَفُوا فِي الحَجَرِ الأَسْوَدِ مَنْ ۞۞۞ يَضَعُهُ فِي الرُّكْنِ تِلْقَاءَ اليَمَنْ
وَحَكَّمُوا مُحَمَّدًا فِي المُشْكِلَةْ ۞۞۞ وَجَاءَ بِالحُكْمِ الذِي مَا أَعْدَلَهْ

كَثْرَةُ الإرْهَاصَاتِ قَبْلَ بَعْثَتِه ﷺ

ولما قرب زمان بعثته ﷺ: كثرت الإرهاصات والمقدمات تمهيدا لنزول الوحى، وتوطئة لقبول الرسالة، كتسليم الحجر عليه ﷺ، كما روى الإمام مسلم بسنده إلى جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ».

قال الإمام النووى فى شرحه للحديث: فيه معجزة له ﷺ، وفى هذا إثبات التمييز فى بعض الجمادات، وهو موافق لقوله تعالى فى الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وفى هذه الآية خلاف مشهور، والصحيح أنه يُسَبِّح حقيقة، ويجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه، كما ذكرنا، ومنه الحجر الذى فر بثوب موسى ﷺ، وكلام الذراع المسمومة، ومشى إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبى ﷺ، وأشباه ذلك(١٧٦).

ومن ذلك أيضًا رؤيته ﷺ للضوء وسماعه للصوت، كما ورد ذلك فى حديثٍ أخرجه الإمام أحمد بسندٍ على شرط مسلم إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

---

(١٧٦) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب: فضل نسب النبى ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٤/ ١٧٨٢ ح٢٢٧٧. وشرح النووى لصحيح مسلم ١٥/ ٣٦، ٣٧.

«إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ»(١٧٧) قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِاللَّهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقًا؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ؛ فَسَأُعَزِّزُهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُومِنُ بِهِ(١٧٨).

ومن الإرهاصات العامة التى أزعجت الجن والإنس على السواء؛ وأفزعهم رؤيتها: ما حدث من كثرة الشهب فى السماء، عند اقتراب بعثته ﷺ حجبًا للشياطين عن التسمع لخبر السماء، حتى لا يختلط الوحى ولا يلتبسَ حينما يُحدِّثُ به الناسَ رسولُ الله ﷺ.

ولقد رأى هذه الظاهرة الكونية الناسُ جميعًا ففزعوا منها، وأخذوا يُخرجون من أموالهم ويتصدقون بها، ويقول بعضهم لبعض: قامت القيامة وهلك أهل السماء، ولكن العقلاء منهم أمثال: عمرو بن أمية أحد بنى عِلاج– وكان أدهى العرب وأنكرَها رأيًا– وعبد ياليل بن عمرو بن عمير، قالوا لهم: انظروا! فإن كانت معالم النجوم التى يُهتَدَى بها فى البر والبحر، ويعرف الناسُ بها الأنواء من الصيف والشتاء لِما يُصلِحُ الناسَ فى معايشِهم هى التى يُرمَى بها؛ فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها، وإن كانت نجومًا غيرها– وهى ثابتة على حالها– فهذا

---

(١٧٧) أورد الحافظ ابن حجر اثنى عشر. قولاً فى المراد مما خافه النبى ﷺ أن يصيبه فى نفسه، ثم ذكر أن أصح تلك الأقوال: أنه ﷺ خاف على نفسه من الجنون أو المرض أو الموت، وما سوى ذلك من أقوالٍ؛ فعليه اعتراضات. فتح البارى ١/ ٢٤.

(١٧٨) ذكر العلماء فى المراد مما خشيه رسول الله ﷺ على نفسه أقوالاً كثيرةً؛ أصحها: الجنون، أو المرض، أو الموت، وما سوى ذلك من الأقوال فعليه اعتراضات، والحديث فى موسوعة المسند، تحقيق الشيخ شعيب تحت رقم ٢٨٤٥، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ ١/ ٣١٢، ح٢٨٤٦، وقال الهيثمى: رواه أحمد، والطبرانى بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، ومجمع الزوائد ٨/ ٢٥٥.

لأمر أراد الله به هذا الخلق، وهو من أجل ابن أبى كبشة يعنون: محمدًا ﷺ(١٧٩).

قال الحافظ ابن كثير: «السماء قد ملئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يُدرَى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز»(١٨٠).

ولقد كان هذا الأمر موجودًا قبل زمن رسول الله ﷺ حيث كانت الشياطين تسترق السمع، فيرمى بعضها بالشهب، لأن السماء لم تَخْلُ من حراسٍ، ولكنهم كانوا قليلين متفرقين، فلما بعث رسول الله ﷺ شُددت الحراسةُ فى السماء وكثرت، قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن].

فَالجِنُّ كَانُوا يَسرِقُونَ السَّمْعَا ❁❁❁ فَمُنِعُوا مِنَ السَّمَاءِ مَنْعَا

بِالشُّهُبِ المُحْرِقَةِ المُسَدَّدَهْ ❁❁❁ إِلى وُجُوهِ وَرُؤُوسِ المَرَدَهْ

---

(١٧٩) ابن أبى كبشة: أحد أجداد رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعادة العرب إذا انتقصَتْ؛ نَسَبَتْ إلى جَدٍّ غامضٍ. ينظر: فتح البارى ١/ ٤٠.

(١٨٠) يراجع فى ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٠٦، ٢٠٧، والطبقات الكبرى ١/ ١/ ١٠٧، وتأويل مشكل القرآن ص٤٢٩: ٤٣١، وتفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٠٢: ٥٠٤، و ٨/ ٢٦٧، ٢٦٨، والبداية والنهاية ٣/ ١٨: ٢١.

أخرج مسلم وغيره من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخْبَرَنِى رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِى ﷺ مِنْ الأَنْصَارِ: أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ رُمِى بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِى بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّهَا لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ؛ وَلَكِنْ: رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا: سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ(١٨١) فِيهِ وَيَزِيدُونَ»(١٨٢).

وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهرى... به نحوه، وفى آخره: «حتى ينتهى إلى السماء الدنيا، فيتحدثوا به، فتسترقه الشياطين بالسمع، على تَوَهُّمٍ واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم به فيخطئون ويصيبون، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضًا ويخطئون بعضًا، ثم إن الله جَلَّجَلَالُهُ حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقْذَفُونَ بها، فانقطعت الكهانة اليوم، فلا كهانة»(١٨٣).

وأخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن نبى الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى

---

(١٨١) أى: يخلطون فيه الكذب، وهى بمعنى: يقذفون. القاموس ١٨٩/٢، ١٩٠.

(١٨٢) صحيح مسلم: كتاب السلام/ باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/ ١٧٥٠، ١٧٥١ واللفظ له، والترمذى فى جامعه: كتاب التفسير، سورة سبأ آية: ٢٣، ٣٦٢/٥ وقال: حسن صحيح، وأحمد فى مسنده ٢١٨/١.

(١٨٣) يعني: لا كهانة إلى يوم القيامة، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٧/١.

صَفْوَانٍ(١٨٤) فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ﴾ لِلَّذِي قَالَ ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ - أي: يُفرِّق - بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنْ السَّمَاءِ»(١٨٥).

فهذا ليس معناه كما يتوهم بعض الناس أن لكل إنسان نجمًا يطلع بمولده ويأفل ويغيب بموته، وكذلك ليس معناه أن هناك نجمًا ظهر عند مولد النبى ﷺ؛ وإنما هو من أجل الوحى الذى امتاز به رسول الله ﷺ على سائر البشر كافة؛ بل والخلق عامة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، وفصلت: ٦].

ثم بدأت مبشرات النبوة بالرؤيا الصادقة فى النوم، فتتحقق فى اليقظة كما رآها، وهى جزء النبوة، وأول ما عرف ﷺ من أنواع الوحى الذى أرسل به إلى الخلق كافة؛ قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقد وردت أحاديث كثيرة فى رؤيا نبينا محمدٍ ﷺ، سيأتى بعضها، ومن أشهرها حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتفق عليه فى بدء الوحى، ورؤياه ﷺ البلد الذى سيهاجر إليه، وصدق

(١٨٤) السلسلة: دوائر الحديد المتصلة بعضها ببعض، والصفوان: الحجر الأملس، وذلك تشبيه وجيه لخضوع الملائكة واستوائها لأمر الله تعالى. ينظر: القاموس ٣/٤٠٨، والنهاية ٣/٤١.

(١٨٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة سبأ ٨/٥٣٧، ٥٣٨، وجامع الترمذى ٥/٣٦١.

الله إذ يقول: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح].

وهكذا اقتضت حكمة الخبير، وجرت سنتُه فى عباده: أن الأمر الجليل إذا قُضى بإيصاله إلى الخلق؛ فإنه يسبقه ويتقدم عليه: ترشيح وتأسيس.

وبهذا الاصطفاء والاختيار للرسالة، والحفظ والإعداد للرسول: صار النبى ﷺ فى أرقى الدرجات وأعلى المنازل، وكانت روحه فى غاية الشرف والصفاء، وبدنه فى غاية الطهر والنقاء، والقوى المدرِكة فى أسمى درجات الكمال؛ حتى أصبح أهلاً لاستقبال رسالة الله تعالى، ونزول وحيه عليه، ولا عجب؛ فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو العاصمُ لنبيهِ ﷺ والمؤدِّبُ له، والمتفضل عليه بكل خيرٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء].

وبهذا تكون الرسالة والنبوة اصطفاءً من الله جَلَّ جَلَالُهُ وليست أمرًا مكتسبًا؛ كما يظن البعض، فحياته ﷺ قبل البعثة كانت دليلَ صِدقِه بعدها، وسيتأكدُ ذلك من وقائع سيرته ﷺ فيما يأتى من بحوث، والله المستعان.

فالمبشرات برسول الله ﷺ التى سبق أن عرفنا الكثير منها: ما كانت إلا ليزداد الذين آمنوا إيمانًا؛ ولتقوم بها الحجة على الكافرين والمنكرين، ولذلك: لم يعتمد عليها رسول الله ﷺ حين قدم نفسَهُ للناسِ نبيًا ورسولاً؛ بل اعتمد على ما أكرمه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به من الوحى، قال

ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه من حديث أبى هريرة، واللفظ لمسلم(١٨٦).

كما لفتهم ﷺ إلى سابق معرفتهم بطيب أصله، وطهارة نسبه، وكريم خُلُقِه، وجميل خصاله، وعظيم صفاته، ونبل عاداته... وغير ذلك مما لا يستطيع أحدٌ دفعَه أو إنكارَه، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

ولعل فى تأخير الله جَلَّجَلَالُهُ نزول الوحى على خاتم النبيين ﷺ إلى سن الأربعين: ليعرف الناس كلهم سيرته وحياته، ويَخْبُروا عاداتِه ومعاملاتِه، ويعرفوا أخلاقه وطباعه، ويسبُروا سلوكه وأقواله خلال هذه الفترة الطويلة، التى شارك فيها النبى ﷺ المجتمع الجاهلى بأطهر وأنقى وأرقى أنواع المعاملات التى تُظْهِرُ طيبَ الأصلِ، وطهارةَ المنبت، وسلامةَ الفطرة، وصفاءَ الخُلق، ونقاءَ السريرة، وأمانةَ المعاملة... حتى عُرِف بينهم بالصادق الأمين، الذى سادهم فى عظيم الخصال، وكريم الأخلاق.

---

(١٨٦) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب فضل القرآن/ باب: كيف نزول الوحى ٣/٩، ومسلم فى صحيحه: كتاب الإيمان/ باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١/١٣٤ ح١٥٢، وأحمد فى مسنده ٣٤١/٢، ٤٥١.

ولذلك حينما دعاهم النبى ﷺ إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذكَّرهم بما عرفوه عنه ﷺ من أخلاق: لم يستطع أحد تكذيبه، ولا اتهامَه، ولا الطعنَ فيه، قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ! مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا(١٨٧).

وصدق الله إذ يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وقد بُعث أنبياء كثيرون وهم فى سن الشباب، أو على الأقل: دون الأربعين بكثير، كيوسف وموسى ويحيى وعيسى؛ ولكن بعد استواء الخَلْقِ، وبُلوغِ الأَشُدِّ وتمامِ النُّضجِ... كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم].

وقد انتخبتُ من أرجوزة الشيخ محمد بن سالم البيحاني ما يعبر عن هذه الفترة من بعثته ﷺ إلى هجرته، حيث قال:

مَرَّتْ عَلَيهِ أَرْبَعُونَ عَامَا ❁❁ مِنْ عُمْرِهِ وَبُورِكَتْ أَيَّامَا
وَطَالَ فِي غَارِ حِرَا اعْتِزَالُهْ ❁❁ لِمَا عَلَيهِ قَومُهُ وَآلُه
وَرُبَّمَا يَمْكُثُ فِيهِ شَهْرَا ❁❁ لِيَقضِيَ اللهُ تَعَالَى أَمرَا
وَقَبلَ مَا يُوحِي إِلَيهِ رَبُّهُ ❁❁ وَقَدْ صَفَى جَوهَرُهُ وَقَلْبُهُ
كَانَ يَرَى الرُّويَا تَجِيءُ صِدقَا ❁❁ وَمَا يَرَى إلا هُدَىً وَحَقَّا

(١٨٧) هذا اللفظ من: صحيح البخارى، فى: تفسير سورة الشعراء ٨/٥٠١، وسيأتى الحديث فى ص٢٣٣ هامش٣٤٩.

وَجَاءَهُ الأَمِيـنُ جِبْرَائِيــلُ ۞۞ وَمَعْـهُ مِـن رَبِّـهِ الـتَّـنْزِيـلُ
قَـالَ لَـــهُ اقْـرأ أَيُّهَـا النَّبِيُّ ۞۞ قَــالَ وَكَـيـفَ يَـقــرأُ الأُمِـيُّ
فَـغَـطَّـهُ وَقَـالَ بِاسمِ الأَكْرَمِ ۞۞ وَبِــاسـمِ مَن عَـلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمِ
فَـعَـادَ خَائِفًا مِنَ الرُّوحِ الأَمِينْ ۞۞ وَذَكَــرَ الأمــرَ لأُمِّ الـمُـؤمِنِيــنْ
قَـالَـتْ لَـهُ كَـلاَّ وَأَلْـفُ كَــلاَّ ۞۞ يَـا مَنْ تُعِينُ عَـاجِـزًا وَكَـــلاَّ
وَاللهِ لَا يُـخزِيـكَ رَبُّ الـنَّـــاسِ ۞۞ يَا وَاصِلَ الأَرحَـامِ وَالـمُـوَاسِـي
وَانطَلَـقَت بِـهِ تَقُصُّ الخَبَرَا ۞۞ عَلَى ابْـنِ عَـمِّـهَا الذِي تَنَصَّرَا
وَكَانَ شَـيْخًا يَقرأُ الإِنْجِيــلاَ ۞۞ وَيَعْـرِفُ الإِجْـمَـالَ وَالتَّـفْصِيلاَ
قَـالتْ لَهُ اسمَعْ مِنِ ابنِ أَخِيك ۞۞ فَـقَـالَ مَـا تَـرَى وَكَـيفَ يَأتِيك
قَــالَ أَتَـانِي رَجُـلٌ صِفَـتُـــهُ ۞۞ كَـذَا وَكَـذَا كَـلَّـمَنِي وَخِفْتُهُ
قَـالَ لَـقَدْ أُوتِيـتَهُ النَّامُوسَـا ۞۞ وَمِـثْـلُ مَـا جَـاءَكَ جَـاءَ مُـوسَى
يَا لَيْتَنِي فِيهَا أَكُونُ جَـذْعَـــا ۞۞ لِـكَـيْ أَخُــبَّ مَـعَـكُم وَأَضَـعَـا
إِذْ يُخْرِجُـوكَ مِن بِلادِ الحَرَمْ ۞۞ وَمَــاتَ وَرَقَـــةُ وثَـمَّـــا أَسْـلَـمْ
فَـانقَطَعَ الوَحْيُ وَظَلَّ يَنتَظِـرْ ۞۞ وَقـتًا وَبَـعدُ قِيـلَ قُـمْ فَـأَنْذِرْ
وَابتَــدَأَ الـدَّعْـوَةَ فِي إِبَـــاءِ ۞۞ بَـيـنَ رِجَـالِ الـحَــقِّ وَالـنِّسَاءِ
وَأَسْـلَـمَـتْ خَدِيجَـةُ المُبَشَّرَة ۞۞ وَأَسْـلَـمَ الـصِّـدِّيقُ رَأسُ العَشَرَة
وَعَـاشَ فِي الإِسـلَامِ مِنْ صِبَاهُ ۞۞ سَــــيِّــدِنَـــا عَـلِـيٌّ الأَوَّاهُ

وانْتَصَرَ الإِسْلَامُ بِالفَارُوقِ ۞۞ وَاعتَرَفَ السَّابِقُ لِلمَسْبُوقِ
بِحَمزَةٍ وَبِأَبِي حَفْصٍ عُمَرْ ۞۞ قَد هُزِمَ البَاطِلُ وَالحَقُّ انْتَصَرْ
وَجَهَرَ النَّبِيُّ بِالتَّوحِيدِ ۞۞ وَبِالمُسَاوَاةِ مَعَ العَبِيدِ
لَا فَرْقَ بَينَ أَبيَضٍ وَأَسْوَدِ ۞۞ إلاَّ بِتَقوَى اللهِ رَبِّ أَحمَدِ
حُرِّيَّةٌ عَدَالَةٌ مُسَاوَاه ۞۞ فِي دِينِهِم جَمِيعُهُم خَلْقُ الله
وَحَاوَلَتْ قُرَيشٌ رَدَّ الحَقِّ ۞۞ وَبَالَغَتْ فِي جَهْلِهَا وَالحُمْقِ
وَآذَوُا النَّبِيَّ وَالصَّحَابَة ۞۞ وَقَطَّعُوا الأَرْحَامَ وَالقَرَابَة
ثُمَّ استَبَدَّ كُلُّ كَلبٍ كَافِرِ ۞۞ بِالضُّعَفَاءِ مِثلِ آلِ يَاسِرِ
وَبَعْضُهُم هَاجَرَ خَوفَ الفِتْنَة ۞۞ وَلِأَشَدِّ مَا لَقَوْا مِن مِحْنَة
مِثْلُ ابنُ عَفَّانٍ وَمِثْلُ جَعْفَرْ ۞۞ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِخَيرِ مَهْجَرْ
وَلأَبِي بَكْرٍ إِمَامِ السُّنَّةْ ۞۞ حَدِيثُ هِجْرَةٍ مَعَ الدُّغُنَّةْ
وَرَاجَعُوا فِيهِ أَبَا طَالِبٍ أَنْ ۞۞ يَرُدَّهُ إِلَى عِبَادَةِ الوَثَنْ
وَيَتْرُكَ الدِّينَ وَمَا لَدَيْهِم ۞۞ حَتَّى يَصِيرَ مَلِكًا عَلَيْهِم
فَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا لِدِينِي ۞۞ لَو تَضَعُونَ الشَّمْسَ فِي يَمِينِي
وَظَنَّ أنَّ عَمَّهُ يَخْذُلُهْ ۞۞ وَأَنَّ أَهْلَهُ جَمِيعًا مِثْلُهْ
وَامْتَلأَت عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ ۞۞ وَحَزِنَ التَّابِعُ لِلمَتْبُوعِ
قَالَ أَبُو طَالِبٍ لاَ تُبَالِ ۞۞ بِقَولِهِمْ وَوَالِ مَنْ تُوَالِ

وَعَـادِ مَـن شِـئْـتَ فَلَـنْ تَرَانَا ❁❁ إلاَّ حَـوَالَـيْكَ كَـمَـا تَـرْضَـانَـا
وَمَـاتَ زَوجُـهُ وَعَـمُّـهُ الرَّحِيمْ ❁❁ وَاعـتَـصَمَ النَّبِيُّ بِاللهِ العَظِيمْ
وَاشْـتَـدَّ مَـا يَلْـقَـاهُ مِن قُرَيشِ ❁❁ فِي نَـفْـسِـهِ وَعِـرْضِـهِ وَالعَـيْـشِ
وَالـتَـمَـسَ الـنُّـصْرَةَ مِن ثَقِيفِ ❁❁ لَكِنَّـهُ قُـوبِلَ بِـالـتَّـعْـنِـيـفِ
أَغْـرَوا بِـهِ الـعَـبِيدَ وَالصِّبْيَانَا ❁❁ وَلَـمْ يُـبَـالِ مِـنـهُـمُ الـهَـوَانَـا
وَعَـادَ رَاجِـعًـا إِلَى مَـكَّـةَ قَـدْ ❁❁ أَجَـارَهُ الـمُـطْـعَمُ مِن أَهلِ البَلَدْ
فَـعَـرَضَ الأَمْـرَ عَـلَى الـقَبَائِلْ ❁❁ عَـلَى كِـبَـارِهِـمْ وَفِي الـمَحَافِلْ
وَبَـلغَ الـسَّـيْـلُ الزُّبَى مِن قَوْمِهِ ❁❁ وَكَـانَ أَمْـسُ الـكُـفْـرِ دُونَ يَومِهِ
فَحَـالَـفَ الأَنـصَـارَ حِينَ حَجُّوا ❁❁ وَكَـبَّـتَ اللهُ الـذِيـنَ احـتَـجُّـوا
وَرَحَّـبَـتْ يَـثْـرِبُ بِـالـصَّـحَـابَةْ ❁❁ وَاجْـتَـمَـعَـتْ فِـيهَـا أُسُـودُ الغَابَةْ
حَـمْـزَةُ وَالـفَـارُوقُ ثُـمَّ عُـثْمَانْ ❁❁ وَعَـامِـرٌ صُـهَـيـبُ بـنُ سِـنَـانْ

حَدِيثُ بَدءِ الوَحيِ ومَا يُستَفادُ مِنه

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من طرق إلى الزهرى، عن عروة، عن عائشة(١٨٨) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ» وكان ابتداء الرؤيا الصالحة فى شهر ربيع الأول حين بلغ رسول الله ﷺ سن الأربعين، واستمرت مدتها ستة أشهر: تمهيدًا لوحى اليقظة وَبَدْءِ نزول القرآن فى شهر رمضان من السنة نفسها، وليس معنى ذلك أن الرؤيا الصادقة انقطعت بنزول القرآن؛ بل استمرت مع رسول الله ﷺ بقية حياته ومدة رسالته التى هى ثلاثةٌ وعشرون عامًا، ومازالت كذلك مع سائر المؤمنين، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا

---

(١٨٨) أخرجه الأئمة من طرق إلى الزهرى عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١ - البخارى فى صحيحه: كتاب بدء الوحى، الحديث الثالث ٢٢/١ من طريق عقيل ابن خالد عن الزهرى .. به، واللفظ له، وفى كتاب التفسير/ باب تفسير سورة العلق: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾٧١٥/٨ من طريق عقيل ويونس بن يزيد، عن الزهرى .. به، وفى أبواب: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾٧٢٢/٨، ٧٢٣ من طريقى: عقيل ومعمر بن راشد، عن الزهرى .. به مختصرًا، وفى كتاب التعبير/ باب أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة ٣٥١/١٢، ٣٥٢ من طريق عقيل ومعمر، عن الزهرى .. به، وفيه زيادة منقطعٌ سندُها وشاذٌ متنها: سيأتى الحديث عنها تحت عنوان: «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا» ص١٦٣.

٢ - ومسلم فى صحيحه: كتاب الإيمان باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١ : ١٤٢ من طريق يونس عن الزهرى .. به، وفى ١٤٢، ١٤٣ من طريق معمر عن الزهرى .. به، بمثل حديث يونس غير أنه قال: فوالله لا يحزنك الله أبدا، وقال: قالت خديجة: أى ابن عم!! اسمع من ابن أخيك، ومن طريق عقيل عن الزهرى.. به، قالت عائشة زوج النبى ﷺ: فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده، واقتص الحديث بمثل حديث يونس ومعمر، ولم يذكر أول حديثهما من قوله: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة.

وشرح ألفاظ الحديث مستفادٌ من: شرح النووى لصحيح مسلم ١٩٨/٢ : ٢٠٣، وفتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٣/١ : ٢٨، ومراجع أخرى تأتى الإشارة إليها فى حينها.

مِنَ النُّبُوَّةِ، وَمَا كَانَ مِنْ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ لاَ يَكْذِبُ»(١٨٩).

«فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ» فلق الصبح: ضياؤه، ويقال هذا فى الشىء الواضح البيِّن.

«ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ» وذلك لما يتبعه من الخلوة والعزلة، وهى مستحبةٌ؛ لما يصحبها من فراغ القلب وخشوعه وإعانته على التدبر، والبعد عن المنكرات، والتأذى برؤية أصحابها، قال النووى: الخلوة شأن الصالحين، وعباد الله العارفين.

«فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ» جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال: خمسة كيلو مترات، عن يسار الذاهب من مكة إلى منى، وهو الآن داخل عمران مكة ويُعرف بجبل النور، قال الحافظ ابن حجر: الذى كان يخلو فيه هو شهر رمضان، وأن قريشًا كانت تفعله، كما كانت تصوم عاشوراء، ولم ينازعوا النبى ﷺ فى ذلك، لأن جده عبدالمطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته، وكبر سنه، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلَّم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم، قال ابن أبى جمرة: الحكمة من تخصيصه بالتخلى فى غار حراء: أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت(١٩٠).

---

(١٨٩) صحيح البخارى: كتاب التعبير/ بَابُ القَيْدِ فِي المَنَامِ ح٧٠١٧ عن أبى هريرة، وينظر: جامع الترمذى: كِتَاب الرُّؤْيَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ/ باب: أَنَّ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ ٤/٤٦١ ح٢٢٧٠، وقال أبو عيسى: حديثٌ حسنٌ صحيح.

(١٩٠) (الغار) الكهف، والنقب فى الجبل، وانظر: فتح البارى ١٢/٣٥٥ باختصار مع زيادات وتصرف يسير، ومعجم البلدان ٢/٢٣٣.

«فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ» القائل هو الإمام: الزهرى يفسر به كلمة: التحنث، وهو تفسيرٌ صحيح مدرجٌ فى الحديث؛ لأن أصل الحنث، هو: الإثم، ومعنى يتحنث: يتجنب الحنث، فكأنه بعبادته يمنع نفسه من الحنث، ومثل هذا كثير فى كلام العرب، يقال: يتحرج، ويتأثم، ويتقذر، يعنون: تَجنُّبَ الحرج والإثم والقذر(١٩١).

«اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ» والمعنى: أن الوحىَ نزل على رسول الله ﷺ بغتةً؛ بلا مقدمات، لأنه ﷺ لم يكن متوقعًا ذلك، ولا مترقبًا له.

وما وقع من النبى ﷺ عند مفاجأة الوحى له أول مرة فإنه مثل ما حدث لكليم الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أمره ربه بإلقاء العصا: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه]، ففر خائفًا كما وصفه الله عز وجل فى كلامه العزيز: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ حتى طمأنه الله وآنسه بقوله سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَٰمِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص]: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه]، فهذا الفزع أمر فطرى، وشىء طبيعى، لايُذَمُّ به العبد، ولايعاتب عليه، ولا يُنْتَقَصُ به، والله أعلم.

«فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «ٱقْرَأْ» فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ» معناه: لا أحسن القراءة، وفيه دليل على أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وليس هو من مراسيل الصحابة كما يتوهم، والله أعلم(١٩٢).

---

(١٩١) ينظر: فتح البارى ١/ ٢٣، والنهاية ١/ ٤٤٩.

(١٩٢) شرح النووى لصحيح مسلم ٢/ ١٩٩، وتدريب الراوى ١/ ١٠٧.

«قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ» يقال: غطه وغته، أى: ضغطه وعصره، والجُهد بفتح الجيم وضمها: الغاية والمشقة، قال ابن الأثير: الجهد بالضم: الوسع والطاقة، وبالفتح: المشقة، وقيل المبالغة والغاية. وأما حرف الدال فى قوله «الْجُهْدَ» فيجوز نصبها ومعناه: بلغ جبريلُ منى الجهدَ، ويجوز رفعها ومعناه: بلغ الجهدُ منى مبلغَه وغايته(١٩٣).

«ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «ٱقۡرَأۡ» قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «ٱقۡرَأۡ» قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق]

فكانت هذه الآيات الخمسةِ أوَّلَ ما نزل من القرآن الكريم، وبها بدأت نبوة حبيبِنا محمد ﷺ وكان ذلك فى إحدى ليالى العشر الأخيرة من شهر رمضان كما قال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة].

وبالتحديد فى ليلة القدر منه، كما ورد التصريح بذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر].

وكفاها منزلةً وشرفًا وصف الله لها بذلك، كما فى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥

(١٩٣) انظر: شرح النووى ٢/ ١٩٩، وفتح البارى ١/ ٢٤، ١٢/ ٣٥٥، ٣٥٦، والنهاية ١/ ٣٢٠.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان].

ولا يعارض هذا حديث جابر المتفق عليه أيضًا الذى نصَّ فيه على أن أول ما نزل: الآيات الأولى من سورة المدثر، وقد عقَّبَ ابن حبان على هذين الحديثين بقوله: «إن أول ما أُنزل من القرآن -فى خبر جابر-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وفى خبر عائشة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عز وجل أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو فى الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته: دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه فى بيت خديجة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ الآيات، من غير أن يكون بين الخبرين تهاتر أو تضاد(١٩٤).

وقال السيوطى: إن مراد جابر بالأولية: أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى، لا أولية مطلقة، أو أن المراد: أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كما فى حديث عائشة، وأول ما نزل للرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كما فى حديث جابر(١٩٥).

«فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ» فيه إشارة إلى الحال الظاهرة لرسول الله ﷺ التى انتابتهُ من الفزع، ومعنى ترجف: ترعد وتضطرب، وأصل الرجف: شدة الحركة، والبوادر:

---

(١٩٤) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى ١/٢٧ ح٤، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/١٤٣: ١٤٥، وصحيح ابن حبان: كتاب بدء الوحى/ باب ذكر القَدْر الذى جاور المصطفى ﷺ بحراء عند نزول الوحى عليه ١/١٢١، ١٢٢، وسيأتى مزيد من التعقيب والتخريج على الحديثين فى: «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا».

(١٩٥) الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٣، ٢٤ حيث ذكر توجيهات خمسة للعلماء فى التوفيق بين حديثى عائشة، وجابر، ورجح الأول والأخير منها، لكنى اخترت من بينها: التوجيه الثانى والثالث اللذين نقلتهما عنه، والله أعلم.

جمع بادرة، وهى: اللحمة التى بين المنكب والعنق، تضطرب عند فزع الإنسان، وفى بعض الروايات: «يَرْجُفُ فُؤَادُهُ» وفيه إشارة إلى الحال الباطنة، قال ابن حجر: إسناد الرجفان إلى القلب لكونه محله، وإلى البوادر لأنها مظهره(١٩٦).

«حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» أي: غطوني، ولفوني بالثياب(١٩٧).

«فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ!! مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي!» أي: خفت على نفسي، وقد ذكر العلماء اثني عشر قولاً في سبب ذلك الخوف؛ حاصلها: ما ينزل به من مكروه كالمرض ونحوه، ومنها ما يَتَّهِمُه الناسُ به كالجنون، وما سوى ذلك من أقوالٍ فعليه اعتراضات(١٩٨).

«فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا (*)فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ» وهو: من لا يستقل بأمره، لضعفه أو لعلة فيه، وأصله من التعب، والإعياء والثقل، والمعنى: إنفاقه على الضعيف واليتيم وصاحب العيال(١٩٩).

«وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ» روى فى حرف المضارعة الضم والفتح، فمعناه بالضم: تعطى غيرك المال المعدوم تبرعًا، قال الحافظ ابن حجر: فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالاً

---

(١٩٦) فتح البارى ١/٢٨، ١٢/٣٥٨، والنهاية ١/١٠٦.

(١٩٧) ينظر: المفردات فى غريب القرآن ص ٣١٥.

(١٩٨) يراجع في تلك التفسيرات والتعقيب على كلٍّ منها: فتح الباري ١/٢٤.

(*) الخزى: وهو الهلاك، أو الوقوع فى بلية، وفى بعض روايات الحديث: «لا يُحْزِنُكَ» من الحُزْن وهو معروف، ينظر: النهاية ٢/٣٠.

(١٩٩) يُنْظَر: النهاية ٤/١٩٨، ومقاييس اللغة ٥/١٢١، ١٢٢.

موجودًا: رغبت أنت أن تستفيد رجلاً عاجزًا فتعاونه، ومعناه بالفتح وهو الراجح: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق، فحذف أحد المفعولين، وقيل: معناه تكسب المال المعدوم، وتصيب منه ما لا يصيب غيرك، أى: أن لديه قدرة على كسب المال ليست لغيره، وكانت العرب تتمادح بكسب المال وجمعه، وقد كان لرسول الله ﷺ فى التجارة نصيب وافر، قال النووى: يمكن تصحيح هذا إذا قيل: تكسب المال العظيم الذى يعجز عنه غيرك، ثم تجود به فى وجوه الخير، وأبواب المكارم، كحمل الكَلِّ، وصلة الرحم، وقرى الضيف، والإعانة على نوائب الحق.

«وَتَقْرِي الضَّيْفَ» ما يقدم إكرامًا للضيف، ويقال للطعام الذى يقدم له: قِرَى.

«وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ» النوائب: جمع نائبة، وهى الحادثة الشديدة، وإنما قالت أمُّنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «نَوَائِبِ الْحَقِّ» لأن النائبة قد تكون فى الخير، وقد تكون فى الشر، وهى كلمة جامعة لما تقدم من الأوصاف التى ذكرتها.

وهذا الموقف من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معه ﷺ: من أشرف المواقف التى تُحمد لامرأة فى الأولين والآخرين: طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة له: أن الأبرار من أمثاله لا يخذلون أبدًا، وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجزلة والمناقب السمحة؛ فإنما ذلك ليجعله: أهلاً لإعزازه وإحسانه، وأنه لا يصيبُه مكروهٌ، لما جعل الله فيه من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وخصال الخير، وعظيم الشيم، ونبيل الصفات... ومن كانت هذه أوصافه فسوف ينجيه الله من مصارع السوء، وفى هذا من التسلية والتأنيس والتبشير لرسول الله ﷺ الشىء الكثير من أم المؤمنين خديجة حين توقَّع ﷺ ضررًا أو خاف نزوله به، فذكرت له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أسباب السلامة ما يُطمئن نفسه ويدفع عنها كل هَمٍّ وغَمٍّ،

وفى هذا أعظم دليل، وأبلغ حجة على كمالها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعِظم فقهها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها؛ لأن للنبوةِ أثقالاً ومؤنةً لا يحملها إلا أهل القوة وأولوا العزم من الأنبياء والرسل(٢٠٠).

«فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ: حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ: اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ» وفى روايةٍ أخرى: «يا عَمِّ» وهى عند البخارى فى تفسير سورة العلق، وهى فى أولى روايتى الإمام أحمد؛ بل: وصححها الحاكم وابن حبان، فلم ينفرد بها الإمام مسلم، قال النووى: سَمَّتْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عمًّا مجازًا للاحترام، وهذه عادة العرب فى آداب خطابهم، يخاطب الصغير الكبير: بياعم، احترامًا له، ورفعًا لمرتبته، ولا يحصل هذا الغرض بقولها: يا ابن عم: وإن كان ابن عمها حقيقة، فإنه: ورقة بن نوفل بن أسد، وهى خديجة بنت خويلد بن أسد، وهكذا هو فى الأصول فى الأول (عم) وفى الثانى (ابن عم) وكلاهما صحيح، والله أعلم.

وهذا الكلام من الإمام النووى مع نفاسته؛ لكنه لم يُرضِ الحافظ ابن حجر حيث قال: وقع فى مسلم (يا عم) وهو وَهْمٌ، لأنه وإن كان صحيحًا لجواز إرادة التوقير، لكن القصة لم تتعدد، ومخرجها متحد، فلا يحمل على أنها قالت ذلك مرتين، فتعين الحمل على الحقيقة، وهذا الحكم يطرد فى جميع ما أشبهه(٢٠١).

وأقول: ما المانع أن تكون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قد سمعت الحديث من النبى ﷺ أكثر من

---

(٢٠٠) شرح النووى لصحيح مسلم ٢/٢٠٢ بتصرف.

(٢٠١) يراجع: شرح النووى لصحيح مسلم ٢/٢٠٣، وفتح البارى ١/٢٥.

مرة، أو أنها حدَّثت بلفظه مرَّةً، وبمعناه مرَّةً أخرى، وقد أكدت الحقيقة قبلُ بقولها: «وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا» كما ورد فى بعض روايات البخارى: «قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ» وفى بعضها الآخر: «قَالَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ» فالوهم فى رواية: «يا عَمِّ» مستبعدٌ؛ لما قدمناه، ومادام الجمع ممكنا بين الروايات؛ فهو أولى من توهين إحداها، فهو ابن عمها حقيقة، إذ اسمه: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصى القرشى، قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين فى الآفاق، وارتحل إلى الشام، مفارقًا لقومه مع زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث، وعبيدالله بن جحش، يطلبون الدين الصحيح، فتنصروا كلُّهم، لأنهم وجدوه أقرب العقائد إلى الحق حين ذاك، إلا زيد بن عمرو بن نفيل فإنه رأى فى تلك العقيدة تحريفًا وتأويلاً، وتبديلاً وتخليطًا، فأبت فطرته قبولَها، فرجع ينتظر ظهور النبى الذى أزف زمانه، واقترب أوانه، واستمر على فطرته وتوحيده، ولكنه توفى قبل مبعث النبى ﷺ بخمسة أعوام[٢٠٢].

أما ورقة، فقد أعجبه دين النصرانية، ولعله لقى من الرهبان من بقى على دين عيسى، الذى لم يبدل، فدخل فى النصرانية، وقرأ الكتب، وسمع من التوراة والإنجيل، وكان قد تعلم اللسان العبرانى، والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبرانى، كما كان يكتب الكتاب العربى، وقد تمكن من ذلك، حتى صار يكتب من الإنجيل أىَّ موضع شاء بالعربية، أو بالعبرانية على السواء، لتمكنه من اللسانين معًا، ولهذا أخبر بشأن النبى، والبشارة به، وغير ذلك مما أنكره وكتمه أهل الكتاب، وأفسده أهل التحريف والتبديل، وهو عم خديجة: إكرامًا وتوقيرًا لمكانته وكبر سنه، والله أعلم.

---

(٢٠٢) وقد سبق تفصيل خبره، وتمحيص الأحاديث الواردة فى ذلك تحت عنوان: «تحقيق حول إسلام زيد بن عمرو بن نفيل».

«قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى» يعنى: أمين الوحى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقال: نمست الرجل، ونامسته: ساررته، ونمست السر؛ أى: كتمته، قال الهروى: سمى جبريل بذلك: لأن الله تعالى خصه بالغيب والوحى(٢٠٣).

وهذا دليل عَلَى فِقْهِ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ: حيث لم يذكر عيسى، مع أنه متأخر، وكان على شريعته، لأن كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مشتمل على أكثر الأحكام، وكذلك الكتاب الذى ينزله الله على رسوله ﷺ مهيمنًا على ما سبقه.

أو: لأن موسى بُعِثَ بالنقمة على فرعون ومن معه، وكذلك وقعت النقمة على يد النبى ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو: أبو جهل بن هشام، ومن معه ببدر.

أو: قاله تحقيقًا للرسالة، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى، فإن كثيرين من اليهود ينكرون نبوته، كما أن شريعة عيسى متممة لشريعة موسى عليهما السلام.

وهذا القول من ورقة موافق لمقالة الجن حين سمعت القرآن كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ [الأحقاف].

ومن رجاحة عقل ورقة: أنه توسم النبوة فى شخص رسول الله ﷺ قبل بعثته، لما ظهر عليه من الدلائل والآيات، وانطبع فيه من عظيم الصفات، وجميل الأخلاق، ولمَا كانت تحدثه عنه خديجة، وتصفه له، ولذا لما أخبرها رسول الله ﷺ بما وقع له فى الغار: انطلقت به إلى

(٢٠٣) شرح النووى لصحيح مسلم ٢/٢٠٣، والنهاية ٥/١١٩.

ورقة، ووقفت به عليه، وقالت: ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فلما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى، قال: هذا الناموس الذى أنزل على موسى.

«لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!!» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ! لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا» أي: تمنَّى أن يكون شابًا فتيًا قويًا متمكنًا من الإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، حتى ينصر النبى ﷺ ويؤازرَه، ويحميَه فى مدة النبوة وأيامها، ويجاهد معه الكفار الذين سيكذبونه، ويعادونه، ويؤذونه، ويقاتلونه، ويخرجونه، كما عرف ذلك من الكتب المتقدمة، وأصل الجذع: من أسنان الدواب، وهو ما كان منها شابًا فتيًا، وهو هنا استعارة(٢٠٤).

قال الإمام ابن القيم: وأسلم القِسُّ ورقة بن نوفل، وتمنى أن يكون جذعًا إذ يُخْرِجُ رسولَ الله ﷺ قومُه، ولذا ذكره الحافظ ابن حجر فى القسم الأول من الإصابة، وقال: ذكره الطبرى، والبغوى، وابن قانع، وابن السكن، وغيرهم فى الصحابة، ثم نقل عن ابن إسحاق بسنده إلى أبى ميسرة – واسمه: عمرو بن شرحبيل، وهو من كبار التابعين – أن ورقة قال للنبى ﷺ: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبى مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركنى ذلك لأجاهدنَّ معك، ثم قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: وهذا أصرح ما جاء فى إسلام ورقة(٢٠٥).

قال الإسماعيلى: مَوَّهَ بعضُ الطاعنين على المحدِّثينَ فقال: كيف يجوز للنبى أن يرتاب فى نبوته حتى يرجع إلى ورقة ويشكو لخديجة ما يخشاه؟ .. ولئن جاز أن يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟

---

(٢٠٤) ينظر: النهاية ١/ ٢٥٠. ويراجع: البداية والنهاية ٣/ ٨، ٩، وفتح البارى ١/ ٢٥، ٨/ ٧٢٠.

(٢٠٥) زاد المعاد ٣/ ٢١، والإصابة ١٠/ ٣٠٤: ٣٠٧، وفتح البارى ٨/ ٧٢٠.

قال الإسماعيلى: والجواب: أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبى ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد: من ذلك، فلما فجئه الملك فجئه بغتة؛ أمر خالف العادة والمألوف: فنفر طبعه البشرى منه وهاله ذلك، ولم يتمكن من التأمل فى تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشر كلها، فلا يُتَعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه؛ حتى إذا اندرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التى ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فهونت عليه خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه: أيقن الحق واعترف به(٢٠٦).

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ» أي: لم يلبث، ولم يمكث طويلاً، فرحمه الله ورضى عنه، لأنه صدر منه تصديق بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحى، ونية صالحة للمستقبل(٢٠٧).

وهذا أقوى وأصح مما ورد فى السيرة عن ابن إسحاق قال: حدثنى هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال، والمشركون يعذبونه، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَد، فيقول ورقة: أَحَدٌ، أَحَدٌ واللهِ! يا بلال، ثم يقبل على أُمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بنى جُمَح، فيقول: أحلف بالله! لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا(٢٠٨)، أى: رحمة به، وعطفًا عليه، وتوجعًا له، وفى ذلك دلالة على تأخر وفاته قليلاً بعد زمن النبوة، لكن ذلك السند مرسل حيث وُلِد عروة

---

(٢٠٦) فتح البارى ١٢/ ٣٦٠، وسبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٦٨.

(٢٠٧) لسان العرب ٦/ ٤٤٣٠، والبداية والنهاية ٣/ ٩، وفى فتح البارى ١/ ٢٧ كلام نفيس فى هذا الشأن فليراجعه من أحب.

(٢٠٨) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٨، وزاد المعاد ٣/ ٢٢.

بن الزبير فى أوائل خلافة عثمان، وتوفى سنة أربع وتسعين من الهجرة، فهو من أوسط طبقات التابعين(٢٠٩).

«وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً» والمعنى: انقطع الوحى واحتبس مدة من الزمان ليست بطويلة، وهدأ فترة قليلة ليستريح رسول الله ﷺ من هول ما رأى ومفاجأة الملَك له وحيدا فى الغار إذ كان «يَرْجُفُ فُؤَادُهُ» وترعد وتضطرب «بَوَادِرُهُ».

فمعنى فتر الوحى: هدأ بعد حِدة، يقال: فتر الماء إذا ضَعُفَ حره؛ ولذا عبر عن تواصل الوحى وتواليه فى حديث جابر المتفق عليه بقوله: «فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

قال الحافظ ابن حجر: «فَحَمِيَ الْوَحْيُ» أي: جاء كثيرًا، وفيه مطابقة لتعبيره عن تأخره بالفتور، إذ لم ينته إلى انقطاع كلى، حتى يوصف بالضد وهو البرد، وقوله: «وَتَتَابَعَ» تأكيد معنوى، ويحتمل أن يراد بحمى: قوى، وتتابع: أى تكاثر، وفى بعض الروايات: «وتواتر» وهو مجئ الشئ يتلو بعضه بعضًا من غير تخلل.

وكانت مدة تلك الفترة نحوًا من شهر، لقوله ﷺ فى حديث جابر(٢١٠): «جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْرًا فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي، نَزَلْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ – يعنى: جبريل – فَأَخَذَتْنِي وَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً»

---

(٢٠٩) تقريب التهذيب ص٣٨٩.

(٢١٠) ومن ثَمَّ: كان الإمام الزهرى يحدث عن أبى سلمة، عن جابر بهذا الحديث عقب تحديثه بحديث عائشة المتقدم؛ الذى سبق تخريجه تحت رقم:١٨٨، حتى ظن بعض الناس: أن حديث جابر هذا معلق الإسناد، والحق أنه متصلٌ بإسناد حديث عائشة، وهكذا أخرجها الشيخان.

فَأَنْزَلَ اللَّه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[٢١١].

وروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ، لما نزل عليه الوحى بحراء مكث أيامًا لا يرى جبريل، فحزن حزنًا شديدًا، وهذا يخالف ما وقع فى تاريخ الإمام أحمد عن الشعبى أن مدة فترة الوحى كانت ثلاث سنين.

وهذا مرسل لا يثبت، ولا ينبغى أن يعارَض به ما ورد فى الأحاديث الصحيحة، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده، وهو ربيع الأول، بعد إكماله ﷺ أربعين سنة، وابتداء وحى اليقظة وقع فى رمضان من السنة نفسها، ثم فتر الوحى تلك الفترة، ليستريح رسول الله ﷺ من شدته وعنائه، وليذهب عنه ﷺ من الروع ما كان قد وجده، وليحصل له التشوف إلى العود ولينتشر خبره فى بطانته وعشيرته، ومن يستمع لقوله، ويصغى إليه، ويقارنوا بينه وبين غيره، حتى يعرفوا ما اختص به دون غيره، وما امتاز به على من سواه.

ولهذا حزن النبى ﷺ حزنًا شديدًا، حين فتر عنه الوحى بعض الوقت، مخافة أن يكون ثَمَّةَ شىءٌ، أو حدث أمرٌ تحولت به النبوة عنه، أو انقطع بسببه الوحى، وهذا الحزن منه ﷺ أمر طبيعى؛ بل شيءٌ حتمى، لأن الرسالة والوحى ليسا من الأشياء التى يستهان بها، أو لا يأسف على فواتها، ولذا فإن حزنه ﷺ ذاك مما يحسب له، ويحمد عليه، ولا ينبغى أبدًا أن يُتَّهَمَ فيه بقادحٍ أو أن يُطْعن عليه بسببه، قال الإسماعيلى: كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحى، فيتدرج فيه ويتمرن عليه، فشق عليه فتوره، إذ لم يكن خوطب عن الله تعالى بعد: أنك رسول

(٢١١) ينظر: القاموس المحيط ٢/ ١١٠، ١١١.

الله ومبعوثٌ إلى العباد، فأشفق أن يكون ذلك أمرًا بدئ به ثم لم يرد استتمامه، فحزن لذلك حتى إذا اندرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يَرِدُ عليه: فتح الله له من أمره بما فتح(٢١٢).

ومن ثم ذُكر أن الوحى أبطأ عن رسول الله ﷺ فى بعض الأوقات، كما ثبت ذلك فى الصحيح عند تفسير سورة الضحى، وما ذكره السيوطى فى سبب نزولها، وسبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف:٢٣، ٢٤](٢١٣).

بل كان النبى ﷺ يأنس بنزول جبريل ويشتاق إليه إذا تأخر نزوله، ففى صحيح البخارى وجامع الترمذى ومسند الإمام أحمد من حديث عبدالله بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝﴾ [مريم:٦٤].

وبعد أن سردنا لفظ حديث عائشة المتفق عليه فى بدئ الوحى، وتعرفنا بإيجاز على بعض معانيه: نتوقف عند بعض أجزائه لنجلى الحقائق التالية:

وفى قول عائشة: «ثم حُبِّبَ إِلِيهِ الخَلاء» دليل على أن هذا الأمر لم يكن من عند نفسه، ولا بتفكير منه ﷺ، ولا بإعداد لذلك كما زعم بودلى، ومن لفَّ لفَّه، وإنما كان هذا بإلهام من الله تعالى

---

(٢١٢) ينظر فى ذلك: الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/١٣١، وفتح البارى ١/٢٧، ٢٨، و١٢/٣٦٠، ٣٦١، وعمدة القارى ١/٥٥، ٥٦.

(٢١٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب: تفسير سورة الضحى ٨/٧٠٩: ٧١١، وأسباب النزول للسيوطى ص١١٥، ١٨١، ١٨٢، وحديث: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» أخرجه البخاري ح٣٢١٨ و٤٧٣١ و٧٤٥٥ واللفظ له، والترمذي ح٣١٥٨، وأحمد ح٢٠٤٣ و٢٠٧٨ و٣٣٦٥.

له ﷺ، ومن ثم كان الفعل – حُبِّبَ – مبنيا للمفعول، قال الحافظ ابن حجر لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كلٌّ من عند الله، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث الشر، أو يكون ذلك من وحى الإلهام(٢٢٩).

ورواية ابن إسحاق تصرح بذلك إذ فيها تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وحَبَّبَ الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده»(٢٣٠).

وما وقع من النبى ﷺ عند مفاجأة الوحى له أول مرة فإنه مثل ما حدث لكليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمره ربه بإلقاء العصا:﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]، ففر خائفًا كما وصفه الله عز وجل فى كلامه العزيز: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ حتى طمأنه الله وآنسه بقوله سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص] ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]، فهذا الفزع أمر فطرى، وشئ طبيعى، لايُذَمُّ به العبد، ولايعاتب عليه، ولا يُنْتَقَصُ به، والله أعلم.

وفى قولها: «حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ...»: أوضح دلالة على أن النبى ﷺ كان فى غاية التيقظ والانتباه حين جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ -لأول مرة- بالآيات الأولى من صدر سورة العلق.

وهذا الحديث الصحيح أبلغ رد على الرواية الضعيفة التى ذكرها ابن إسحاق، وتناقلها عنه

---

(٢٢٩) فتح البارى ١/٢٢، ٢٣ وراجع ما تقدم ص١٢٦، وص١٤٣ وما بعدها.

(٢٣٠) والسيرة النبوية لابن هشام ١/٢٣٤ وسندها صحيح، قال ابن اسحاق فذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها حدثته أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به: الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

غيره من كُتَّاب السيرة ؛ حتى بعد أن تجاوزت مرحلة الجمع والتصنيف إلى مرحلة النقد والتمحيص، فهذا آخر كتاب وَقَفْتُ عليه فى هذا العلم يقول فيه صاحبه(٢٣١): أما الخبر الذى أورده ابن إسحاق عن كيفية بدء الوحى، والذى قال فيه «فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ...» فهو يخالف فى الظاهر حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخارى ومسلم الذى فيه التصريح بأن مجئ الوحى كان فى حالة اليقظة، وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحى، ولذا قال السهيلى: وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبى ﷺ جاءه جبريل فى المنام قبل أن يأتيه فى اليقظة، توطئة وتيسيرًا عليه ورفقا به، لأن أمر النبوة عظيم، وعبئها ثقيل والبشر ضعيف، وقال ابن كثير بما قاله السهيلى ثم زاد: « ...وقد جاء مصرحا بهذا فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى، أنه رأى ذلك فى المنام، ثم جاءه الملك فى اليقظة» وقال فى مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه فى اليقظة صبيحة ليلة إذ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم»(٢٣٢).

وقال أحد شيوخنا المعاصرين: لقد نقل ابن إسحاق أن أول نزول جبريل عليه كان فى الرؤيا إيناساً له، وتمهيداً للمواجهة فى اليقظة، قال ابن إسحاق... ثم ذكر الرواية سنداً ومتناً إلى الآيات الخمسة الأولى من سورة العلق، ثم قال: وكان هذا الموقف قبل نزول جبريل عليه فى اليقظة، وفى شهر رمضان الذى نزل عليه فيه يقظة تهيئة وتمهيداً وإيناساً وإعداداً(٢٣٣).

---

(٢٣١) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية للدكتور مهدى رزق الله أحمد. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٢٣٢) المصدر السابق ص١٤٨، ١٤٩، وانظر أيضًا الروض الأُنف ٢/ ٣٩٢، ٣٩٣، والبداية والنهاية ٣/ ٤، ٥، ١٤، ١٥.

(٢٣٣) ينظر كتاب: قبس من نور النبوة ص١٢، ١٣، تحت عنوان: «الوحى إلى الرسول ﷺ» للأستاذ الدكتور عزت

والذى أراه أن رواية ابن إسحاق ضعيفة سندًا ومتنًا، ولا حاجة لكل هذه الفروض والاحتمالات التى حاول بها العلماء التوفيق بينها وبين حديث عائشة المتفق عليه.

لَمْ يُوحَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ مَنَامًا

أجمع أهل العلم من المفسرين وغيرهم على أن القرآن الكريم لم يوحَ إلى النبى ﷺ شيء منه منامًا، وإذا وُجد فى بعض الأحاديث ما يتوهم منه ذلك: فإنهم فسروه بما كان يلاقيه ﷺ من ثقل الوحى وشدته، فيظن البعض أنه نائم، وليس كذلك فى الحقيقة؛ بل هو متفرغٌ للوحى، منشغلٌ به عن كل شيء حوله، كما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ هَلْ تُحِسُّ بِالْوَحْيِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ! أَسْمَعُ صَلاصِلَ ثُمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تَفِيضُ»(٢٣٩).

وفيما يلى ذكر لتوجيهات العلماء حول نزول سورة الكوثر؛ لأنه أصرح حديث يمكن أن يَفْهَمُ منه بعض الناس أن شيئًا من القرآن أوحى إلى النبى ﷺ فى المنام ولفظه عند الإمام مسلم بسنده، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ

عطية.

(٢٣٩) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٢ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحت رقم ٧٠٧١ والعجب من الشيخ شعيب الأرنؤوط حيث ضعف هذا الحديث من أجل ابن لهيعة!! وذلك فى تحقيقه للمسند ١١/ ٦٤٢، والحق كما قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى، وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٨/٢٥٦ لأن: عبد الله بن لهيعة بن عقبة المصرى؛ وثقه أحمد وقال: من كان مثل ابن لهيعة بمصر فى كثرة حديثه، وضبطه، وإتقانه؟!! وراوى هذا الحديث عنه هو: قتيبة بن سعيد، كان يتتبع أصوله، وشيخه يزيد بن أبى حبيب: ثقة، فقيه، مات قبل ابن لهيعة بِنَيِّفٍ وأربعين سنة، فحديثه عنه قبل الاختلاط، وقد قال الحافظ الذهبى عن ابن لهيعة: حدث عنه طائفةٌ قبل أن يكثر الوهم فى حديثه، فحديثهم عنه أقوى، وبعضهم يصححه، ولا يرتقى إلى هذا. تذكرة الحفاظ ١/٢٣٧. والتهذيب ٥/٣٧٣: ٣٧٩.

رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ! إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»(٢٤٠).

قال الإمام الرافعى فى أماليه: فَهُمْ فَهِمُوا من الحديث أن سورة الكوثر نزلت فى تلك الإغفاءة، وقالوا: من الوحى ما كان يأتيه فى النوم لأن رؤيا الأنبياء وحى، قال: وهذا صحيح – يعنى أن الرؤيا وحى – لكن الأشبه أن يقال: القرآن كله نزل فى اليقظة، وكأنه خطر له فى النوم سورة الكوثر المنزلة فى اليقظة، أو عُرض عليه الكوثر الذى وردت فيه السورة، فقرأها عليهم وفسرها لهم، قال: وورد فى بعض الروايات أنه أغمى عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى، قال الحافظ السيوطى: الذى قاله الرافعى فى غاية الاتجاه، وهو الذى كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول لأن قوله: «أنزل على آنفًا» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نقول: نزلت فى تلك الحالة، ليس الإغفاء إغفاء نوم، بل الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا.

والتوجيه الأول الذى ذكره الإمام الرافعى: أنه ﷺ خطر له فى النوم سورة الكوثر المنزلة

---

(٢٤٠) (أَغْفَى) فسرها النووى بالنوم، (فَيُخْتَلَجُ) أى: يطرد ويبعد عن الحوض أو نهر الكوثر، قال النووى: يختلج، أى: ينتزع ويُقتطع. والحديث فى صحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب: حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة ١١٢/٤، ١١٣ شرح النووى، ومسند الإمام أحمد ١٥٢/٣، وفى جامع الترمذى: كتاب التفسير/ باب: ومن سورة الكوثر ٤١٨/٥، ٤١٩ مختصرًا، وقال الترمذى: حسن صحيح. وينظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٣/١.

فى اليقظة من قبل، هو أيضا صحيح، وأنه لا يقل شيئًا عن التأويل الثانى الذى رجحه الإمام السيوطى، لأن الأدلة تدعمه وتؤكده أيضا.

فالصحيح أن نقول: إن سورة الكوثر نزلت أكثر من مرة، فَحَدَّثَ كلُّ صحابىٍّ بما شاهده ورآه، فأنس وهو من أهل المدينة روى ما حدث للنبى ﷺ فى مسجد المدينة، ففى رواية على بن حُجْرٍ أحد شيخى مسلم اللذين روى عنهما الحديث: «بَيْنَا النبى ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ..» الحديث.

وسورة الكوثر مكية فى قول أكثر أهل العلم، قال الإمام الشوكانى: وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة: «أن سورة الكوثر نزلت بمكة» وبه قال الكلبى ومقاتل، وهى مدنية فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة(٢٤١).

والمثبت فى المصاحف المطبوعة: أن سورة الكوثر مكية نزلت بعد سورة العاديات، وهذه رواية من شهد نزولها بمكة من الصحابة.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح(٢٤٢) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا أُنْزِلَتْ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، شَرَابُهُ أَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنْ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

وقال الحافظ أبو عبد الله الحاكم فى التفسير من كتابه المستدرك: فأما قوله عز وجل:

---

(٢٤١) فتح القدير للشوكانى ٥/ ٥٠٢.

(٢٤٢) صححه المرحوم أحمد شاكر تحت أرقام ٥٣٥٥، و٥٩١٣ واللفظ له، ٦٤٧٦ وهو آخر حديث فى مسند عبد الله بن عمر، والترمذى فى جامعه: كتاب تفسير القرآن/ باب: ومن سورة الكوثر ٥/ ٤١٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فقد اختلف الصحابة فى تأويلها، وأحسنها ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى روايتين الأولى منهما – فذكرها– بسنده من كلام علىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو وضع يمينك على شمالك فى الصلاة، والرواية الثانية – ذكرها– بسنده، عن علىّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ قال النبى ﷺ: «ياجبريل ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى؟» قال: إنها ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت –أى: أحرمت– للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة فى السموات السبع، قال النبى ﷺ: رفع الأيدى من الاستكانة التى قال الله عز وجل: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾[المؤمنون](٢٤٣).

وهذه الرواية مع ما فيها من ضعف، لكنها مع ما قبلها تفيد ما قرره العلماء: أن السورة الواحدة قد يتكرر نزولُها، وليس فى رواية ابن عمر وعلىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يشير إلى نزولها منامًا، والله أعلم.

---

(٢٤٣) المستدرك ٢/٥٣٧، ٥٣٨، وتعقبه الذهبى فى الرواية الثانية بقوله: إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه، وأصبغ شيعى متروك عند النسائى، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى: كتاب الصلاة/ باب: رفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس فيه ٢/٧٥، ٧٦ من طريق الحاكم، وبلفظه، والآية ٧٦ من سورة المؤمنون، كما عزا الإمام الشوكانى الحديث إلى ابن أبى حاتم، وابن مردويه. فتح القدير ٥/٥٠٤.

فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا

بعد أن ذكر الإمام البخارى حديث عائشة بطوله على وجهه الصحيح عدة مرات بإسناده الذى قال فيه: «حَدَّثنا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثنا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ... الحديث» أورد فى المرة الأخيرة له بهذا الإسناد ثم رواه بإسناد آخر ذُكِرت فيه زيادةٌ فى آخره وبَيَّن مع غيره من سائر المحدثين انقطاع إسناد هذه الزيادة وَوَهَنَها من جهتى السند والمتن جميعًا، وفيما يلى نص هذين الإسنادين للحديث مع الزيادة التى وردت بالإسناد الثانى عند الإمام البخارى؛ مع تعقيبات العلماء على نقضها وردها ورفض ما جاء فيها:

قال الإمام البخارى: حَدَّثنا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثنا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ (ح) وحَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثنا عَبْدُالرَّزَّاقِ، حَدَّثنا مَعْمَرٌ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ... وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ، غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ».

فأول من روى هذه الزيادة هو الإمام عبدالرزاق فى مصنفه عن معمر عن الزهرى بلاغًا فى آخر الحديث الموصول، وأخرجها عنه كذلك الإمام أحمد فى المسند، والبخارى فى التعبير عن عبدالله بن محمد، عن عبدالرزاق، وابن حبان، وأبو نعيم فى دلائل النبوة من طريقه[٢٤٤]، كلهم

---

(٢٤٤) أخرجها عبدالرزاق فى مصنفه: كتاب المغازى/ باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ٥/ ٣٢١: ٣٢٣، عن معمر عن الزهرى .. به، والإمام أحمد فى مسنده ٦/ ٢٣٢، ٢٣٣ من طريق معمر عن الزهرى.. به، وابن حبان فى صحيحه:

ينقل عن الزهرى قوله فى الزيادة: «فيما بلغنا»، والإمام البخارى باتفاق جميع المحدثين هو أول من اعتبر السند المتصل ركنا رئيسًا فى صحة الحديث، وهو أول من صنف فى الصحيح المجرد، وسمى كتابه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه.

ومدار هذه الزيادة على عبدالرزاق، وهو إمام ثقة، قال فيه الحافظ الذهبى: الحافظ الكبير، صاحب التصانيف، وثقه غير واحد، وحديثه مخرج فى الصحاح، وله ما ينفرد به(٢٤٥).

وربما يقال: إن عبدالرزاق قد انفرد بهذه الزيادة عن معمر من بين سائر أصحابه، لأن كل من روى الحديث غيره عن معمر لم يدرج فيه هذه الزيادة.

ومعمر: إمام حُجة، أحد الأعلام، قال ابن معين: هو من أثبت الناس فى الزهرى(٢٤٦).

والزهرى: أعلم الحفاظ، فكيف يُقبَلُ ما رواه بلاغًا بلا إسناد؟!! وهذا هو أصل ضعف إسناد هذه الزيادة، روى البيهقى عن يحيى بن سعيد قال: مرسل الزهرى شر من مرسل غيره، لأنه حافظ، وكلما قَدِرَ أن يُسَمِّىَ سَمَّى! وإنما يَترُكُ من لا يستجيز أن يُسمِّيَه(٢٤٧).

وهذه الزيادة من هذا القبيل، حيث إنها منقطعة قد رواها الزهرى بلاغًا، وهو من صغار التابعين، وجل روايته عنهم، وأقلها عن صغار الصحابة(٢٤٨)، فكيف بالكبار منهم، لاسيما من شهدوا بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ!!!.

الإحسان بترتيب ابن حبان: كتاب الوحى ١/١١٩، ١٢٠ من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهرى.. به، بمثل رواية عبد الرزاق، وينظر: دلائل النبوة لأبى نعيم ص١٦٨: ١٧٠، ومقدمة ابن الصلاح فى معرفة أنواع علوم الحديث: الثالثة والسادسة من مسائل الصحيح.

(٢٤٥: ٢٤٧) ينظر تذكرة الحفاظ ١/١٠٨: ١١٣، ١٩٠، ٣٦٤ وتدريب الراوى ١/١٩٦، ٢٠٥.

(٢٤٨) ينظر: تقريب التهذيب ص٧٥ المقدمة.

إذًا فما ورد فى هذه الزيادة غير ثابت عن النبى ﷺ، ولم يقل شيئًا منه ولا فَعَلَهُ، وقد نبه على ذلك كل من ذكروا هذه الزيادة من الأئمة بأمرين:

الأول: فى الرواية ذاتها، إذ فيها: حزن النبى ﷺ فيما بلغنا... إلخ، فلا سند يعتمد عليه، ولا رواية يبحث عنها، أو يركن إليها.

الثانى: أنهم يذكرون عقبها حديث جابر الصحيح فى فترة الوحى إلى الزهرى بالسند نفسه الذى يروونه عنه فى حديث عائشة الأول، ويفهم من صنيعهم ذاك: أن الزهرى نفسه كان يحدث بحديث جابر عقب حديث عائشة.

ففى مصنف عبدالرزاق بعد فراغه من حديث عائشة: قال معمر، قال الزهرى: فأخبرنى – فحرف الفاء هذا يفيد العطف على رواية سابقة، والتعقيب بأخرى لاحقة، وذلك فى مجلس واحد– أبو سلمة بن عبدالرحمن، عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى، فقال فى حديثه: «بينا أنا أمشى سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسى فإذا الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض، فَجَئِثْتُ(٢٤٩) منه رعبًا، ثم رجعت فقلت: زملونى، زملونى، ودثرونى، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر](٢٥٠).

وقال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، قال: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن

---

(٢٤٩) بفتح الفاء والجيم بعدهما همزة مكسورة فمثلثة ساكنة، وفى رواية (فجثثت) بمثلثة بدل الهمزة، ومعناهما: فزعت، وذعرت، وخفت، النهاية ١/٢٣٢، ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢٥٠) مصنف عبد الرزاق: كتاب المغازى، بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ٥/٣٢٣، ٣٢٤، ودلائل النبوة لأبى نعيم ص١٧٠.

عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين، فذكر حديثها المتقدم فى بدء الوحى، إلى قولها: ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى، ثم قال عقبه: قال ابن شهاب: وأخبرنى أبو سلمة بن عبدالرحمن أن جابر بن عبدالله الأنصارى قال... فذكر الحديث بنحو رواية عبدالرزاق، غير أنه زاد فى آخره: ﴿فحَمِىَ الوحى وتتابع﴾(٢٥١).

قال الحافظ ابن حجر: قوله: «قال ابن شهاب: وأخبرنى أبو سلمة» إنما أتى بحرف العطف، ليعلم أنه معطوف على ما سبق، كأنه قال: أخبرنى عروة بكذا، وأخبرنى أبو سلمة بكذا، وأخطأ من زعم أن هذا معلق، وإن كانت صورته صورة التعليق، ولو لم يكن فى ذلك إلا ثبوت الواو العاطفة، فإنها دالة على تقديم شيء عطَفَتْه –وهو حديث عائشة المتقدم–، ثم قال ابن شهاب –أى بالسند المذكور– وأخبرنى أبو سلمة بخبر آخر، وهو حديث جابر عن فترة الوحى(٢٥٢).

وكذلك الإمام أحمد، مع أنه قد جمع فى مسنده مرويات كل صحابى على حدة، دون الالتزام بالوحدة الموضوعية، لكنه لما روى حديث عائشة المتقدم عن عبدالرزاق عن معمر عن الزهرى، قال: فذكر حديثًا(٢٥٣)، لعله يشير إلى حديث جابر الذى أخرجه قبل ذلك فى المسند من طريق يحيى بن أبى كثير، قال: سألت أبا سلمة: أى القرآن أنزل قبل؟ فقال: ياأيها المدثر، فقلت: أو اقرأ؟ فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: ﴿جاورت بحراء شهرًا فلما

---

(٢٥١) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحى ٢٧/١ ح٤، وفى كتاب التفسير/ باب تفسير سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾٧١٥/٨، وأخرجه فى مواطن أخرى من صحيحه، ينظر كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر ٦٧٦/٨: ٦٧٩، وفى كتاب الأدب باب رفع البصر إلى السماء ٥٩٥/١١، ٥٩٦.

(٢٥٢) فتح البارى ٢٨/١.

(٢٥٣) مسند الإمام أحمد ٢٣٢/٦، ٢٣٣.

قضيت جوارى، نزلتُ، فاستبطنت بطن الوادى، فنُودِيتُ، فنظرت أمامى وخلفى، وعن يمينى وعن شمالى، فلم أر أحدًا، ثم نُوديتُ فرفعتُ رأسى، فإذا هو على العرش فى الهواء –يعنى جبريل– فأخذتنى رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثِّرونى، دثِّرونى، فدَثَّرونى وَصَبُّوا علىَّ ماءً، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾[٢٥٤].

وهكذا أخرجه مسلم، وابن حبان فى صحيحيهما عقب إخراجهما لحديث عائشة، وقال ابن حبان: إن أول ما أُنزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وفى خبر عائشة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عز وجل أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو فى الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته: دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه فى بيت خديجة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ الآيات، من غير أن يكون بين الخبرين تهاتر أو تضاد[٢٥٥].

وقال الإمام مسلم فى صحيحه: وحدثنى محمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق، أخبر معمر، قال: قال الزهرى: فذكر بهذا الإسناد حديث عروة عن عائشة، وحديث أبى سلمة عن جابر[٢٥٦].

فدل هذا كله، على أن ابن شهاب الزهرى كان يحدث بالحديثين معًا، كما روى عنه غير

---

(٢٥٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠٦، ٣٠٧، ٣٩٢.

(٢٥٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/١٤٣: ١٤٥، وصحيح ابن حبان: كتاب بدء الوحى/ باب ذكر القَدْر الذى جاور المصطفى ﷺ بحراء عند نزول الوحى عليه ١/١٢١، ١٢٢، وينظر البرهان فى علوم القرآن ١/٢٠٦: ٢٠٨.

(٢٥٦) صحيح مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين ١/١٢٩: ١٤٥.

واحد مما سبق بيانه، وأن الصواب فى رواية حديث عائشة بدون تلك الزيادة، كما أخرجه مسلم، والبخارى فى جُلِّ مواضعه، وغيرهما والله أعلم.

وأيضًا إن متنها ونصها فيه نكارة ومخالفة لما رواه الثقات الأثبات: أن مدة فترة الوحى كانت شهرًا واحدًا كما فى صحيح مسلم وغيره كما فى حديث جابر عند الإمام مسلم وغيره؛ بل ذكر ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحى بحراء مكث أيامًا لا يرى جبريل، فحزن حزنًا شديدًا، ولا تعارض بينهما فالشهر أيام معدودات كما ورد ذلك فى صيام رمضان.

ثم مَن هو هذا الراوى المعدوم الذى كان يتتبع رسول الله ﷺ فى الفترة الأولى من بدء الوحى؟!! ومَن الذى أخبره بها يعتمل فى نفس رسول الله ﷺ وما يجيش فى صدره حتى يُخبِرَ عنه بهذا الخبر؟!!

«وفتر الوحى؛ حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنا غدا منه مِرارًا كى يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل، لكى يُلقىَ منه نفسه: تبدى له جبريل فقال: يامحمد! إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له: مثل ذلك».

وهناك رَدٌ آخَرُ لشيخِنَا الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث كتب تحت عنوان: رواية موهمة، ما حاصله:

وهذه الرواية – يعنى ما ذكره الزهرى بلاغًا من زيادة فى حديث بدء الوحى– ليست على شرط الصحيح، لأنها من البلاغات، وهى من قبيل المنقطع، والمنقطع من أنواع الضعيف، ولعل البخارى ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحى، الذى لم تذكر فيه هذه الزيادة.

ونحن لا ننكر أنه ﷺ قد حصلت له حالة أَسًى وحُزْنٍ عميقين على انقطاع الوحى خشية أن يكون ذلك عدم رضا من الله، وهو الذى يهون عليه كل شيء من لأواء الحياة، وشدائدها.

والتعليل الصحيح لكثرة غشيانه ﷺ فى مدة الفترة رؤوسَ الجبال وشواهقَها أن الانسان إذا حصل له خير أو نعمة فى مكان ما، فإنه يحب هذا المكان، ويتلمس فيه ما افتقده، فلما انقطع الوحى: صار ﷺ يكثر من ارتياد قمم الجبال، ولاسيما حراء، رجاء أنه إن لم يجد جبريل فى حراء، فليجده فى غيره، فرآه راوى هذه الزيادة وهو يرتاد الجبال فظن أنه يريد هذا، وقد أخطأ الراوى المجهول فى ظنه قطعًا.

وليس أدل على ضعف هذه الزيادة وتهافتها من أن جبريل كان يقول للنبى كلما أوفى بِذِرْوَةِ جبل: «يامحمد إنك رسول الله حقًا» وأنه كرر ذلك مرارًا، ولو صح هذا لكانت مرة واحدة تكفى فى تثبيت النبى وصرفه عما حدثته به نفسه كما زعموا(٢٥٧).

وبهذا نكون قد تعرفنا -بحمد الله وتوفيقه- على بعض الجوانب من حياته ﷺ الأولى قبل نزول الوحى عليه ﷺ؛ مع الاستدلال على كل منها، ودفع ما يثار من شبه حول بدئ الوحى إلى رسول الله ﷺ؛ ليتأكد لدى الجميع: أنه ﷺ من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأن الله عز وجل اختاره واصطفاه لإتمامِ نعمته وإكمال دينه.

وهذا الوحى قد جعل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيه الروح التى أحيت العالم من مماته، وابتعثته من رقاده، وكان هو النور الذى أنقذ مَن آمن به مِن دياجير الظلمات، ومتاهات الأوهام والبدع والضلالات، كما ورد التصريح بذلك فى كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

(٢٥٧) ينظر السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ١/٢٦٨: ٢٧٠.

[الأنعام:١٢٢]، وقال جَلَّجَلَالُهُ فى أول سورة إبراهيم: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ ۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

فمن آمن به وعمل بمقتضاه ثبت له الفلاح فى الدارين، وتحققت له السعادة فى الحياتين، وكان من الفائزين، قال تبارك اسمه فى كلامه العزيز: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤](٢٦١).

وبهذا كانت حياته ﷺ قبل البعثة دليلاً على صدقه بعدها، ولسوف يتأكد ذلك من وقائع سيرته ﷺ من البعثة إلى الهجرة، وبالله الثقة ومنه التوفيق.

فِقهُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ وفَضلُهم

ونتحدث أولاً عن أول من شهد هذا الضياء: فاهتدى به ونال كل نعماء، فنبدأُ بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وورقة بن نوفل رضى الله عنهما اللذين ورد ذكرهما فى حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ثم نُتبعهما أولَ السابقين فى إعتناق هذا الدين.

---

(٢٦١) وقد خصصت دراسةً مستقلةً عن جمع القرآن مرتب السور والآيات بين يديه ﷺ وفى عهد خلفائه الراشدين، كى يكتمل بحثُ الوحى، والحمد لله على التوفيق.

١- خَدِيجَةُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَآزَرَتْ رَسُولَهُ ﷺ

ومن أصح ما نقل من كلام الأئمة، ما ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: فضل خديجة بنت خويلد: زوجة رسول الله ﷺ عن الزبير بن بكار قال: وأم بنى رسول الله ﷺ وبناته غير إبراهيم، خديجة بنت خويلد، وكانت فى الجاهلية تسمى: الطاهرة، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب.

وقال الطبرانى: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وهى أم ولده الذكور والإناث إلا إبراهيم فإنه من سُرِّيَّتِهِ مارية القبطية، وعن الزهرى قال: لم يتزوج رسول الله ﷺ على خديجة حتى ماتت، رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح(٢٦٢).

قال ابن إسحاق: وآمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه ﷺ من الله وآزرته – أى: أعانته – على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فخفف الله بها عن رسوله، لا يسمع شيئًا يكرهه: من ردٍ عليه، وتكذيب له؛ فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها، إذا رجع إليها فتثبته، وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها(٢٦٣).

وهى أول مَن آمن بالنبى ﷺ من بنى آدم، قال الحافظ ابن حجر فى ترجمتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وهى أول من صدقت ببعثته مطلقًا، وأصرح ما وقفتُ عليه فى نسبتها إلى الإسلام – وأنها أول من آمنت بالرسالة–: ما أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند ضعيف، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أشعَرْتِ بأن الذى كنت أراه قد بدا لى، وبسط لى بساطًا

---

(٢٦٢) مجمع الزوائد ٢١٨/٩: ٢٢٠.

(٢٦٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٠/١، وفقه السيرة للغزالى ص١٠٢.

كريمًا، وبحث لى من الأرض، فنبع الماء فعلمنى الوضوء، فتوضأت وصليت ركعتين» فقالت خديجة: أرنى كيف أراك؟! فأراها النبى ﷺ: ثم صلت معه، وقالت: أشهد أنك رسول الله(٢٦٤).

وأقوى مما ذكره الحافظ ابن حجر، وإن كان فيه نوع من التخصيص: ما رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، عن أبى رافع قال: «أول من أسلم من الرجال على بن أبى طالب، وأول من أسلم من النساء خديجة» وكذلك: ما أخرجه الحاكم بسنده، وأقره عليه الذهبى، عن ربيعة السعدى قال: أتيت حذيفة بن اليمان وهو فى مسجد رسول الله ﷺ، فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد ﷺ»، وأخرج نحوه موقوفا على ابن شهاب الزهرى من قوله، وقال ابن سَيِّدِ الناس تحت عنوان: ذكر أول الناس إيمانًا بالله ورسوله ﷺ: «أول الناس إيمانًا خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب فيما أتت به الآثار، وذكره أهل السير والأخبار، منهم: ابن شهاب، وقتادة وغيرهما، ثم روى بسنده عن الزهرى قال: «كانت خديجة أول من آمن برسول الله ﷺ» ثم قال ابن سيد الناس: وهو قول موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدى والأموى، وغيرهم»(٢٦٥).

---

(٢٦٤) الإصابة ١٢/٢١٣: ٢١٨، ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ١٧٤، ١٧٥ من حديث طويل، وفى سنده: النضر بن سلمة بن شاذان المروزى، كان مقيمًا بمدينة رسول الله ﷺ ويكنى: أبا محمد، قال ابن حبان: سكن مكة، ولا تحل الرواية عنه إلَّا للاعتبار، وقال أبو حاتم: كان يفتعل الحديث، ولم يكن بصدوق. الجرح والتعديل ٨/ ٤٨٠، وميزان الاعتدال ٤/٢٥٦، ٢٥٧.

(٢٦٥) راجع: مجمع الزوائد ٩/٢١٩، ٢٢٠، والمستدرك على الصحيحين: كتاب معرفة الصحابة ٣/ ١٨٤، وعيون الأثر ١/١٧٨.

فَضْلُهَا وَرَجَاحَةُ عَقْلِهَا وَالأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ

وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التى تدل على فضلها ورجاحة عقلها، وتؤكد ما ذكرناه عنها قبلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع ذكر استنباطات العلماء من هذه الأحاديث:

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَتَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ: فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ»(٢٦٦).

ومما يدل على وفور فقهها، ورجاحة عقلها، وصحة فهمها أنها قالت – كما ورد فى بعض روايات الحديث عنها – «إن الله هو السلام ومنه السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته» حيث لم تقل فى ثنائها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وعليه السلام» كما وقع من بعض الصحابة، ففى الحديث المتفق عليه، عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلامُ عَلَى جِبْرِيلَ، السَّلامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلامُ عَلَى فُلانٍ وَفُلانٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ

---

(٢٦٦) صحيح البخارى: كتاب مناقب الأنصار/ باب: تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٧/ ١٣٣، ١٣٤، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٤/ ١٨٨٧، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٢٣١، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، ذكر البيان بأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أقرأ خديجة من ربها السلام ٩/ ٧٣، ومستدرك الحاكم: كتاب معرفة الصحابة ٣/ ١٨٥ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأقره الذهبى، ثم أخرج له شاهدًا من حديث أنس بن مالك ٣/ ١٨٦ وصححه على شرط مسلم.

ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرْ بَعْدُ مِنْ الْكَلامِ مَا شَاءَ»(٢٦٧).

أما خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد عَرَفت بثاقب فكرها: أن الله لا يُرَدُّ عليه السلام، كما يُرَدُّ على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسماء الله، وهو أيضًا دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد على الله، فكأنها قالت: كيف أقول عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل، فلا يليق بالله إلا الثناء عليه ولذا جعلت مكان ردِّ السلام عليه: الثناءَ عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله، وما يليق بغيره فقالت: «وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ» ثم قالت: «وعليك يا رسول الله السلام» ويستفاد منه: رد السلام على من أرسل السلام، وعلى من بلغه، وقد بلَّغها جبريل من ربها السلام بواسطة النبى ﷺ احترامًا للنبى ﷺ(٢٦٨).

بِشَارَتُهَا بِبَيْتٍ فِى الْجَنَّةِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ

كما أمره أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب إكرامًا لصنيعها وإخلاصها، ومكافأةً على سعيها وسبقها، وجزاءُ الفعل غالبًا ما يذكر بلفظه، وإن كان أشرف منه، وكثيرًا ما يكون من جنسه، وإن كان أكرم منه، وصدق الله إذ يقول: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَـٰنِ

---

(٢٦٧) صحيح البخارى: كتاب الاستئذان/ باب: السلام اسم من أسماء الله تعالى ١١/ ١٣، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ١/ ٣٠١، ٣٠٢، وسنن أبى داود: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ١/ ٢٥٤، وسنن النسائى: كتاب الافتتاح/ باب: كيفَ التشهد الأول ٢/ ٢٤٠، وسنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب: ما جاء فى التشهد:١/ ٢٩٠، ومسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٢، ٤١٣، وسنن الدارمى: كتاب الصلاة/ باب: التشهد الأول ١/ ٢٥٠، ٢٥١، ومسند الطيالسى ص ٣٣، ٣٤، ومنحة المعبود ١/ ١٠٢، ومصنف عبدالرزاق: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ٢/ ٢٠٠، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب الصلاة/ باب: مبتدء فرض التشهد ٢/ ١٣٨.

(٢٦٨) فتح البارى ٧/ ١٣٩، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٢٥.

﴿إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

قال العلماء فى معنى الحديث «مِنْ قَصَبٍ» المراد به: لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف، قال السهيلى: النكتة فى قوله (مِنْ قَصَبٍ) ولم يقل من لؤلؤ، أن فى لفظ القصب: مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، قال الحافظ ابن حجر: وفى القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط؛ كما وقع لغيرها، واختيار لفظ (البيت) لأن مرجع أهل بيت النبى ﷺ إليها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث نشأ علىٌّ فى بيتها، وهو صغير، ثم تزوج من ابنتها فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكان منهما الحسن والحسين، وهؤلاء هم أهل البيت كما صرح به رسول الله ﷺ فى حديث أخرجه الترمذى وأحمد وصححه ابن حبان والحاكم، أن النبى ﷺ حين أنزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب]، فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَجَلَّلَهُ بِكِسَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»(٢٦٩).

وقال السهيلى: لذكر (البيت) معنىً لطيفٌ، لأنها كانت ربةَ بيت قبل المبعث، ثم صارت ربةَ بيت فى الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض فى أول يوم بُعث النبىُّ ﷺ بيتَ إسلام إلا بيتها، وهى فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها.

---

(٢٦٩) الحديث سبق تخريجه ص١٠٢ ضمن الهامش رقم١٦٠.

وقال أبو بكر الإسكافى فى فوائد الأخبار: المراد به بيت زائد على ما أعدَّ الله لها من ثواب عملها، ولهذا قال: «وَلا نَصَبَ» أى: لم تتعب بسببه، «والصَخَبَ»: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والمناسبة فى نفى هاتين الصفتين التعب والمنازعة عن بيتها فى الجنة: أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أجابت رسول الله ﷺ إلى الإسلام طوعًا من بادئ الأمر، فلم تحوجه إلى رفع صوت، ولا منازعة، ولا تعب فى ذلك؛ بل: أزالت عنه ﷺ كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذى بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها(٢٧٠).

حِفْظُهُ ﷺ لِوُدِّهَا وَعَهْدِهَا

ولقد عرف النبى ﷺ لها قدرها ومنزلتها فى حياتها وحفظ لها ودها وعهدها بعد وفاتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أخرج الإمام أحمد، والحافظ ابن عبدالبر، من طرق إلى: مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث(٢٧١) عن الشعبى، عن مسروق، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلتُ: هل كانت إلا عجوزًا، فقد أبدلك الله خيرًا منها، فغضب حتى اهتز مقدَّم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله! مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عز وجل خَيْرًا مِنْهَا: آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ،

---

(٢٧٠) ينظر: فتح البارى ١٣٨/٧.

(٢٧١) مجالد بن سعيد: الجمهور على تضعيفه، لأنه اختلط فى آخر عمره؛ لكن روايته لهذا الحديث مقبولة، قد أخرجها: الإمام أحمد فى مسنده ١١٧/٦، ١١٨ من طريق: عبدالله بن المبارك، عنه، والإمام ابن عبدالبر فى الاستيعاب ٢٨٤/١٢، ٢٨٥ من طريق: ابنه إسماعيل بن مجالد، عنه، وهما من أعلم الناس بحديثه، الأول لإمامته، والثانى لقرابته، قال ابن مهدي: رواية القدماء عنه: كهُشيم، وشعبة، وحماد بن زيد: مقبولة، وقال ابن عدى: له عن الشعبى، أحاديث صالحة، يعني: كما فى سند هذا الحديث حيث تحقق فيه الأمران معًا، قال يعقوب بن سفيان: صدوق، وأخرج له مسلم مقرونًا، ينظر: تهذيب التهذيب ٤٠/١٠، ٤١.

وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عز وجل وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ» قالت عائشة: فقلت فى نفسى: لا أذكرها بسيئة أبدًا.

وفى رواية قالت عائشة:... وقد هلكتْ فى دهر -تعنى خديجة- فغضب رسول الله ﷺ غضبًا ما رأيته غضب مثله قط، وقال: «إن الله رزقها منى ما لم يرزق أحدًا منكن» قلت: يا رسول الله: اعف عنى، والله لا تسمعنى أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشئ تكرهه.

وفى رواية أخرى قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناءِ عليها، واستغفارٍ لها، قال ﷺ: «ورُزِقَتْ منِّى الولد إذ حُرِمْتُنَّهُ منِّى» فغدا علىَّ بها وراح شهرًا(٢٧٢)، أى: فعل ذلك ﷺ زجرًا لها، حتى لا تعود لمثلها.

وأصل الحديث فى الصحيحين وغيرهما، عن عائشة قالت: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ!! فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ» وفى رواية مسلم: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا»(٢٧٣).

---

(٢٧٢) الروايتان ذكرهما الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: فضل خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ﷺ ٩/٢٢٤، وقال: رواه الطبرانى وأسانيده حسنة، وينظر: مسند الإمام أحمد ٦/١١٧، ١١٨ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٣/١٣: ١٥ ح٢١: ٢٣.

(٢٧٣) صحيح البخارى: كتاب مناقب الأنصار (واللفظ له) باب: تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٧/١٣٣، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٤/١٨٨٨، وجامع الترمذى: كتاب المناقب/ باب: فضل خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٥/٧٠٢، وسنن ابن ماجه: كتاب النكاح/ باب: الغيره ١/٦٤٣، ومسند الإمام أحمد ٦/٥٨، ١٥٠، ١٥٤، ٢٧٩، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم/ باب: ذكر إكثار المصطفى ﷺ ذكر خديجة بعد وفاتها ٩/٧٢، ٧٣، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب القسْم والنشوز، غيرة

حقًّا: قد كانت خديجة أم المؤمنين بلا مدافعةٍ: خيرَ نساء هذه الأمة فى الآخرة والأولى، فرضى الله عنها وأرضاها، وجزاها بفضله وكرمه عن دينه ونبيه خير وأوفر الجزاء[٢٧٤].

وقد ذكرنا فى البحث السابق «من نشأته ﷺ إلى بعثته» تحت عنوان: «كَيْفِيَّةُ زَوَاجِهِ ﷺ المُوَافِقَةُ لِاصْطِفَاءِ اللهِ لَهُ كَمَا نَقَلَهَا الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ» أن زواجها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من خير البرية ﷺ كان مكتمل الشروط والأركان وفق النكاح الشرعى الذى أقره الإسلام؛ لكن المستشرقين اتخذوا من الأحاديث الضعيفة مادةً للطعن فى شخصها والنيل من مكانتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بالرغم من وضوح الحق بالبراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

٢- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِى

وكذلك بادر زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ إلى الدخول فى الإسلام، وكان غلامًا لأم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فوهبته للنبى ﷺ لما تزوجها، فصار أحبَّ الناس لديه وأكرمَهم عنده؛ إذْ رفض الذهاب مع والده إلى أهله وعشيرته، وآثر البقاء بجوار رسول الله ﷺ، وهذا دليل على فقهه ورجاحة عقله، وكفاه شرفًا أنه الصحابى الوحيد الذى ذكر الله عز وجل اسمه صريحًا فى كتابه، حيث قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

النساء ووجدهن ٧/ ٣٠٧.

(٢٧٤) ينظر: المزيد من أخبارها، والأحاديث الواردة فى فضلها فى: الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٧: ١١، ١٥٦، ١/١/ ١٤١ ط التحرير، وصحيح البخارى ٣/ ٦١٥، ٧/ ١٣٣، ١٣٤، ٩/ ٣٢٦، ١٠/ ٤٣٥، ١٣/ ٤٥٣، وصحيح مسلم ٤/ ١٨٨٦: ١٨٨٩، ومسند الإمام أحمد ١/ ٨٤، ١١٦، ١٣٢، ١٤٣، ٢٩٣، ٣١٦، ٣/ ١٣٥، ٤/ ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٨١، وصحيح ابن حبان ٩/ ٧١: ٧٣، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٩٤، ٥٩٥، ٣/ ١٦٠، ١٨٤: ١٨٦، وينظر: البداية والنهاية ٢/ ٢٩٣: ٢٩٨، ٣/ ٢: ٢١، وسير أعلام النبلاء ٢/ ١٠٩: ١١٧، ومجمع الزوائد ٩/ ٢١٨: ٢٢٥.

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

قال الزهرى والواقدى: ما نعلم أن أحدًا أسلم قبل زيد بن حارثة.

وقد زوجه رسول الله ﷺ من حاضنته: أم أيمن، فولدت له: أسامة بن زيد؛ الذى كان أحبَّ الناس بعد أبيه إلى رسول الله ﷺ.

كما أكرم اللهُ عز وجل زيدَ بنَ حارثة بالشهادة فى سبيله حيث قُتل وهو أمير فى غزوة مؤتة سنة ٨ من الهجرة مقبلاً غير مدبرٍ، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لى، فسألته فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، قال الحافظ ابن حجر: صحيح؛ فرضى الله عنهم أجمعين(٢٨٣).

٣- أَبُو بَكْرٍ أَوَّلُ السَّابِقِينَ وَأَنْفَعُهُمْ لِلدِّينِ

وكان أول من استجاب للإسلام من الرجال الأحرار ذوى المكانة والشرف صِدِّيق هذه الأمة، وأكملها إيمانًا وأسبقها إلى دين الله؛ أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واسمه: عبدالله بن أبى قحافة عثمان بن عامر القرشى، صحب النبى ﷺ عامًا واحدًا قبل البعثة وقبل الإيمان به، ورافقه طول إقامته بمكة، ولازمه فى الهجرة، وفى الغار، وفى المشاهد كلها، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج فى الناس فى حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، ثم كان أول الخلفاء بعد رسول

(٢٨٣) وقصة زيد، عند: ابن هشام ١/٢٤٧: ٢٤٩، وزاد المعاد ٣/ ٢٠ والإصابة١/ ٤٥ ترجمة أسامة، و٤/ ٤٧: ٥٠ ترجمة زيد.

الله ﷺ توفى سنة ١٣ هجرية عن ثلاث وستين سنة(٢٨٤).

فلما حازَ قصبَ السبقِ إلى اعتناق هذا الدين: آزر رسولَ الله ﷺ ودعا معه إلى الله على بصيرة، فكان بحق أفضل هذه الأمة وأنفعها لدين الله(٢٨٥).

وقد اختلف العلماء فى أى هؤلاء الثلاثة كان أسبق إلى الإسلام أولاً بعد أم المؤمنين خديجة - رضوان الله عليها - وقد أجاب الإمام أبو حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجمع بين هذه الاختلافات: بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالى زيد بن حارثة، ومن الغلمان على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

قال الحافظ ابن كثير: وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم، إذ كان صدرًا معظمًا، ورئيسًا فى قريش مكرمًا، وصاحب مال، وداعية إلى الإسلام، وكان محببًا متألفًا يبذل المال فى طاعة الله ورسوله، قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر رجلا تاجرًا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٢٨٦).

---

(٢٨٤) الإصابة ٦/١٥٥: ١٦١.

(٢٨٥) يراجع: مصنف عبدالرزاق ٥/٣٢٥، وابن أبى شيبه ١٤/٧٤ ط الهند، وما سبق فى أول هذا البحث أن معرفة المبشرات برسول الله ﷺ ليست شرطًا لحصول الإيمان.

(٢٨٦) ينظر: اليسرة النبوية لابن هشام ١/٢٥٠: ٢٥٢، والسيرة لابن كثير ١/٤٣٢.

وذكر الحافظ ابن كثير، عن الحافظ أبى الحسن خيثمة بن سليمان(٢٨٧) بسنده، عن عائشة قالت: خرج أبو بكر يريد رسول الله ﷺ وكان له صَدِيقًا فى الجاهلية، فلقيه فقال: يا أبا القاسم! فُقِدتَّ من مجالسِ قومك، واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها، فقال رسول الله: «إنى رسول الله، أدعوك إلى الله» فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله ﷺ وما كان بين الأخشبين أَحَدٌ أكثر سرورًا منه بإسلام أبى بكر، ومضى أبو بكر، فراح لعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، فأسلموا، ثم جاء الغد بعثمان بن مظعون، وأبى عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمن بن عوف، وأبى سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبى الأرقم، فأسلموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد أسلم بيتُ أبى بكر بإسلامه، ففى صحيح البخارى ح٤٧٦ تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ...»(٢٨٨).

ومما يدل على فضله وسبقه إلى الإسلام، وتصديقه ومؤازرته لرسول الله ﷺ: ما أخرجه البخارى، عن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ»(٢٨٩)، فَسَلَّمَ

---

(٢٨٧) قال الذهبى: الإمام الثقة، مصنِّف فضائل الصحابة، كان جوالاً، صاحب حديث، توفى سنة ٣٤٣ هـ عن ثلاث وسبعين سنة، سير أعلام النبلاء ١٥/٤١٢: ٤١٦ وسنده إلى عائشة كما نقله ابن كثير هكذا: قال حدثنا عبيدالله بن محمد بن عبدالعزيز العمرى قاضى المصيصة، حدثنا أبو بكر عبدالله بن عبيدالله بن إسحاق بن محمد بن عمران بن موسى بن طلحة بن عبيدالله، حدثنى أبى عبيدالله، حدثنى عبدالله بن محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة، قال: حدثنى أبى محمد بن عمران، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، السيرة النبوية لابن كثير ١/٤٣٨، ٤٣٩، وقال الحافظ ابن حجر: هذا سند مسلسل بالطَّلْحيين، الإصابة ٨/٣٨٦، وانظر ما سيأتى فى الهامش ٢٩٥.

(٢٨٨) انظر: البداية والنهاية ط دار الفكر ٣/٢٩، ٣٠ فى قصة إسلام أبى بكر، وما سيأتى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ» هامش٢٠٤.

(٢٨٩) (غَامَرَ) أى: خاصم، والمعنى: دخل فى غمرة الخصومة، والغامر: الذى يرمى بنفسه فى الأمر العظيم كالحرب

وَقَالَ: يا رسول الله إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ! فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فقَالَ النبى ﷺ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ: أَثَّمَ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ(٢٩٠)، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟»(٢٩١) مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

وفى رواية قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ؛ فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ... فذكر الحديث بمثله، ثم قال البخارى فى آخره: «غَامَرَ»: سَبَقَ بِالْخَيْرِ(٢٩٢).

وله شاهد عند الطبرانى بسند صحيح، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ نَالَ مِنْ عُمَرَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا أَخِي، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَانْتَهَوْا إِلَيْهِ وَجَلَسُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَسْأَلُكَ أَخُوكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلا

وغيرها، فتح البارى ٧/٢٥ وسيأتى عن قريب تفسير أبى عبدالله البخارى لهذه الكلمة.

(٢٩٠) أى: تذهب نضارته، ويتلون محمرًا من شدة الغضب، المصدر السابق.

(٢٩١) (تَارِكُوا لِي صَاحِبِي) هكذا الرواية فى موضعى البخارى، بحذف النون فى (تَارِكُوا) قال أبو البقاء: إن حذف النون من خطأ الرواة، لأن الكلمة ليست مضافة ولا فيها ألف ولام، وإنما يجوز الحذف فى هذين الموضعين، والأولى من تخطئة الرواة: توجيه الرواية بأن يكون (صَاحِبِي) مضافًا إلى كلمة (تَارِكُوا) وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور، (لِي) فتكون الجملة هكذا: تاركو صاحبى لى، وفى هذا جمع بين إضافتين إلى نفسه ﷺ تعظيمًا للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله أعلم. فتح البارى ٧/٢٥، ٢٦.

(٢٩٢) صحيح البخارى: كتاب فضائل الصحابة/ باب: قول النبى ﷺ «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً» ٧/١٨، وفى كتاب التفسير: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ٨/٣٠.

تَفْعَلُ؟» فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، مَا مِنْ مَرَّةٍ يَسْأَلُنِي إِلا وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَمَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَكَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا مِنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُؤْذُونِي فِي صَاحِبِي، فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَلَوْلا أَنَّ اللَّهَ عز وجل سَمَّاهُ صَاحِبًا لاتَّخَذْتُهُ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ اللَّهِ...» الحديث. قال الهيثمى: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح(٢٩٣).

وقد ذكر الشيخ محمد سالم البيحانى بعض مناقب الصديق نذكر منها ما يلى:

سَيِّدُنَا الصِّدِّيقُ عَبدُاللهِ ❁❁❁ خَيْرُ إِمَامٍ آمِرٍ وَنَاهِي
وَكَانَ فِي الإِسلامِ أَوَّلَ الرِّجَالِ ❁❁❁ وَأَعتَقَ الصِّدِّيقُ مَن مِثْلَ بِلالِ
وَأَسْلَمَتْ عَلَى يَدَيهِ الخِيَرَهْ ❁❁❁ مِنَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ البَرَرَهْ
وَأَنْفَقَ الأَمْوَالَ حَتَّى لَمْ يَدَعْ ❁❁❁ لِنَفْسِهِ شَيْئًا وَنِعْمَ مَا صَنَعْ
وَنَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أُمَيَّهْ ❁❁❁ سُورَةُ (وَاللَّيلِ) أَتَتْ مَرْوِيَّهْ

فهؤلاء الذين حازوا قصب السبق إلى الإسلام وتصديق النبى ﷺ كانوا كثيرين؛ منهم على سبيل المثال: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وابن عمها ورقة بن نوفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اللذين سبق ذكرهما فى حديث بدء الوحى، ثم على بن أبى طالب أول الفتيان، وزيد بن حارثة أول الموالى، وأبو بكر الصديق الذى أسلم على يديه تسعة فى أول يومين من إسلامه هم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو

(٢٩٣) مجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: جامع فى فضله ٩/ ٤٤، ٤٥، والمعجم الكبير للطبرانى ١٢/ ٣٧٢، ٣٧٣ ح١٣٣٨٣، وقال الحافظ ابن كثير فى هذه الأحاديث: وهذا كالنص على أنه أول من أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. السيرة النبوية ١/ ٤٣٤.

عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبى الأرقم.

كما أسلم بيتُ أبى بكر بإسلامه؛ فكان حقًا أولَ السابقين، وأنفعهم للدين، وكان كل واحدٍ منهم لا يعلم بإسلام غيره؛ حتى يظنَ أنه ثالثُ ثلاثة فى السبق إلى الإسلام، أو رابع أربعة.. وهكذا.

فأبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كانت له قبيلة تحميه، وكان صدرًا معظمًا فى قريش، على سعة من المال، وكرم الأخلاق، يبذل المال فى سخاء، عفيفًا محببًا فى قومه، حسن المجالسة، طيب العشرة... ومع ذلك وغيره فقد نال شرف التعذيب فى الله، وتعرض للضرب والأذى، حيث كان أَوَّلَ خطيبٍ فى الإسلام.

السَّابِقونَ الذين امْتُحِنُوا بالْفِتْنَةِ والأُسْوَةُ بِهِم فى ذَلِك

ومن الذين أوذوا فى الله: جماعةٌ قد أعتقهم الصديق، وهم من الأرقاء، أسلموا: فعذبهم مواليهم، منهم: بلال بن رباح الحبشى؛ وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة، كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وأبو فكيهة، كان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف، ومنهم امرأة تسمى: زِنِّيرة عُذِبت فى الله حتى عَميت، فلم يزدها ذلك إلا إيمانًا، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم، لو كان ما أتى به محمد خيرًا ما سبقونا إليه: أفتسبقنا زِنِّيرة إلى رشد؟!! فأنزل الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف][٢٩٦].

(٢٩٦) خبر زنيرة: رواه ابن إسحاق فى السيرة ١/ ٢٩١ معلقًا، والبلاذرى فى أنساب الأشراف ١/ ١٩٦ تحقيق د/ محمد حميد الله، ط دار المعارف بمصر، المجلد الأول... والبيهقى فى دلائل النبوة ٢/ ٢٨٢، ٢٨٣ وسبب نزول آية الأحقاف،

ومن أعتقهم أبو بكر بعد شرائهم: أم عبس، كانت أَمة لبنى زهرة، وكان يعذبها الأسود بن عبديغوث.

وكفى الصديق شرفًا وفضلاً، أن يعطيه الله عز وجل فى الآخرة جزاء أعماله، التى قدمها ابتغاء وجه ربه، وأن يُنْزِلَ الله فى حقه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

إن أولئك السابقين الذين أوذو فى الله كأبى بكرٍ وغيره: كان الخطب عليهم هينًا، لتفرق ما نالهم وعدم استمراره، أما الذين لحقوا بهم فى السبق إلى اعتناق الإسلام؛ فإنهم كانوا تحت سيطرة الأعداء وفى قبضتهم، بسبب ضعفهم أو استرقاقهم، ومن ثَمَّ: كانت فتنتهم أشدَّ والتنكيلُ بهم أعظمَ... وغالب هؤلاء الذين عذبوا فى ذات الله؛ قد صبروا واحتسبوا ابتغاء وجه الله وطلبًا لمرضاته، وأن هذا الأذى كان حلوًا فى أعينهم: ما دام فيه رضا الله، فلم يتحولوا عن دينهم، ولم يحيدوا عنه: حتى أظهر الله الإسلام على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض، وقادة الدنيا بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص].

فقد ضرب السابقون الأولون من المسلمين المثل الأعلى فى صلابة موقفهم، وتمسكهم بعقيدتهم، وشدة بأسهم فيما واجهوه من ابتلاء، وصبرهم على ما حل بهم من ألوان الفتنة والتعذيب على أيدى ذويهم وأقربائهم من المشركين، ولا عجب: فأولئك أقوام اختارهم الله لنصرة دينه وصحبة نبيه، وصدق سبحانه فى وصفه لهم، ومدحه إياهم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

فى: تفسير الطبرى ٢٦/ ١٣.

رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

وصدق من قال: فتشبهوا إنْ لم تكونواْ مِثلَهُم ❁❁❁ إنَّ التشبُهَ بالرجالِ فلاحُ

ومن ثَمَّ: فعلى المؤمنين فى كل الأحوال، وجميع الأقطار، وكافة الأعصار: أن يقتدوا بسلفهم، ويحسنوا التأسى بجميل فِعَالِهِم، مع قيامهم بواجب دِينِهِم، وحقه عليهم، وأن يوثقوا صلتهم بخالقهم ومالك أمرهم، متضرعين إليه مخلصين له فى دعائهم، صادقين فى ابتهالهم والتجائهم: أن يكشف عنهم ما نزل بهم، وأن يحفظهم فيما بقى من أعمارهم، وألا يعذبهم على يد عدوهم ولا بعذابٍ من عنده: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة].

وذلك دون أن يتمنى أحد من اللاحقين: أنه لو كان من السابقين لفعل وفعل!! بل عليه أن يسد الثغرة التى هو فيها، ولا يُؤْتَى الإسلامُ من جهته أبدًا، وقديمًا شكا بنو إسرائيل لكليم الله موسى ما نزل بهم من ذُلٍّ وهوانٍ وتعذيبٍ وقتلٍ على يدِ فرعونَ وجنودِهِ، فوعظهم ونصحهم كما قص علينا ربنا ذلك فى كلامه العزيز: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف].

وكذلك قال سبحانه لأقوام من قبلنا: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس].

وهذه نصيحة من المقداد بن عمرو، المشهور: بالمقداد ابن الأسود، أحد السابقين الذين قال فيهم ابن مسعود – فى الحديث الآتى عند الهامش رقم:٣٠١-:«أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ سَبْعَةٌ...» فذكره فيهم.

أخرج الطبرانى بسند صحيح، عن جبير بن نفير أحد المخضرمين، وأجلة التابعين قال: جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بن الأَسْوَدِ يَوْمًا فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، وَاسْتَمَعْنا إليه، فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ.

ثم قال مخاطبًا لجلسائه: أَلاَ بِحَمدِ اللهِ تَعالَى أَجِدُكُم أَن لاَ تَعرِفُوا إِلَّا رَبَّكُمْ؛ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلاءَ بغَيْرِكُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عليها نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ؛ لَم يَرَوا أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ ليَرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ وَأَخَاهُ كَافِرًا، وقَدْ فَتَحَ اللَّهُ تعالى قُفْلَ قَلْبِهِ لِلإِيمَانِ، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ مَنْ دَخَلَ النَّارِ، فَلا تَقَرُّ عَيْنُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَمِيمَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا الَّتِي قَالَ اللَّهُ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان](٢٩٧).

(٢٩٧) قال الهيثمى: رواه الطبرانى بأسانيد فى أحدها: يحيى بن صالح، وثقه الذهبى، وتكلموا فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: كتاب المغازى والسير/ باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه ٦/١٧.

وأقول: يحيى بن صالح الحمصى، أخرج له الشيخان أيضا، ووثقه ابن معين وغيره، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال الذهبى: حافظ فقيه. الجرح والتعديل ٩/١٥٨، وتذكرة الحفاظ ١/٤٠٨، والحديث ليس فى الطبرانى فقط كما ذكر الهيثمى؛ بل أخرجه الإمام أحمد والطبرانى وغيرُهما بأسانيدَ صحيحةٍ، وصححه ابن حبان، ينظر: المسند ٦/٢، ٣ ح٢٣٩٢٢، والمعجم الكبير

ولَنِعْمَ ما أدب الله به عباده المؤمنين حيث قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢].

وما أجمل توجيهه ﷺ فى قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ»(٢٩٨).

وفى هذه الوصيةِ: تعليمٌ للتابعينَ أن لا يتمنَّوْا عين النعمة؛ وإنما يجوزُ لهم: أن يتمنوا مثل النعمة، وبهذا لا يكون هناكَ تعارضٌ بين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣١]، وبين قوله ﷺ: «لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ...» متفقٌ عليه من حديث عبدالله بن عمر، وابنِ مسعود(٢٩٩).

وبهذا الصقلِ والإعدادِ للمؤمنين: وصلوا إلى ذروة المعالى، وصاروا سادةَ الخلقِ؛ فلم تَغُرَّهم كثرتهم ولا قوتهم، ولم يُعجبوا بأنفسهم؛ بل: دائمًا يلجأون إلى ربهم ويستعينون به، واثقين بأن النصر من عنده، وقد جربوا ذلك فى وقائعَ عديدةٍ، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

للطبرانى ٢٠/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٧٧ ح٦٠٠، ٦٠٨، ٦٥٧، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالها ونسائهم/ باب: ذكر تفريق المصطفى ﷺ بين الحق والباطل بالرسالة ٨/١٧٤، ١٧٥ ح٦٥١٨، وحلية الأولياء لأبى نعيم ١/١٧٥، ١٧٦، وقد زدت بعض الجمل المعترضة للتوضيح، وللفائدة: انظر حديث حذيفة ليلة الأحزاب٢/٢٥٨.

(٢٩٨) متفقٌ عليه، البخارى ح٢٩٦٦ و٣٠٢٥، ومسلم ح١٧٤٢.

(٢٩٩) صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب الاغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ... وفى كتاب فضائل القرآن/ باب اغتباط صاحب القرآن، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ وَيُعَلِّمُهُ وَفَضْلِ مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً مِنْ فِقْهٍ أَوْ غَيْرِهِ فَعَمِلَ بِهَا وَعَلَّمَهَا.

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة].

وكذلك يقول جلَّ فى علاه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك].

ومع كل ذاك الإيذاء والتعذيب والفتنة والتنكيل... فقد بادر العديد من أهل مكة وغيرها إلى اعتناقِ الإسلامِ ونبذِ ما سِواه، واستجابوا لله ولرسوله، وكان الكثيرون من هؤلاء السابقين يَسْتَخْفُون بإيمانهم حفاظًا عليه، وصيانة له، حتى كان الواحد منهم لا يعلم بإسلام غيره.

أخرج البخارى فى مواطن من صحيحه، عن سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلامِ»(٣٠٠).

فهذا الخبر من سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عما قد علمه، وليس إخبارًا عن الواقع وحقيقة الأمر، ولقد كان رسول الله ﷺ لا يطلب من أحدٍ أن يستعلن بدينه، رفقًا به وشفقة عليه، وإذا أصر أحدهم على الجهر والاستعلان: لم يمنعه ﷺ من ذلك، كما سيأتى فى قصة إسلام أبى ذرٍ، وعمرو بن عبسة السلمى.

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه بسند حسن، وصححه ابن حبان والحاكم، عن عبدالله بن مسعود قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ سَبْعَةٌ، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ:

---

(٣٠٠) صحيح البخارى: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب سعد بن أبى وقاص ٧/ ٨٣ ح٣٧٢٦، ٣٧٢٧ (واللفظ له) وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام سعد ابن أبى وقاص ٧/ ١٧٠ ح٣٨٥٨.

فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ: فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلالاً، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ(٣٠١).

ونلحظ أن بلالاً لم يكن وحده هو الذى صبر على التعذيب، وثبت على معتقده، ولم يوافق المشركين، ولا طاوعهم فى النطق بكلمة الكفر... بل كان معه على هذا الحال غيرُه من السبعة المذكورين وآخرون سِواهُم من السابقين الذين لم يُذكَروا فى هذا الحديث.

فهذه أول شهيدةٍ فى الإسلام: سمية بنت خباط، والدة عمار، قال الحافظ ابن حجر: كانت مولاة لأبى حذيفة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وكانت سابعة سبعة فى الإسلام، عذبها أبو جهل، وطعنها بحربة فى قبلها، فماتت، فكانت أول شهيدة فى الإسلام.

وقال ابن إسحاق: حدثنى رجال من آل عمار بن ياسر أن سمية أم عمار عذبها آل بنى المغيرة على الإسلام، وهى تأبى غيره حتى قتلوها.

(٣٠١) معنى قوله: (وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا) أى: وافقهم، وأجابهم، وطاوعهم فيما يريدون، والحديث فى المسند ١/ ٤٠٤، وصححه الشيخ شاكر تحت رقم ٣٨٣٢، وسنن ابن ماجه: المقدمة، فى فضائل أصحاب رسول الله، فضل سلمان وأبى ذر والمقداد ١/ ٥٣ ح١٥٠ ، وقال فى الزوائد: إسناده ثقات، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، ذكر صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٩/ ١٠٧ الإحسان، والمستدرك: كتاب معرفة الصحابة ٣/ ٢٨٤ وصحح إسناده الحاكم، وأقره الذهبى، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب المرتد، المكره على الردة ٨/ ٢٠٩، لكن فى سنده عندهم: عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبى النجود الكوفى، وهو صدوق فى الحديث، حجة فى القراءة، قال الذهبى: وثِّق. الكاشف ٢/ ٤٩.

وخبر إعتاق أبى بكر لبلال: رواه ابن إسحاق فى السيرة ج١ ص٣٩٠: ٣٩٢ وقد صرح بالسماع، وسنده مرسل، عن عروة، وابن سعد فى طبقاته ج٣ ص٢٣٢ والطبرانى فى الكبير ج١ ص٣٣٦، ٣٣٧ مختصرًا مرسلاً، عن عروة.

وأخرج ابن سعد بسند صحيح، عن مجاهد قال: أول شهيدة فى الإسلام سمية والدة عمار بن ياسر، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة، ولما قُتِل أبو جهل يوم بدر: قال النبى ﷺ لعمار: «قَتَلَ اللَّهُ قَاتِلَ أُمِّكَ»(٣٠٢).

وكان من هؤلاء الذين عُذِبوا وأُوذوا فى سبيل الله فصبروا طلباً لمرضاة الله: ياسر مع زوجه سمية، وابنهما عمار، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح إلى سالم بن أبى الجعد(٣٠٣) أنه قال: دَعَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ... فَبَعَثَ - يعنى: عثمان- إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَقَالَ: أَلا أُحَدِّثُكُمَا عَنْهُ؟ يَعْنِي: عَمَّارًا، أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آخِذًا بِيَدِي نَتَمَشَّى فِي الْبَطْحَاءِ، حَتَّى أَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ - يعنى: عمارًا- يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!! آلدَّهْرَ هَكَذَا؟ - أى: أيستمر هذا الحال ما دامت الحياة؟- فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اصْبِرْ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ». يعنى: ثقة منه ﷺ بربه فى إجابته دعوته.

وفى رواية الطبرانى، عن عثمان بن عفان قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لأَبِي عَمَّارٍ، وَأُمِّ عَمَّارٍ: «اصْبِرُوا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ»(٣٠٤).

---

(٣٠٢) الإصابة ١٨٩/٨، ١٩٠، والسيرة النبوية لابن هشام٣٢٠/١،٣١٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٧/٨ ط الكتب العلمية ببروت، والحديث مرسل، رجاله ثقات، وينظر: سيرة ابن إسحاق ص ١٧٢ تحقيق محمد حميد الله، والسير والمغازى ص ١٩٢ تحقيق: سهيل زكار، كلاهما لابن إسحاق.

(٣٠٣) المسند ٦١/١، ٦٢ وقال الهيثمى: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: كتاب المناقب، فضل عمار بن ياسر وأهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٢٩٢/٩، ٢٩٣، لكن سالم بن أبى الجعد لم يدرك عثمان بن عفان، فحديثه عنه منقطع، قال الحافظ ابن حجر: سالم بن أبى الجعد، أحد ثقات التابعين، ذكره بعضهم فى المخضرمين، وهذا باطل، فقد جزم أبو حاتم الرازى بأنه لم يدرك ثوبان، ولا أبا الدرداء، ولا عمرو بن عبسة، فضلاً عن عثمان، فضلاً عن عمر، فضلاً عن أبى بكر. الإصابة ٢٢٤/٣، ٢٢٥ القسم الرابع من حرف السين.

(٣٠٤) قال الهيثمى: رواه الطبرانى، ورجاله ثقات، ومجمع الزوائد ٢٩٣/٩.

وعن جابر أن النبى ﷺ مر بعمار بن ياسر، وبأهله يعذبون فى الله عز وجل فقال ﷺ: «أبشروا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ» قال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقوم، وهو ثقة(٣٠٥).

فتلك أحاديث يقوى بعضها بعضًا تدل بمجموعها على أن احتمال الإيذاء والصبر عليه؛ أفضل من مطاوعة الكافرين وموافقتهم، وسيتجلى ذلك فى التحقيق التالى.

تَحْقِيقٌ حَوْلَ فِتْنَةِ السَّابِقِينَ وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ

فثبات بلال على عقيدته وتمسكه بدينه، وإصراره على إظهاره وإعلانه مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة: هو الأفضل للمؤمن، والأكمل للمسلم، وقد جعل الله له فى العاقبة الأجر والنصر، وكما قيل: على قدر أهل العزم تأتى العزائم.

وهذا خباب بن الأرت، أحد السابقين إلى الإسلام، وكان ممن عُذبوا فى الله وهو يشكو لرسول الله ﷺ ما يفعل به وبأمثاله، فحدثه رسول الله ﷺ عما لاقاه المؤمنون فى الأمم السابقة من النكال والتعذيب دون أن يصرفهم ذلك عن دينهم، أو يحولهم عن معتقدهم، أخرج البخارى وغيره من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ

(٣٠٥) المصدر السابق.

تَسْتَعْجِلُونَ»(٣٠٦).

ولقد روى الحافظ أبو عمر ابن عبدالبر بسنده، أن عمر بن الخطاب سأل خبابًا عما لقى من المشركين فى ذات الله – يعنى: من التعذيب – فقال: يا أمير المؤمنين! أنظر إلى ظهرى، فقال عمر: ما رأيتُ كاليوم!! تأذياً من هول ما رآه فى ظهره من آثار التعذيب التى مضت عليها أعوام عديدة، فقال خباب: لقد أوقدت لى نار، وسُحِبتُ عليها، فما أطفأها إِلَّا ودك ظهرى. يعنى: ما يسيل منه من الدم والشحم.

وأما ما فعله البعض الآخر من الصحابة من موافقة للكافرين على ما يقولون، ومطاوعتهم فيما يطلبون، فلا حرج فى ذلك لمن علم من نفسه عدم الصبر على التعذيب، حتى ولو نطق بكلمة الكفر، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦﴾ [النحل](٣٠٧).

وهذا من فضل الله ورحمته على هذه الأمة، أما من قبلهم: فلا يقبل منهم ذلك: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٢٠﴾ [الكهف].

وأجد لزامًا علىَّ، ومن حق القارئ لَدىَّ: أن نقف معًا لنُفَصِّلَ القول فى تلك القضية، حتى

(٣٠٦) صحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: علامات النبوة ٦١٩/٦، وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين ١٦٤/٧، ١٦٥، وكتاب الإكراه (واللفظ له) باب: من اختار الضرب والهوان على الكفر ٣١٥/١٢، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب: فى الأسير يكره على الكفر ٤٧/٣، ومسند الإمام أحمد ١٠٩/٥، ١١٠، ١١١، ٣٩٥/٦، و السنن الكبرى للبيهقى: كتاب السير/ باب: مبتدأ الخلق ٥/٩.

(٣٠٧) يراجع فى ذلك: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١٨٠/٣ : ١٨٢، وفتح البارى ٣١٢/١٢، وبذل المجهود ١٦٢/١٢، ١٦٣.

يكون التأسى والاقتداء من الخلَف بسلفهم على بينة وبصيرة، ويتحقق الهدى والانتفاع فى الدارين بقصص هذه السيرة، وذلك لأن أهم ما تمتاز به هذه الدراسة التحليلية، لوقائع وأحداث السيرة النبوية هو: تجلية الفهم الصحيح لأمثال تلك المشكلات.

ولنبدأ أولاً: بأقوال أهل العلم فى المراد من تلك الآية الكريمة، وما يستفاد منها من أحكام وفوائد عظيمة، ثم نتبع ذلك ببيان ما يباح للمكره فعله، وما ينبغى أن يقوم به من الأولى والأفضل: مع الإشارة إلى نماذج أخرى واقعية من سلف هذه الأمة المرضية.

فالكافر المرتد هو الذى نطق لسانه بالكفر، وانشرح به صدره، بعد أن كان مستبصرًا مطمئنًا بالإيمان، فهذا قد غضب الله عليه فى الدنيا، وأعدَّ له العذاب العظيم فى الآخرة.

واستثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك: من تكلم لسانه بالكفر، ولكن قلبه مطمئن بالإيمان، ويأبى من داخله ما نطق به لسانه مكرهًا، وإنما وافق الكافرين وطاوعهم مكرهًا لما ناله منهم من ضرب وأذى، فهذا لا يدخل فى ذاك الحكم؛ بل هو معذور فى الدنيا، مغفور له فى الآخرة.

والإكراه يكون من ظالم قادر على تنفيذ ما يهدد به: من قتل أو إتلاف عضو أو سجن أو ضرب، أو اعتداء على عرض أو مال، وغير ذلك، ولا يستطيع أحدٌ دفعَه أو رده إلا الله.

ومن ثَمَّ: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه، بشرط: أن يتلفظ بلسانه فقط، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإن طاوع قلبُه لسانَه فى الكفر: كان آثمًا كافرًا؛ لأن ذلك الذى أكرهه لا سلطان له على قلبه وباطنه، وإنما سلطته على لسانه وظاهره؛ بل قال بعض المحققين: إن المكره على الكفر ينبغى عليه عند التلفظ به قصد التورية واستعمال المعاريض من الكلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا، كما ذكر عن أحد العلماء فى زمن الإمام أحمد بن حنبل عند الفتنة بالقول بخلق القرآن: أنه دُعى للقول بذلك فقال: القرآن، والتوراة والإنجيل،

والزبور؛ – يُعدِّدُهنَّ على أصابع يده – هذه الأربعة مخلوقة، يقصد هو بقلبه أصابع يده التى عدد عليها أسماء هذه الكتب الأربعة، وفهم الذى أكرهه: أنه يريد الكتب المنزلة، فنجا ذلك العالم، ولم يضره فهم من أكرهه.

أما إذا أعجله الذى أكرهه دون روية؛ ولم يخطر بباله شيئ من التورية أو المعاريض، فقال ما أكره عليه خشية القتل أو إتلاف بعض أعضائه: فإنه لم يكن حينئذ كافرًا.

وقد استحب العلماء استعمال المعاريض والتورية بالألفاظ لمعنى الكفر من غير اعتقاد له، لأن إظهار الكفر محظور شرعاً وعقلاً، فيكون المكرَه بمنزلة من سبق لسانه بالكفر دون تعمد أو قصد.

ولما سمح الله جَلَّجَلَالُهُ من الإكراه بترك الإيمان به ظاهرًا مع أنه أصل الدين وأساسه، ولم يؤاخذ من كفر به مكرهًا: قاس العلماء على ذلك فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه على شيء منها لم يعاقب عليه، ولا يترتب على فعله حكم.

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما من كلام يدرأ عنى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلماً به، لكن العلماء أجمعوا على أنه يستثنى من ذلك: ما إذا أكره على قتل غيره، أو الاعتداء على محارمه بظلم لا يستطيع رده، ولايمكنه التحلل منه، فإنه لايسوغ له الإقدام على شيء من ذلك، مهما حل به من بلاء وحصل له من تهديد، لأنه لايحل له أن يفدى نفسه بغيره ولا أن يستحيى نفسه بقتل سواه، فلا يقتل من يساويه فى الحرمة استبقاءًا لنفسه، ولايجوز له أن يقدم على ظلم الناس بانتهاك حرماتهم حفظاً لحرمته، فلا يحمى نفسه بالتعدى على غيره؛ بل عليه أن يصبر لما نزل به من بلاء حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا، أو يقبضه إليه على أحسن حال، وينزله أرفع الدرجات

مع النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين(٣٠٨).

أخرج الإمام النسائى بسندٍ صحيح من حديث طارق بن شهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»(٣٠٩).

وله شاهد حسن من حديث أبى سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» أَوْ «أَمِيرٍ جَائِرٍ»(٣١٠).

وله طريق أخرى عنه – عند الإمام أحمد من حديث طويل فى آخره: «أَلا وَأَكْبَرُ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرِ عَامَّةٍ، أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمَه، أَلا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

وفى رواية: «وَمَا شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةِ عَدْلٍ تُقَالُ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، فَلا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ اتِّقَاءُ

---

(٣٠٨) يراجع فى هذا التحقيق: أحكام القرآن للجصاص، ٣/ ١٩١ :١٩٤، وأحكام القرآن لابن العربى ٣/ ١١٧٧: ١١٨٢، وتفسير القرطبى ١٠/ ١٨٠: ١٨٣.

(٣٠٩) سنن النسائى: كتاب البيعة/ باب: فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر ٧/ ١٨١ ح ٤٢٢٠، لكن طارق بن شهاب: رأى النبى ﷺ ولم يسمع منه، كذا قال أبو داود. تقريب التهذيب. ص ٢٨١ والحديث يقويه ما بعده ويشهد له.

(٣١٠) سنن أبى داود (واللفظ له) كتاب الملاحم/ باب: الأمر والنهى ٤/ ٥١٤ ح٤٣٤٤، وجامع الترمذى: كتاب الفتن/ باب: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٤/ ٤٠٩ ح٢١٧٤ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٢٩ ح٤٠١١، وفى سنده عندهم: عطية بن سعد العوفى، وهو صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا. تقريب التهذيب ص٣٩٣، ولكن تابعه عن أبى سعيد فى روايتى الإمام أحمد التاليتين: أبو نضرة المنذر بن مالك، وهو ثقة كما فى التقريب ص ٤٥٦ فالحديث حسن بطريقيه، ويتقوى بما قبله.

النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ» ثُمَّ بَكَى أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ مَنَعَنَا ذَلِكَ(٣١١).

قال الخطابى: إنما صار ذلك أفضل الجهاد، لأن من جاهد العدو: يكون مترددًا بين رجاء وخوف لا يدرى: هل يَغْلِبُ أو يُغْلَبُ؟ أما صاحب السلطان: فهو مقهور فى يده، فهو إذا قال الحق، وأمر بالمعروف، فقد عَرَّضَ نفسه للتلف، وأهدف لنفسه الهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف، والله أعلم(٣١٢).

ومن هنا اتفق العلماء على أنه يجوز للمُكرَه على الكفر:أن يتَّلَفُّظِ بِالْكُفْرِ دُونَ أن يعتقده بقلبه، وذلك إبقاءً لمهجته حذر الهلاك والتلف، واتقاءً لما يصيبه من نكال أو تعذيب لا يطيقه، كما فعل عمار بن ياسر، أخرج الحاكم بسند وثق رجاله إلى أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له: «ما وراءك» قال: شرٌ يا رسول الله ما تُرِكتُ حتى نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد»(٣١٣).

---

(٣١١) الرواية الأولى فى المسند ٣/ ١٩، والثانية ٣/ ٦١، وصحح إسنادها الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم، فى تكملته لتحقيق الشيخ أحمد شاكر فى المسند ٢٢/ ٦٧ ح١١١٦٠، والمستدرك: كتاب الفتن والملاحم ٤/ ٥٠٥، ٥٠٦، وقال الحاكم: هذا حديث تفرد بهذه السياقة: على بن زيد بن جدعان القرشى، عن أبى نضرة، والشيخان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يحتجا بعلى بن زيد، وقال الذهبى: ابن جدعان: صالح الحديث، وأقول: ابن جدعان احتج به مسلم فى المتابعات، وحديثه هنا يرتقى بالمتابعة المتقدمة، عن محمد بن جحادة، وهو ثقة، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد عند أبى داود وغيره، والله أعلم.

(٣١٢) هامش سنن أبى داود ٤/ ٥١٤ بتصرف.

(٣١٣) المستدرك: كتاب التفسير ٢/ ٣٥٧، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره

وهذا القول من رسول الله ﷺ لعمار، إنما هو على سبيل الجواز، وبيان الإباحة، وليس على جهة الإيجاب؛ بل ولا على الندب، لأن الأفضل للمؤمن والأولى به: أن لا يظهر الكفر، ولا يتكلم به حتى ولو قتل، فعليه أن يطيب نفساً بالموت، كما فعل بلال وخباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما أشرنا إلى ذلك سلفًا، لأن فى ذلك إعزازاً للدين، وغيظاً للكافرين.

والأفضل والأولى أن يَثبُت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما فى قصة الصحابى الجليل عبدالله بن حذافة وأصحابه مع ملك الروم، وقد تناقلها أصحاب التاريخ وأهل السير، وانظر ما سيأتى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان: « عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهم ».

الدَّعْوَةُ مِن بَدْءِ البَعْثَةِ

وبهذا العرض المستفيض لأحداث الأعوام الثلاثةِ الأولى من الدعوة: نستطيع أن نؤكد أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد دعا الناسَ إلى الدخول فى دين الله تعالى سرًا وجهارًا من بدء البعثة؛ امتثالاً لقول الله تعالى فى أول نداءٍ خصَّه به ﷺ وأول أمرٍ وجَّهَهُ إليه بالرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر].

الذهبى، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب المرتد/ باب: المكره على الردة ٢٠٨/٨، ٢٠٩ عن الحاكم... به، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وثقه أحمد وابن معين، وقال أبو حاتم: لا يسمى، منكر الحديث. تهذيب التهذيب ١٦١/١٢، والجرح والتعديل ٤٠٥/٩ عن محمد بن عمار بن ياسر، ذكره ابن حبان فى الثقات، والبخارى فى الأوسط: فصل من مات بين الستين إلى السبعين، وهو يروى عن أبيه كما فى التهذيب ٣٥٩/٩ لكن روايته لهذا الحديث ظاهرها الإرسال، لأنه لم يشهد قطعًا تلك القصة، ولم يذكر أنه رواها عن أبيه أو سمعها منه، كما أخرج هذا الحديث معضلاً، عن أبى عبيدة المتقدم؛ ابن جرير ١٢٢/٤، ونقله عنه ابن كثير ٥٢٥/٤ كلاهما فى التفسير، وأبو نعيم فى الحلية ١٤٠/١، نحو رواية الحاكم والبيهقى، فالله أعلم.

وهذا بخلافِ ما ذهبَ إليه كثيرون من كُتَّابِ السيرة؛ حيثُ فهموا أن رسول الله ﷺ استخفى بدعوته وأَسَرَّ بها مدة ثلاث سنين استنادًا إلى ما نقله ابن هشام، عن ابن إسحاق من قوله: ثم دخل الناسُ إلى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحُدِّث به، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يُبادى الناس بأمره، وأن يدعوَ إليه، وكان بين ما أخفى ﷺ واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين – فيما بلغني- من مبعثه(٣٢٠).

وهذا الفهم من قول ابن إسحاق الذى نقله عنه ابن هشام: فيه نظر، لأنى لما وقفت على كلام ابن إسحاق فى كتبه الأصلية التى طُبعت مؤخرًا: وجدت أن ابن إسحاق نفسه ليس جازمًا أن النبى ﷺ استخفى بدعوته مدة ثلاث سنين: فكيف يُعتمدُ عليه فى ذلك؟!!

وهاك قولَه الذى أثبته فى كتبه: وكان ﷺ ربما أخفى الشيء واستسر به إلى أن أُمِر بإظهاره ثلاث سنين من مبعثه(٣٢١).

فهذا القولُ -كما ترى- ليس قاطعًا باستخفاء النبى ﷺ بدعوته مِن بدء بعثته؛ بل الذى ظهر لنا بالأدلة، ومراجعة النصوص فى مصادرها، والمقارنة بينها: أن النبى ﷺ لم يتأخر يومًا واحدًا عن إعلان دعوته إلى الناس حسب ما أمره الله تعالى به، ولم يتوانَ ﷺ لحظةً واحدةً عن تبليغ ما أُوحى إليه من ربه.

وسوفَ نُفصِّلُ القولَ ونبسطُهُ ضمن التحقيقات والاستنباطات الموثقة بالأدلة من الكتاب والسُنة، وذلك فى الموضوعات الآتية، وبالله الثقة، ومنه العون والمدد.

---

(٣٢٠) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٢، ٢٦٣.

(٣٢١) سيرة ابن إسحاق ص ١٢٦ فقرة ١٨٨ تأليف محمد بن إسحاق بن يسار، المتوفى سنة ١٥١هـ تحقيق وتعليق: د/محمد حَمِيد الله، مطبعة: محمد الخامس بمدينة فاس، المغرب ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م، وكتاب السير والمغازى ص ١٤٥ تحقيق د/ سهيل زكار، ط دار الفكر ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

إِسْلَامُ أَبِى ذَرٍّ وَصَدْعُهُ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ

وهذه قصة إسلام أبى ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ(٣٢٧) كما أخرجها البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا قال: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ؟ قَالَ – أى: أبو جمرة– قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ رَجُلاً مِنْ غِفَارٍ، فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقُلْتُ لأَخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، كَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ، فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ، وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ، وفى رواية: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَكَلامًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ تَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ، وفى رواية: مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا(٣٢٨)، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لا أَعْرِفُهُ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ، قَالَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ، قَالَ أبو ذر: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلا أُخْبِرُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لأَسْأَلَ عَنْهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ، قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ – أى: آن– لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ؟ قَالَ: قُلْتُ لا، قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي، قَالَ فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ، وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ؟ قَالَ قُلْتُ لَهُ: إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ؛ أَخْبَرْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ، قَالَ قُلْتُ لَهُ: بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ، هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ، فَاتَّبِعْنِي، ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي،

---

(٣٢٧) مشهور بكنيته، قد اختلف فى اسمه واسم أبيه، والأكثرون على أن اسمه: جندب بن جنادة، كان طويلاً، نحيفًا، أسمر اللون، يوازى ابن مسعود فى العلم، وقد توفى قبله بالربذة سنة ٣١ من الهجرة، ومناقبه كثيرة. الإصابة ٧/١٠٥: ١٠٩، وقد رويت قصة إسلامه فى الصحيح على أكثر من صفة، نذكر إحداها فيما يأتى.

(٣٢٨) فى رواية مسلم: «فتزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً» أى: قِرْبَة له فيها ماء.

وَامْضِ أَنْتَ، فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ، حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلامَ، فَعَرَضَهُ، فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي، فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ: اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ، فَقَامُوا، فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ! تَقْتُلُونَ رَجُلاً مِنْ غِفَارَ، وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ؟! فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ، رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ، فَقَالُوا، قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ، وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ، قَالَ: فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣٢٩).

ويستفاد من ذلك: أن قريشًا كانت تضرب وتعذب من أسلم إذا علمت به، ولو كان من غير أهل مكة، كما فعلت بالصحابى الجليل:أبى ذرالغفارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جهر فيهم بكلمة التوحيد، مع أن رسول الله ﷺ قد طلب منه كتمان إسلامه شفقة عليه، ورفقًا به، لكنه آثر الجهر بكلمة الحق بين المشركين، فضربوه ضربًا لا يبالى أحدهم لو مات بسببه، ولم يستنقذه منهم سوى العباس بن عبدالمطلب، حيث خوفهم من قومه أن يقطعوا عليهم طريق تجارتهم التى يعيشون عليها.

---

(٣٢٩) صحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: قصة إسلام أبى ذر الغفارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٤٩/٦، ٥٥٠ ح٣٥٢٢، وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام أبى ذر الغفارى١٧٣/٧ ح٣٨٦١، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١٩٢٣/٤: ١٩٢٥ ح٢٤٧٤، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٦٥/١/٤، ط التحرير – القاهرة. وفى حديث عبدالله بن الصامت، عن أبى ذر بأطول من هذا، وبألفاظ مختلفة عند مسلم ١٩١٩/٤: ١٩٢٣، ومسند الإمام أحمد ١٧٤/٥، ١٧٥، وابن سعد فى الطبقات ١٦١/١/٤: ١٦٣، وفى مسند الطيالسى ص ٦١، ٦٢ مختصرًا ح٤٥٨.

كما يستفاد منها: أن عمليات القهر والإيذاء قائمة لمن عُرِفَ إسلامه، وكان هؤلاء يأتون إلى دار الأرقم، أو حيث يكون رسول الله ﷺ: فيخفف آلامهم، ويمسح جراحهم، ويثبتهم.

وكذلك يستفاد من تصرف على بن أبي طالب بالرغم من حداثة سنه: أنه العاقل الفقيه الذى حنكته التجارب، وذلك واضح فى تصرفه مع أبي ذر منذ لقيه فى المسجد إلى أن أدخله على رسول الله ﷺ فى دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الدُّرُوسُ وَالعِبَرُ فِى تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ

نستطيع أن نؤكد أن النبى ﷺ لم يَسْتَخْفِ بالدعوة فى الأعوام الأولى، وذلك بما رواه ابن هشام نفسه حينما ذكر إسلام أبى بكر، قال: فلما أسلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله(٣٣٠).

ومن المعروف أن أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أوائل من أسلم؛ إن لم يكن أول المسلمين، من الرجال البالغين، فكيف يُظهِرُ إسلامه فى الفترة التى من المفترض أنها سرية؟! ومع ذلك كلِّهِ: لم أُغْفِل قول من قال بسرية الدعوة فى تلك الفترة، لأن التخفىَ والاستسرارَ له فوائده إذا حدث ما يقتضيه وحصل ما يستدعيه، وذلك واضح فى الموضوعات التالية، ثم نَخلُصُ بعدها إلى هذه النتيجة: «إذَن لم يَسْتخفِ ﷺ بدعوته» بل: لم نُبعِدْ إذا قلنا: إن هذا الدين عالمى منذ بعثة النبى ﷺ، وإن بدأ بدعوة الأقربين من عشيرته فى أم القرى.

---

(٣٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٩.

١- فِقْهُ الصحابةِ فى التخفِى والاقتداءُ بهم فى ذلك عند الفتنِ

من واقعية هذا الدين أنه لا يَطلبُ من الناس ما لا يُطيقون، وبما أن الناس ليسوا جميعاً فى مستوى واحد فى قدرتهم على تحمل الفتنة، فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم شيئًا من الأمن ولو إلى مدة من الزمن قبل أن يُكتَشفَ أمرهم، وقد كان ﷺ حريصًا على إبعاد الأذى عن أتباعه ما أمكنه ذلك.

وكذلك المؤمنون فى أى زمان كانوا وفى أى مكان حلوا، إذا نزلت بهم فتنة أو أصابهم ابتلاء: جاز لهم أن يعودوا إلى الاستسرار، ويلجأوا إلى الاستخفاء أسوة بالنبى ﷺ وأصحابه فى هذه الفترة.

أخرج البخارى وغيره من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلامِ مِنْ النَّاسِ» فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ، فَقُلْنَا: نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ؟! فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَحْدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ(٣٣١).

وفى رواية مسلم وغيره يقول حذيفة: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلامَ» قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ؟ قَالَ: «إِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا» قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا(٣٣٢).

---

(٣٣١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب: كتابة الإمام الناس ٦/١٧٧، ١٧٨، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب قسم الفيء والغنيمة/ باب: السنة فى كتاب أسامى أهل الفيء ٦/٣٦، ويراجع: فتح البارى ٧/١٧٤، وما سبق تحت عنوان: «إِسْلاَمُ أَبِى ذَرٍّ»، وحديث خباب بن الأرت عند هامش ٣٠٦.

(٣٣٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: الاستسرار بالإيمان للخائف ١/١٣١ح٢٣٥، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب السير/ باب: إحصاء الإمام الناس ٥/٢٧٦ ح٨٨٧٥، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب: الصبر على البلاء ٢/١٣٣٦ ح٤٠٢٩، ومسند الإمام أحمد ٥/٣٨٤.

ومعلوم أن هذا الحديث كان بعد أن كثر المسلمون بالمدينة، وبعد أن أمن الناس بهجرتهم إلى رسول الله ﷺ وجهادهم معه، حتى إن حذيفة الذى أسلم بعد الهجرة[٣٣٣] يتعجب من خوف رسول الله ﷺ على المسلمين حتى أمر بِعَدِّهم وإحصائهم وتسجيل أسمائهم فى صحف وسجلات، ولعل ذلك وقع عند خروجهم إلى أحد أو الخندق أو صلح الحديبية.

وشاهد حذيفة ابتلاء المسلمين بعد رسول الله ﷺ واستخفاءهم بدينهم واستسرارهم بصلاتهم، فى أواخر خلافة عثمان من بعض أمراء الكوفة الذين كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولا يقيمونها على وجهها، حتى كان بعض الورعين يصلى وحده سرًا، ثم يصلى مع أولئك الأمراء، خشية الفتنة ومحافظة على وحدة كلمة المسلمين[٣٣٤]، وقد وقع ما هو أشد من ذلك بعد حذيفة فى زمن الحجاج وغيره، وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة، وعلم من أعلام النبوة الباهرة حيث أخبر ﷺ بالشئ قبل وقوعه، وبالأمر قبل حدوثه[٣٣٥].

---

(٣٣٣) فى صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب: الوفاء بالعهد ١٤١٤/٣ ح١٧٨٧ عن حذيفة قال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي... قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا! نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ». وينظر: الإصابة ٣٩/٢، ٤٠.

(٣٣٤) ينظر: ترجمة الوليد بن عقبة بن أبى معيط، الذى ولى إمرة الكوفة من سنة خمس وعشرين إلى سنة تسع وعشرين من الهجرة، فى: الإصابة ٤٨١/٦، وفتح البارى ١٧٨/٦، وشرح النووى لصحيح مسلم ١٧٩/٢ حيث قال النووى: هذا الإسناد كله كوفيون، يعنى: سند حديث حذيفة «أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلامَ».

(٣٣٥) وكيف يكون العمل فى هذه الأزمان؟! بعد حذيفة الذى توفى سنة ست وثلاثين من الهجرة، وقد صح عنه قوله: أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب: إخبار النبى فيما يكون إلى قيام الساعة ٢٢١٧/٤، وفتح البارى ١٧٨/٦.

أخرج الشيخان واللفظ لمسلم، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ»(٣٣٦).

وعند مسلم عنه قال: وَاللَّهِ! إِنِّي لأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ، فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنْ الْفِتَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ: «مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ، مِنْهَا صِغَارٌ، وَمِنْهَا كِبَارٌ» قَالَ حُذَيْفَةُ: فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي(٣٣٧).

وهكذا تعد فترة الاستخفاء: مرحلة تدرب على واقع جديد يتدرب فيه المسلم على المفاهيم الجديدة، كما يتعرف على أعضاء مجتمعه المسلم، مما يقوى صلة المسلمين ببعضهم، ويرفع من معنوياتهم... وهذا ما يجعلهم أكثر قدرة على تحمل البلاء عند وقوعه، وأكثر تعاونا وتساندا عند الحاجة.

٢- الحيطة والحذر مع اتساع نطاق الدعوة

قد دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرًا وجهارًا، وأمر الناس بنَبْذِ عبادة الأوثان، فاستجاب له من شاء من أحداث الرجال وأشراف الناس، حتى كثر من آمن به فى عشائرَ كثيرةٍ

---

(٣٣٦) صحيح البخارى: كتاب القدر/ باب: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ٤٩٤/١. وصحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب: إخبار النبى ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ٢٢١٧/٤.

(٣٣٧) صحيح مسلم ٢٢١٦/٤، الكتاب والباب المتقدمين.

وبطونٍ متفرقة، ودخل الناس فى الدين واحدًا بعد واحد، من داخل مكة وخارجها، كما مر شىء من ذلك قريبا، ونضيف هنا:

ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده، عن أبى أُمَامَةَ قال: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللَّهُ» فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ، لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ» قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ: أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ؟» قَالَ: فَقُلْتُ بَلَى، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ... ثم سأله عن الصلاة، والوضوء، والنبى ﷺ يجيبه... الحديث مطولاً(٣٣٨).

---

(٣٣٨) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب: إسلام عمرو بن عبسة ١/٥٦٩: ٥٧١، وليس له فى صحيح مسلم سوى هذا الحديث، وأخرج له الإمام أحمد هذا الحديث مفرقًا، مع غيره من أحاديث أخرى لعمرو بن عبسة فى المسند ١/١١١: ١١٤، ٣٨٥، وكان عمرو بن عبسة قد هاجر بعد ذلك فى الفترة التى بين خيبر، وبين فتح مكة وشهدها معه ﷺ وتوفى فى آخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. الإصابة ٤/٤٤٥: ٤٤٧، وفى سؤاله النبى ﷺ بقوله: «مَا أَنْتَ؟» أي:

وفى معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» هو اسم جنس، وتعيينه بأبى بكر وبلال فيه نظر، لأنه قد سبق جماعة إلى الإسلام قبل عمرو بن عبسة، وأنه قد مضت فترة من الزمن حتى سمع وهو ببلده أخبار رسول الله، فأتى يبحث عنه حتى أسلم، ثم إن المسلمين فى ذاك الوقت كانوا يستسرُّون بإسلامهم ويخفونه، حتى لا يطلع أحد من أهليهم وقراباتهم على إيمانهم، فضلاً عن أهل البادية من الأعراب، والقادمين من بلاد أخرى، والله أعلم(٣٣٩).

كما كانت المبالغة فى السرية والكتمان، والحرص على الاستخفاء: من أجل مصلحة الدعوة الناشئة، وذلك واضح فى جوابه ﷺ لعمرو بن عبسة السلمى حين سأله: من معك على هذا؟ فقال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» حتى ظن عمرو أنه رابع أربعة فى الإسلام، وما علم أنه ﷺ قد أخبره بجنس من آمن به، ولم يخبره بعدد من أسلم ولا بأسمائهم حرصًا على سلامتهم من الأذى والتعذيب، وكذلك كان أبو ذر الغفارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أنه رابع الإسلام أيضًا، وكل منهما لا يدرى متى أسلم الآخر، وهذا عمار بن ياسر – كما أخرج ذلك البخارى عنه – يقول: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ – جمع عبد – وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ(٣٤٠).

قال الحافظ ابن حجر فى بيان معنى حديث عمار فى أول من أسلم: أما الأعبد فهم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر، فإنه أسلم قديمًا مع أبى بكر، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف، وكان يعذبه على الإسلام، فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وأما الخامس فيحتمل أن يفسر بـ (شقران)، فقد ذكر ابن السكن فى كتاب: «الصحابة» عن عبدالله بن داود أن

يسأله عن صفته ﷺ ولا يسأل عن ذاته.

(٣٣٩) البداية والنهاية ٣/ ٣١، ٣٢، وفتح البارى ٧/ ١٧٠.

(٣٤٠) صحيح البخارى: كتاب فضائل الصحابة/ باب: قول النبى ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً» ٧/ ١٨، وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام أبى بكر الصديق ٧/ ١٧٠.

النبى ﷺ ورثه من أبيه هو وأم أيمن، وذكر بعض شيوخنا بدل أبى فكيهة عمار بن ياسر، وهو محتمل، وكان ينبغى أن يكون منهم أبوه وأمه، فإن الثلاثة كانوا ممن يعذب فى الله، وأمه أول من استشهدت فى الإسلام، وأما المرأتان: فخديجة وأم أيمن أو سمية، وفى هذا الحديث: أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقا، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم، وذلك بالنسبة إلى من اطلع على إسلامه ممن سبق إسلامه(٣٤١).

ومن هنا: كان مَن يأتى من خارج مكة – وهو يريد الدخول فى الإسلام – يكره أن يسأل عن رسول الله ﷺ أحدًا لعلمه أن قومه يؤذونه ﷺ بسبب قصد من يقصده، ويكرهون أن يظهر أمره فلا يدلون عليه من يسأل عنه؛ بل يمنعونه من الاجتماع به، ويخادعونه حتى ينصرف عن مراده، وإلا آذوه وعذبوه، كما هو واضح فى قصة إسلام أبى ذر الغفارى.

٣- عَالميةُ الإسلامِ مِن مُبْتَدأِ البَعْثَةِ

كما كانت عالمية الإسلام واضحة منذ بدء البعثة، حيث انتشر الإسلام فى عشائرِ قريش وبطونها الأربعة عشر بمكة انتشارًا متوازنًا، فمثلا: على بن أبى طالب الذى كان أول الفتيان إسلامًا وهو فى نحو العاشرة من عمره: من بنى هاشم، وأبو بكر الصديق أول الرجال البالغين إيمانًا: من بنى تيم، وعثمان بن عفان: من بنى أمية، والزبير بن العوام: من بنى أسد، وعبدالرحمن بن عوف: من بنى زهرة، وعثمان بن مظعون: من بنى جمح.. وهكذا.

ومما يدل كذلك على أن الإسلام لم يكن خاصًا بقريش وأهل مكة: أن كثيرين قد اعتنقوه

(٣٤١) فتح البارى ٧/ ٢٤.

وهم من خارج مكة مثل: عبدالله بن مسعود الذى كان من قبيلة هذيل، وأبى ذر: من غفار، وعمار بن ياسر: من عنس، وعمرو بن عبسة: من سليم، وغير ذلك ممن سبقت الإشارة إلى إسلامهم فى تلك الفترة التى حددها ابن إسحاق وغيره بثلاث سنين(٣٤٢).

بل: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أعلم نبيه الخاتم محمدًا ﷺ بعظم مَهمَّته، وضخامة مسئوليته، وأنه سيلاقى من قومه العنت والمشقة والتكذيب والإيذاء، فمن تأمل افتتاحية سورة القلم – ثانية سور القرآن الكريم نزولاً على النبى ﷺ: رأى كيف نفى الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه ﷺ التهمة التى سيتهمه بها المشركون، وأكد نفيها بجميع المؤكدات، ثم أثبت له كذلك المثوبة الدائمة، والأجر الذى لا ينقطع، ثم وصفه بأرقى أوصاف الخُلق، وأعظمها قدرًا، وأعلاها مكانة، وذلك واضح فى قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

ثم بين له فى ختام السورة ذاتها بعض ما يفعله المشركون به أو يتحدثون به عنه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ [القلم].

ونلحظ كيف دافع الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه ﷺ ونفى عنه التهمة قبل أن يسجلها على قائليها، ثم وضح المهمة التى من أجلها بعث خاتم النبيين فقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ [القلم].

(٣٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٢، والسيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٢٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، وراجع كلام الإمام ابن حزم عن نسبِ رسول الله ﷺ ص٦٥، ٦٦.

ثم تَواصَل الصقل والإعداد للنبى ﷺ فنزلت سورة المزمل تأمر النبى ﷺ بقيام الليل، وتبين له عظم المَهمَّة التى سيقوم بها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل].

ثم حثَّته على دوام ذكره لخالقه، وأمرته بالصبر والثبات على ما سيلاقيه، والاستعانة بالله وحده على الأداء والتبليغ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ۝١٠﴾ [المزمل].

ثم جاءت السورة الرابعة: سورة المدثر فأمرته بمباشرة مهمته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر].

وبدهى أن يبدأ ﷺ دعوته بالأقربين من عشيرته، والمقيمين فى بلده كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧].

غير أن هذا لا يثنيه عن المهمة التى بعث من أجلها، والغاية التى أرسل لتحقيقها، فتأتى خاتمة سورة التكوير وهى السورة السابعة لتصيح فى جميع المكلفين: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير].

وربما يستغرب البعض أو يتعجبون: كيف يتحدث الله جَلَّجَلَالُهُ عن عالمية الرسالة فى هذا الوقت الذى كان يود فيه النبى لو آمن أحد زعماء الكفر أو اهتدى بعض أئمة الضلال، حينئذ يكون قد تحقق أمل كبير، وهدف عظيم، غير أن عالم الغيب والشهادة: يأمر نبيه ﷺ بالمضى فى

الدعوة حتى يتحقق ما أراده الله، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فى ختام السورة الثامنة والثلاثين نزولاً على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة ص].

ثم يفتتح السورة الثانية والأربعين فى ترتيب نزول القرآن بقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وهكذا استقر هذا الأمر فى قلب النبى ﷺ، ورسخ فى عقيدته حتى إنه كان يحدث المستضعفين، الذين عذبوا وأوذوا فى الله، بذلك لكى: يثبتَ إيمانُهم، ويشتدَ أزرُهم، وتقوى عزائمهم فى تحمل الخطوب ومواجهة الفتن، والصبر على البلاء.

بل: قد كان النبى ﷺ مدة حياته كلها يسعى لتحقيق عالمية الإسلام، ويوقن بحصولها: ثقةً منه ﷺ فى وعد ربه له بظهور هذا الدين، وانتشارِه فى العالمين.

روى الإمام أحمد والبخارى (واللفظ له)، عن عدى بن حاتم قال: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ! هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ(٣٤٣) تَرْتَحِلُ

(٣٤٣) (الْحِيرَة) بكسر المهملة، وسكون المثناة التحتانية، وفتح الراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، يقال: كانت متصلة بالخليج العربى الآن، وكانت بلاد ملوك العرب الذين يخضعون لحكم الفرس، وكان ملك الحيرة يومئذٍ: إياس بن قبيصة الطائى، وليَهَا تحت حكم كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر، وقد أطال ياقوت الحموى الحديث عن سبب تسميتها بالحيرة، فليرجع إليه من أراد. معجم البلدان ٣٢٨/٢: ٣٣١، وينظر: فتح البارى ٦١٣/٦.
و(الظَّعِينَة) المرأة فى هودجها، وهى فى الأصل اسم للهودج، وتطلق أيضاً على: الراحلة التى يُرْحَلُ ويُظْعَنُ عليها. ينظر: النهاية ١٥٧/٣.

مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا(٣٤٤) الْبِلادَ؟ «وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى» قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟!! قَالَ: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى! فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ...»(٣٤٥).

---

(٣٤٤) (دُعَّارُ) بضم الدال المهملة، وفتح العين المهملة المشددة، آخره راء: جمع داعر، وهو: قاطع الطريق الذى يستخدم ما وهبه الله له من القوة والمهارة فى الإفساد وترويع الناس، و(طَيِّئٍ) قبيلة مشهورة، منها: عَدى بن حاتم الطائى راوى الحديث، (سَعَّرُوا الْبِلادَ) يعنى: ملأوا الأرض شرًّا وأكثروا فيها الفساد، وأوقدوا نار الفتنة، وهو مستعار من توقدِ النار واستعارِها، فتح البارى ٦/٦١٣ بتصرف.

(٣٤٥) يعنى: ذهبًا أو فضة يَتصدقُ به صاحبه فلا يجد محتاجًا يقبل منه صدقته لانعدام الفقراء فى ذلك الزمان، قيل هذا سيكون فى زمن نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى هذه الأمة قُرب الساعة، ورجح الحافظ ابن حجر أنه إشارة إلى ما حدث فى زمن عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حيث كان الرجل المتصدق يأتى بالمال فلا يجد محتاجًا يدفع إليه المال، وهذا واضح فى قول عدى بن حاتم: «وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ» الحديث أخرجه بهذا اللفظ، البخارى فى صحيحهِ: كتاب المناقب/ باب: علامات النبوة ٦/ ٦١٠، ٦١١ ح٣٥٩٥، ونحوه عند: الإمام أحمد فى مسنده ٤/٢٥٧، ٣٧٨ ح١٨٢٦٠، ١٩٣٧٨ وفيه: «فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ» وفى رواية أخرى له: «فِي غَيْرِ جِوَازِ أَحَدٍ» بالراء والزاى ومعناهما معروف متقارب، وينظر: فتح البارى ٦/٦١٣.

وهذا الحديث يؤكد أنه ﷺ كان مدة حياته كلها يسعى لتحقيق عالمية الإسلام، ويوقن بحصولها: ثقةً منه ﷺ فى وعد ربه له بظهور هذا الدين، وانتشارِه فى العالمين.

وَعِزُّهَا الإِسلامُ وَهُوَ البَاقِي ❁❁❁ فِي سَائِرِ الجِهَاتِ وَالآفَاقِ

قَد نَسَخَ اللهُ بِهِ الأَديَانَـا ❁❁❁ وَأَصلَحَ الأَرْوَاحَ وَالأَبدَانَـا

وبعد هذه الدروس وتلك الاستنباطات والفوائد العديدة؛ نخلص إلى النتيجة التالية:

إذن: لَمْ يَسْتَخْفِ ﷺ بِدَعْوَتِهِ

لقد بدأ ﷺ دعوته قوية صريحة، حيث أسلم عدد لا بأس به يقرب أو يزيد على ستين صحابيًا وصحابية، وهم الذين جاء فى تراجمهم أن إسلامهم كان قبل دخول دار الأرقم، منهم: خديجة أم المؤمنين، وعلى بن أبى طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر، وعثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبوسلمة، والأرقم بن أبى الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وزوجه فاطمة، وابن مسعود، وعياش بن أبى ربيعة، وعبدالله بن جحش، ومعمر بن الحارث، وحاطب بن عمرو، وواقد بن عبدالله بن مناف، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبدالله وقدامة، وعامر بن ربيعة، وخنيس بن حذافة.

ثم وقفت قريش فى وجه الدعوة، فاتخذ ﷺ دار الأرقم لا ليستخفِيَ هو فيها، فقد كانت قريش كلها تعلم بدعوته، وإنما ليتيح لأتباعه الجدد الاستخفاء لدفع العدوان عن أنفسهم إذا حدث ما يقتضى ذلك يومًا ما.

وهذا هو الصواب الذى نراه فى هذه القضية، كما سبق أن أوضحنا ذلك تحت عنوان: «الدعوة من بدء البعثة» وفى الدروس المستفادة من تلك الفترة، وكذلك سبقت الإشارة أيضًا

عند إسلام على رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى: أن أخ الأشعث بن قيس لأمه واسمه: عفيف، وكان تاجراً، له علاقة بالعباس، فالتقيا أيام الحج قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلى تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلى وخرج غلام يصلى معه فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟... الحديث ضعيف وإن صححه بعضهم، وقد سبق تخريجه وتحقيقه تحت عنوان: «عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ أَوَّلُ الفتيانِ إسلامًا» والشاهد فيه قول عفيف الكندى: ليتنى كنت آمنت يومئذ فأكون ثالثاً مع على بن أبى طالب وخديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ فيستفاد منه رؤية قريش للنبى ﷺ وهو يعبد ربه، وأنهم كانوا على علم بدعوته ﷺ ولم ينكر أحد منهم عليه، ولم يتعرضوا له، والله أعلم.

كما يمكن أن نتساءل هنا: كيف وصل الخبر إلى: عمرو بن عبسة، وهو بعيد عن مكة؟!!

لا شك أن الاستخفاء كان لمن يرغب فيه، ولو لم يكن كذلك لمنع النبى ﷺ أبا ذر كما مر فى الحديث السابق فى إعلان إسلامه[٣٤٦].

ثم إنَّ المتأمل فى كتب السيرة: يلحظ أنها لم تتوقف طويلاً عند ذكر تلك المدة التى أطلق عليها بعضُهُم: المرحلة السرية فى الدعوة، وحدَّدُوها بثلاث سنين؛ بل لم نجد لها عنوانًا مستقلاً، أو فصلاً خاصًا، وإنما ورد الحديث فيها مجملاً ضمن الحديث عن الدعوة.

ولقد أغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالاً تامًا، كعروة بن الزبير، فى: «مغازى رسول الله ﷺ» وقريبًا من ذلك فَعَلَ ابن حزم؛ فإنه بعد أن ذكر المسلمين الأوائل، وعد منهم ما يزيد على الأربعين، قال: ثم أعلن رسول الله بالدعاء إلى الله جَلَّجَلَالُهُ وجاهرته قريش بالعداوة والأذى.

---

(٣٤٦) راجع ما سبق تحت عنوان: «عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ أَوَّلُ الفتيانِ إسلامًا»، و«قصة إسلام أبى ذر»، وحديث عمرو بن عبسة وإسلامه عند هامش ٣٣٨.

فكلمة (أعلن) هى الكلمة الوحيدة التى تشير إلى أنه قبل ذلك لم يكن فى حالة من الإعلان، وهذا لا يعنى أنه كان فى حالة من السر، فقد لا يعلن الإنسان عن أمر، ومع ذلك لا يتوخى السِّرِّية فيه(٣٤٧).

وليس فى القرآن الكريم ما يشير إلى ما اصطلح عليه كثيرون من كُتَّاب السيرة: بالدعوة السِّرِّية، لكننا نرى الآيات الكريمة الآمرة بالدعوة صريحة واضحة تؤيد ما ذكرناه سلفًا، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر].

وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه فى سورة الحجر: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾.

وفى السورة نفسها: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾.

ومن اليقين الذى لا شك فيه: أنه ﷺ قام بتنفيذ هذه التوجيهات والأوامر فور صدورها؛ مع ما تحمله كلمة الإنذار من القوة والوضوح.

ولهذا المعنى – والله أعلم– لم يتوقف الإمام ابن القيم عند مَا يسمى: بالدعوة السرية، حينما تحدث عن مراحل جهاده ﷺ بل قال: وشرع ﷺ فى الجهاد من حيث بُعِثَ إلى أن توفاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه لما نزل عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ

(٣٤٧) ينظر: مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (النسخة المستخرجة) جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمى، من منشورات مكتب التربية العربى، وجوامع السيرة لابن حزم ص٤١.

فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر]، شمر عن ساق الدعوة، وقام فى ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ولما نزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ صدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله: الصغيرَ والكبيرَ، والحرَ والعبدَ، والذكرَ والأنثى، والأحمرَ والأسودَ، والجنَّ والإنسَ(٣٤٨).

ومما ورد على سبيل المثال بشأن آية الشعراء، ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهْ» فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي لُؤَيٍّ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ صَدَّقْتُمُونِي؟!» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١...﴾ سورة المسد بتمامها(٣٤٩).

وهكذا كانت مبادرته ﷺ سريعة لتنفيذ أمر ربه، وكذلك شأنه ﷺ فى كل أوامر الله تعالى.

فنحن على يقين من أن الرسول ﷺ لم يَسْتَخْفِ بدعوته فى يوم من الأيام، منذ كُلِّفَ بها، وإن كانت فى البدء موجهة إلى من يَتَوسم فيهم الاستجابة وعدم الإنكار.

وذهب إلى هذا الرأى الأستاذ محمد عزة دروزة، فقال: إن الدعوة بدأت علنية وبقوة، خلافاً لما روى أنها بدأت سرية، وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد فى الروايات التى تروى أقوال

---

(٣٤٨) زاد المعاد لابن القيم ٣/١٢.

(٣٤٩) البخارى ح٤٩٧٢، ومسلم ح٣٥٥، وانظر ما يأتى: من إيذاء أبى لهب وزوجه أم جميل لرسول الله ﷺ من الهامش ٣٦٥ إلى ٣٦٨.

بعض أصحاب رسول الله ﷺ مثل ما روى فى قصة إسلام عمر حيث سأل: أنحن على حق أم باطل، فقال له رسول الله ﷺ: «بل على حقٍ» فقال: ففيم التخفى إذَن، إن النبى ﷺ كان يلزم الحذر والتحفظ فى الصلاة والاجتماع بهم: حماية لأصحابه، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرةً، وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة، وإيمان النبى بالله وبرسالته. ونقل هذا أيضًا: الشيخ صالح أحمد الشامى[٣٥٠].

كما أن قريشًا لم تعلن عداوتها للنبى ﷺ وأصحابهِ من اليوم الأول؛ وإنما استمعت وسكتت، ولعلها ظنت النبيَّ ﷺ واحدًا من المتألهين الذين عُرِفُوا قبله ﷺ باسم الحنفاء، ولم يقف أحدٌ فى وجههم؛ بل تُرِكُوا وشأنهم، مِن أمثال: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل[٣٥١].

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبتعد منه قومه، ولم يردوا عليه فيما بلغنى حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته[٣٥٢].

وقد استمرت هذه الفترة حتى نهاية العام السادس من البعثة، يوم أسلم عمر، وظهر المسلمون، وانتهى دور دار الأرقم فيما يبدو.

وفى تلك الفترة كان الناس بين معلنٍ ومُسْتَخْفٍ، فهذا عمر بن الخطاب قبل إسلامه يرى أُمَّ عبدالله بنت أبى حثمة، زوج عامر بن ربيعة، وهى تعد نفسها للرحيل مع زوجها إلى الحبشة،

---

(٣٥٠) ينظر كتاب: «سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم» ١/ ١٥٤، ١٥٥، و كتاب: «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة» ص ١٧: ٢٠، ط الأولى، المكتب الإسلامى، بيروت.

(٣٥١) راجع ما ذكر عن كلٍّ منهما فيما سبق من هذا الكتاب ص١٠٦: ١١١، و١٣٢: ١٣٨، و١٨٤، ١٨٥.

(٣٥٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٤.

فيقول لها: إنه لَلانطلاقُ يا أم عبدالله؟ قالت فقلت: نعم، والله لنخرجن فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا...[٣٥٣]، إنها وزوجَها بكل هذا الوضوح يعلنان عن الخروج، وعمر نفسه يوم أسلم بعد ذلك لم يكن يدرى أن أخته وزوجها قد أسلما... إنها قضية كانت متروكة للأفراد الذين يسلمون، فيكون إعلان إسلامهم حسب رغبتهم. وسيأتى مزيد لذلك عند إسلام عمر إن شاء الله تعالى ١/ ٢٦٠: ٢٦٧.

هِجْرَةُ الصَّحَابةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ

وهنا جاء التفكير بمكانٍ آمن يهاجرون إليه، فكان توجههم الأول نحو أرض الحبشة بأمر رسول الله ﷺ لأن بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحد.

وقد صَّورت أم سلمة زوج النبى ﷺ وهى ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى – الظروف التى أحاطت بهذه الهجرة فقالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ فى منعةٍ من قومه وعمه، فلا يصل إليه شيء يكرهه إلا ما يُنَالُ من أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة مِلِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه» فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دارٍ إلى خير جارٍ، فَأَمِنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا»[٣٧٨].

وهذا المدح والثناء من أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنهَا لِمَا كان عليه المسلمون فى أرض الحبشة: لا

(٣٥٣) القصة صحيحةٌ بمجموع طرقها، وستأتى بتمامها فى: «إسلام عمر بن الخطاب» عند الهامش ٣٩٩.

(٣٧٨) فتح البارى ١٨٩/٧، وسيرة ابن إسحاق ١٩٤، وسيرة ابن هشام ١/ ٣٣٤ بإسنادٍ حسن، فرواية يونس بن بكير توبعت برواية البكائى، وابن إسحاق صرح بالتحديث، وهو إمامٌ فى المغازى.

يتعارض مع قول أسماء بنت عُميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المذكور فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوَانِ لِى، أنا أصغرهما، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: بضعًا، وإما قال ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى، قال: فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم، قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا يعنى لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة، قال: فدخلت أسماء بنت عميس، وهى ممن قدم معنا على حفصة زوج النبى ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم! فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت كلمة: كذبت يا عمر! كلا، والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا فى دار أو فى أرض البُعَداء البُغَضاء فى الحبشة، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ، وَايْمُ اللهِ! لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ! ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، ووالله! لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ على ذلك، قال: فلما جاء النبى ﷺ قالت: يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحق بى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث، ما من الدنيا شىء هُمْ به

أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ، قال أبو بردة: فقالت أسماء، فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى(٣٧٩).

ومنذ ذلك اليوم أُطلق على هؤلاء الصحابة لقب: أصحاب الهجرتين، لأنهم هاجروا إلى الحبشة وهاجروا إلى المدينة.

وتتضح الصورة أكثر لكل من تأمل مجادلة أسماء بنت عميس لعمر بن الخطاب حيث قال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِمُ جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا فى دار البُعَداء البُغَضاء فى الحبشة وذلك فى الله ورسوله... ونحن كنا نُؤْذَى ونُخافُ... وقد فَصَلَ رسول الله ﷺ الأمر بينهما بقوله: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ» فعظم الفرح بين مُهاجرَةِ الحبشة.

وذلك لأن أم سلمة لم تمكث طويلاً فى الحبشة؛ بل عادت مع زوجها إلى مكة، ثم كانوا أولَ أهل بيتٍ هاجر إلى المدينة، كما أن أسماء بنت عميس؛ قد مكثت مدةً طويلةً فى الحبشة تزيد على عشر سنين، فتحدثت عما لقيته من إيذاءٍ، وتعرضت له من ابتلاء، بعيدًا عن وطنها فى تلك البلاد، لأنها لم تهاجر إلى المدينة إلا فى أول العام السابع بعد الهجرة مع جعفر وأصحابه حين قدموا على النبى ﷺ بعد فتح خيبر.

(٣٧٩) قولها لعمر: «كذبت» معناه: أخطأت، «يأتونى أرسالا» أى: أفواجًا، جماعة بعد جماعة، والحديث فى صحيح البخارى: ٦/٢٣٧، ٧/١٨٨، ٤٨٤، ٤٨٧، ح٣٨٧٦، وصحيح مسلم: واللفظ له كتاب الفضائل/ باب: من فضائل جعفر بن أبى طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٤/١٩٤٦، ١٩٤٧ ح ٢٥٠٣، ومسند الإمام أحمد ٤/٣٩٤، ٣٩٥ مختصرًا، وينظر: شرح النووى لصحيح مسلم ١٦/٦٤: ٦٦.

ومن الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين[٣٨٠]، وكانت الهجرة الأولى فى شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار[٣٨١].

ثم أرسلت قريش: عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشى وبطارقته، فقابلا النجاشى طالبَيْنِ إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشى إلى المسلمين فسألهم عن دينهم، فقال جعفر بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الملك! كنا قومًا على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسىء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض فى سفك الدماء وغيرها، لا نُحل شيئًا ولا نُحرمه، فبعث الله إلينا نبيًا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلى ونصوم، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال جعفر: نعم، قال: هلم فاتل علىَّ ما جاء به، فقرأ عليه صدرًا من كهيعص يعنى: أول سورة مريم، فبكى واللهِ النجاشى حتى أخضل – بلل– لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى، وانطلِقُوا راشدين، ولما أخفقت محاولة وفد قريش فى استعادتهم، أثار عمرو بن العاص فى اليوم التالى موقف المسلمين من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال للنجاشى: أيها الملك! إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيمًا، فأرسل النجاشى إليهم فسألهم، فقال له جعفر: نقول هو عبدالله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فقال النجاشى: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا

(٣٨٠) صحيح البخارى: فتح البارى ٧/ ١٨٧.

(٣٨١) فتح البارى ٧/ ١٨٧، ١٨٨ وهو قول الواقدى وإن لم يصرح الحافظ باسمه كما فى طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤، ويذكر ابن إسحاق أنهم عشرة رجال وأربع نسوة. سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٤.

العُوْد، – وأشار إلى عود يُمسك به فى يده – وأعطى النجاشى الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار فى خير دار(٣٨٢).

ثم إن عامة أهل الحبشة كانوا كفارًا سوى النجاشى الذى كان يستخفى بإسلامه عن قومه ويداريهم ويوارى لهم، ولا يخفى: أن هجرة الوطن تَصْعُبُ على المرء، وهو لا يفعل ذلك إلا مضطرًا، وقد كان المسلمون المهاجرون عربًا يعيشون فى وسطٍ غريبٍ، لا تربطهم به وشائج رحمٍ ولا لُغَةٍ، فضلاً عن كونه وسطًا نصرانيًا يخالفهم فى المعتقد، إلا النجاشى فإنه أسلم وَوَرَّى بإسلامه أمام قومه(٣٨٣).

ومبادرة قريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة: تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية، ومَلِكُهَا عُرف بالعدل، وهى قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطرًا على قريش فى المستقبل.

ومما يبعث على العجب والإكبار لموقف المهاجرين؛ بيانهم لعقيدتهم فى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بصراحة ووضوح، على الرغم من مخالفتها للعقيدة النصرانية السائدة فى الحبشة، فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين خوفًا من تسليمهم لقريش، فأحسن الله عاقبتهم وأمَّنهم فى دار

---

(٣٨٢) السير والمغازى لابن إسحاق ص٢١٣: ٢١٧، والسيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/١: ٢٩٣ بإسنادٍ حسن، إلى أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولعل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التى حكت خبر النجاشى سمعته من أم سلمة. ينظر: السيرة النبوية لابن إسحاق ص١٩٧: ١٩٩.

(٣٨٣) لقد أرسل النبى ﷺ رسالة إلى النجاشى فى عام إرساله الكتب إلى ملوك الأرض يدعوه إلى الإسلام، وقد بين حديثٌ صحيحٌ أنه غير النجاشى المسلم: أصحمة، فعن أنس: «أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ». صحيح مسلم ١٣٩٧/٣ ح١٧٧٤.

هجرتهم(٣٨٤).

وفى أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة حدَث أنْ صلَّى رسولُ الله ﷺ فى المسجد الحرام، فقرأ سورة النجم، فسجد فى موضع السجود، وسجد كل من كان حاضرًا؛ إلا اثنين من المستكبرين، فشاع أن قريشًا قد أسلمت(٣٨٥).

وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند إلى مرسليها وهم: سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وأبو العالية إلى أن الشيطان ألقى على لسان الرسول ﷺ فى قراءته فى صلاته تلك العبارة: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

كما ذهبت روايات مرسلة أخرى ضعيفة الأسانيد إلى مرسليها إلى أن العبارة قالها الشيطان وسمعها المشركون دون المسلمين، فسجد المشركون بسجود المسلمين، والحديث المرسل ضعيف عند المحدثين، وما ذُكر فى الأحاديث التى قَوِىَ سندُها: يصطدم مع عصمة النبوة فى قضية الوحى ويعارض التوحيد الذى هو أصل العقيدة الإسلامية، لذلك فإنها مرفوضة متنًا؛ حتى لو ثبت تعدد مخارجها عند الإمام الشافعى الذى يحتج بالحديث المرسل إذا رُوِى من وجوه معتبرة؛ لأنها لم تستجمع بقية الشروط التى اشترطها، وقد يكون التابعيون الثلاثة رَوَوْهَا عن شيخ واحد من التابعين، فينتهى إلى التفرد مرة أخرى مع الإرسال، فحينئذ يكون السند مع المتن

(٣٨٤) ذكر الطبرانى فى المعجم الكبير ١٠٩/٢ : ١١١، والذهبى فى السيرة النبوية ص٢٢١، ٢٢٢ من حديث جعفر بن أبى طالب، أن النجاشى سأل المسلمين: «أَيُؤْذِيكمْ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: مَنْ آذَى أَحَدًا مِنْهُمْ، فَأَغْرِمُوهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، ثُمَّ قَالَ: يَكْفِيكُمْ؟ فَقُلْنَا: لا، فَأَضْعَفَهَا». وإسناده ضعيف لأن مداره على: أسد بن عمرو الكوفى، عن مجالد بن سعيد، وكلاهما: ضعيف، وقد وُثِّقا. مجمع الزوائد ٦/ ٣٠، وللفائدة ينظر ١٥٧/٢ : ١٥٩، و٢٦٨ : ٢٧٥

(٣٨٥) صحيح البخارى: فتح البارى ٥٥١/٢، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٦٠، و ٦١٤/٨، وصحيح مسلم ٤٠٥/١، وراجع الألبانى: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق.

ضعيفًا باتفاق جميع المحَدِّثين.

ولعل سجود المشركين مع الرسول ﷺ لِمَا اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستمعون إلى القرآن ببيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد هلاك الأمم السالفة؛ كما كان ذلك سببًا فى إسلام عمر الذى كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، تأمل وتدبر قولَه تعالى فى ختام سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾(٣٨٦).

فبلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة: أن أهل مكة أسلموا، فرجع أُناسٌ، منهم: عثمان بن مظعون إلى مكة، فلم يجدوا ما أُخبروا به صحيحًا فرجعوا، وخرج معهم جماعة إلى الحبشة، وهى الهجرة الثانية، وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية، وهم فوق الثمانين رجلاً، وقال ابن جرير: كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، قيل: إن عِدة نسائهم كانت ثمانى عشرة امرأة(٣٨٧).

ولقد ذكر ابن إسحاق دوافع الهجرة الثانية فقال: فلما اشتد البلاء، وعظمت الفتنة، تواثبوا

---

(٣٨٦) تفسير الألوسى، المسمى: روح المعانى ١٧/ ١٧٨ ط المنيرية، وكتاب: حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين ص ٣٩١: ٣٩٤ تحت عنوان: «الشيطان يوحى إلى محمد ﷺ» للدكتور عبدالصبور مرزوق.

(٣٨٧) فتح البارى ٧/ ١٨٩ فى شرح باب: هجرة الحبشة.

على أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت الفتنة الآخرة: التى أخرجت من كان هاجر من المسلمين، بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة[٣٨٨]، يعنى: أن الابتلاء والتنكيل كان أعظم من ذى قبل.

وفى تلك الفترة: توفى عبيدالله بن جحش[٣٨٩] زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها وهى بالحبشة: زوَّجه إياها النجاشى ومَهَرَهَا أربعة آلاف، وكان وليها فى عقد الزواج خالد بن سعيد بن العاص؛ أقربَ عاصبٍ لها، وهو أحد السابقين الأولين، وكان جهازها كله من عند النجاشى؛ ولم يرسل إليها رسول الله ﷺ بشيء، ثم أرسلها النجاشى مع شرحبيل بن حسنة إلى رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة[٣٩٠].

وقد تزوج رسول الله ﷺ بثلاث عشرة امرأة، منهن سُرِّيَّتين، وكانت أُولاهن تزويجًا:

---

(٣٨٨) السير والمغازى لابن إسحاق ص ٢١٣، تحقيق سهيل زكار.

(٣٨٩) المشهور عند أهل المغازى أنه تَنَصَّرَ قبل وفاته. كما فى كتاب: السير والمغازى، لابن إسحاق ص٢٥٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٨/١ عن الواقدى.

(٣٩٠) مسند الإمام أحمد ٤٢٧/٦ ح٢٧٤٠٨، وسنن أبى داود ٥٦٩/٢ ح٢٠٨٦، بإسنادٍ صحيح، وسنن النسائى ١١٩/٦ ح٣٣٥٠، ومستدرك الحاكم ١٨١/٢، وصححه وأقره الذهبى، كلهم من حديث: أم حبيبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وله روايات أخرى مرسلة، وفى صحيح ابن حبان: عن عائشة قالت: «هاجر عبيدالله بن جحش بأم حبيبة بنت أبى سفيان وهى امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة: مرِضَ، فلما حضرته الوفاة: أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، وبعث بها النجاشى مع شرحبيل ابن حسنة». موارد الظمآن ص ٣١٢ ح١٢٨٣ وسنده حسن، لأن فيه: عبدالرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى: صدوق. تقريب التهذيب ص٣٣٩، لكنه خالف بزيادته: «أوصى إلى رسول الله ﷺ» معمرًا ويونس، عن الزهرى، حيث رَوَيَا الحديثَ، عن أم حبيبة بدون تلك الزيادة، وهما أوثق منه، ويرى النسائى أن رواية ابن مسافر، عن الزهرى فى طبقة رواية ابن أبى ذئب، عن الزهرى التى قيل إنها عرضٌ، وقيل مناولة دون سماع، لذلك فإن مسألة الوصية لا تَثْبُتُ حديثيًا. تهذيب التهذيب ٣٠٥/٩، والله أعلم، وراجع ص٢١٠.

أم المؤمنين سَوْدَة بنت زَمعَة القرشية: أول امرأة تزوّجها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة، ثم عائشة بنت أبى بكر، وزَيْنَب بنت خُزَيْمَة الهلالية التى كانت تنفق على المساكين وتطعمهم؛ فسميت: أم المُسَاكِين، مكثت مع النبى ﷺ بضعة أشهر ثم ماتت وهى فى سن الثلاثين، سنة ٤هـ، ثم حَفْصَة بنت عمر، ثم أم سَلمَة بنت أبي أُميَّة، ثم أم حبيبة بنت أبى سفيان بن أمية، ثم زَيْنَب بنت جحش، ثم جُوَيْرِية بنت الحَارِث، ثم صفِيَّة بنت حييّ، ، ثم مَيْمُونَة بنت الحَارِث الهلالية؛ أخت زينب بنت خزيمة لأمها.

والسُّرِّيَّتان هما: رَيْحَانَة النضيرية، التى مَاتَتْ فى حياته ﷺ بعد عودته من حجة الوداع، ودفنها بالبقيع، والثانية هى: مَارِيَة الْقِبْطِيَّة أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقد توفى ﷺ عن تسع زوجات ومارية، رضى الله عن أمهات المؤمنين أجمعين(*).

وقد هاجر معظم مُهاجِرَةِ الحبشة إلى المدينة بعد استقرار الإسلام فيها، وتأخر جعفر بن أبى طالب ومن معه إلى فتح خيبر سنة ٧هـ(٣٩١).

(*) تُراجع تراجمهن رضى الله عنهن فى كتب الصحابة، ويُنظر: فتح البارى١/٢٥٦.

(٣٩١) فتح البارى ٧/٤٦٣، غزوة خيبر.

النجاشى: لقب لملك الحبشة، واسمه: أَصْحَمَةَ بن أبحر، أسلم قديمًا ولم يهاجر، وكان عونًا للمسلمين فى صدر الإسلام، مات فى رجب سنة تسعٍ من الهجرة، وقيل قبل ذلك(٣٩٢).

وفى بيان إسلامه: أنقل مكتفيًا بالتحقيق والتوثيق؛ ثم استنباط ما يستفاد من هذا الكلام النفيس الذى ذكره الإمام ابن تيمية فى أوسع مصنفاته حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى تأصيله لبيان قاعدةٍ جامعةٍ ما نصه: «... وكذلك الكفار: من بلغه دعوة النبى ﷺ فى دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فآمن به وبما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشى وغيره، ولم تُمكِنْه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعًا من الهجرة، وممنوعًا من إظهار دينه، وليس عنده من يُعَلِّمُه جميع شرائع الإسلام: فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون من قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون؛ بل: وكما كان يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفارًا ولم يُمكْنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام؛ فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر:٣٤].

وكذلك النجاشى، هو وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه فى الدخول فى الإسلام؛ بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلى عليه، فصلى عليه النبى ﷺ

(٣٩٢) ينظر تفصيل ترجمته فى القسم الثالث من حرف الألف من كتاب الإصابة للحافظ ابن حجر ١/ ٣٤٧ ط الأولى دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

بالمدينة: خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفهم صفوفًا وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات(٣٩٣) وقال: «إن أخًا لكم صالحًا من أهل الحبشة مات».

وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دَخَلَ فيها، لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت؛ بل قد رُوِىَ أنه لم يصلِّ الصلوات الخمس ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدى الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم.

ونحن نعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ... والنجاشى ما كان يمكن أن يحكم بحكم القرآن؛ فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين وبين التتار قاضيًا؛ بل وإمامًا، وفى نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك؛ بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها...

فالنجاشى وأمثاله سعداء فى الجنة وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه؛ بل كانوا يحكمون بالأحكام التى يمكنهم الحكم بها.

ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا

(٣٩٣) انظر فى ذلك: صحيح البخارى: كتاب الجنائز/ باب: الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه ح١٢٤٥ عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ «نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا» وشرحه فى فتح البارى ١١٦/٣، ١١٧، وفى باب: من صف صفين أو ثلاثة على الجنازة خلف الإمام ح١٣١٧ عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي أَوْ الثَّالِثِ» وصحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب: فى التكبير على الجنازة ٦٥٦/١: ٦٥٨ الأحاديث من ٩٥١: ٩٥٣.

قَلِيلاً ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران].

وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت فى النجاشى... ولم يذكر هؤلاء من آمن بالنبى ﷺ بالمدينة، مثل: عبدالله بن سلام وغيره ممن كان نصرانيًا، لأن هؤلاء صاروا من المؤمنين فلا يقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يقول أحد: إن اليهود والنصارى بعد إسلامهم وهجرتهم ودخولهم فى جملة المسلمين المهاجرين المجاهدين يقال: إنهم من أهل الكتاب، أى: من جملتهم وقد آمنوا بالرسول.

كما قال تعالى فى المقتول خطأ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء].

فهو من العدو، ولكن هو كان قد آمن، وما أمكنه الهجرة وإظهار الإيمان والتزام شرائعه، فسماه مؤمنًا لأنه فعل من الإيمان ما يقدر عليه.

وهذا كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يَسْتَخْفُون بإيمانهم وهم عاجزون عن الهجرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء]. فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ

وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم، فقد سقط عنهم ما عجزوا عنه؛ فإذا كان هذا فيمن كان مشركًا وآمن؛ فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن؟!!»(٣٩٤).

ويستفاد من هذا الكلام النفيس الذى ذكره شيخ الإسلام، ومن الأمثلة التى ضربها: أن مَن أراد الدخول فى الإسلام؛ لكنه يخشى على نفسه الإيذاء والتعذيب من أقاربه المحيطين به: فلا حرج عليه فى الاستخفاء بدينه وكتمانه عمن حوله، وهو بذلك يكون مؤمنًا عند الله؛ وإن لم يعرف بذلك أحد من الناس، فهذا النجاشىُّ: لم يَلْقَ رسولَ الله ﷺ؛ ومع ذلك: فقد نعاهُ ﷺ يوم ماتَ إلى أصحابِهِ، وجمعهم صفوفًا وصلى عليه، وأخبرهم أنه أخٌ لهم، والله أعلم.

إسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إلى هذا الوقت الذى أسلم فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانت هناك جماعات تستخفى بإيمانها، وقد مكنها ذلك الاستخفاء من رصد حركة أعداء الدعوة، بحيث تستطيع الجماعة: أخذ زمام المبادرة فى الحذر من الأعداء، وإبطال ما يسعون له، ويرمون إليه.

والمثال القريب لذلك، ما فعله نعيم بن عبدالله النحام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لما رأى عمر متوشحًا سيفه، شك فى أمره وارتاب فى مقصده، مما دفعه إلى سؤاله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابئ.. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسُك من نفسِك يا عمر، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأيُّ

(٣٩٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام الإمام أحمد ابن تيمية ١٩/٢١٧: ٢٢١ الطبعة الأولى، القاهرة.

أهل بيتى؟ قال: ابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة.

فإن استخفاء نعيم بإسلامه: أتاح له أن يحوِّل هذا التيار القوى عما أراده إلى وِجهةٍ أخرى، وأن يهون له من شأن نفسه التى تعاظمت، ولو كان معلنًا إسلامه لما استطاع أن يتعرض له، فضلاً عن أن يثنيَه عن عزمه؛ بل إن عمر نفسه لم يكن يقبل منه إرشادًا ولا نُصحًا.

وهذا ما ذكره الحافظ ابن حجر فى ترجمته لنعيم بن عبدالله النحام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مع إضافة بعض الجمل المعترضة للتفسير والإيضاح: نعيم بن عبدالله بن أسيد بن عبد بن عوف بن عويج بن عدى بن كعب القرشى العدوى المعروف بالنحام، وقيل له ذلك، لأن النبى ﷺ قال له: «دخلت الجنة فسمعت نحمة من نعيم».

وأخرج ابن قتيبة فى: «الغريب» من طريق عبدالرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه، قال خرجنا فى سرية زيد بن حارثة التى أصاب فيها بنى فزارة، فأتينا القوم... فقاتل نعيم بن النحام العدوى يومئذٍ قتالاً شديدًا.

والنحمة: هى السعلة التى تكون فى آخر النحنحة الممدود آخرها.

قال خليفة – يعنى: ابن خياط –: أمه فاختةُ بنت حرب بن عبدشمس، وهى عدوية أيضًا، من رهط عمر، قال البخارى: له صحبة، وقال مصعب الزبيرى: كان إسلامه قبل عمر، ولكنه لم يهاجر إلا قبيل فتح مكة، وذلك لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدى وأيتامهم، فلما أراد أن يهاجر قال له قومه: أقم ودِنْ بأى دينٍ شئَت، وكان بيت بنى عدى بيتَه فى الجاهلية، حتى تحول فى الإسلام لعمر فى بنى رِزاح، وقال الزبير– يعنى: ابن بكار–: ذكروا أنه لما قدم المدينة قال له النبى ﷺ: «يا نعيم، إن قومك كانوا خيرًا لك من قومى» قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بل قومك خير يا رسول الله، قال ﷺ: «إن قومى أخرجونى، وإن قومك أَقَرُّوكَ» فقال نعيم: يا رسول الله، إن

قومك أخرجوك إلى الهجرة، وإن قومى حبسونى عنها[٣٩٥].

وهذا الحوار يدل على فقه هذا الصحابى الجليل نُعيم بن عبدالله النَّحَّام.

أما وقت إسلام عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلم تصح رواية فى تحديد وقت إسلامه بدقة، ولكن ابن إسحاق جعل إسلام عمر بعد هجرة الحبشة، وذكر من وجهٍ آخر أنه عقب هجرة الحبشة الأولى[٣٩٦]، وتحدد رواية الواقدى إسلامه فى ذى الحجة السنة السادسة من البعثة، وهو ابن ستٍ وعشرين سنة، كما تحدد روايات الواقدى أن عدد المسلمين كان أربعين أو خمسين أو ستًا وخمسين، منهم عشر نسوة أو إحدى عشرة[٣٩٧].

وكان عمر رجلاً قويًا مهيبًا، وكان يؤذى المسلمين ويشتد عليهم، قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل – وهو ابن ابن عم عمر، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنَّ عُمَرَ لَمُوثِقِي عَلَى الإِسْلامِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ»[٣٩٨].

وهكذا ربط عُمَرُ سعيدًا تنكيلاً له بسبب إسلامه ليصده عن دينه، ولكن شدته الظاهرة تكمن خلفها رحمةٌ ورقةٌ، فقد أخبرت أم عبدالله بنت أبى حثمة – وهى من مهاجرة الحبشة–

(٣٩٥) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فى كتابه: الإصابة ٦/٣٦١، ٣٦٢، وينظر: النهاية ٥/٣٠.

(٣٩٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٤٢، وفتح البارى ٧/١٨٣ حيث ذكر الحافظ ابن حجر: أن إسلام عُمَربن الخطاب؛ كان فى أيام انشقاق القمر.

(٣٩٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٦٩، ٢٧٠ والواقدى هو: محمد بن عمر بن واقد، شيخ ابن سعد صاحب الطبقات، وقد سبقت ترجمته فى الهامش رقم:١٠١، وهو راوى الخبر؛ لكن العدد الذى ذكره الواقدى لمن دخلوا فى الإسلام حتى هذه الفترة: غير صحيح، لما سبق من الأدلة التى قدمناها فى هذا البحث، والله أعلم. ينظر: فتح البارى ١٧٨/٧.

(٣٩٨) صحيح البخارى: ح٣٨٦٧، فتح البارى ١٧٨/٧.

قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف عَلَيَّ – وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء والإيذاء لنا، والشدة علينا – فقال: إنه للانْطلاقُ يا أمَّ عبدِاللهِ؟ فقلت: نعم والله، لنخرجن فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً، فقال: صحبكم الله، ورأيتُ له رقةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجُنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعتِ فى إسلامه؟ قلت: نعم، قال: فلا يُسْلِمُ الذى رأيتِ حتى يُسْلِمَ حمارُ الخطاب، قالت: قال ذلك يأسًا منه لِما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام(٣٩٩).

ويبدو أن حَدْسَ المرأة وحِسَّها كان أقوى، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن ينصر دينه بإسلام عمر.

وقد ورد هذا عن أكثر من صحابى؛ فمن ذلك: ما أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِعُمَرَ بن الْخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي جَهْلِ بن هِشَامٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ دَعْوَةَ رَسُولِهِ لِعُمَرَ بن الْخَطَّابِ، فَبَنَى عَلَيْهِ الإِسْلامَ وَهَدَمَ بِهِ الأَوْثَانَ»(٤٠٠).

---

(٣٩٩) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤٢ بإسنادٍ فيه: عبدالرحمن بن الحارث، صدوق له أوهام، وعبدالعزيز بن عبدالله بن عامر: تابعى كبير، ترجم له البخارى وابن أبى حاتم، ولم يذكرا فيه جرحًا. التاريخ الكبير ٦/ ١٣، والجرح والتعديل ٥/ ٣٨، وتعجيل المنفعة ٢٦١، وانفرد ابن حبان بتوثيقه، ولم يجرحه أحدٌ فحديثه حسن، وهو يروى الخبر عن أمه وهى شاهدةُ عيان، الثقات لابن حبان٧/ ١١٠.

(٤٠٠) حديث ابن مسعود عند الطبرانى فى المعجم الكبير ١٠/ ١٥٩ ح١٠٣١٤ من طريق: يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن مجالد، عن الشعبى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود... الحديث، وقال الهيثمى: رجال الطبرانى فى الكبير: رجال الصحيح؛ غير مجالد بن سعيد، وقد وثق. مجمع الزوائد ٩/ ٦١، ٦٢. ومجالد بن سعيد: ممن يصلح للمتابعات؛ حيث أخرج له مسلم مقرونا

فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فأسلم عمر، فاعتز به الإسلام، وصلى المسلمون بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون، قال ابن مسعود: مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ(٤٠١).

وقال أيضًا: لقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي(٤٠٢).

وقال: إن إسلامه كان نصرًا(٤٠٣).

وقال عبدالله بن عباس لعمر حين طُعِن: فلما أسلمتَ كان إسلامُك عزًّا، وأظهر الله بك الإسلامَ ورسولَ الله وأصحابه(٤٠٤).

بغيره، والجمهور على تضعيفه، لأنه اختلط فى آخر عمره، لكن روايته لهذا الحديث مقبولة، لأن يحيى ابن أبى زائدة من الحفاظ والثقات المتقنين، قال ابن مهدي: رواية القدماء عنه: كهُشيم، وشعبة، وحماد بن زيد: مقبولة، وقال ابن عدى: له عن الشعبى أحاديث صالحة، يعني: كما فى سند هذا الحديث، قال يعقوب بن سفيان: صدوق، ينظر: تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٠، ٤١.

وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر، فى: جامع الترمذى ٦١٧/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، بإسنادٍ فيه: خارجة بن عبد الله: صدوق، فيه مقال. فتح البارى ٤٨/٧.

وله شاهد ثانٍ من حديث ابن عباس عند الطبرانى فى المعجم الأوسط ١/ ٣٤٤ بإسناد فيه: مبارك بن فضالة، صدوق يدلس ويسوِّى، وقد صرح بالسماع من شيخه. انظر: تقريب التهذيب ص ٥١٩، وفيه: محمد بن الحسن الأسدى، صدوق فيه لين. تقريب التهذيب ٤١٧، ٥٢٠.

وله شاهد ثالث من حديث عائشة عند ابن ماجه ١/ ٣٩ بإسنادٍ فيه ضعف بسبب رواية: محمد بن عبيد، وعبدالملك بن الماجشون، ومسلم بن خالد الزنجى. فالحديث صحيح لغيره بشواهده، والله أعلم.

(٤٠١) قول ابن مسعود أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب عمر بن الخطاب ٤١/٧، وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام عمر ١٧٧/٧، والمعجم الكبير للطبرانى ١٨٢/٩، ١٨٣.

(٤٠٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٧٠ بإسنادٍ صحيح، ومحمد بن عبيد: ثقة زيادته صحيحة.

(٤٠٣) المعجم الكبير للطبرانى ١٨١/٩ بإسنادٍ حسن.

(٤٠٤) المعجم الأوسط للطبرانى ١/ ٣٣٤ بإسنادٍ حسن.

وذكر الحافظ ابن حجر فى سبب إسلام عمر، أنه كان بسبب الآيات التى قرأها من سورة طه، وذلك فى غير موضع من كتابه القيم «فتح البارى» وعزاه إلى الدارقطنى، لكن فى سنده: القاسمَ بنَ عثمان أبا العلاء البصرى، لم يذكر فيه ابن أبى حاتم جرحًا ولا تعديلاً، وذكر الهيثمى آثاراً متعددة فى إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفى بعضها أن الآيات كانت من أول سورة الحديد، وكلها فيها ضعف، لكن تعدد طرقها واختلاف مخارجها يشعر بأن للقصة أصلاً، فإسلامه كان بسبب آيات من القرآن الكريم، والقصة قد ذكرها أصحاب السير وغيرهم أيضًا، والله أعلم(٤٠٥).

أما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ فى صلاته قرب الكعبة وعمر مستخفٍ بأستارها(٤٠٦)، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها، وَضَربِه لزوجها سعيد بن

---

(٤٠٥) انظر: فتح البارى ٧/٤٨، ١٨١، ٧/١٧٦ فى باب: إسلام سعيد بن زيد، والجرح والتعديل ٧/١١٤، ومجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٩/٦١: ٦٥، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٣٤٣: ٣٤٨، لكن ابن إسحاق ذكره بلاغًا، فهو منقطع، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٦٧: ٢٦٩ ط بيروت، وفى سنده: القاسم بن عثمان – المتقدم – قال البخارى: له أحاديث لا يتابع عليها، كما نقل ذلك الذهبى فى ميزان الاعتدال ٣/٣٧٥، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١/٢٤١ ط٢ دار النفائس، بيروت، وفى سنده: إسحاق بن عبدالله بن أبى فروة المدنى: متروك. تقريب التهذيب ص١٠٢، وانظر: عيون الأثر ١/٢١٦: ٢٢١.

(٤٠٦) مسند الإمام أحمد ١/١٧، ١٨، بسندٍ صحيحٍ إلى شريح بن عبيد، لكنه مرسل ضعيف، لأن شريحًا لم يدرك عمر. مجمع الزوائد ٩/٦٢، ومصنف ابن أبى شيبة ١٤/١٠٣، وفى إسناده: عَنْعَنَةُ أبى الزبير، وهو مدلس، والسياق يختلف، ولولا ذلك لتقوت الروايتان المرسلاتان، لاختلاف مخرجِهما، وأحاديثُ أبى الزبير منها ما صرح فيها بالسماع، فهى صحيحة، ومنها ما عنعن فى سائر طرقها عنه، فهذه إن كانت من رواية الليث عنه فهى صحيحة، وإن كانت من رواية غير الليث عنه فهى ضعيفة؛ لاحتمال أن تكون واسطته ضعيفة، هذا كله فى روايته عن غير جابر بن عبدالله، فإن أبا الزبير: صاحبُهُ ورَاوِيَتُهُ، والله أعلم.

زيد، ثم اطِّلاعه على صحيفة فيها آيات، وإسلامه بعد ذلك(٤٠٧): فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة، كما قدمنا؛ لكن الحافظ ابن حجر ذكر أن الباعث على إسلام عمر هو ما سمعه فى بيت أخته فاطمة من القرآن الكريم(٤٠٨).

ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد القيامة، ووصفه للجنة والنار؛ كان له تأثير كبير فى اجتذاب عمر إلى صف المسلمين، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، وعدم ثبوت الروايات حديثيًا لا يعنى حتمية عدم وقوعها تاريخيًا، والله أعلم.

ولقد كان رد فعل قريش عنيفًا أمام حادثة إسلام عمر حتى سال بهم الوادى يريدون قتله لولا إجارة العاص له(٤٠٩).

ذكر ابن إسحاق وغيره بسند حسن إلى عبدالله بن عمر(٤١٠) – وهو شاهد عيان – ما حدث من رد فعل قريش حين أسلم عمر بن الخطاب قال: لما أسلم أبى: عمر، قال: أىُّ قريشٍ

---

(٤٠٧) طبقات ابن سعد ٣/٢٦٧: ٢٦٩، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/٢١٩ كلاهما بإسنادٍ فيه القاسم بن عثمان البصرى: ضعيف، ومتنه منكر جداً. ميزان الاعتدال ٣/٣٧٥، وفضائل الصحابة للإمام أحمد ١/٢٨٥: ٢٨٨ من زيادة ابنه عبدالله بإسنادٍ فيه: إسحاق بن إبراهيم الحنينى، وأسامة بن زيد بن أسلم، وكلاهما ضعيف، ينظر: تقريب التهذيب ص٩٨، ٩٩. وفى المتن اختلاف؛ ففى رواية ابن سعد: قرأ فى الصحيفة آيات من سورة طه، وأما رواية عبدالله ابن الإمام أحمد ففيها أن الآيات من سورة الحديد.

(٤٠٨) صحيح البخارى: باب إسلام سعيد بن زيد ح٣٨٦٢، فتح البارى ٧/١٧٦.

(٤٠٩) وقد روى البخارى قصة إجارة العاص بن وائل لعمر فى صحيحه ح٣٨٦٤، ينظر: فتح البارى ٧/١٧٧/ باب: إسلام عمر.

(٤١٠) كانت سِنُّ عبدِالله بنِ عُمَرَ: خمس سنين؛ بل تزيد عليها، حيثُ عَقَلَ قصة إسلام والده ورواها، وكان يوم أُحُدٍ ابنَ أربعَ عشرةَ سنة، وكانت غزوة أُحُد بعد المبعث بستَ عشرةَ سنة؛ فيكون مولده بعد المبعث بسنتين، فلا يتقدم إسلامُ عُمَرَ علَى سنة ست أو سبع.

أنقَلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن مَعْمَر الجُمحى، قال: فغدا عليه، قال عبدالله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمتَ يا جميل أنى قد أسلمتُ ودخلتُ فى دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، وأتبعه عمر وأتبعت أبى، إذ قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! – وهم فى أنديتهم حول الكعبة – ألا إن عمر قد صبأ، قال: ويقول عمر من خلفه: كَذَبَ، ولكنى قد أسلمتُ وشهدتُّ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح(٤١١) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلِفُ بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هو على ذلك؛ إذ أقبل شيخٌ من قريش عليه حُلَّةٌ حبرةٌ وقميصٌ موشًّى؛ حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فَمَهْ، رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أتريدون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه.

وقد عَرَفَ ابن عمر – فيما بعدُ – من أبيه أن الذى أجاره هو العاص بن وائل السهمى، والد عمرو بن العاص(٤١٢).

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيحانى سيرة عمر بن الخطاب نجتزئ منها ما يلى:

خَيْرُ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ وَأَبَرْ ❁❁❁ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَبُو حَفْصٍ عُمَرْ

---

(٤١١) أعيا وتَعِبَ. النهاية لابن الأثير ١٣١/٣.

(٤١٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٨/١، ٢٩٩، والسيرة لابن إسحاق ١٨٤، ١٨٥ بإسنادٍ حسن. وقال ابن كثير: هذا إسنادٌ جيدٌ قويٌ، السيرة النبوية لابن كثير٣٨/٢، ٣٩.

وَلَمْ يَكُنْ يَكْرَهُ شَيئًا مِثْلَمَا ❁❁❁ يَكْرَهُ هَذَا الدِّينَ حَتَّى أَسْلَمَا
أَسْلَمَ لَمَّا قَرَأَ الكِتَابَا ❁❁❁ فَاسْأَلْ سَعِيدًا وَاسْأَلَنْ خَبَّابَا
وَعَلِمَتْ مَكَّةُ أَنَّ القَدَرَا ❁❁❁ قَدْ عَزَّهَا بِحَمْزَةَ وَعُمَرَا
حَيَاةُ هَذا السَّيِّدِ العَظِيمِ ❁❁❁ مَلِيئَةٌ بِالعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ
قَدْ حَارَبَ الأُمِّيَّةَ المُنْتَشِرَةْ ❁❁❁ وَأَصْبَحَتْ بِلَادُهُ مُمَصَّرَةْ
وَدُوِّنَتْ فِيهَا الدَّوَاوِينُ كَمَا ❁❁❁ كَانَ يُجِلُّ قَدْرَ مَن تَعَلَّمَا
وَأَثْبَتَ الأَسْمَاءَ فِي الدِّيوَانِ ❁❁❁ مِنَ الشُّيُوخِ وَمِنَ الشُّبَّانِ
وَأَسْنَدَ الأُمُورَ لِلأَكْفَاءِ ❁❁❁ فِي الحَرْبِ وَالسِّلْمِ وَفِي القَضَاءِ

وستأتي بمشيئة الله تعالى لعمر الفاروق أبي حفص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مواقف مشرقة في السيرة النبوية لاسيما في الهجرة النبوية؛ منها على سبيل المثال ما ورد تحت عنوان: (طلائع المهاجرين وأوائلهم) حيث هاجر عمر بن الخطاب سِرًّا من مكة؛ وقَدِمَ المدينة المنورة ومعه عشرون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وحمل معه كل ما يملكه من أموال ليستعين بها ويعين أصحابه الذين تركوا أموالهم بمكة، والحمد لله على التوفيق.

خُرُوجُهُ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ بَحْثًا عَنْ مَكَانٍ آمِنٍ لِنَشْرِ الدَّعوَةِ

إن الرحلة إلى الطائف كانت إِثْرَ اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبى طالب، وخديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فسعى رسول الله ﷺ لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطَلَبِ النُّصرةِ من ثقيف، لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانَها وسفهاءها فرشقوه بالحجارة، وفى طريق عودته من الطائف التقى بعدَّاس الذى كان نصرانيًا فأسلم(٤٣١).

وَأَرَّخ الواقدى الرحلة فى شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبى طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام(٤٣٢).

وسائر هذه التفاصيل أوردها كُتَّابُ المغازى(٤٣٣)، ولكن لم ترد رواية صحيحة فيها، سوى أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سألت رسول الله ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ! وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ(٤٣٤)، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلالٍ(٤٣٥)، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي،

---

(٤٣١) تنظر ترجمة: عَدَّاس مولى شيبة بن ربيعة، فى الإصابة ٤/ ٣٨٥، ٣٨٦.

(٤٣٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢١، والواقدى متروك الحديث، لكنه إمام فى السير، سبقت ترجمته عند الهامش رقم: ١٠١.

(٤٣٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤١٩: ٤٢٢ بإسنادٍ صحيح، لكنه من مراسيل محمد بن كعب القرظى، وهو المصدر الرئيس عند ابن هشام لمعلومات رحلة الطائف.

(٤٣٤) المقصود: عقبةٌ بالطائف، وليست عقبة مِنَىً التى اجتمع بها ﷺ مع الأنصار، كما سيأتى فى الهجرة. انظر: شرح المواهب للزُّرقانى ١/ ٢٩٨.

(٤٣٥) وهو أحد رجال ثقيف، وكان من أكابر أهل الطائف. فتح البارى ٦/ ٣١٥.

فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ(٤٣٦)، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّجَلَالُهُ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ!(٤٣٧) فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٤٣٨).

وهذه الرواية تكفى لإثبات الحادث من حيثُ وقوعُ الرحلة، وردُّ أهلِ الطائف عليه ﷺ بشدة، وما عُرض عليه من عقوبتهم، ورحمته ﷺ بهم، ورغبته فى استبقائهم، وأخيرًا: بقاء ذكرى الرحلة الأليمة فى نفسه ﷺ بالرغم من مرور السنوات.

وأما دعاؤه المشهور أثناء العودة من الطائف: «اللّٰهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيدٍ يتجهمنى؛ أم إلى عدوٍّ ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى، ولكن عافيتَك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبَك، أو يحل علىَّ سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(٤٣٩) ولقاؤه بعدَّاس فلم يثبت من طريق صحيحة، والله أعلم(٤٤٠).

---

(٤٣٦) (قَرْنِ الثَّعَالِبِ) هو: قرن المنازل، ميقات أهل نجد، شرق مكة بنحو ٨٠ كم، وبينه وبين الطائف ٤٣ كم.

(٤٣٧) يعنى: جَبَلَيْ مكة؛ أبى قُبيس، والجبل الذى يقابله.

(٤٣٨) البخارى: فتح البارى ٦/ ٣١٢، ٣١٣ ح٣٢٣١، وصحيح مسلم (واللفظ له) ٣/ ١٤٢٠، ١٤٢١ ح١٧٩٥.

(٤٣٩) أخرجه ابن إسحاق بسندٍ صحيح، لكنه مرسل، عن محمد بن كعب القرظى، والمرسل من أنواع الضعيف لا يحتج به إلا مع قرائن، والحديث: «اللّٰهم إليك أشكو» ساقه بدون إسناد. وقد ساق الطبرانى الحديث نحوه، عن عبدالله بن

ثم بعد عودته ﷺ إلى مكة: لم يترك فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة إلا اغتنمها، وبخاصةٍ فى موسم الحج عندما تُقبِلُ القبائل إلى مكة، مجتمعةً فيها.

وهذه بعض الأحاديث النبوية التى تُثبِتُ ذلك وتُؤكده:

فهذا طارق بن عبدالله المحاربى يقول: إِنِّي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، إِذْ مَرَّ رَجُلٌ شَابٌّ عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ بُرْدٍ أَحْمَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ تُفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ خَلْفَهُ يَرْمِيهِ قَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ وَسَاقَيْهِ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ كَذَّابٌ، فَلا تُطِيعُوهُ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا غُلامُ بني هَاشِمٍ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا عَمُّهُ عَبْدُالْعُزَّى، فَلَمَّا هَاجَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَسْلَمَ النَّاسُ ارْتَحَلْنَا مِنَ الرَّبَذَةِ يَوْمَئِذٍ مَعَنَا ظَعِينَةٌ لَنَا، فَلَمَّا أَتَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَأَدْنَا حِيطَانَهَا، لَبِسْنَا ثِيَابًا غَيْرَ ثِيَابِنَا إِذَا رَجُلٌ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ الْقَوْمُ؟ قُلْنَا: نَمِيرُ أَهْلَنَا مِنْ تَمْرِهَا، وَلَنَا جَمَلٌ أَحْمَرُ قَائِمٌ مَخْطُومٌ، قَالَ: تَبِيعُونِي جَمَلَكُمْ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: بِكَمْ؟ قُلْنَا: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَمَا اسْتَنْقَصَنَا مِمَّا قُلْنَا شَيْئًا، وَضَرَبَ بِيَدِهِ فَأَخَذَ خِطَامَ الْجَمَلِ، ثُمَّ أَدْبَرَ بِهِ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنَّا بِالْحِيطَانِ، قُلْنَا: وَاللَّهِ، مَا صَنَعْنَا شَيْئًا وَبَايَعْنَا مَنْ لا نَعْرِفُ، قَالَ: تَقُولُ امْرَأَةٌ جَالِسَةٌ لَقَدْ رَأَيْتُ

جعفر، وفى إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو: إمام فى السير؛ لكنه مدلس، وقد روى الحديثَ بالعنعنةِ، وقال الهيثمى: رواه الطبرانى، وفيه ابن إسحاق، وهو: مدلس، ثقة، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٣٥/٦، أما الإمام السيوطى: فقد حسَّن الحديث فى الجامع الصغير ح١٤٨٣، وعزاه إلى الطبرانى، عن عبدالله بن جعفر. فيض القدير ١١٩/٢. فالله أعلم.

وكذلك قصة عداس ساقها ابن إسحاق بدون إسناد، وأخرج الزهرى وموسى بن عقبة قصة عداس مرسلةً فى الخصائص الكبرى للسيوطى ٣٠/١، والمراسيل تتقوى ببعضها إذا تعددت مخارجها، ولا تعدد هنا، فابن إسحاق وموسى بن عقبة تلميذان للزهرى، فيقوى أن يكونا أخذا عنه. السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/١: ٤٢٠، وتاريخ الطبرى ٣٤٤/٢: ٣٤٦، ٣٥/٦ ولم أقف على شيء من ذلك فى المعجم الكبير للطبرانى المطبوع لأنه ناقص، والله أعلم.

(٤٤٠) يراجع كتاب: «السيرة النبوية الصحيحة» إذ فيه تفصيلٌ لأسانيد رحلة الطائف ١٨٥/١: ١٨٨.

رَجُلا كَأَنَّ وَجْهَهُ شَبَهُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَاللَّهِ لا يَظْلِمُكُمْ، وَلا يَحْتَرِيكُمْ وَأَنَا ضَامِنَةٌ لِجَمَلِكُمْ، فَأَتَى رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَيْكُمْ هَذَا تَمْرُكُمْ، فَكُلُوا وَاشْبَعُوا وَاكْتَالُوا، قَالَ: فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا، وَاكْتَلْنَا، وَاسْتَوْفَيْنَا، ثُمَّ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَسَمِعْنَا مِنْ قَوْلِهِ يَقُولُ: «تَصَدَّقُوا، فَإِنَّ الصَّدَقَةَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ: أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، وَأَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ»(٤٤١).

ويقول ربيعة بن عباد الدؤلى – وهو شاهد عيان أيضًا -: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْمَجَازِ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ تتقد وجنتاه، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ وَدِينِ آبَائِكُمْ، قلت: مَنْ هو؟ قالوا: هذا أَبُو لَهَبٍ(٤٤٢).

ومما خاطب به ﷺ الناس فى ذى المجاز: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا» وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئًا، وهو لا يسكت؛ بل يستمر فى دعوتهم، وأبو لهب يصيح: إنه صابئ كاذب(٤٤٣) يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى(٤٤٤).

---

(٤٤١) الحديث فى المعجم الكبير ٣١٤/٨، ٣١٥ ح٨١٧٥، وسنن الدارقطنى ٤٤/٣، ٤٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٢٠/٦، ٢١ من طُرُقٍ إلى الصحابى: طارق بن عبدالله المحاربى، وله شواهد أخرى: ينظر بعضها عند الطبرانى ٣٤٢/٢٠، ٣٤٣ ح٨٠٥، ٨٠٦، فالحديث صحيح بمجموع طرقه، وقال الهيثمى: رجاله ثقات. انظر: مَجمع الزوائد ٢١/٦. والله أعلم.

(٤٤٢) مسند الإمام أحمد ٤٩٢/٣ من زوائد ابنه عبدالله بإسنادين حسنين يرتقيان إلى الصحيح لغيره، والمعجم الكبير للطبرانى ٥٦/٥، ومستدرك الحاكم ١٥/١، وفيه لفظ (مِنىً) بدل (ذِي الْمَجَازِ). وصححه وأقره الذهبى، ولكن سعيد بن سلمة ليس على شرط البخارى؛ بل روى عنه استشهادًا، وفى المسند ٤٩٢/٣ رواية أخرى من زوائد عبدالله أيضًا بإسنادٍ صحيح، وفيها: (عُكَاظٌ) وهى موضع قريب من عرفات شرق مكة، فلا تعارض بينها وبين رواية (ذِي الْمَجَازِ) لأنها بعرفةَ أيضًا، والله أعلم.

(٤٤٣) مسند الإمام أحمد ٣٤١/٤، ٣٤٢ ومستدرك الحاكم ١٥/١ والمعجم الكبير للطبرانى ٥٥/٥، ٥٦ بإسنادٍ حسن لأنه من رواية عبدالرحمن بن أبى الزناد بالمدينة، وإنما تغير حفظه لما قدم بغداد. تهذيب التهذيب ١٧١/٦، ١٧٢.

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس فى الموقف: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي جَلَّجَلَالُهُ؟» فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ، فَقَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: «فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ! ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ» قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ، وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ(٤٤٥).

وهذا يدل على أن الحادثة جرت فى العام الحادى عشر من البعثة، فإن الأنصار قدموا فى العام الحادى عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى، ثم فى العام الثانى عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية، ثم كانت الهجرة إلى المدينة، بعد ثلاث عشرة سنة فى مكة.

يقول جابر بن عبدالله الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ ﷺ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ، كَذَا قَالَ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلامَ قُرَيْشٍ! لا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ(٤٤٦).

---

(٤٤٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ٦٣ بإسنادٍ صحيح.

(٤٤٥) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٩٠ ح١٥١٩٢ بإسنادٍ صحيح، وأخرجه أبو داود، عن محمد بن كثير، عن إسرائيل... به ح٤٧٣٤، والترمذى: كتاب فضائل القرآن ٥/١٦٨، ١٦٩ ح٢٩٢٥، وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه ١/ ٧٣ ح٢٠١، والحاكم ٢/ ٦١٢، ٦١٣ ح٤٢١٩، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبى: كلهم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الذهبى فى السيرة النبوية: وهو على شرط البخارى، وعثمان بن المغيرة إنما روى له البخارى دون مسلم.

(٤٤٦) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٩، ٣٤٠ بإسنادٍ صحيح، ومستدرك الحاكم ٢/ ٦٢٤، ٦٢٥ وصححه وأقره

الاتِّصَالُ بِالأَنْصَارِ وَاسْتِجَابَتُهُمْ

ثم كان من تهيئة الله وتدبيره للنبى ﷺ وأصحابه: أنَّ الذين كانوا يسكنون المدينة هم الأوس والخزرج وفئام من اليهود، فنشبت حرب بُعاث بين قبيلتى الأوس والخزرج قبل الهجرة بثلاث سنين كما قال ابن سعد، وقيل بخمس سنين كما نقل الحافظ ابن حجر، وشاء الله عز وجل أن ينتصر فى تلك الحرب الأوس على الخزرج بعد قتل الكثيرين من الطرفين، وفى القتلى عددٌ غيرُ قليلٍ من أكابرِهم(٤٦٣).

وقبل يومِ بُعاثٍ بيسير، سَعَتِ الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عددًا، فقدم أبو الحيسر أنس بن رافع فى وفدٍ من بنى عبدالأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم الرسول ﷺ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال أحدهم، وهو: إياس بن معاذ- وكان غلامًا حَدَثًا- أى قوم! هذا والله خيرٌ مما جئتم له، فانتهره أبو الحيسر فصمت، وقام رسول الله ﷺ عنهم، ورجعوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث، ثم مات إياس بن معاذ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فكانوا لا يشكون أنه مات مسلمًا، فقد استشعر الإسلام فى لقائه مع رسول الله ﷺ فى ذلك المجلس(٤٦٤).

الذهبى، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٧/ ٢٢٢، ٢٢٣، وقال ابن كثير: هذا إسنادٌ جيدٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه. السيرة النبوية ٢/ ١٩٦، وانظر ما سيأتى تحت عنوان: «مبايعة الأنصار عند العقبة» وفيه لفظ الحديث بطوله ص٢٨٤: ٢٨٦.

(٤٦٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢١٩، وفتح البارى ٧/ ١١١.

(٤٦٤) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٢٧ من طريق ابن إسحاق، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٢٧، ٤٢٨ بإسنادٍ حسن، وينظر: الإصابة ١/ ٣١٣، ٣١٤ ترجمة: إياس بن معاذ الأنصارى، و١/ ٣٩٠ ترجمة: أبى الحيسر؛ أنس بن رافع، وله ابنٌ:

ونموذجٌ آخر: هو سويد بن الصامت الأنصارى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حيث قدم مكة حاجًا أو معتمرًا، فتعرض له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذى معك؟» قال: مجلة لقمان – يعنى: حكمة لقمان– فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها علىَّ» فعرضها عليه، فقال له: «إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضلُ مِنْ هذا: قرآنٌ أَنزَلَهُ الله تعالى علىَّ وهو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال عن هذا القول: حَسَنٌ، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجالٌ من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم، وكان قَتلُهُ يوم بُعَاث(٤٦٥).

وعلى أية: حال فلا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه.

ثم كانت البداية المثمرة – بعدَ الرجلين اللذين استشعرا الإسلام دون أن يقوم أحدٌ منهما بالدعوة إليه بين قومهما–: بالاتصال الحقيقى بالأنصار مع وفد من الخزرج فى موسم الحج عند عقبة مِنَى، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ عَزّ وَجَلّ إظْهَارَ دِينِهِ وَإِعْزَازَ نَبِيّهِ ﷺ وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ الّذِي لَقِيَهُ فِيهِ النّفَرُ مِنْ الأَنْصَارِ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ

شهد بدرًا، وابنةٌ: تزوجها عبدالرحمن بن عوف وهى التى ورد فيها حديث: «أَوْلِمْ ولَو بِشَاةٍ» متفق عليه، وسيأتى لفظه وتفصيل تخريجه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان: «العِفَّةُ والإِيثَارُ بَينَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار» عند الهامش رقم: ٢٦٠.

(٤٦٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٧/١، ٤٢٨ بإسنادٍ حسن من رواية عاصم بن عمر بن قتادة: وهو ثقة، توفى سنة ١٢٠هـ، يرويه عن أشياخ من قومه الأنصار، وقال ابن حجر: فإن صح ما قالوا لم يُعَدّ فى الصحابة: لأنه لم يلق النبى ﷺ مؤمنًا به. الإصابة ١٨٧/٣.

الْعَرَبِ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ أَرَادَ اللهُ بِهِمْ خَيْرًا: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوا: لَمَّا لَقِيَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: «أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَلا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلامَ وَتَلا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

قال: فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليك: فلا رجل أعز منك!! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، قد آمنوا وصدقوا(٤٦٦).

وقد أحس الأنصار حاجتهم إلى عقيدةٍ تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التى خلفتها حرب بُعَاث، ولعل ذلك كان سببًا هيأه الله تعالى لإسلامهم، كما أن مقتل رؤسائهم فى بُعَاث خفف من التزاحم على الزعامة، والأنفة من الدخول فى الإسلام حرصًا على السلطان والرياسة؛ وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يعرفون قضايا الوحى والنبوة والبعث والجنة والنار، فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من غيرهم، ثم إن تهديد اليهود للأوس والخزرج بترقبهم لنبىٍّ قد أظلهم زمانه، وأنهم سيتبعونه عند ظهوره؛ حتى يقتلوا الأوس والخزرج قتل عادٍ وإِرَم، فكان هذا هو الذى حدا بالأوس والخزرج ليبادروا إلى الدخول فى الإسلام، ومبايعة نبيه ﷺ فى غاية السرية والكتمان.

---

(٤٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨، ٤٢٩ بإسنادٍ حسن، وقد عد هذه بيعة مَنْ ذكر مِن العلماء وقوع ثلاث بيعات بين النبى ﷺ وبين الأنصار عند عقبةِ منىً، منهم: ابن عبدالبر فى الدرر ص٧٦، وابن سيد الناس فى عيون الأثر ١/١٥٦، والصالحى فى السيرة ٣/٢٦٧، أما ابن إسحاق وابن سعد والطبرى فلم يعدوها بيعة، ولم تذكر المصادر وقوع البيعة منهم.

وقد حدث أكثر من لقاء بين رسول الله ﷺ وبين وفود يثرب عند عقبة منىً فى مواسم الحج، نوضحه فيما يلى:

مُبَايَعَةُ الأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ

كان أولئك النفر طليعة للدعاية الموفقة للإسلام فى يثرب، وقد أثمرت جهودهم على عجل، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام.

حتى إذا استدار العام، وأقبل موسم الحج: خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا فى العام الماضى تركز على وسطهم القَبَلِى والأُسَرِى بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا فى الوقت نفسه من اجتذاب رجال من الأوس، وكانت تلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام، فعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ ليوثقوا معه إسلامهم: حيث جرت بيعة العقبة الأولى.

إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسة عن بيعة العقبة الأولى هو عُبادة بن الصامت الخزرجى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو شاهد عيان مشاركٌ فى البيعة، وحديثه عن ذلك ثابتٌ فى الصحيحين وسيرة ابن إسحاق، ونسوق هنا رواية ابن إسحاق لأنها أوضح وأتم، ونصها كما يلى:

وأَصْرَح ما ورد فِي بيعة العقبة مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَد وغيره بسندٍ يرتقى بالمتابعة، من حديث عُبَادَةَ بن الصامت أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ قِصَّة مَعَ أَبِي هُرَيْرَة عِنْد مُعَاوِيَة بِالشَّامِ: فَقَالَ عُبَادَةُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ مَعَنَا إِذْ بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّا بَايَعْنَاهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلا نَخَافَ لَوْمَةَ لائِمٍ فِيهِ، وَعَلَى أَنْ نَنْصُرَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْنَا يَثْرِبَ فَنَمْنَعُهُ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَزْوَاجَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَلَنَا الْجَنَّةُ، فَهَذِهِ بَيْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي بَايَعْنَا عَلَيْهَا، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا

يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ وَفَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا بَايَعَ عَلَيْهِ نَبِيَّهُ ﷺ»(٤٦٧).

ويؤكد ذلك رواية البخارى المجملة، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ»(٤٦٨).

وقد صَدَرَتْ مُبَايَعَات أُخْرَى بين النبى ﷺ وبين أصحابه رجالاً ونساءً فى أوقات متعددة، وقد شهدها كلَّها عبادةُ بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبهذا تجتمع الروايات الصحيحة الأخرى للآحاديث، والله أعلم.

ولما تمت بيعة العقبة، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يُقرِئهم القرآن، ويُعَلِّمَهُم الإسلام، ويُفقهم فى الدين، فقام بمهمته خير قيام، وانتشر على يديه الإسلام، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية(٤٦٩).

ولما انتشر الإسلام فى المدينة، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقى رسول الله ﷺ فى مكة يلاقى عنت قريش وأذاها الذى كان يشتد على مر الأيام، قدم وفد الأنصار فى موسم الحج، وكان عددُ الشبابِ فيهم أكثر، فبايعوا بيعة العقبة الثانية.

قال جابر بن عبدالله الأنصاري: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؛ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي:

---

(٤٦٧) المسند ٥/٣٢٥ وعزاه الهيثمى إلى الطبرانى أيضًا. مجمع الزوائد ٥/٢٢٦، ٢٢٧، وفى سنده عندهما: إسماعيل بن عياش؛ وروايته عن الحجازيين فيها مقال، ويتقوى الحديث بما بعده.

(٤٦٨) صحيح البخارى: كتاب الْفِتَن/ باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا ١٣/ ٥ ح٧٠٥٥، ٧٠٥٦، وفى كتاب الأحكام/ باب كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ ١٣/ ١٩٢ ح٧١٩٩، ٧٢٠٠ واللفظ له.

(٤٦٩) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٨.

وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ؛ لا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ؛ حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلامِهِ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ، قَالَ ﷺ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ» قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ؛ فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً؛ فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللَّهِ لا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ.

وفي رواية: يقول جابر... وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلاً مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَدَخَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنِّي لا أَدْرِي مَا هَؤُلاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وُجُوهِنَا؛ قَالَ: هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا أَعْرِفُهُمْ؛ هَؤُلاءِ أَحْدَاثٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ

وَالطَّاعَةِ...» الحديث(٤٧٠).

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة(٤٧١).

وهناك تفاصيل مهمة فى رواية الصحابى الجليل كعب بن مالك الأنصارى، وهو أحد المبايعين فى العقبة الثانية، حيث قال: خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيْبَةُ بنتُ كعب، وأسماء بنت عمرو.. فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب – وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له – فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فبين أن الرسول فى منعةٍ من قومه بنى هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليَدَعُوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام، ثم قال ﷺ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا –

---

(٤٧٠) إسناده صحيح سبق تخريجه فى الهامش رقم ٤٤٦، ويرى الحافظ ابن حجر أن فيه علة تدليس أبى الزبير؛ وقد عَنعن عن جابر. فتح البارى ٧/٢٢٢، ٢٢٣. والحق: أن أبا الزبير؛ صاحب جابر وراوية أحاديثه، فحديثه عنه صحيح، وله شواهد أخرى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٤٧١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٣٨، ومسند الإمام أحمد ٥/٣١٦ بإسنادٍ صحيح لغيره.

يعنى: منتهى الحفظ والصيانة؛ لأن الإزار يستر عورة الإنسان- فبايِعْنَا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها- يعنى: اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلْ الدَّمَ الدَّمَ وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ»، ثم قال ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ» فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا، تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم، وفى الصباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبى ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم(٤٧٢).

وهكذا مرت البيعة بسلامٍ وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبى ﷺ بتلهفٍ وشوقٍ بالغين.

---

(٤٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٩: ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٤٨ بإسنادٍ حسن، وقد صححه ابن حبان كما فى فتح البارى ٧/ ٢٢١، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٦٠ من طريق ابن إسحاق أيضًا، وفى فضائل الصحابة ٢/ ٩٢٣ مختصرًا، ووقع فى سند ابن إسحاق مرة: أنه ذكر الزهرى واسطة لتحمله عن معبد بن كعب، وهو وَهْمٌ. ينظر: سيرة ابن هشام، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ٢/ ٤٧ ووقع فى طبعة السقا المعتمدة على أصلين دون ذكر الزهرى، وابن إسحاق يروى مباشرة، عن معبد بن كعب ولا يحتاج إلى واسطة، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ

إن مفارقة الوطن ليست شيئًا سهلاً؛ بل إنها فى حكم الشرع مساوية للقتل الذى هو من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

قال الحافظ ابن كثير: يُخبر تعالى عن أكثر الناس: أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا فى علمه تبارك وتعالى بما لم يكن: لو كان؛ كيف كان يكون، ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما يُنْهَونَ عنه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء].

ولربما يستبعدُ كثيرون من الناس وجودَ تلك النماذج من المهاجرين الذين تركوا أرضهم وفارقوا مجتمعهم الذى نشأوا فيه وتربوا بين دروبه: فقصَّ اللهُ علينا مثلاً واقعيًّا بالمنافقين فى المدينة الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ أيمانًا مُغلظة: لئن أمرهم بالخروج ليخرجُنَّ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: لا تحلفوا، فقد عرفنا طاعتكم إنها قولٌ؛ لا فعلَ معه، وكذبٌ؛ لا صدقَ فيه، وهذا خُلُقكم؛ وتلك سجيتكم، والمطلوب منكم: أن تكون طاعتكم بالمعروف مطابقة لأقوالكم لا كذب فيها ولا مخادعة، وبدون حلف ولا أيمان، لأن الخبير بكم والرقيب عليكم يعلم السر وأخفى، مطلعٌ على ضمائركم، لا يخفى عليه شيء من بواطنكم، وعليكم أن تَعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما التزم بهما المؤمنون الصادقون، وإن توليتم وأعرضتم بعد البلاغ والبيان فإن مرجعكم إلى الله وحسابكم عليه وحده لا شريك له، وذلك واضح فى قوله تبارك اسمه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور][198].

والمقصود من تلك الآيات: بيان شدة الخروج من الوطن على نفس الإنسان الذى درج على أرضه، وتربى بين ربوعه، وعاش فيه بين أهله وذويه، وأن ذلك الفعل يَعْدِلُ قتل النفس وإزهاقَهَا.

ففى الصحيحين وغيرهما، عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النبى ﷺ عَنْ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ»[199] «وَيْحَكَ» كلمة ترحم تقال لمن وقع فى هلكةٍ لا يُطِيقُها، أو مَشقَّةٍ لا يتحملها، فكأنه ﷺ علم أن الأعرابى لا يستطيع تحمل شدائد الهجرة ومتاعبها فأشار عليه بتركها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: والمراد بالهجرة التى سأل عنها هذا الأعرابى هى ملازمة المدينة مع النبى ﷺ وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبى ألَّا يقوى عليها، ولا يقوم بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التى سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير فى مكانك وحيث ما كنت فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئًا والله أعلم[200].

ومن هذا الحديث وتلك الآيات: نعلم أن إخراج الناس من ديارهم وتهديد المؤمنين فى أوطانهم جريمة لا يُقِرُّها شرعٌ، ولا يُسَوِّغُها عقلٌ، وإنكارها مركوزٌ فى الأخلاق القويمةِ،

---

(١٩٨) تفسير الإمام ابن كثير ٣٠٩/٢، ٨٢/٦، ٨٣ باختصار وتصرف.

(١٩٩) صحيح البخارى: كتاب الزكاة/ باب زكاة الإبل ٣١٦/٣، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب المبايعة بعد فتح مكة ١٤٨٨/٣، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو ٦/٣ ح٢٤٧٧، بسند حسن، ومسند أبى يعلى ٤٩٢/٢ ح١٢٦٦ بسندٍ ضعيف، لكن متن الحديث فى الصحيحين كما قدمنا.

(٢٠٠) شرح النووى لصحيح مسلم ٩/١٣، والنهاية فى غريب الحديث ٢٣٥/٥، وبذل المجهود ٣٧٠/١١.

والطبائع المستقيمةِ على طول الزمانِ وامتداده، قال تعالى فيما أخذه على بنى إسرائيل من عهود ومواثيق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة].

ومن ثَمَّ: حذر سبحانه عباده المؤمنين أشد التحذير، من موالاتهم للكافرين، أو مهادنتهم؛ بل أكد عليهم وجوب مباينتهم ومفاصلتهم، وحرَّم عليهم التشبه بهم فى صفةٍ من الصفات، أو الركون إليهم بحالٍ من الأحوال، وذلك لأن ما يفعلونه بهم من الإخراج، ويوقعونه عليهم من التعذيب والإيذاء: كفيل بأن يؤصل العداوة بينهم، وحريٌّ بغرس البغضاء فى نفوسهم، قال تعالى فى افتتاحية سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله سبحانه فى السورة نفسها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن

دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم استحثهم على مقاتلتهم بأبلغ عبارة، وحضهم على مناضلتهم بأفصح بيان، وذلك فى قوله جل وعلا: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وذلك حتى تستقيم الموازين فى الأرض، ولايستشرى الباطل، أو يعم الفساد: كما قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وإذا كان القرآن الكريم قد صور بشاعة هذه الجريمة التى هى طرد المؤمنين من أوطانهم: بما يقشعر له بدن كل مسلم، وتشمئز منه نفسه، فإن الذى يقارن ما كان عليه الجاهليون فى أوائل القرن السابع الميلادى وما قبله مع ما كانوا عليه من شرك وأمية... بما عليه الناس اليوم فى هذا القرن الحادي والعشرين: مع ما يدعونه من تدين، وما يزعمونه من تحضر... فإنه سيرى بأدنى تأمل: ما تتفطر منه القلوب، وتتفتت منه الأكباد، وتذهل منه العقول... لِما يجدُه من الفرق الشاسع بين ما عليه هؤلاء من الفظاظة والفظاعة والغلظة والقسوة... على إخوانهم وذويهم بما

لا يقره شرع ولا يسوغه خُلق، وبين ما كان عليه أولئك من وفاءٍ بالعهد، ومحافظةٍ على العرض، واحترامٍ للآدمية، ومعرفةِ أقدارِ ذوى الفضل... ولا شك أن كل قارئٍ أَخْبرُ منى وأبصر بما عليه هؤلاء المتأخرون، وأنا سأُنبِئُه عن شيء من خبر أولئك المتقدمين:

فهذا الحارث بن يزيد، وسماه السهيلى مالكًا، ولَقَبُهُ: ابن الدَّغِنَة- بفتح المهملة المشددة، وكسر المعجمة المخففة، وفتح النون المخففة- سيد الأحابيش: وهم بنو الهُون- بضم الهاء- وبنو الحارث من كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبَّشوا- أى: تجمعوا- وتحالفوا عند جبل صغير يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، وكانوا حلفاء بنى زُهرة من قريش، وكان يُضرب بهم المثل فى قوة الرمى: قد لقى أبا بكر الصديق بعد مسيرة يوم أو يومين حين خرج من مكة مهاجرًا إلى أرض الحبشة لما اشتد عليه أذى الكفار، فسأله ابن الدَّغِنَة هذا- وهو من المشركين-: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى، وقد ورَّى أبو بكر بهذا الجواب، ولم يفصح عن جهة مقصده لكون ابن الدَّغِنَة أحد الكفار، ومن المعلوم أنه لايصل إلى أرض الحبشة إلا بعد أن يسير فى الأرض زمانًا فيصدق أنه سائح، قال ابن الدَّغِنَة: والله! إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم؛ ارجع وأنت فى جوارى(٢٠١).

وهذه هى القصة كما ترويها لنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وكما أخرجها البخارى فى صحيحه بسنده فى أكثر من موضع.

تقول الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ

---

(٢٠١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٧٢: ٣٧٤، والروض الأنف ٣/٣٣٦، ٣٣٧، ٣٥٢، وفتح البارى ٧/٢٣٣ وضبَط أهل اللغة لفظ: (ابن الدَّغِنَة) بضم المهملة المشددة، والمعجمة المخففة، وفتح النون المشددة هكذا: ابن الدُّغُنَّة، وما ذكرناه من ضبط فى الصلب هو المعتمد عند المحدِّثين، والله أعلم.

إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ(٢٠٢)، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ: سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ وَلا يُخْرَجُ، إِنَّكَ! تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً! يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، لَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلا يَسْتَعْلِنُ بِصَلاتِهِ، وَلا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَقَذَّفُ(٢٠٣) عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِن الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ

---

(٢٠٢) (بَرْكَ الْغِمَادِ) بفتح الموحدة التحتانية، وسكون الراء، وحكى كسر أوله والغماد بكسر المعجمة وقد تضم وتخفيف الميم، موضع على خمس ليال من مكة جهة اليمن، وقيل فيه غير ذلك. فتح البارى ٧/ ٢٣٢، ومراصد الاطلاع ١/ ١٨٧.

(٢٠٣) فى رواية: (فَيَنقَذِفُ) وفى أخرى: (فيتقصَّف) والمعنى: أنهم يتزاحمون عليه، ويتدافعون حتى يتساقط بعضهم على بعض ويقعون عليه. فتح البارى٧/ ٢٣٤ بتصرف.

فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِك، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ...» الحديث مطولاً(٢٠٤)، وستأتى بقيته بعدُ مع غيره من فوائد إن شاء الله تعالى تحت عنوان: «يوم الهجرة».

ومعلومٌ أن الذى افزع الكفار وأهاجهم من صنيع أبى بكر هو ما عُرِفَ من رقة قلوب النساء والشباب، وسرعة استجابتهم لدين الإسلام، ومبادرتهم فى الدخول فيه.

والأوصاف التى وصف بها ابن الدغنة أبا بكر قد سبق أن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصفت بها رسول الله ﷺ حين جاءها فزعًا من هول ما رأى لأول مرة من صورة المَلَكْ، وشدة ما لقيه من ثِقَلِ الوحى، كما مر ذلك فى حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحى، وفى هذا دليل على أن العرب برغم ما كانوا فيه من جهالة، إلا أنهم كانوا يعرفون لذوى القَدْرِ أقدارَهم، ولأصحابِ الفضل فضائلَهم، ويُنزلونهم منازلهم، وقد سبق فى الجزء الأول نماذج للأنبياء والمرسلين مع أممهم وأقوامهم ليكونوا أسوة لمن بعدهم، وذلك تحت عنوان: «مُحَاصَرَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِى طَالِبٍ وما يُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ».

---

(٢٠٤) هذا الحديث تكرر فى صحيح البخارى تسع مرات، وأول موضع له فى كتاب الصلاة/ باب المسجد يكون فى الطريق من غير ضرر بالناس ١/ ٥٦٣، ٥٦٤ ح٤٧٦، وبنحو اللفظ المذكور فى: كتاب الكفالة/ باب جوار أبى بكر فى عهد النبى ﷺ وعقده ٥/ ٤٧٥، ٤٧٦، وبلفظه فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٣٠: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وقال الحافظ ابن كثير: تفرد الإمام البخارى بهذا الحديث. البداية والنهاية ط دار الفكر ٣/ ٩٤، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه: فصل فى هجرته ﷺ/ باب ذكر وصف كيفية خروج المصطفى من مكة لمَّا صعب الأمر على المسلمين بها، ٨/ ٦٠: ٦٢ ح٦٢٤٤ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.

وسيأتى مزيدٌ من الأمثلة لذلك -إن شاء الله تعالى- فى البحوث المتوالية للهجرة النبوية، والله الموفق.

وهذا أكمل الخلق وصفوتهم ﷺ قد أحس بهذا الألم من أول ما أعلمه ورقةُ بن نوفل أن قومه سيخرجونه من هذا البلد، وذلك واضحٌ فى قوله: لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ... الحديث[٢٠٥].

وقد استبعد ﷺ أن يخرجه قومه، لأنه لم يكن هناك سببٌ يقتضى إخراجَه من وطنه، وذلك لما عرفوه عنه صلوات الله وسلامه عليه من جميل الخصال، ومكارم الأخلاق التى سبق من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقريرها له ﷺ ووصفه بها، قال السهيلى: يؤخذ من قوله ﷺ «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» شدة مفارقة الوطن على النفس، فإنه سمع قول ورقة: إنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذَكر له الإخراج تحركت نفسه لحب الوطن وإلفِه، فقال: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» ويؤيد ذلك: إدخال الواو بعد همزة الاستفهام، مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، فأفاد أن: الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع، ويؤكد ذلك: أن الوطن المشار إليه: حرم الله، وجوار بيته، وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل كلام السهيلى مُلَخَصًا: ويحتمل أن يكون انزعاجه ﷺ من كلام ورقة كان من جهة خشية فوات ما أَمَّله من إيمان قومه بالله، وإنقاذهم به من وضر الشرك- أى: دنسه وتبعاته- ومن عذاب الآخرة، وليتم له المراد من إرساله إليهم، ويحتمل أن يكون انزعج من الأمرين معاً[٢٠٦].

وفى الحديث الصحيح، عن عبدالله بن عدى قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ،

---

(٢٠٥) متفق عليه، واللفظ المذكور هنا مِنْ: صحيح البخارى، فى: كتاب بدء الوحى ٣٢/١.

(٢٠٦) فتح البارى ٣٥٩/١٢.

وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ(٢٠٧) يَقُولُ- مخاطبًا مكة-: «وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ! لَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ: مَا خَرَجْتُ»(٢٠٨).

وله شاهد من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ! وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ» أخرجه الترمذى وحسنه(٢٠٩).

وقد ظل ذاك الإحساس يمور فى صدر النبى ﷺ وهو فى طريق هجرته حتى طمأنه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، وقد فسرها ابن عباس فقال: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ إلى مكة. كما ورد ذلك في: كتاب التفسير من صحيح البخارى.

ثم أضف أخى الدارس إلى ما لقيه المصطفى ﷺ من الألم النفسى والبدنى الذى نزل به

---

(٢٠٧) بفتح المهملة والواو، بينهما زاى ساكنة، التل الصغير، وكان عندها سوق مكة، ثم ضم إلى المسجد الحرام لما زيد فيه. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٥٥.

(٢٠٨) جامع الترمذى: كتاب المناقب/ باب فى فضل مكة ٥/٦٧٩ ح٣٩٢٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس، عن الزهرى نحوه، ورواه محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ وحديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبدالله بن عدى بن حمراء عندى أصح، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب الحج/ باب فضل مكة ٢/٤٧٩، ٤٨٠ ح٤٢٥٢ : ٤٢٥٤ وفيه: (بالجرول) بدل (بالحزورة) وهى: مكان غرب الكعبة، دخل فى توسعة المسجد الحرام، وسنن ابن ماجه: كتاب المناسك/ باب فضل مكة ٢/ ١٠٣٧ ح٣١٠٨، ومسند الإمام أحمد ٤/٣٠٥ عن عبدالله بن عدى، وعن أبى هريرة، الذى أشار إليه الترمذى، وعن بعضهم – يعنى: أصحاب النبى ﷺ– وسنن الدارمى: كتاب السير/ باب إخراج النبى ﷺ من مكة ٢/ ٣١١ ح٢٥١٠، وينظر: الخريطة رقم: ٣٨ من كتاب: «أطلس تاريخ الإسلام» ص٦٢.

(٢٠٩) ينظر: جامع الترمذى، فى: الكتاب والباب المتقدمين ٥/٦٧٩، ٦٨٠ ح٣٩٢٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

حين خروجه مهاجرا من مكة التى ولد بها وعاش فى أرجائها أكثرمن خمسين سنة.. ما كان يعانيه ﷺ من الإيذاء من أجل كل صحابى أُخرج من بلده وهاجر من أرضه دون ذنب أو جريرة إلا أنه رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً!! وصدق القائل:

وَأَقتَلُ دَاءٍ رُؤيةُ العَينِ ظالمًا ❁❁❁ يُسيئُ ويُتلَى حمَدُهُ فى المَحافِلِ

طَلائِعُ المُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ

ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق: أن أبا سلمة بن عبدالأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة(٢١١).

وفى صحيح البخارى، عن البراء بن عازب قال: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِنْ الْمُفَصَّلِ(٢١٢).

والمعنى أن البراء قد حفظ قصار السور، ثم توجه باقى الصحابة شيئًا فشيئًا، وخرج من بقى من المسلمين مهاجرين إلى النبى ﷺ فى المدينة المنورة، وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرًا، حتى لم يبق بمكة إلا من غُلِبَ على أمره من المستضعَفين.

---

(٢١١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٨/١ من طريق ابن إسحاق بدون إسناد، وابن حجر: فتح البارى ٢٦١/٧ لذلك قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن أبا سلمة أول بيتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ. صحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند المصيبة ٦٣٢/٢.

(٢١٢) صحيح البخارى ٢٥٩/٧، ٢٦٠ ح٣٩٢٥.

مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهِجْرَةِ

سعت قريشٌ بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرةِ إلى المدينة، وإثارةِ المشاكلِ أمام المهاجرين، مرةً بحجز أموالِهم ومنعِهم من حملها، ومرةً بحجز زوجاتِهم وأطفالِهم، وثالثةً بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكنَّ شيئًا من ذلك كله لم يُعِقْ موكبَ الهجرة.

وذلك لأن المهاجرين كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم، والتضحية بالنفس والنفيس طلبًا لرضوان الله جَلَّجَلَالُهُ، وفي النماذج التالية شرحٌ لذاك الإجمال:

بَيتُ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ

قالت أم المؤمنين أم سلمة(٢١٣) رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا ابْنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطُحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى

---

(٢١٣) مشهورة بكنيتها، واسمها: هند بنت أبي أمية، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ولما مات زوجها أبو سلمة بن عبدالأسد تزوجها رسول الله ﷺ، ينظر: الإصابة لابن حجر ٨/ ١٥٠، وقد ذكر الواقدي أن عمرها كان عند وفاتها أربعًا وثمانين سنة، وبينت الروايات الصحيحة أنها كانت موجودة في أيام ثورة ابن الزبير على يزيد بن معاوية، فقد توفيت بعد سنة ٦١ من الهجرة، وبذلك يكون عمرها عند الهجرة ٢٣ سنة، وعند زواجها بالنبي ﷺ ٢٧ سنة، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَمْسَى، سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي -أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ- فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِالدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا اللَّهُ وَبُنَيَّ هَذَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوى بى، فو الله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّي إِلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ- وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ(٢١٤).

---

(٢١٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٦٩، ٤٧٠ من رواية ابن إسحاق بإسنادٍ صالحٍ للاعتبار، فيه سلمة بن عبدالله بن أبى سلمة، وثقه ابن حبان، ولم يخالفه فيه أحدٌ بعده؛ بل قال الحافظ ابن حجر عنه: مقبول، ولم أجد له متابعًا، وعلى أية حال: فحديثه حسن، وقد ورد من طريق صالحة لإثبات الحدث تاريخيًا. ينظر: التاريخ الكبير للبخارى ٤/٨٠، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٤/١٦٦، والثقات لابن حبان ٦/٣٩٩، وتهذيب التهذيب ٤/١٤٨، ١٤٩، وتقريب التهذيب

وقد سُقتُ الخبر بطوله لما فيه من دلالةٍ على الصعوبات التى واجهها المهاجرون، وهى تشيرُ إلى أثر العصبية فى اتخاذ العشائر القرشية مواقفَها من الأحداث، فقد انحاز قومُ أبى سلمة إليه على الرغم من مخالفتهم له فى العقيدة.

ثم إن الخبرَ يكشف عن صورةٍ من صور المروءةِ التى عرفها المجتمعُ القرشىُّ قبل الإسلام تتمثلُ فى موقف عثمانَ بنِ طلحةَ بن أبى طلحة العبدرى، حاجب البيت الحرام، وذلك جلىٌ فى تطوعِه لمصاحبة أم سلمة وإحسانِ رُفقتها فى تلك الرحلة الشاقة الطويلة، حيث كان ماشيًا يقود لها بعيرها الذى تركبه هى وابنها؛ مما يدل على سلامةِ الفطرةِ التى قادته أخيرًا إلى الإسلام بعد صلح الحديبية فى أول العام الثامن من الهجرة، إذ توجه مهاجرًا من مكة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة، وقد التقى به فى الطريق: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فأسلموا جميعًا، ثم شهدوا فتح مكة، وأعطى النبىُّ ﷺ مفتاح الكعبةِ لعثمان بن طلحة؛ فلعل إشراقَ نورِ الإسلامِ فى قلبه بدأ منذ هذه الرحلة مع المرأة المسلمة.

أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير

وذكر ابن إسحاق أن النبى ﷺ بعث مع الاثنى عشر رجلاً مصعب بن عمير العبدرى، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زرارة، وللدارقطنى من حديث ابن عباس، أن النبى ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم، فأسلم خلقٌ كثيرٌ من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زراره حتى فشا الإسلامُ بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم فى السَّنَة المقبلة حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلمًا وزيادة، فبايعوا وحظوا بلقاء

ص٢٤٨، والإصابة ٤/٣٧٣ ترجمة عثمان بن طلحة، وسيأتى مزيدٌ من التوضيح لذلك تحت عنوان: «هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ العَاصِ ورفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم» هامش رقم ٣٢٢: ٣٢٤.

رسول الله ﷺ وروى أبو داود من طريق عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة.

ولقد كان مصعب بن عمير أحد السابقين، أسلم قديمًا والنبى ﷺ فى دار الأرقم وكتم إسلامه خوفًا من أمه، فعلم بإسلامه عثمان بن طلحة فأخبر أهله بإسلامه فأوثقوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الأولى ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، ثم شهد أُحُدًا، وكان معه لواء المسلمين يومئذٍ إلى أن استشهد بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وفى الفردوس الأعلى أسكنه وآواه.

أخرج الترمذى وحسنه من حديث على بن أبى طالب قال: إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنْ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَى الْمُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»(٢١٥).

فرحم الله مصعب بن عمير ورضى عنه حيث كان من السابقين الذين هاجروا الهجرتين وشهد بدرًا واستشهد بأُحُدٍ.

---

(٢١٥) ينظر فى ترجمة مصعب: كتاب الإصابة٦/٩٨، وفى مناقبه يراجع؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة أحد٧/٣٥٣ح٤٠٤٥، وباب: من قُتل من المسلمين يوم أحد ٧/ ٣٧٥ ح٤٠٨٢، وجامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٣٥ ج٢ ص٥٥٨ ح٢٤٧٦، وكتاب المناقب/ باب فى مناقب مصعب بن عمير ٥/ ٦٤٩ ح٣٨٥٣، وانظر ما سيأتى بعد الهامش رقم ٢٨٣.

تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فِى هِجْرَةِ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ

وهذا عمر بن الخطاب يهاجر سرًا مستخفيًا آخذًا بالأسباب وفق سنن الله الجارية، فيتفق مع غيره من المسلمين المستضعفين بمكة على موعدٍ يجتمعون فيه محدد الزمان والمكان، فإذا تأخر عنه أحدهم فليمض الباقون دون أن ينتظروه حتى لا يكشف أمرهم، وهذه هى القصة مرويةٌ بسندٍ حسن لذاته؛ بل صححها غير واحدٍ من الأئمة، والذى يُحَدِّثُ بها هو عمر بن الخطاب نفسُه، فيقول رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: اتَّعَدْتُ- يعنى: ضرب مع غيره موعدًا يلتقون فيه- لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيُّ التَّنَاضِبَ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَوْقَ سَرِفٍ، وَقُلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضِبِ، وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ، وَفُتِنَ فَافْتُتِنَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا، حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَكَلَّمَاهُ وَقَالَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَاكَ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَاكَ، فَرَقَّ لَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دينك فَاحْذَرْهُمْ، فو الله لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطَتْ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ. قَالَ: فَقَالَ: أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي، وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخُذُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. قَالَ: فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا، فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ، فَالْزَمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ، فَانْجُ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَا بن أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَظْتُ بَعِيرِي هَذَا، أَفَلَا تُعْقِبَنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَنَاخَ،

وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ، ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ، وَفَتَنَاهُ فَافْتُتِنَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ: أَنَّهُمَا حِينَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوثَقًا، ثُمَّ قَالَا: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، هَكَذَا فَافْعَلُوا بِسُفَهَائِكُمْ، كَمَا فَعَلْنَا بِسَفِيهِنَا هَذَا(٢١٦).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ، قَالَ: فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ افْتُتِنَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ! قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ، وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ، وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي: فَلَمَّا أَتَتْنِي جَعَلْتُ أَقْرَؤُهَا بِذِي طُوًى -وادٍ بمكة-، أُصَعِّدُ بِهَا فِيهِ وَأُصَوِّبُ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهُمَّ فَهِّمْنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا، وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي، فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ(٢١٧).

---

(٢١٦) هذه الجزئية من قول ابن إسحاق لما فى إسنادها من جهالة: بَعْضُ آلِ عَيَّاشٍ.

(٢١٧) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٧٤ بإسنادٍ حسن لذاته، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث، ومن طريق ابن إسحاق: أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/ ٤٣٥ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وقال

وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به: بثكلِ أمه، وَتَيْتِيمِ ولده، وترميلِ زوجه... فلم يصح، وإن تناقله بعض كُتَّاب السير القدامى والمعاصرين(٢١٨)، والذى صح عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فى استخفائه بهجرته: هو الموافق للعقل والنقل، فما كان عمر ليغتر بقوته وشجاعته ويفتح بذلك ثغرةً يدخل منها الأعداء لحرب أولياء الله، وقد ورد فى الحديث المتفق عليه قول رسول الله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ...».

وقد استقر كثيرٌ من المهاجرين فى قباء فى مكان يسمى: العُصْبة، قبل مَقدَمِ رسولِ الله ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبى حذيفة يؤمهم فى مسجد قباء، لكونه أكثرَهم قرآنًا(٢١٩).

ثم تتابع المهاجرون أرسالاً إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ

ولما انقضى موسم الحج فى شهر ذى الحجة من العام الثالث عشر للبعثة، وبايع النبى ﷺ الأنصار البيعة الأخيرة عند العقبة فى أوسط أيام التشريق: اعتزم رسول الله ﷺ أن يهاجر، ويلحق بالمسلمين فى المدينة من المهاجرين والأنصار، ومما ينبغى أن نعلمه أيضًا: أن رسول الله

الهيثمى: رواه البزار ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٦/ ٦١، وانظر روايات أخرى للواقدى نقلها ابن سعد، وكأنها اختصار لمتن ابن إسحاق، وفيها: وكنا إنما نخرج سرًا. الطبقات الكبرى ٣/ ٢٧١.

(٢١٨) الخبر أورده ابن الأثير بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة. أسد الغابة ٤/ ١٥٢، ١٥٣ ط الشعب، القاهرة، وشرح المواهب اللدنية ١/ ٣١٩، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣/ ٣١٥، ٣١٦ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، كلهم بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة، ومن عجبٍ: أنهم ذكروا أيضًا القصة الصحيحة التى رواها عمر بنفسه، ولكن دون تمحيص. ينظر: دفاع عن الحديث النبوى والسيرة ص١٤٣ للشيخ الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، والسيرة النبوية الصحيحة ٢٠٤، ٢٠٥، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢١٩) الحديث فى صحيح البخارى: عن عبدالله بن عمر ٢/ ١٨٤ ح٦٩٢، و١٣/ ١٦٧ ح٧١٧٥.

ﷺ كان يقدم المثل الذى يطيقه عامة الناس، وذلك واضحٌ فى الكثير من شأنه ﷺ، حيث كان ﷺ يقدم الضعفاء ويكرمهم، ويلازم المتواضعين والمخبتين ويُجِلُّهم، كما أمره الله عز وجل فى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

وهو ﷺ القائل فى صحيح الحديث عنه: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال: «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ: فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»(٢٢٠).

وقد سبق أن علمنا: أن جهره ﷺ بالدعوة، واستخفاءه بها كان من باب التلوين فى الدعوة، والتنوع فى أساليبها، وسلوك كل سبيلٍ تؤدى إليها، كما قال سُبْحَانَهُ فى شأن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح].

ومن ثَمَّ: تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة؛ حتى هاجر معظمُ القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، كما هاجر ﷺ مستخفيًا ليضرب المثل للمستضعفين من المؤمنين، وقد مر قريبًا تحت عنوان: «تناصح المهاجرين وتعاونهم فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هاجر مستخفيًا مع عشرين من أصحاب النبى ﷺ كسائر مَن سبقوهم فى الهجرة، وليس كما هو شائع بين الذين لا يدققون فى توثيق الأخبار وتحقيق النصوص حيث يزعمون أن عمرَ هاجرَ علانيةً متوعدًا لقومه ومتحديًا لهم!.

---

(٢٢٠) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ٦/٨٨ ح٢٨٩٦، وفى سنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/٧٣ ح٢٥٩٤.

يَوْمُ الْهِجْرَةِ

إن وقائعَ يومِ الهجرةِ ليست بأقلَّ خطرًا ولا إعجازًا من أحداث ليلة الهجرة، فقد أخرج الإمامُ أحمد من طريقين، رجالِها رجالِ الصحيح، من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قال: إِنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَاللَّهُعَنْهَا تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلاءِ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بُنَيَّةُ! أَرِينِي وَضُوءًا» فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ التُّرَابِ، فَقَالَ ﷺ: «شَاهَتْ الْوُجُوهُ» ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلاً مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا. الحديث صححه ابن حبان والحاكم(٢٢١).

وله طريقٌ أخرى: عن ابن عباسٍ، عن فاطمةَ رَضِيَاللَّهُعَنْهَا قالت: اجتمع مشركو قريش فى الحِجْر، فقال رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّةُ اسكنى» ثم خرج ﷺ فدخل عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسَهم ثم نُكِسُوا، فأخذ ﷺ قبضةً من ترابٍ فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فما أصاب رجلاً منهم إلا قُتِل يومَ بدرٍ. صححها الحاكم(٢٢٢).

---

(٢٢١) مسند الإمام أحمد ١/٣٠٣ ح٢٧٦٢ (واللفظ له) وفى ١/٣٦٨ ح٣٤٨٥، وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص٤٠٩، ٤١٠ ح١٦٩١ ، والمستدرك: كتاب الطهارة ١/١٦٣ ح٥٨٣ ، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/٢٤٠ ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢٢٨ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٢٢٢) هذه الرواية: صححها الحاكم، فى: المستدرك ٣/١٥٧ ح٤٧٤٢.

وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تقص علينا وقائع الهجرة في حديثها الطويل الذي تقدم شيءٌ منه تحت عنوان: «الطرد من الوطن كفصل الروح عن البدن» فتقول فيه: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً...» إلى أن قالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في ذاك الحديث: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ» وَهُمَا الْحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ، وَهُوَ: الْخَبَطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ؛ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ! قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ! بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا

عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ: لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا- أى: الذى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته، فيصير على هيئة الجبن- حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ(٢٢٣).

فهذا الحديث يُستفاد منه: أنه ﷺ كان يتردد على بيت أبى بكر كل يومٍ فى الصباحِ وفى المساء، لا يكاد يدع ذلك، ومن ثَمَّ ترجم له البخاري في كتاب الأدب بقوله: «بَابٌ: هَلْ يَزُورُ صَاحِبَهُ كُلَّ يَوْمٍ، أَوْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

فلما أُذِنَ له ﷺ بالهجرة جاء إلى بيت أبى بكر فى وقت الظهيرة على غير عادته وهو مستخفٍ، فأخبر أبا بكر بذلك، واختياره ﷺ وقت الظهيرة: لأن الناس تأوى إلى بيوتها للقيلولة فرارًا من الحر، وتَقَنُّعُه ﷺ يفيد شعوره بالخطر من حوله، فقد اعتزمت قريش قتله، ولا بد أنها ستعمد إلى رصد تحركه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال](٢٢٤).

---

(٢٢٣) هذا لفظ البخارى، فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٣٠: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وأما عبدالله بن أريقط الديلى: فلم يذكره أحدٌ فى الصحابة سوى الحافظ الذهبى، حيث ذكره فى كتابه: «تجريد أسماء الصحابة» ١/ ٢٩٦ رقم: ٣١٣٢ ط دار المعرفة، بيروت، وينظر: الإصابة ٤/ ٥، و٢٤: ٢٦ فلعلهم أغفلوه لأنه لا رواية له، والحمد لله الذي أكرمه بالاسلام والصحبة لرسول الله ﷺ.

(٢٢٤) ينظر: فتح البارى ٧/ ٢٣٢: ٢٣٨ فى شرح الحديث المتقدم.

لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ

كان رسول الله ﷺ يعتصم بكلام ربه دائمًا، وكثيرًا ما كان يقرؤه ليستخفى به عن أعين المشركين، أخرج البزَّار بسندٍ حسن، وصححه ابن حبان – واللفظ له- من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبى لهبٍ إلى النبى ﷺ ومعه أبو بكرٍ، فلما رآها أبو بكر قال: يارسولَ اللهِ إنها امرأةٌ بذيئةٌ، وأخافُ أن تؤذِيَكَ، فلو قمتَ – يعنى: حتى لا ينالَكَ أذاها- قال ﷺ: «إنها لن تَرانِى» فجاءت فقالت: يا أبا بكر! إن صاحِبَكَ هَجانِى، قالَ: لا، وما يقولُ الشِّعْرَ، قالت: أنتَ عندِى مُصَدَّقٌ، وانصرفَتْ، فقلتُ: يارسول الله! لم ترَكَ؟ قال ﷺ: «..لَمْ يَزلْ مَلَكٌ يَستُرُنى مِنها بجناحَيهِ»(٢٢٥).

فاستخفاؤه ﷺ عن أعين أعدائه بقراءته للقرآن مخافة كيدهم له، أو فتكهم به: ثابتٌ بصريح القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء].

ومعلومٌ أنه ﷺ: لا يغفل عن ذكره لربه، ولا يفتر عن تلاوته لكلام خالقه، وهو سبحانه الذى أنزل عليه فى مكة: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف].

وهذه رواية أخرى تعددت مخارجها تثبت ما وقع من ذلك فى ليلة الهجرة: فيروى ابن إسحاق قائلاً: فحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما اجتمعوا له، وفيهم

---

(٢٢٥) مختصر زوائد البزار ٢/ ١٢١، ١٢٢ ح١٥٣٩، وكشف الأستار ح٢٢٩٤، وحسنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٨/ ٧٣٨، ولفظه من: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ٥١٦ ح٢١٠٣، وقد سبق له شاهد من حديث أسماء بنتِ أبى بكر فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان: «مَا لَقِيَهُ المصطفَى ﷺ فِى إِقَامَةِ الدِّينِ وحِمَايةُ اللهِ لَهُ» ص٢٤١ عند الهامش رقم٣٦٧.

أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره: كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنن كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها، قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من صدر سورة يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًّا عَلَى الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صَدَقَنَا الذى حدثنا(٢٢٦).

---

(٢٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٨٣ بسند صحيح، من طريق: ابن إسحاق إلى محمد بن كعب القرظى، لكنه مرسل، ورواها ابن جرير: تاريخ الطبرى ٢/٣٧٢، ٣٧٣، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص١٥٩، ١٦٠، والبيهقى فى دلائل النبوة

وقد بين ابن عباس حصار المشركين لبيت رسول الله ﷺ ابتغاء قتله، ومبيت عليٍّ على فراشه، ولحاقه ﷺ بالغار.

ولما علم المشركون ذلك في الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت(٢٢٧) فتركوه.

وهي رواية حسنها كثيرون من الحفاظ، وليس هناك ما يدفعها من عقلٍ أو نقل؛ بل على العكس من ذلك: تؤيدها الآيات القرآنية الكثيرة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب وِفْقَ سنن الله الجارية، فلما انقطعت الأسباب: بقى له مددُ الكبيرِ الوهاب، فصنع له ربه ما لم يخطر له على بال.

ومما يدل على أخذه ﷺ بالأسباب: أنه كان دائمًا يبدأ بالإمكانات المتاحة، ويبذل قصارى جهده ما أمكنه ذلك، فإنه ﷺ لم يختر عند هجرته مكانًا تجاه المدينة في شمال مكة من أعلاها؛ بل

٢/٤٦٩، ٤٧٠ ثم قال: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا، وهو شاهد آخر رواته ثقات، لكنه مرسل أيضًا، أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٢/١١٢ ح٢٤١٥: عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمدًا لأفعلن ولأفعلن...، فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝﴾ [يس]، فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو...؟ لا يبصره!!. وينظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٧/٤٣ ط دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢٢٧) مسند الإمام أحمد ١/٣٤٨ بإسناد ضعيف، لكنه صالح للاعتبار، وقد حسنه ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٧٩ وقال: وهو أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار، وحسنه ابن حجر في الفتح ٧/٢٣٦، وحسنه الزرقاني في شرح المواهب ١/٣٢٣ وفي السند: عثمان بن عمرو بن ساج الجزري، فيه ضعف، ووثقه ابن حبان، فحديثه صالح للاعتبار، ينظر: تهذيب التهذيب ٧/١٤٥، وتقريب التهذيب ٣٨٦.

اختار أقصى جبل جنوب مكة من أسفلها، وحدد غارًا يكمن فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع طالبوه، وهذا الغار إذا حاول أحدٌ الآن الصعود إليه فإنه يأخذ من الشاب المشتد فى سيره أكثر من ثمانين دقيقة حتى يصل إلى الغار، فضلاً عن بضعة كيلو مترات يبعد بها الجبل عن المسجد الحرام؛ بل لقد تواعد رسول الله ﷺ مع أبى بكر الصديق أن يتقابلا عند مكان يسمى: بئر ميمون فى طريق مِنى، ثم ركبا منه إلى الغار فى الجهة المقابلة جنوب مكة، وقد ورد هذا فى حديثٍ طويلٍ، حسن الإسناد، أخرجه الإمام أحمد، يفيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته، حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فَلَبِسَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثوبه ونامَ مكان النبى ﷺ، واخترقَ رسولُ الله ﷺ حصارَ المشركين لِبَيْتِه دون أن يرَوْه، بعد أن أوصى عليًّا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به، فيقول عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ نَائِمٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ،فَأَدْرِكْهُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الْغَارَ، قَالَ: وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ، كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيُّ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَوَّرُ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثَّوْبِ لا يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَلَئِيمٌ! كَانَ صَاحِبُكَ نَرْمِيهِ فَلا يَتَضَوَّرُ، وَأَنْتَ تَتَضَوَّرُ، وَقَدْ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ(٢٢٨).

كما سجل جَلَّجَلَالُهُ مناجاة نبيه ﷺ لرفيقه أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى القرآن المجيد بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التوبة: ٤٠].

---

(٢٢٨) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٣١ ح٣٠٦٢ وقد صححه الشيخ أحمد محمد شاكر، من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وفى سنده؛ أبو بلج: صدوق، وقال الهيثمى: رجال أحمد رجال الصحيح، غير أبى بلج الفزارى، وهو: ثقة وفيه لين. مجمع الزوائد ٩/ ١١٩، ١٢٠، وقال ابن حجر: أبو بلج صدوق ربما أخطأ. تقريب التهذيب ٦٢٥. وقد انفرد بهذا الحديث وقد قال ابن حبان: أرى ألَّا يحتج بما انفرد به من الرواية. المجروحين ٣/ ١١٢.

وهذا الذى وقع للنبى ﷺ قد أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به آحاد الأمة وأفرادها – بعد نبيها– الذين أيقنوا بالله وأخلصوا له، قال الإمام القرطبى المتوفى عام ٦٧١ من الهجرة: ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحِصنٍ منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك: أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحيةٍ عنه، فلم أَلبَثْ أن خرج فى طلبى فارسان، وأنا فى فضاءٍ من الأرض قاعدٌ ليس يسترنى عنهما شىءٌ، وأنا أقرأُ أول سورة يَسِ، وغير ذلك من القرآن، فعبَرا عَلَىَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطانا – وكلمة: دِيَابْل بالفرنسية تعنى: جِنًّا أو شيطانًا – وأعمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبصارهم فلم يرونى، والحمد لله حمدًا كثيرًا على ذلك.

ونقل الإمام القرطبى، عن كعب الأحبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ذكر آيات كان النبى ﷺ يستتر بها من المشركين ثم قال: فحدثت بهم رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقامَ بها زمانًا، ثم خرج هاربًا، فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن، فصاروا يكونون معه على طريقه، ولا يبصرونه، قال الثعلبى: وهذا الذى يَرْوُونَهُ عن كعب حَدَّثْتُ به رجلاً من أهل الرِّىّ فأُسِرَ بالدَّيلم، فمكث زمانًا، ثم خرج هاربًا فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن؛ حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه(٢٢٩).

وهذا بلا شك يحصل لكل من استنفذ الأسباب التى يقدر عليها، وصدق فى التجائه لربه، وأحسنَ فى توكله عليه، كما قال عز فى علاه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق].

---

(٢٢٩) تفسير القرطبى ١٠/٢٦٩، ٢٧٠.

وقد حمل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى تلك الليلة ثروته ليضعها تحت تصرفِ رسولِ الله ﷺ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ عَبَّادًا حَدَّثَهُ عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةُ آلَافٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ؛ إِذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ. قالت أسماء: لَا وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ(٢٣٠).

والقدر الذى حمله معه أبو بكر من ماله يساوى نصف الدية الشرعية، وهى ستة آلآف درهم ووزنها فى أيامنا من الفضة ٢٣٤٠٠ جرامًا عيار ٨٠، ومن الذهب ٢٤٥٠ جرامًا عيار ٢١.

وروى أَن الْمُشْركين كَانُوا يعلمُونَ محبَّة رَسُول الله لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَهَبُوا لطلبه على بَاب أبي بكر وَفِيهِمْ أَبُو جهل، فَخرجت إِلَيْهِم أَسمَاء بنت أبي بكر فَقَالُوا لَهَا: أَيْن أَبوك؟ فَقَالَت:لَا أَدْرِي، فَرفع أَبُو جهل يَده وَكَانَ فَاحِشا خبيثاً فلطم خدها لطمة خرج مِنْهَا قُرْطهَا وَسقط، ثمَّ انصرفوا(٢٣١).

---

(٢٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٨٨ بإسناد حسن، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/٥، والبيهقى فى دلائل النبوة ٢/٤٨٠ بإسنادٍ فيه انقطاع بين: يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، وبين أسماء، ولكن يحيى أخذ الخبر عن أبيه عباد فهو الذى يروى عن جدته أسماء، ومن ثم: فإن السند حسن، والله أعلم.

(٢٣١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس لحسين بن محمد الدِّيار بَكْري المتوفى ٩٦٦هـ ١/٣٢٨، وكتاب: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبدالملك بن حسين العصامي المكي المتوفى ١١١١هـ- تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ١/٣٤٩.

ويقال: إن أبا جهل قال لرفقائه: اكتموا عنى هذا الفعل حتى لا أُفضَحَ بين العرب. ففى أى الدركات تصنف قبائح المعاصرين فى حق النساء؟!!

وكان خروج رسول الله ﷺ بِصُحْبَةِ أبى بكر إلى غار ثور جنوب مكة فى سحر ليلة الخميس فكَمَنَا فيه ثلاثَ ليال بأيامها كاملةً، بدأت بليلة الجمعة وانتهت بآخر يوم الأحد، وقريش تطاردهما سحابة النهار، وتبحث عنهما، وتقتفِى آثارهما... حتى انتهوا إلى باب الغار ووقفوا عليه؛ ولكن حال الله بينهم وبين الوصول إلى الرسول ﷺ وصاحبه.

ثم لما وقف المشركون على فم الغار الذى بداخله رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، لم يجترئ أحدٌ منهم على الدخول فى الغار ليستبرئه ويقطع الشك باليقين؛ حتى قال أحد المعاصرين الغربيين: لم أجد أغبى من أهل مكة؛ إذ وقفوا عند باب الغار ومحمد بداخله، فلم يدخل أحد منهم الغار ليفتشه بعد هذا العناء الطويل. لكن هذا الكافر لم يفقه أن الغباء جند من جنود الله القائل: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر:٣١].

أما رسول الله ﷺ فقد كان فى معية الله يرتل كلامه؛ ليستخفى به عن أعين المشركين، كما كان يفعل ﷺ ذلك من قبل.

وأما الصِّدِّيق فقد كان قلقًا لا يَقَرُّ له قرار، من شدة خوفه على رسول الله ﷺ لاسيما بعد رؤيته لأقدام المشركين عند باب الغار، فيقول: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ ﷺ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ! اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»(٢٣٢).

---

(٢٣٢) صحيح البخارى ٧/٢٥٧ ح٣٩٢٢، وصحيح مسلم ح٢٣٨١ عن أنس بن مالك.

وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وقد ورد حديثٌ سنده ضعيفٌ جدًا، يفيد: أن الرسول ﷺ لما بات فى غار ثور أمر الله شجرة فنبتت فى وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن ذلك كان سبب صدود المشركين عن دخول الغار واستبرائه من داخله، ومثل هذه الأساطير كثيرًا ما تسربت إلى العديد من كتب السيرة.

وما أحسن ما عقب به الحافظ ابن كثير على حديث أنس الصحيح المتقدم الذى قال فيه أبو بكر الصديق: «لو أن أحدَهم نظر إلى قدميه لأبصرنا...» حيث قال: «وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبى ﷺ: «لو جاءونا من هٰهنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه. وليس هذا بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا؛ ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به، والله أعلم»(٢٣٣).

---

(٢٣٣) أخرجه ابن سعد: ٢٢٩/١ وفى سنده؛ أبو مصعب المكى: مجهول، وعوين بن عمرو: منكر الحديث، وسماه: (عون) وأخرجه البزار ٩/٢ ح١٣٤٠ مختصر زوائد البزار، وانظر: كشف الأستار ٢٩٩/٢، ٣٠٠ وفى إسناده: عوين بن عمرو، وهو منكر الحديث، لا شىء، وقد تفرد به، وشيخه؛ أبو مصعب: مجهول، والحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ٤٤٣/٢٠، ودلائل النبوة لأبى نعيم ٢٦٩/٦، ٢٧٠، ودلائل النبوة للبيهقى ٢١٣/٢، ٢١٤، والبداية والنهاية لابن كثير

قال الشيخ محمد سالم البيحانى فى أرجوزته:

قَد شَرَحَ اللهُ تَعَالَى صَدْرَهْ ❁❁ وَأَذِنَ اللهُ لَهُ بِالهِجْرَهْ
فَأَخبَرَ الصِّدِّيقَ وَاستَعَدَّا ❁❁ بِنَاقَتَينِ حَسَنَتَينِ جِدَّا
سُلِّمَتَا إِلَى الدَّلِيلِ الدِيلِي ❁❁ وَهْوَ الذِّي أَسْرَى بِهِم فِي اللَّيْلِ
وَقَرَّرَتْ قُرَيشٌ أَنْ تَمْنَعَهُ ❁❁ مِنَ الخُرُوجِ أَو تَرَى مَصْرَعَهُ
وَلَمْ يَخَافُوا مِن عِقَابِ رَبِّهِمْ ❁❁ بَل مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ
وَمَرَّ بَينَهُمْ وَهُم يَنتَظِرُون ❁❁ خُرُوجَهُ لَكِنَّهُم لَا يُبْصِرُون
وَاسْتَخْلَفَ القَوِيَّ فِى فِرَاشِه(*) ❁❁ مَن كَعَلِيٍّ فِي ثَبَاتِ جَاشِهِ
وَاختَبأَ الصِّدِّيقُ وَالنَّبِيُّ ❁❁ فِي غَارِ ثُورٍ وَغَدَى التَّيْمِيُّ
يَقُولُ كَادَ القَومُ أَنْ يَرَوْنَا ❁❁ لَو طَأطَأوا الرُّؤوسَ وَالعُيُونَا
وَالمُصطَفَى يَقُولُ نَحْنُ اثنَانِ ❁❁ ثَالِثُنَا مُنْزِلُ القُرَآنِ
وَأَصلَحَتْ زَادَهُم أَسْمَاءُ ❁❁ ذَاتُ النِّطَاقَينِ كَمَا تَشَاءُ
وَانطَلَقُوا بَعدَ ثَلاثٍ مَعَهُمْ ❁❁ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ يَنْفَعُهُم
وَابنُ أُرَيْقِطٍ هُوَ الدَّلِيلُ ❁❁ وَامْتَلأَتْ بِالرَّصَدِ السَّبِيلُ
قَد جَعَلُوا دِيَتَهُ لِمَن أَتَى ❁❁ بِهِ أَسِيرًا أَو قَتِيلاً أَو مَيْتَا
وَلِسُرَاقَةَ حَدِيثٌ يُعْرَف ❁❁ سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنتَ المُنْصِف

٣/ ١٨١ وقال: غريب جدًا من هذا الوجه، وشرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٣٣١، وسبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٣٩، ٣٤٠، وقال الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنه لا يصح حديث فى العنكبوت والحمامتين: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٣٣٩، وينظر التعقيب الأخير للحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ١٨٢.

(*) فى أرجوزته: (الوصى)، وهذا يشير إلى أنه زيدى غير مغالٍ فى تشيعه كما كان من قبله الإمام الشوكانى، والله أعلم.

اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بقباء أيامًا قلائل: خرج إلى المدينة، فروى البخارى أن ابن شهاب قال: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنْ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ، وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ – حصن – مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمْ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنْ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ، حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ[٢٣٧].

ويستفاد من هذا الحديث: أن أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم كانوا يخرجون إلى الحرة– وهى أرض ذات حجارة سود، كأنها أُحرقت بالنار من شدة سوادها– ينتظرون مقدم رسول الله عليهم، فيظلون كذلك، حتى يردهم حر الظهيرة، يفعلون ذلك كل

(٢٣٧) صحيح البخارى ٧/٢٣٩، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

يوم، فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم، أطل رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم، فأبصر رسول الله ﷺ ومن معه من بعيد، فنادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا حَظُّكُم الذى تنتظرون، فأسرع إلى رسول الله ﷺ أشراف بنى النجار فى المدينة، وهم أخوال جده عبدالمطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم معلقيها على أكتافهم، استعدادًا للدفاع ورمزًا للنجدة، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وأردف أبا بكر خلفه عليها، وملأُ بنى النجار ووجهاؤهم حوله يحيطون بركبه تكريمًا وتشريفًا.

وسار الركب حتى دخل المدينة، وكلٌّ يريد أن يتشرف بنزول رسول الله فى داره أو بجوارها، يحاولون وقف الناقة، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة» حتى وصلوا إلى بيت أبى أيوب، وفى فناء البيت بركت الناقة(٢٣٨)، فأخذ جَبَّار بن صخر ينخسها برجله لتقوم: يبغى أن تصل إلى داره، ورآه أبو أيوب، فقال: يا جبار! أعن منزلى تنخسها؟ أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتُك بالسيف.

بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ

المسجد النبوى الشريف، هو المسجد الثانى الذى بُنى فى المدينة بعد مسجد قباء؛ وكلاهما يصدق فيه قول الحق جل فى علاه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

والمسجد النبوىُّ كذلك، هو المسجد الثانى فى الفضل والمنزلةِ وكثرة الثواب للمصلين فيه والقاصدين له، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى

---

(٢٣٨) دار أبى أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه هى التى بناها تُبَّعٌ، وتوارثها أبناء الحبر الذى أسدى النصيحة لِتُبَّعٍ حتى ملكها أبو أيوب وهو من نسل ذلك الحبْر، والله أعلم. راجع: القصة فى الجزء الأول تحت عنوان: «خَبَرُ تُبَّعٍ وإِسْلامِه».

ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»(٢٣٩).

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان قد اعتزم بناء مسجدٍ فى المكان الذى بركت فيه ناقته، وكان يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ: غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلامَيْنِ، فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالا: لا؛ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً، حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ:

«هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ»

وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ   فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ»

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ(٢٤٠).

ومعناهُ: أن رسول الله ﷺ قد اعتزم بناء المسجد، ووقع اختياره على أرضٍ لبنى النجار فيها نخل، وفيها قبور المشركين، وفيها آثار بناء محطم، وبها حُفَرٌ، وقال: «يا بنى النجار، ساومونى على هذه الأرض لأشتريها فأقيم عليها مسجدًا نصلى فيه» فقالوا: لا، والله لا نأخذ لها ثمنًا، إنما هى لله تعالى.

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بقطع النخل فقطعوه، وأمر بقبور المشركين فنُبشت، وجمع عظامها وترابها وغُيِّبَتْ فى باطن الأرض، وأمر بآثار الهدم والحجارة فسويت ومهدت الأرض واستوت ثم بنى المسجد، فصفوا النخل حائطًا جهة القبلة، جهة المسجد الأقصى ببيت المقدس بطول مائة ذراع، وبنيت جدرانه باللَّبِنِ فوق أساس من الحجارة ارتفاعه ثلاثة أذرع، وجُعِل

(٢٣٩) متفق عليه، وقد سبق تخريجه فى هذا الجزء عند الهامش رقم:١٧٦.

(٢٤٠) صحيح البخاري ٧/٢٣٩، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

ارتفاع الجدار قامةً وبسطةً نحوًا من سبعة أذرع، بحيث لو رفع الرجل الطويل يده إلى أعلى أصابت السقف، وجعل طولَ كلِّ ضلعٍ مائة ذراع، فهو مربع الشكل، أى ما يقارب ١٦٠٠ مترًا مربعًا على تقدير طول الذراع ٤٠سم، ومنهم من اعتبر طول الذراع ٥٠سم فتقارب مساحة المسجد ٢٥٠٠ مترًا مربعًا.

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب فى مؤخرة المسجد من جهته الجنوبية، وباب الرحمة جهة الغرب، والباب الذى كان يدخل منه ﷺ من جهه الشرق، وهو الذي عُرِفَ بعدُ باسم باب جبريل، وجعل جانبى كل باب من الحجارة، وجعل عُمُدُ المسجد من جذوع النخل، وسقفه من الجريد، وكان النبى ﷺ ينقل معهم الحجارة واللبِن بنفسه حتى أغبر صدره الشريف وكان ينشد معهم: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ   فَانْصُرِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

وفى رواية: اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجَرَ أَجْرُ الآخِرَهْ   فَارْحَمْ الأَنْصَارَوَالْمُهَاجِرَهْ

وكان يقول ﷺ وهو ينقل اللبِن معهم للبناء:

هَذَا الْحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرَ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وكلها فى الصحيح، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا – فى الأحاديث – أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعرٍ تام غير هذه الأبيات.

والمراد أنه ﷺ كان يحثهم على العمل ويشاركهم فيه، وأن نقل هذه الحجارة واللَّبِن لبناء المسجد أبر وأطهر عند الله عز وجل مما يُحمل من خيبر زبيبًا كان أو تمرًا.

وقال بعض المسلمين: لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ   ذَاكَ إِذًا لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتنظفًا: يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فإذا حمل اللَّبِنة فى ثوبه نظَّف كمه إذا وضعها، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نَفَضَه، فلما رآه عليٌّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنشأ يقول:

لاَ يَسْتَوِى مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدًا
وَمَنْ يُرَى عَنِ التُّرَابِ حَائِدًا

فردد عمار بن ياسر تلك الكلمات دون أن يدرى مَنِ المراد بها، فلما مر بعثمان بن مظعون غضب منه ظانًا أنه يُعرِّضُ به، فأغلظ له القول، وسمعه النبى ﷺ فغضب من أجل عمار، فقال الصحابة لعمار: إن النبى ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أُرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله! ما لى ولأصحابك؟ فقال ﷺ: «مالك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلى! يحمل كلُّ واحدٍ منهم لبنةً لبنة، ويحملون علىَّ اللبنتين والثلاث، فأخذ بيده رسولُ الله ﷺ وطاف به فى المسجد يمسح مؤخرة رأسه من التراب وهو يقول: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ليس هؤلاء بالذين يقتلونك؛ وإنما تقتلك الفئة الباغية(٢٤١).

وهكذا: ظل الصحابة ينقلون اللبِن والحجارة حتى تم بناء المسجد النبوى بالمدينة، فأخذ يؤدى رسالته فى المجتمع، لأنه دائمًا مهبط النور ومصدره فى هذه الحياة، والحمد لله رب العالمين(٢٤٢).

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيحانى أحداث هذه الحقبة فى أرجوزته بقوله:

وَطَلْحَةُ التَّيْمِيُّ وَابنُ العَوَّامْ ❁❁ قَدْ أَقبَلاَ فِي مَتْجَرٍ مِنَ الشَّامْ
فَكَسَيَا مِنَ الثِّيَابِ الْمُصْطَفَى ❁❁ وَالصَّاحِبُ الصِّدِّيقُ صَاحِبُ الوَفَا

---

(٢٤١) مسند الإمام أحمد ٣/٢٢ ح١١٠١١ حيث توسع الشيخ شعيب الأرنؤوط فى تخريجه، ومجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب فضل عمار بن ياسر ووفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٩/٢٩٦، وقال الهيثمى: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. وراجع: ما سبق فى هذا الجزء تحت عنوان: «التأدب والاعتدال فيما وقع بين الصحابة من التهاجر والاقتتال» الهامش رقم١٦٠.

(٢٤٢) راجع كتاب: «المسجد النبوى عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص١٨: ٢٦.

وَكَانَتِ الأَنصَارُفِي انتِظَارِهِم ❁❁ يُهَيِّئُونَ نُزُولاً فِي دَارِهِمْ
وَفِي بَنِي عَمرِو بنِ عَوفٍ بِقُبَا ❁❁ حَطَّ النَّبِيُّ رَحْلَهُ فَمَرْحَبَا
وَأَسَّسَ المَسجِدَ ثُمَّ ارْتَحَلَا ❁❁ إِلَى أَبِي أَيوبَ حَيْثُ نَزَلا
وَثَمَّ كَانَ قَبْرُهُ وَمَسْجِدُه ❁❁ وَهْوَ الذِّي نَزُورُهُ وَنَقصِدُه
وَاشتَرَكَ النَّبِيُّ فِي بِنَائِهِ ❁❁ بِنَفْسِهِ وَاشتَدَّ فِي ثَنَائِهِ
عَلَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار ❁❁ وَضَحِكَ النَّبِيُّ مِن عَمَّار

تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِى مَدِينَتِهِ

وبعد هجرة النبى ﷺ وأصحابه: خلت مكة من المسلمين أو كادت، وأغلقت بعض الدور نتيجة لذلك، منها دار بنى جحش... وكل ذلك حدث أو معظمه فى فترةٍ قصيرةٍ بين موسم الحج وشهر ربيع الأول... الأمر الذى أيقظ قريشًا من غفلتها.. ولعلها لم تهتم للأمر أولاً، ثم فكرت فوجدت فيه الخطر عليها حسب زعمها.

وبعد أن استقر النبى ﷺ فى المدينة بأيام قلائل: وصل إليها علىُّ بنُ أبى طالب مهاجرًا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها فى مكة.

قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحدٌ، إلا مفتونٌ أو محبوس...(٢٤٣).

ومن جملة هؤلاء: صهيب الذى اضطر إلى التنازل عن ماله لقريشٍ التى زعمت أنه لم يكن ذا مالٍ قبل قدومه مكة، وذلك فى مقابل أن يَسمحوا له بالهجرة..(٢٤٤).

---

(٢٤٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٩/١.

(٢٤٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٧/١.

ومن منا معشر المسلمين لا يعرف صهيبًا الرومى، ولا يُلِم بطرفٍ من أخباره وقطوفٍ من سيرته؟!

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون منا هو أن صهيبًا لم يكن روميًا، وإنما كان عربيًا خالصًا، نُميرىَّ الأبِ تميمىَّ الأم.

ولانتساب صهيبٍ إلى الروم قصةٌ ما تزال تعيها ذاكرة التاريخ، وترويها أسفاره.

فقبل البعثة بحوالى عقدين من الزمان كان يتولى الأُبُلَّةَ – وهى مدينة قديمة دخلت فى البصرة وأصبحت جزءًا منها – سنان بن مالك النُمَيْرِىّ، من قِبَلِ كسرى ملك الفرس.

وكان أحب أولاده إليه طفلٌ لم يجاوز الخامسة من عمره، سماه صهيبًا.

وكان صهيب: أزهرَ الوجهِ، أحمرَ الشعرِ، متدفقَ النشاطِ، ذا عينين تتقِدَانِ فطنةً ونجابةً، وكان إلى ذلك مِمْراحًا، عذب الرُّوح، يدخل السرور على قلب أبيه، وينتزع منه هموم المُلْكِ انتزاعًا.

مضت أم صهيب مع ابنها الصغير وطائفةٍ من حشمها وخدمها إلى قرية «الثَّنِىِّ» من أرض العراق طلبًا للراحة والاستجمام، فأغارت على القرية سرية من سرايا جيش الروم، فقتلت حراسها، ونهبت أموالها، وأسرت ذراريها فكان فى جملة من أسرتهم صهيب.

بِيعَ صهيب فى أسواق الرقيق ببلاد الروم، وجعلت تتداوله الأيدى فينتقل من خدمة سيدٍ إلى خدمة آخر، شأنه فى ذلك كشأن الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين كانوا يملأون قصور بلاد الروم.

وقد أتاح ذلك لصهيب أن ينفذ إلى أعماق المجتمع الرومى، وأن يقف عليه من داخله، فرأى بعينيه ما يعشش فى قصوره من الرذائل والموبقات، وسمع بأذنيه ما يرتكب فيها من المظالم

والمآثم، فكره ذلك المجتمع وازدراه، وكان يقول فى نفسه: إن مجتمعًا كهذا لا يُطَهِّرُه إلا الطوفان.

وعلى الرغم من أن صهيبًا قد نشأ فى بلاد الروم، وشب على أرضها وبين أهلها، وعلى الرغم من أنه نسى العربية أو كاد ينساها، فإنه لم يغب عن باله قط أنه عربىٌّ من أبناء الصحراء، ولم تَفْتُر أشواقُه لحظةً إلى اليوم الذى يتحرر فيه من عبوديته، ويلحق ببنى قومه، وقد زاده حنينًا إلى بلاد العرب فوق حنينه، أنه سمع كاهنًا من كهنة النصارى يقول لسيدٍ من أسياده: لقد أظل زمانٌ يخرج فيه من مكة فى جزيرة العرب نبىٌّ يُصدق رسالة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ثم أُتِيحت الفرصة لصهيبٍ فولى هاربًا من رق أسياده، ويَمَّمَ وجهه شطرَ مكةَ أمِّ القرى موئِل العرب، ومبعث النبى المرتقب، ولما ألقى عصاه فيها، واستقر بها أطلق الناس عليه اسم صهيب الرومى لِلُكْنَة لسانه وحُمْرة شعره، وقد حالف صهيبٌ سيدًا من سادات مكة هو عبدالله بن جُدْعَان وطفق يعمل فى التجارة، فدرَّت عليه الخيرَ الوفير والمال الكثير.

وفى ذاتِ يومٍ عاد صهيب إلى مكة من إحدى رِحْلَاتِه، فقيل له إن محمد بن عبدالله قد بُعث وقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله وحده، ويحضهم على العدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، فقال: أليس هو الذى يلقبونه الأمين؟! فقيل له: بلى، فقال: وأين مكانه؟ فقيل: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، ولكن حَذَارِ من أن يراك أحدٌ من قريش، فإن رَأَوْك فعلوا بك وفعلوا وأنت رجل غريب لا عصبية لك تحميك، ولا عشيرة عندك تنصرك.

مضى صهيب إلى دار الأرقم حذرًا يتلفت، فلما بلغها وجد قرب الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تريد يا عمار؟ فقال عمار: بل ما تريد أنت؟ فقال صهيب: أردتُ أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول، فقال عمار: وأنا أريد أيضًا، فقال صهيب: إذن ندخل معًا على بركة الله، دخل صهيب بن سنان الرومى وعمار بن ياسر على رسول

الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان فى صدريهما، وتسابقا فى مد يديهما إليه، وشهدا ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومِهما عنده ينهلان من هديه وينعمان بصحبته ﷺ.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جنح الظلام وقد حمل كل منهما من النور فى صدره ما يكفى لإضاءة الدنيا بأسرها.

تحمل صهيب نصيبه من أذى قريش مع بلال وعمار وسمية وخباب وغيرهم من عشرات المؤمنين، وقاسى من نكال قريش ما لو نزل بجبلٍ لهده، فتلقى ذلك كله بنفس مطمئنة صابرة، لأنه كان يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ولما أَذِنَ الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب على أن يمضى فى صحبة الرسول ﷺ وأبى بكر، لكن قريشًا شعرت بعزمه على الهجرة فصدته عن غايته، وأقامت عليه الرُّقَباء حتى لا يفلت من أيديهم، ويحمل معه ما دَرَّتهُ عليه التجارة من ذهبٍ وفضة.

ظل صهيب بعد هجرة الرسول ﷺ وصاحبه يتحين الفرص لِلَّحاق بهما فلم يُفلح، إذ كانت أعين الرقباء ساهرةً عليه متيقظةً له، فلم يجد سبيلاً غير اللجوء إلى الحيلة.

وفى ذات ليلة باردة: أكثر صهيب من الخروج إلى الخلاء كأنه يقضى الحاجة، فكان لا يرجع من قضاء حاجته حتى يعود إليها، فقال بعض رقبائه لبعض: طِيبوا نفسًا؛ فإن اللات والعزى شغلاه ببطنه، ثم أووا إلى مضاجعهم وأسلموا عيونهم إلى الكرى وراحوا فى نومٍ عميق، فتسلل صهيب من بينهم، ويمم وجهه شطر المدينة، وسار نحو عشرين كيلو مترًا، ثم فطن له رقباؤه، فهبوا من نومهم مذعورين، وامتطوْا خيولهم السوابق، وأطلقوا أعنتها خلفه حتى أدركوه، فلما أحس بهم، وقف على مكان عالٍ وأخرج سهامه من كنانته ووتر قوسِه، وقال: يا معشر قريش! لقد علمتم – والله – أنى من أرمى الناس وأحكمهم إصابة، ووالله! لا تصلون إِلَيَّ حتى أقتل

بكل سهمٍ معى رجلاً منكم، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى شىءٌ منه، فقال قائل منهم: والله لا ندعك تفوز منا بنفسك وبمالك، لقد أتيت مكة صعلوكًا فقيرًا فاغتنيت وبلغت ما بلغت، فقال: أرأيتم إن تركت لكم مالى، أَتُخَلُّونَ سبيلى؟ قالوا: نعم، فدلهم على موضع ماله فى بيته فى مكة، روى الحاكم عَنْ عِكْرِمَةَ -مرسلاً- قَالَ: لَمَّا خَرَجَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَثَلَ كِنَانَتَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا، فَقَالَ: لاَ تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدُ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَهُمَا لَكُمْ. ونحوه عن أنس مرفوعًا.

فصدَّقوه ليقينهم أن أصحاب محمد لا يكذبون، وعادوا وأخذوا المال فوجدوه كما وصف لهم، وأخذ صهيب يسرع السير نحو المدينة فارًا بدينه إلى الله، غير آسفٍ على المال الذى أَنفَقَ فى جَنْبِهِ زهرة العمر، وكان كلما أدركه النصب وأصابه التعب، حدا به الشوق إلى رسول الله ﷺ فيعود إليه نشاطه، ويواصل سيره.

فلما بلغ قباء رآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقبلاً، فهش له وبش وقال: ربح البيع أبا يحيى، وها هو يُحدِّثُ عن هجرته حتى لقى رسول الله ﷺ فى قباء، فيقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فَصَدَّنِي فِتيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقُومُ وَلاَ أَقْعُدُ، فَقَالُوا: قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بِبَطْنِهِ وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا، فَقَامُوا فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيَرُدُّونِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَتُخَلُّونَ سَبِيلِي، وَتَفُونَ لِي فَتَبِعْتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقُلْتُ لَهُمُ: احْفِرُوا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الأَوَاقِ، وَاذْهَبُوا إِلَى فُلاَنَةَ فَخُذُوا الْحُلَّتَيْنِ، وَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْهَا -يَعْنِي قُبَاءَ-، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «يَا أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ» ثَلاَثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاسَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ، وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢٤٥).

---

(٢٤٥) راجع: المستدرك على الصحيحين ٣/٣٩٨ فى مرسل عكرمة وقال الحاكم بعده: وَحَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ،

فَعَلَت الفرحة وجه صهيب وقال: والله ما سبقنى إليك أحد يا رسول الله، وما أخبرك به إلا جبريل.

حقًا لقد ربح البيع، وصدَّق ذلك وحى السماء، وشهد عليه جبريل، حيث نزل فى صهيب قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة].

فطوبى لصهيبِ بن سِنَان الرومى، وحُسنُ مآب(٢٤٦).

وكان ﷺ يدعو للمستضعفين أن يفرج الله عنهم وييسر لهم الهجرة، ففى الصحيحين: عن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده»،

عَنْ أَنَسٍ - نَحْوَهُ -، وَنَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ» قَالَ: وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ. صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، و٣/ ٤٠٠ حديث صهيب وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقرَّه الذهبى، وفى سنده: يَعْقُوب بْن مُحَمد بْن عِيسَى الزهرى، وهو ممن يصلح للمتابعة، قال فيه الذهبى فى الميزان ٤/ ٤٥٤: مشهور مُكثر، وقال ابن حجر فى هدى السارى ص٤٥٩: ضعفه الجمهور، وقال الحاكم وحده: ثقة مأمون، علق له البخاري موضعا واحدا في حد جزيرة العرب، وقال ابن معين: صدوق؛ ولكن لا يبالي عمن حدث، وقال مرة: أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي، عن حُصَيْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ صُهَيْبٍ: ذكره ابن حبان فى الثقات ٨/ ٢٠٨، ولم يذكر البخارى فيه جرحًا. التاريخ الكبير ٣/ ١٠، وقال أبو حاتم: مجهول. الجرح والتعديل ٣/ ١٩١، ومن عمومة حصين بن حذيفة بن صيفى: زياد بن صيفي، ويقال يزيد بن صيفي: ذكره ابن حبان فى الثقات وروى له ابن ماجة، قال ابن حجر: صدوق، وذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحا. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٧٤، والتقريب ص٢٢٠، و«أُسْكُفَّةِ الْبَابِ»: خشبتة الطويلة المغروسة فى الأرض ليتحرك بها الباب.

(٢٤٦) للاستزادة من أخبار صهيب الرومى، انظر: الإصابة ٣/ ٣٦٤: ٣٦٦، وطبقات ابن سعد ٣/ ٢٢٦، وأسد الغابة ٣/ ٣٠، والاستيعاب «على هامش الإصابة» ٢/ ١٧٤، وصفة الصفوة ١/ ١٦٩، والبداية والنهاية ٧/ ٣١٨، ٣١٩، وصور من حياة الصحابة ص١٩٥ :٢٠٢.

ثم قبل أن يسجد قال: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَام، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ...»(٢٤٧).

وبهذا أصبحت الهجرة فى مجال الفرض والواجب، فكان كل من أسلم يجب عليه أن يبذل جهده قدر استطاعته فى الهجرة، فإن لم يستطع كان ممن عذرهم الله تعالى.

العِفَّةُ والإِيثَارُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار

وقد بلغ كرم الأنصار حدًا عاليًا عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين، لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين فى التمر(٢٥٦).

سواءٌ أكانت الشركةُ فى التمرِ محددةً بنسبةٍ معينةٍ؛ كالمناصفة، أم كانت إعانةً من الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإعالةً لهم فى تلك الفترة، والظاهر: أن رسول الله ﷺ لم يُرِد أن يشغل المهاجرين بالزراعة لقلة خبرتهم فى هذا المجال، وذلك حتى لا يؤدى إلى خفض الإنتاج وضعف الاقتصاد، كما أنه ﷺ يحتاج المهاجرين فى مهام الدعوة والجهاد فى تأسيس الدولة الفَتِيَّة(٢٥٧).

---

(٢٤٧) الحديث متفق عليه، واللفظ المذكور فى صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب القنوت ٢/ ٢٨٤، وفى باب: يهوِى بالتكبير حين يسجد ٢/ ٢٩٠، وفى مواطن أخرى من الصحيح، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت فى جميع الصلوات ٥/ ١٧٦ : ١٧٨ شرح النووى.

(٢٥٦) صحيح البخارى ٥/ ٨ ح٢٣٥٢.

(٢٥٧) ينظر: فتح البارى ٥/ ٥٢٤.

كما وهبت الأنصارُ لرسول الله ﷺ كل فضل فى حظها، وقالوا له: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيرًا، وابتنى لأصحابه فى أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكًا لأحد، وهكذا: لم يبخل الأنصار بشىء من العون؛ بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد فى كتاب الله العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩](٢٥٨).

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة فى نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بالثناء على الأنصار والدعاءِ لهم لما بذلوه من جود وكرم، فعن أنس قال: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلا أَحْسَنَ بَذْلاً فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، قَالَ ﷺ: «لا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَهُمْ»(٢٥٩).

ومن النماذج الفريدة لهذا الإيثار الذى يُصَوِّر عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة وتفانيهم فى تنفيذه، ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد (واللفظ له)، من حديث أنس بن مالك: أَنَّ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَيْ أَخِي! أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالاً؛ فَانْظُرْ شَطْرَ مَالِي فَخُذْهُ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ؛ فَانْظُرْ أَيَّتُهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا، فَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى

(٢٥٨) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠.

(٢٥٩) جامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٤٤، ج٤ ص٥٦٣ ح٢٤٨٧ وقال أبو عيسى: حديثٌ صحيح حسن غريب، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٠٠، ٢٠٤، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٠٠، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٣٢٨.

السُّوقِ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ، فَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ رَدْعُ – أى: أثر – زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْيَمْ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَصْدَقْتَهَا؟» قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ» قَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَلَوْ رَفَعْتُ حَجَرًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً(٢٦٠).

وهكذا: طابت نفوس الأنصار بما بذلوه لإخوانهم المهاجرين من عون؛ فاستحقوا مدح اللهِ لهم وثناءه عليهم فى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

وقد قابل المهاجرون هذا الإيثار بالعفة والكدح، فى طلب العيش وتحصيل الرزق، فلم يكن مسلك عبدالرحمن بن عوف متفردًا؛ بل إن كثيرين من المهاجرين كان مُكْثُهُم يسيرًا فى بيوت إخوانهم من الأنصار، ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتًا لأنفسهم وتكفلوا بنفقات أهليهم وذويهم.

ومما لا شك فيه: أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل الذى لا نشهد له مثيلاً فى تواريخ الأمم الأخرى.

---

(٢٦٠) حديث أنس، فى: صحيح البخارى فى أحد عشر موضعًا، أولها برقم ٢٠٤٩، وصحيح مسلم ح١٤٢٧، وجامع الترمذى ح١٠٩٤، وسنن ابن ماجه ح١٩٠٧، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٧١ ح١٣٨٦٣ (واللفظ له)، ونحوه عند البخارى ح٢٠٤٨ عن عبدالرحمن بن عوف.

وليس موقف ابن عوف فى أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه: بأقل روعة من إيثار سعد بن الربيع، فقد تمكن عبدالرحمن – وهو التاجر الماهر- من شق طريقه فى الحياة الجديدة، وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج، ودفع المهر نواة من ذهب(٢٦١).

ثم بارك الله له فى سعيه؛ فَنَمَتْ ثروتُهُ، وصار من كبارِ أغنياء المسلمين؛ حيثُ أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التى تعطى ولا تأخذ.

إن كرم الأنصار وسخاءهم الكبير، قابله عفةٌ وكرمُ نفسٍ من المهاجرين قلما نجد له نظيرًا، فهم لم يتركوا أموالهم فى مكة على أمل تعويضها من أموال إخوانِهم الأنصار، وإنما تركوها فى سبيل عقيدتهم، وإذا ألجأتهم الحاجة فى هذه الفترة فقد كانوا يقتصرون على ما يقيم أَوَدَهُم.

وقد سبق أن عمر بن الخطاب خرج بأمواله أيضًا، وذلك فى قصة هجرته مع عياش بن أبى ربيعة، حيث قال لعياش – حين جاءه أبو جهلٍ يقنعه بالعودة إلى مكة رحمةً بأمه-: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالى ولا تذهب، وهذا يعنى: أن عمر قد خرج بماله، وإلا فكيف يَعِدُ عياشًا بنصف ماله إن لم يكن قد خرج به؟ وعمر كان تاجرًا، وقد مارس تجارته بعد وصوله إلى المدينة، وكذلك أبو بكرٍ قد حمل معه عند هجرته ثروته التى كانت تقدر بنحو ستة آلاف درهم، وكان تاجرًا أيضاً(٢٦٢).

وكذلك حمل عثمان جميع أمواله معه، وأن عثمان بن مظعون قد خرج بماله، فقد أخرج ابن سعد: أنَّ امرأة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبى ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: مالك؟ فما فى قريش أغنى من بعلك، فقالت: ما لنا منه شيء! أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم،

---

(٢٦١) البخارى ح٥١٤٨، ٥١٥٥، فتح البارى ٩/٢٠٤، ٢٢١.

(٢٦٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٧٥ وراجع ما تقدم، تحت عنوان: «تَنَاصُحُ المُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» وعنوان: «ليلة الهجرة».

فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه فقال: «يا عثمانُ بنَ مظعونٍ! أما لك بي أسوة؟» فقال: يا رسول الله! بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: «تصوم النهار وتقوم الليل؟» قال: إني لأفعل، قال: «لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسدك حقًا، وإن لأهلك حقًا، فصلي ونم، وصم وأفطر» فأتتهن بعد ذلك عَطِرةً كأنها عروس، فقلن لها: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

وهذا يعنى: أن عثمان بن مظعون، قد خرج بأمواله؛ لأن الفترة التى عاشها فى المدينة كانت قليلة، لا يتمكن فيها من كسب الأموال التى تجعله من الأغنياء؛ حيث توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة(٢٦٣).

ولا شك أن غيرهم أيضًا من المهاجرين قد استطاع أن يحمل ماله أو بعض ماله فتكفَّل بنفقات نفسه وعياله دون أن يكلف أحدًا من الأنصار شيئًا؛ بل ربما ساهم فى نفقات بعض إخوانه من المهاجرين والفقراء كأهل الصُّفَّةِ؛ لأن العقيدة الإسلامية قد منعت ظهور الصراع الطبقى بين أفراد المجتمع الإسلامى، بالمؤاخاة بين الأغنياء والفقراء، وتوحيد الصف الداخلى لمواجهة متطلبات الجهاد، فكانوا جميعًا فى صفٍّ واحدٍ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة](٢٦٤).

ولما أَلِفَ المهاجرون جوَ المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم... رجع التوارث إلى وضعه الطبيعى المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس

---

(٢٦٣) فتح البارى ١٢/٤١١، وسنده عند ابن سعد صحيحٌ؛ لكنه مرسل، وللحديث شواهد مشهورة صحيحة.

(٢٦٤) الطبقات الكبرى ١/٢٥٥، تفسير الطبرى ٥/٢٩١ تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

الفروض المذكورة في كتاب الله تعالى للأصول والفروع والحواشي والزوجية والوصية بذوي الأرحام؛ فأُبْطِلَ التوارث بين المتآخين؛ لأنه كان قد شُرِعَ لمعالجة ظروف استثنائية كانت تمر بها الدولة الناشئة، وذكر ابن سعد أن ذلك الإلغاء كان بعد غزوة بدر، بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥](٢٦٥).

فهذه الآية نسخت التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي كان ثابتًا بموجب المؤاخاة في عهد النبوة أول الهجرة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: ٣٣]، قَالَ: «وَرَثَةً»: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ -قراءة العشرة سوى الكوفيين- قَالَ: «كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ، يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: ٣٣] نَسَخَتْ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ «إِلَّا النَّصْرَ، وَالرِّفَادَةَ، وَالنَّصِيحَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ»(٢٦٦).

فيرى ابن عباس أن آية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، نسخت التوارثَ بالمؤاخاة، فالموالى فى رأيه

(٢٦٥) وانظر تفسير الآية، فى: فتح القدير للشوكانى ٢/ ٣٣٠، ٣٣١، وما ورد فى سبب نزولها عند الطيالسى فى مسنده: منحة المعبود ١٩/٢ ح١٩٥٢، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٨/٧، ويراجع: الطبقات الكبرى ١ /٢/ ٩، وأنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، ٢٧١، وزاد المعاد ٧٩/٢، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص٢٦٠.

(٢٦٦) صحيح البخارى: كتاب الكفالة/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ٩٥/٣ ح٢٢٩٢ واللفظ له، وفي كتاب التفسير/ بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ٤٤/٦ ح٤٥٨٠، وفي كتاب الفرائض/ بَابُ ذَوِي الأَرْحَامِ ١٥٣/٨ ح٦٧٤٧، وانظر: (المؤاخاة في عهد النبوة) في هذا الكتاب ١٩٢/٢ ط٥.

هم الورثة بالرحم: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة، وذكر ابن عباس أن ما أُلْغِيَ من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصرة والرفادة والنصيحة: فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخِيَن.

وصفوة القول: أن المؤاخاة التى شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبُوسعُ المؤمنين فى كل عصر أن يتآخَوْا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين.

الإِسلامُ وتَربِيَتُهُ لأمثَلِ مُجتَمَعٍ وإقَامَتُهُ لأكملِ دَولَةٍ فِى التعَامُلِ مَعَ الغَيرِ

إن الذي أمر نبيه ﷺ في مكة أن يقول للكافرين: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون] هو الذي أوحى إليه في المدينة أن يعقد عهدا مع اليهود وكتب فيه: «لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم» لأنه سبحانه يعلمُ بحكمته: أن الإكراه على الدخول فى الإسلام قد يثمر نفاقا؛ فيكون الجزاء كما قال جلَّ وعلا:﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾.

وقد ينتفع به صاحبه؛ فيكون جزاؤه الجنة فى الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ» ويكون فى الدنيا من خير الناس، كما قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قَالَ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كتابًا بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، وادعَ فيهِ يهودَ

وعاهدهم وأقرَّهُم عَلَى دِينِهِم وَأَمْوَالِهِم وَشَرَطَ لَهُم وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ... لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم مَوَالِيهِم وَأَنْفُسُهُمْ إلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إلا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ(٢٧٦).

وبهذه المعاهدة أصبحت المدينة المنورة دارَ إسلام، وصار مَن فيها من اليهود أهل ذمة وعهد؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فيحرم إيذاؤهم أو الاعتداء عليهم أو قتلهم... ونحو ذلك؛ إلا بحق ماداموا ملتزمين بالعهد مستمسكين بما فيه، وعلى كل مسلم أن يرعى لهم ذلك، ومن خالف: فقد استحق الوعيد الوارد فى قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا: لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ؛ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أخرجه البخارى(*).

فأمثال هؤلاء: لهم حق الأخوة في المواطنة والأخوة في القوميات؛ لأنهم جميعا يعيشون في وطن واحد تحت حكم الإسلام وإن لم يؤمنوا به؛ وقد ذكر ذلك ربنا في كلامه عن كثيرين من أنبيائه ورسله مع أقوامهم، كنوح وهود وصالح ولوط، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

وشعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أُرسل إلى قومه في مدين؛ أطلق عليه أنه أخ لهم كذلك؛ كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف:٨٥] و[هود:٨٤] و[العنكبوت:٣٦].

---

(٢٧٦) الحديث المرفوع: ﴿عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ﴾ فى صحيح البخارى ح٣٠١٠، وسنن أبى داود ح٢٦٧٧ واللفظ له، والحديث الموقوف من كلام أبى هريرة: فى صحيح البخارى ح٤٥٥٧، له حكم الرفع؛ لأنه ليس للرأى مجال فيه، وكلام ابن إسحاق فى: السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠١: ٥٠٣، وعيون الأثر ١/٣١٨، ٣١٩، والبداية والنهاية ٣/٢٢٤، ٢٢٥، ومعنى: (يُوتِغ): يُهلِك.

(*) سبق تفصيل تخريجه فى الهامش رقم ٦٠ من الجزء الثاني من هذا الكتاب (المعين الرائق من سيرة خير الخلائق ﷺ).

وحينما أُرسل إلى أصحاب الأيكة: لم يوصف بهذا الوصف لأنه ليس من بلدهم؛ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء].

فلفظ الأخ مذكرًا ومؤنثًا ومفردًا ومثنًا ومجموعًا: الأصل فيه هو الأخوة في النسب أو الرضاعة، ثم توسع فية وأطلق على كل من تجمع بينهم صفة أو أكثر كالدين و الهدف والمصير... ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧].

والمنافقون الذين يعلنون الإسلام ويخفون الكفر؛ هم إخوان للكافرين المعادين للإسلام وأهله، كما قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ [الحشر:١١].

وكذلك الكافرون إخوان للمنافقين؛ لاجتماعهم علي الكيد للإسلام والتثبيط للمسلمين، قال تباركت أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهؤلاء وأولئك لن تثبت لهم الأخوة في الدين إلا باعتناقهم الإسلام والانقياد لتشريعاته، قال سبحانه: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التوبة].

والأخوة في الدين: هي الأخوة الحقة التي تعلو علي كل ماسواها من القوميات والأوطان... وغير ذلك؛ بل إنها ترتفع فوق النسب وإن كانت لا تنفيه.

قال فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى فيما هو مسجل عنه بالصوت والصورة:

«يجب أن نستعيذ بالله من أن نصنع تصرفًا يرضى عنا اليهود أو النصارى؛ لأن معنى أنى أتصرف تصرفا يرضى اليهود والنصارى: فإننى بحكم الله أكون قد تبعت ملتهم، لأنه قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، فنعوذ بالله أن نكون منهم محل الرضا.

ويجب أن تفرقوا بين الرضا وبين التعايش، فهناك فرق بين الرضا وبين التعايش، لأن التعايش يقتضيك أن تتحمل فعل قَالَب ولكن لا بحب قلب، والرضا: أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، ولذلك كان عهده ﷺ مع اليهود: لا رضا من اليهود عليه، ولا رضا منه على اليهود، وإنما كان تعايشا فقط، لأنه ما كان لرسول الله أن يفعل فعلا ترضى به اليهود، ولأنه إن رضيت اليهود عن واحد: فليعلم بأنه فارق ملة الله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

إذا: يجب أن نفرق بين الرضا وبين التعايش، فالرضا أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، وقد تقبل فعل القالب تعايشا لا حُبًّا، ولذلك يجب أن تتنبهوا إلى أننا قلنا سابقا: إن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فى شأن الولد مع والديه: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، فهذا هو التعايش مع الأبوين، فالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فإنك تصنعه مع من تحب، وإياكم أن تفهموا كما يقول بعض المستشرقين: إن فى بعض الآيات القرآنية تعارضًا، والذى يجعل المسلمين يغفلون عنه أنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة، ولولا هذه القداسة لأمكنهم أن يستقبلوا آيات من القرآن فيها تعارض، وجاء بهذه الآية: وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ثم جاء بالآية الأخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ

ﭐللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ [المجادلة:٢٢]، ثم يقول: ها هو ذا القرآن يقول ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ فنقول له: يا غبى! افهم أن الصحبة بالمعروف غير الود بالقلب، الصحبة بالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فتصنعه مع من تحب، فاصنع مع أبيك المعروف تعايشًا وقلبك غير راض.

إذا: فالرسول ﷺ حين عاهد اليهود أو عاهد غيرَهم: لم يكن عن رضًا قلبى، وإنما هو تعايش كما اقتضت الظروف، والإنسان المؤمن يستعيذ بالله أن يكون محل الرضا من هؤلاء أبدًا، فالحق سبحانه يقول كلامًا لا يُنقَض: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، فنعوذ بالله أن يرضوا عنا، وليس هناك مانع إذا أرادوا التعايش: فنتعايش، فافهموا بِدِقَّة».

وقال فى اجتماع مع كبار القساوسة فى مصر مجيبًا على قول أحدهم: الدين لله والوطن للجميع: «لا، بل كل وطن لا دين فيه؛ لا تعتز بوطنيتك له، لازم منهج، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مادمتُ مستضعفًا فى الأرض فلا تُسمَّى -الأرض- وطني ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ ابحث عن مكان آخر، أما الوطن الذى لا أستطيع أن أقيم فيه أمر لله: افعل ولا تفعل: فلا أعتز به» ثم سُئِل عن أثر زيارته لهم، فقال: «إن شاء الله ترونها فيما بعد؛ لأن الأثر لا يكون ساعة الحدث، وإنما يكون بعده». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضى عنه.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما قال: فما خرج النبى ﷺ وأصحابه مهاجرين من مكة إلا طلبًا لمكان آمن، وبحثًا عن أرض جديدة يتمكنون فيها من إقامة دين الله فى الأرض.

وهذا الفهم الجيد من هؤلاء الأئمة الكرام: ينبغي أن يوضع في سويداء قلب كل مسلم؛ لأنه قد يتزوج من الكتابية؛ فيصير أهلها أصهارًا له وأقارب لذريتة، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

ولا ينبغى لمؤمن أن يُصغِىَ إلى مَن يُشكك فى فهم النصوص الشرعية قائلاً: كيف يُبيحُ للمسلم التزويج من الكتابية؛ ثم ينهاه عن حبها؟!

لأن إباحة تزويجه يكون عند الحاجة، وهى تُقدَّر بقدرها، ولا شك أن اختيار الزوجة المؤمنة هو خير من تلك الكتابية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

ثم إن الحُرَّة المؤمنة بلا ريب خير من الأَمَةِ المؤمنة التى يُباح التزوج بها فى حال الضرورة فقط، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء].

ولا ننسى حالة التعايش التى وضَّحها قريبًا فضيلة الشيخ الشعراوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليس فى هذا حَيفٌ ولا ظلم للزوجة كائنةً مَن كانت؛ لما ثبت عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: يَعْنِي الْقَلْبَ(٢٧٧).

فالجَوْرُ المنهى عنه يكون فى القِسمة أو العِشرة أو المطعم أو الكسوة، أما فى ميل القلب إلى إحدى الزوجتين أكثر من الأخرى فلا مؤاخذةَ فيه إن وقع، والله أعلم.

وهكذا: أحدثَ الإسلام بعقيدته وشريعته تغيُّرًا حقيقيًا فى حياة الفرد والمجتمع فى المدينة المنورة؛ لِمَا تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياةَ كلَّها بصبغته: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

---

(٢٧٧) سنن أبى داود: كِتَاب النِّكَاحِ/ بَابٌ فِي الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ ٢/٢٤٢ ح٢١٣٤، قال الخطابى: «المكروهُ مِن الميل هو ميلُ العِشْرة الذي يكون معه بخسُ الحق، دونَ ميلِ القلوب، فإن القلوب لا تُملَك». معالم السنن ٣/٢١٨، ٢١٩، والحديث بسند أبى داود أخرجه: الحاكم فى المستدرك ٢/٢٠٤ ح٢٧٦١ وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقره الذهبى، وهو كما قال الحاكم؛ لكن حماد بن سلمة خالف فيه مَن هو أوثق منه وأحفظ وهو حماد بن زيد وغيره الذين رووا الحديث إلى أبى قلابة مرسلاً، كما قال الترمذى بعد إخراجه الحديث رقم١١٤٠ فى جامعه: «حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَرَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ مُرْسَلاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ». كما أن نسبة عبدالله بن يزيد إلى الخطمى خطأ كذلك؛ لأنه لا تعرف له رواية عن عائشة، ولا يعرف أن أبا قلابة قد روى عنه، وأما الراوي عن عائشة، فإنما هو عبد الله بن يزيد رضيع عائشة، وهو الذي روى عنه أبو قلابة، وقد ذكر الحافظُ وشيخُه المزي هذا الحديث في ترجمته، والله أعلم.

لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزْوَاتِ

قد فصَّلَ القرآن الكريم أحداثًا كثيرةً فى بعض الغزوات كغزوة بدر فى سورة الأنفال، وغزوة أحد وما تبعها من وقائع فى سورة آل عمران، وغزوة الخندق وإجلاء يهود بنى قريظة فى سورة الأحزاب، وإخراج يهود بنى النضير وخذلان مَن عاونهم من إخوانهم المنافقين فى سورة الحشر.. وأحداثًا أخرى تُذكر فى حينها فى آيات متفرقة فى أكثر من سورة كما وقع مع يهود بنى قينقاع ومَن عاونهم من المنافقين فى الآيات: ١٢ و١٣ من سورة آل عمران، والآيات٥١: ٥٦ من سورة المائدة، وبحمد الله كان النصر فيها للمؤمنين والعاقبة للمتقين.

تَمحِيصٌ للمُؤمنينَ فى بَدرٍ وأُحُد

وذلك كلُّه كان بعد الاختبار والابتلاء الذى كشف عن معادن الرجال؛ فظهر به النفيس من الخسيس، وامتاز به الطيب من الخبيث، ومن ذلك: غزوة بدرٍ الكبرى التى وقعت أحداثها فى يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثانى من الهجرة، وقد سمى الله يومها: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المؤمنين والمشركين، ومن الملائكة والشياطين، حيث كان التمحيصُ للمسلمين فى أبدانهم باختيار الجهاد لهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الانفال]، وكذلك كان التمحيص فى نفوسهم وقلوبهم بالغنائم؛ وقبول حكم رسول الله ﷺ فيها حين رغبوا فى أخذ الفداء من الأسرى، قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال].

فَيَومُ بَدرٍ أَحَدُ الأَيَّامِ ❁❁ مِن رَمَضَانَ مَوسِمِ الصِّيَام
وَمَا تَزَالُ النَّاسُ تُحْيِي الذِّكْرَا ❁❁ بِهِ وَفِيهِ يَذْكُرُونَ النَّصْرَا
وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي جَمَاعَة ❁❁ يَطلُبُ تِلْكَ العِيرَ وَالبِضَاعَة
لَكِنَّهُ جَاءَ الصَّرِيخُ المُنْذِر ❁❁ يَقُولُ يَا قُرَيشُ هَلَّا تَنفِرُوا
وَخَرجُوا بِالقَضِّ وَالقَضِيضِ ❁❁ فِي طُولِ فَخْرِهِمُ وَفِي العَرِيض
وَاجتَمَعُوا فِي بَدرٍ لِلقِتَال ❁❁ زِهَاءَ أَلفٍ فِي جَمِيلِ حَال
وَجَيْشُنَا كَانَ قَلِيلاً عَدَدُه ❁❁ ثُلْثُ لِأَلفٍ نَاقِصَاتٌ عُدَدُهْ
وَالتَحَمَ القِتَالُ بينَ المُسلِمِين ❁❁ وَالمُشرِكِينَ وَانْجَلَى الحَقُّ اليَقِين
فَمِنْ قُرَيشٍ قُتِلَ سَبْعُونَا ❁❁ يَا وَيْلَهُمْ وَأُسِر سَبْعُونَا
وَمِنهُمُ الذِينَ آذَوا أَحْمَدَا ❁❁ فِي المَسجِدِ الحَرَامِ يَومَ سَجَدَا
وَوَضَعُوا عَلَيهِ مِنْ فَرَثِ الجَزُورْ ❁❁ وَمَكَرُوا وَالمَكْرُ كُلُّهُ يَبُورْ
وَجَمَعَ القُتَلاءَ فِي القَلِيبِ ❁❁ لِكَيْ يَذُوقُوا أَلَمَ التَّأنِيبِ
وَفُدِيَ الأَسْرَى بِالأمْوَالِ ❁❁ وَهَكَذَا نَتِيجَةُ القِتَالِ
وَفِي المُفَادَاةِ خِلافٌ قَد جَرَى ❁❁ وَأَيَّدَ القُرآنُ فِيهِ عُمَرَا
وَيَوْمُ بَدرٍ ظَهَرَ الإِسلَامُ ❁❁ وَهَزَمَ البَاطِلَ وَالأَصْنَام
وَالقَائِدُ العَظِيمُ مَهمَا انتَصرَا ❁❁ لَا يَتْبَعُ الجَيشَ إِذَا مَا انْكَسَرَا
وَرُبَّمَا يُعَامِلُ الجَرِيحَا ❁❁ بِغَيْرِ مَا يُعَامِلُ الصَّحِيحَا
وَصَارَتِ الأَحْكَامُ حِينًا بَعدَ حِينْ ❁❁ تُشْرَعُ لِلإِسْلاَمِ فِي العَشرِ السِّنِين
حَتَّى أَتَمَّ اللهُ أَمْرَ الدِّينْ ❁❁ قَبْلَ وَفَاةِ المُصطَفَى الأَمِينْ

وكذلك كان الابتلاء والتمحيص للمؤمنين أشد وأنكى فى غزوة أحد التى وقعت في يوم السبت منتصف شهر شوال من العام الثالث للهجرة؛ حيث وصل إلى المدينة نحو ثلاثة آلاف من المشركين بزعامة أبى سفيان يريدون محق النبى ﷺ وأصحابِهِ انتقامًا للسبعين الذين قُتلوا منهم فى بدر، وقد كان على قيادة خيلهم: خالد بن الوليد؛ الذى اهتبل فرصة نزول الرماة عن الجبل لجمع الغنائم مخالفين وصية رسول الله ﷺ لهم: أن لا يبرحوا أماكنهم؛ سواء انتصر الجيش أو هزم، فاستدار خالد بخيل المشركين، وبغت المسلمين وأربك صفوفهم؛ حتى قُتل سبعون من المسلمين، فضلا عمن جرح وأصيب، وأُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ونزل فى بيان ذلك نحو ستين آية من سورة آل عمران من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩ منها قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران]، ثم أدب الله المؤمنين الذين ما زال فى قلوبهم حب الدنيا؛ حتى لا يعودوا لمخالفة أمر

رسول الله ﷺ مهما كان الثمن؛ بعد أن اتخذ من خيرتهم وصفوتهم سبعين شهيدًا، وذلك جلي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران].

أخرج البخاري من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ – أي: الرُّماة– يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً، عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ –البراء–: فَأَنَا وَاللهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْدُدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ ابْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابَ مِنَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِئَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلاً، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ –أبو سفيان–: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ،

وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى، وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

وقد سبق فى سيرة خير البرية ﷺ أكثرَ من مثال للمقارنة بين ما كان عليه الجاهليون من أخلاق عُليا؛ وبين ما فيه المعاصرون من تسفُّل وسفه على الرغم من تحضرهم المزعوم، فهذا زعيم المشركين فى الحرب (أبو سفيان) يعتذر عما صنعته امرأته والنسوة اللائى كن معها من تمثيل بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ يُقَطِّعنَ الآذان وَيُجَدِّعنَ الأُنُوف، وبقَرَت هند بنت عتبة بطن سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب واستخرجت كبده ولاَكَتْهُ بأضراسها ثم لَفظته... فقال أبو سفيان: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا..» وكل مطالع لهذه السيرة أخبرُ منى وأبصر بما يفعله بعض المسلمين بإخوانهم فى هذا الزمان، فالله المستعان(٢٨٠).

وَبَعْدَ عَامٍ غَزْوَةٌ فِي أُحُدِ ❁❁ ثَعَالِبُ تَغْزُو عَرِينَ الأَسَدِ
صَخْرُبنُ حَرْبٍ فِي جُيُوشِ الكُفْرِ ❁❁ جَاءَ لِمَحْوِ العَارِيَومَ بَدْرِ
وَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ ❁❁ وَبَعْضُهُم فِي الرَّأْيِ ضِدُّ بَعْضِ
فَابْنُ أُبَيٍّ صَاحِبُ النِّفَاقِ ❁❁ يدعُو إِلَى الفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ

---

(٢٨٠) الحديث فى صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالاِخْتِلاَفِ فِي الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ ح٣٠٣٩ واللفظ له، وبنحوه مختصرًا ح٣٩٨٦، وح٤٠٦١، وح٤٠٦٧، ومسند الإمام أحمد ح١٨٥٩٣. وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٩١/٢، ٩٢، وراجع فى هذا الجزء: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ»، وبعد الهامش رقم ٢٣٠ فى عنوان: «ليلة الهجرة».

وَالأَمْـرُ جَـاءَ لِأَخِـي خَـوَاتِ(*) ❁❁ أَنْ يُلْـزِمَ الـرُّمَــاةِ بالـثَّبَـاتِ
لَكِنَّهُـم لَمَّـا رَأَوْا الـهَـزِيمَــهْ ❁❁ قَـالُوا لِمَاذَا نَتْرُكُ الغَنِيمَـهْ
وَخَـالَـفُـوا أَمْـرَ أَمِيرِهِــمْ ❁❁ فَمَكَّنُـوا الأَعْـدَاءَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ
وَصَـمَــدَ النَّبِـيُّ فِي القِـتَـال ❁❁ وَحَـوْلَــهُ جَمَـاعَـةُ الأَبْطَـال
مِـثْـلُ أَبِي دُجَـانَــةَ المِـغْـوَار ❁❁ مِنَ المُـهَـاجِرِينَ وَالأَنْـصَــار
وَخَـاضَـتِ النِّسَاءُ تِلْكَ المَعْرَكَة ❁❁ وَاشْـتَـرَكَـتْ نَسِيبَةٌ فِي الحَرَكَة
وخُضِّـبَ النَّـبِـيُّ بِـالـدِّمَــاء ❁❁ وَغَـسَـلَـتْـهَــا ابنَـتُـهُ بِـالمَــاء
أَكْـرِمْ بِـهَــا فَـاطِمَـةَ الـزَّهْـرَاءَ ❁❁ مَـا أَحْـسَـنَ الطَـبِـيـبَ وَالدَّوَاءَ
وَحَـمْـزَةٌ وَمُـصْـعَـبٌ فِي سَبْعِين ❁❁ قَدْ قُتِلُوا مِنَ الرِّجَالِ المُؤْمِنِين
قَـالَ أَبُو سُـفيَان فَلْيَعْلُ هُبَلْ ❁❁ فَـقِيـلَ إِنَّ اللهَ أَعْـلَى وَأَجَــلْ
قَـالَ لَنَـا العُـزَّى وَلَا عُزَّى لَكُـمْ ❁❁ قَـالُـوا لَنَـا المَوْلَى وَلَا مَوْلَى لَكُمْ
وَقِـيـلَ إِنَّـهُـم سَـيَـغْـزُونَ البَلَدْ ❁❁ وَسَـارَ بَعْدَهُم إِلَى حَمْرَا الأَسَد
جَـمَـاعَـةٌ يَـقُـودُهُـمْ مُـحَـمَّـدُ ❁❁ لِـيَأخُـذُوا بِالثَّأرِ أَوْ يُسْتَشْهَدُوا
وَنَـزَلَ الـقُـرَآنُ فِـيـهِــم يُـتْـلَى ❁❁ وَمِثْلُـهُـم لَا يَـرْهَـبُـونَ الـقَـتْـلَ

وأذكر هنا بعض النماذج المُثلَى فى الغزوتين تجسد ما كان عليه الصحابة من قيم، وتبرهنُ على صدقهم فى الطاعة والحب لله ولرسوله:

- فهذا أبو عبيدة بن الجراح؛ الذى قال فيه عمر بن الخطاب حين رأى عيشَه الخشن: «كلنا غَيَّرَتْهُ الدنيا غَيْرَكَ يا أبا عبيدة» قيل: اسمه عامر بن عبدالله بن هلال القرشى، هو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، كان إسلامه هو وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب،

(*) أخو خوات بن جبير هو: عبدالله بن جبير الأنصاري شهد العقبة وبدرًا، واستشهد بِأُحُد مع الرماة العشرة الذين ثبتوا معه ولم يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم.

وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد في ساعةٍ واحدةٍ قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، شهد بدرًا، وأُحدًا، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وأبو عبيدة هو الذي انتزع حلقتى المِغْفَر من وجه رسول الله ﷺ يومَ أحدٍ، فسقطت ثنيتاه من ذلك، توفى في طاعون عمواس سنة ثمانٍ عشرة من الهجرة، عن أنس بن مالك، ونحوه، عن حذيفة، أن رسول ﷺ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ» متفق عليه، واللفظ للبخارى، وهذا الصحابى مع فضله ومكانته! انظر ماذا صنع بأبيه المشرك لما حارب الله ورسوله، ففى المعجم الكبير للطبرانى بسند جيد: أن والد أبي عبيدة ابن الجراح كان يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر: قَصَدَهُ أبو عبيدةَ فقتَلَهُ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة][٢٨١].

- وهذا أبو حذيفةَ؛ صحابى جليل مشهورٌ بكنيته، مختلفٌ فى اسمه، وهو ابن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبدمناف القرشى: كان من فضلاء الصحابة، جمع الله له الشرف والفضل، فكان

---

(٢٨١) ترجمة أبى عبيدة، فى: المعجم الكبير للطبراني ١/ ١٥٤، ١٥٥ ح٣٦٠، وحلية الأولياء ١/ ١٠٠: ١٠٢، وأسد الغابة ٦/ ٢٠٥، ٢٠٦، والإصابة ٣/ ٤٧٥: ٤٧٨، و٧/ ٢٢٥، والحديث المتفق عليه، فى: صحيح البخاري ح٤٣٨٠: ٤٣٨٢، وصحيح مسلم ح٢٤٢٠، ٢٤١٩، ومسند الإمام أحمد ٣/ ١٨٩، ٢٤٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٦/ ٢١٠، ٣٧١.

من السابقين، وأسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة وأربعين إنسانًا، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عباد بن بشر الأنصاري، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقُتِل يوم اليمامة شهيدًا، عن بضعٍ وخمسين سنة، تأمل موقفه من أبيه الذى قُتِل ودُفن فى قَلِيبِ بدر! قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما أُلْقُوا- يعني قتلى المشركين- يوم بدر، وقف رسول الله ﷺ عليهم وقال: «يا عتبة، ويا شيبة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل - يعدد كل من فى القليب - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؛ فقد وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» وقال ابن إسحاق: وحدثنى حُميد الطويل، عن أنس... فذكره بأطول منه، وقال ابن إسحاق: فبلغني أن رسول الله ﷺ نظر عند مقالته هذه في وجه أبى حذيفة بن عتبة فرآه كئيبًا قد تغير، فقال رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟» قال: لا، واللهِ ما شككتُ في أبى ولا في مصرعه، ولكنى كنت أَعرِفُ من أَبِى رأيًا وحِلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يُقَرِّبَه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابَه وذكرتُ ما مات عليه مِن الكُفرِ بعد الذى كنتُ أرجو له، حزننى ذلك، فدعا رسول الله ﷺ لأبى حذيفة بخير، وقال له خيرًا(٢٨٢).

- وهذا أبو عزيز بن عمير؛ شقيقُ: مصعب بن عمير، يقع فى الأسر يوم بدرٍ، فلعلك تَعَجب ماذا صنع به أخوه مع الذى أسره؟! قال ابن إسحاق: وحدثنى ابن وهب أخو بنى عبدالدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال ﷺ: «استوصوا بهم خيرًا»، وكان أبو عزيز- واسمه: زرارة- بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، أخو مصعب بن عمير لأبيه

---

(٢٨٢) ترجمة أبى حذيفة، فى: الإصابة ٧/ ٧٤، وأسد الغابة٦/ ٧١، ٧٢، والحديث مطولاً فى: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٨: ٦٤١، وحديث أنس مطولاً ومختصرًا ح٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٣/ ١٠٤ ح١٢٠٢٠، و٣/ ١٤٥ ح١٢٤٧١، و٣/ ١٨٢ ح١٢٨٧٣، و٣/ ٢٦٣ ح١٣٧٧٣، وعن أبى طلحة فى ٤/ ٢٩ ح١٦٣٥٦.

وأمه فى الأسرى، قال أبو عزيز: مَرَّ بِى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال: اشدد يديك به فإن أمه ذات متاعٍ لعلها تفديه منك... قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبى اليَسَرِ- وهو الذى أسره- ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخى! هذه وَصَاتُك بى؟!! فقال له مصعب: إنه أخى دونك، فسألتْ أُمُّه عن أغلى ما فُدِى به قُرَشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثتْ بأربعة آلاف درهم، ففدته بها، وقد أكرم الله أبا عزيزٍ بالإسلام بعد ذلك والصحبة لرسول الله ﷺ، وقد غلط من قال إنه قُتِلَ يوم أُحدٍ كافرًا، والحمد لله على ذلك(٢٨٣).

• وهذا مصعب بن عمير الذى كان معه لواء المسلمين فى غزوة أحد حتى استشهد بها، ثبت فى الصحيح من حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى، أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً- أى: ثوبًا- كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ؛ خَرَجَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاهُ؛ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ» أَوْ قَالَ: «أَلْقُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ الإِذْخِرِ» وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ: فَهُوَ يَهْدِبُهَا. أى: يجنيها ويستمتع بها، وهذا الحديث يدل على أن مصعب بن عمير كان متقشفًا زاهدًا بعدما كان مع أبويه أنعم غلام وأجوده ثوبًا؛ ولكنهم لم يجدوا لكفنه بعد موته إلا ثوبًا قصيرًا لا يستر جميع جسده، فإذا غطوا به رجليه ظهر رأسه، وإذا غطوا به رأسه ظهرت رجلاه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ شَيئًا مِن الإِذْخِرَ» وهو نباتٌ طيب الرائحة يضعه أهل مكة والمدينة فى

(٢٨٣) يُراجع: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٤٥، ٦٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣٠٦، ٣٠٧، والإصابة ٧/ ٢٢٨ ترجمة عزيز بن عمير، و٧/ ٣٨٠ ترجمة أبى اليَسَرِ الأنصارى، وللفائدة: راجع قصة حذيفة بن اليمان ١/ ٢٢١، ٢٢٠.

بيوتهم وقبورهم(*).

- وختام هذه النماذج: حنظلةُ غسيل الملائكة: هو ابن أبى عامر بن صيفي بن مالك، الأوسى الأنصاري، صحابي جليل كان حديث عهدٍ بالزواج، فسمع الدعوة للجهاد، فخرج مسرعًا دون أن يغتسل من الجنابة إلى غزوة أُحد، ثم استُشْهِدَ بها، فغسَلتة الملائكة، وأما أبوه الذي كان يُدْعَى في الجاهلية بالراهب: فقد حسد النبي ﷺ ولم يؤمن، وحضر غزوة أُحد مع المشركين فاستأذن حنظلةُ النبي ﷺ في قتل أبيه فنهاه ﷺ عن ذلك. وظل على كفره حتى مات بأرض الروم(٢٨٤).

وبهذا الأدب الربانى؛ والتقويم الإلهى، والتربية المُثْلَى... تركز الولاء والإخلاص فى قلوب أصحاب النبى ﷺ الذين اختارهم الله لرفقة نبيه ومؤازرته ونصرته... فترجمتْه جوارحهم عملاً وسلوكًا، وقد سردت سورة الأنفال جوانب عديدة من غزوة بدر، كما بينت سورة آل عمران مواقف كثيرة من غزوة أحد، والله أعلم.

وبهذا تحيا المبادئ التي يظن الناس أن أصحابها قد فنوا، لتأسيسها وترسيخ العقائد التي

(*) راجع ما تقدم فى هذا الجزء تحت عنوان: «أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير».

(٢٨٤) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «افْتَخَرَ الحَيَّانِ مِنَ الأَنْصَارِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، فَقَالَتِ الأَوْسُ: مِنَّا غَسِيلُ المَلَائِكَةِ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنِ اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتْهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الأَقْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيزَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَتِ الخَزْرَجِيُّونَ: مِنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا القُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَجْمَعْهُ غَيْرُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» مسند أبى يعلى ٣٢٩/٥ ح٢٩٥٣، وقال محققه: إسناده صحيح، ونحوه فى المعجم الكبير للطبراني ١٠/٤ ح٣٤٨٨ ترجمة ٣١٥: حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ الرَّاهِبِ الأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الأَوْسِيُّ غَسِيلُ المَلَائِكَةِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد/ كتاب المناقب، باب: فضل الأنصار ٤١/١٠ وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.

رواها أهلُها بدمائهم، وهم عند الله أحياء يرزقون فرحين مستبشرين: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

خَطَرُ النِّفَاقِ وَاليهُودِ عَلَى الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ

بعد أن أظهرت نتائج غزوة بدر جوانب عديدة من قوة المسلمين، وتأييد الله لهم: بدأ غرس النفاق يُخرِج شطأه ويشتد أزره لموالاتهم لشياطينهم من اليهود القاطنين معهم فى المدينة المنورة، وظلَّ ذلك المكر يتنامى ويتعاظم حتى وصل إلى جذوته بالمواجهة والحرب المعلنة، وذلك واضح فى إجلاء اليهود من المدينة كلما نقضوا العهود ولم يلتزموا بالمواثيق، ومن تأمل الآيات فى سور: آل عمران والحشر والأحزاب: عرف ذلك فيما حدث لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ومَن ناصرهم من المنافقين.

وهذا نموذج لهذا المزيج العَكِر بين المنافقين وشياطينهم من اليهود: ذكر الزهري أن إجلاء بنى قينقاع وقع في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنه كان يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أن ذلك وقع بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ماأصاب قريشاً في بدر، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يامحمد لايغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لايعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا

نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا..، وهكذا بدأت الأزمة تتفاقم إذ لم يكن في جوابهم مايشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحدٍّ واستعلاء واستعداد للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف ﷺ على المدينة: أبا لبابة بن عبدالمنذر العمري واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]، وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ

خمس عشرة ليلة كما ذكر ابن هشام، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بذلك، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد، وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي، وحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفاء ه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه، فاضطر عبدالله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد! أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يامحمد! أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أُبَي يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك! أرسلني» قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ماكان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال:لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبَي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أُبَي الجدار فسال الدم، ويظهر في

هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبَي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام، وهناك بُعدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث إن بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبدالله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولايتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبدالله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه، بل أرادوا قتله . ولاينسى مسلم موقف ابن سلول يوم أُحد حين رجع بثلث الجيش من الطريق وكان عددهم ثلاثمائة مقاتل تقريبًا .

أما موقف عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان على النقيض مما كان عليه ابن سلول: إذ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عزوجل وإلى رسوله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يارسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف هؤلاء اليهود وولايتهم، وفى ذلك نزلت الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ

لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يُجْلِيَهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج - ونحن مواليك - فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أُبَي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبدالله بن أُبَي: تبرأتَ من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكّره مواطن قد أَبْلَوا فيها، فقال عبادة:يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لَمُعْتَصِمٌ بأمر سنرى غَيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دَيْناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تَعَجَّلوا وضعوا» وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولاساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيد عليها هذا أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام، ولحقوا بأذرعات، وهكذا خرجوا من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين وقد كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وكسر شوكتها، والفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق

ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذى كان مثلاً حياً للمسلم الصادق المخلص لعقيدته؛ إذ تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه وقوي إيمانه وتنور عقله، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة(٢٨٥).

شَقَّ عَلَى الكُفَّارِ مِن أَهْلِ الكِتَابْ ❁❁ وَالمُشْرِكِينَ مَا رَأَوْا مِنَ الصَّوَابْ
وَأَنَّ هَــذَا الــدَّاعِيَ الـعَـظِـيمَـا ❁❁ قَـدْ جَـعَـلَ الإِسلَامَ مُـسْـتَـقِـيمَـا
وَأَنَّــهُ فِي قَــومِــهِ يَــسُـــــودُ ❁❁ وَحَــوْلَــهُ فِي يَـثْــرِبَ الأُسُـــودُ

شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ

وبعد ما أصاب المسلمين من ابتلاء فى أحد؛ حيث قُتِل منهم سبعون: ظنت القبائل المتناثرة خارج المدينة في الجزيرة العربية أنها تستطيع أن تُوقِعَ بالمسلمين أمثالَها، فأخذوا يكيدون ويمكرون، ويظهرون خلاف ما يبطنون؛ فَأبدت قبائل متعددة الرغبة في الدخول في الإسلام، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُمِدَّهم بما يعينهم على تحقيق ذلك، فكانت واقعة الرجيع، وبئر معونة بعد أُحد بنحو أربعة أشهر، وبالتحديد: في شهر صفر من العام الرابع للهجرة،

(الرجيع) ماءٌ لقبيلة هُذيل قرب مكان يسمى (الهَدأَةُ) ويقال: (الهُدَّةُ) وهو موضع بين عُسفان(٢٨٦) ومكة، كانت الوقعة عنده فسميت به.

---

(٢٨٥) ينظر فى ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ٥٤/٣، ٥٥، والمغازي للواقدي ١٧٦/١، والطبقات لابن سعد ٢٨،٢٩/٢، وتاريخ الطبري ٤٨١/٢، والمحرر الوجيز لابن عطية ٤٧٧،٤٧٨/١ تفسير آيات سورة المائدة، والسيرة النبوية الصحيحة ٢٩٩/١، ٣٠٢، وموسوعة نضرة النعيم ٢٦٩/١، واليهود في السنّة المطهرة ٢٧٦/١، ٢٧٩: ٢٨٥، والسيرة النبوية دروس وعبر لعلى محمد الصلابى «غزوة بنى قينقاع».

(٢٨٦) عُسْفان: بمهملتين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، بعدها فاء آخره نون، علي مرحلتين من مكة وسميت عُسْفان

و(بئر معونة) هى بين أرض بنى عامر وحَرَّةِ بني سُليم، حيث غدر بالقراء: قبائل رِعل- بكسر الراء- وذكوان وغيرهم، وهذه تعرف بسرية القراء الذين كان عددهم سبعين صحابيًا، و(الرجيع) و(بئر معونة) متقاربتان في الزمان والمكان؛ حتى إن بعض مصنفي السير خلط بينهما، وكُلُّهم يقدم موقعة الرجيع على بئر معونة، لكني أُقدم شهداء بئر معونة لشرف القراء، وإظهار التواتر الثابت للقرآن الكريم منذ زمنه الأول، والله المستعان.

وفيما يلي بيان لهاتين الحادثتين مع تجلية ما يستفاد من كل منهما، وبالله التوفيق.

فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

هذا نموذج لحفاظ القرآن يحقق التواتر ويؤكد حفظ القرآن لدى الكثيرين من الصحابة بصفةٍ عامةٍ، ومن الأنصار على وجه الخصوص في وقت نشأة الإسلام وغربته بين قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة العربية، حيث قُتل في موقعة بئر معونة سبعون رجلاً من الأنصار كلهم من قُرَّاءِ القرآن وحفظته، يقول أنس بن مالك: كنا نسميهم القراء، يَحتطِبون بالنهار، ويُصَلُّون بالليل، حتى بلغوا بئر معونة، فغدروا بهم- يعني: الذين زعموا أنهم أسلموا- وقتلوهم، فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع: بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا(٢٨٧).

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الحادثة: ... مع أن هذه الواقعة تُوجبُ على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة، إِلَّا أن ضرورة بث الدعوة- مهما فدحت الخسائر- جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات

لتعسف السبل فيها، وقيل: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع علي ستة وثلاثين ميلاً من مكة، معجم البلدان ٤/ ١٢١، ١٢٢.

(٢٨٧) ينظر: صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب العون بالمدد ٦/ ١٨٠ ح٣٠٦٤، وكتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع... وبئر معونة ٣٥٨/٧، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١.

على أنها أمرٌ لابد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر، لأن الانسحاب من السوق بُغْيَةَ تجنبها: قضاء عليه، فهو يبقى متحملاً حتى تَهُبَّ الريحُ من جديد رخاءً تعوِّض ما فَقَدَ، وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء؛ عامر بن مالك الملقَّب بـ(ملاعب الأسنة) حين عرض عليه أن يُرسل وفدًا من الدعاةِ ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبي ﷺ خشيته من أن يُصاب رجاله بسوء، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذِمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار(٢٨٨).

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا (بئر معونة) وكانوا سبعين من خيار المسلمين يُعرفون بالقراء، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، ويَحْيَوْن على هذا النسق الرتيب بين جهادٍ في الحياة ورغبةٍ في الآخرة.

فلما أمرهم الرسول ﷺ بالمسير لإبلاغ رسالات الله، خرجوا، وما كانوا يعرفون أنهم -جميعًا- يَحُثُّون الخُطَا إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجاجها.

وحين انتهى القراء إلى (بئر معونة) بعثوا أحدهم -حرام بن ملحان- إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام فلم ينظر (عامر) في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة، فما شعر (حرام) إلا وطعنةً نجلاءَ تخترق ظهره وتنفذ من صدره، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم فقد صاح (حرام) على أثر ذلك: فُزتُ وربِّ الكعبة!.

ومضى (عامر) في غَشَمِه، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت

---

(٢٨٨) رواه ابن هشام ٢/ ١٨٤، عن ابن إسحاق بسندٍ صحيح مرسلاً، وكذا رواه الطبراني، عن ابن إسحاق كما في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٨، ١٢٩ ورواه الطبراني أيضًا من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

إليه قبائل (رِعْلٍ) و (ذكوان) و(القارة) فهجم بهم عامر على القراء الوادعين.

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوبٍ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يَغشَوهُم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم.

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم (عمرو بن أمية الضمري) ولم يعرفا النبأ المحزن، إِلَّا من أفواج الطير المتوحشة، تنطلق نحو المعسكر مُحَوِّمةً حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر، طامعة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها، قالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا. فأقبلا لينظرا فإذا القوم مضرجون في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة! قال زميل عمرو له: ماذا ترى؟ قال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ نقص عليه الخبر، لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى (المنذر) لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلاً: ما كنتُ لأرغبَ بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر! وما كنت لأبقى حتى أَقُصَّ خبره على الرجال! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل وأُخِذَ عمرو أسيرًا، فأعتقه (عامر بن الطفيل) كبير الغادرين عن رقبةٍ زعم أنها على أمه!.

ورجع (عمرو) إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المُصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذَكِّرُ نكبتهم الكبيرة بنكبة (أُحُد) إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتالٍ واضح، وأولئك ذهبوا في غدرةٍ شائنة.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظًا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب؛ بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة: أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلٍ كامنٍ على الإسلام وأهله، غلٍ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل قادرٍ أن يُلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء.

وفى طريق (عمرو) إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من (بنى عامر) فقتلهما ثائرًا لأصحابه، ثم

تبين أنهما من (بني كلاب) وأنهما معاهدَين للمسلمين.

ولما قدم (عمرو) على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبره الخبر، قال النبي ﷺ للناس: «إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»(٢٨٩).

ثم قال النبي ﷺ لعمرو: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا» وانشغل بجمع دياتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود!.

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل... وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضِغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال].

غير أن هذه الكراهية قد بدا نبتها بعد انتصار (بدر) بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلَّبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد قلنا: إن النبي ﷺ أدرك هذه الحال بما فعله مع يهود بني قينقاع، وكذالك بعد (أحد) إذ بذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتْباع (أحد) بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد(٢٩٠).

---

(٢٨٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٨٨/٧، ٣٨٩ ح٤٠٩٣ من طريق هشام بن عروة، عن أبيه مرسلاً، لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث أنس ٣٨٥/٧، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١، والطبراني من حديث ابن مسعود كما في مجمع الزوائد ١٣٠/٦.

(٢٩٠) كتاب: «فقه السيرة» للإمام الغزالي ص٣١٦: ٣١٩ مع تصرف يسير، ط الأولى، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٨هـ/

عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهِم

وهذا نموذج آخر يُشبه حال من سبقهم، متفق معهم في الزمان، ومُقاربٌ في الجهةِ والمكان إذ كان في أول السنة الرابعة من الهجرة أيضًا، ولكنهم هذه المرة كانوا عشرة رجال صبروا وثبتوا على الحق حتى نالوا الشهادة، وذلك حين بعثهم رسول الله ﷺ عيونًا إلى مكة، ليأتوه بخبر قريش، وهم: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وهو أميرهم، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخُبَيْبُ بن عَدى الأنصاري، وزيد بن الدَّثِنَّةِ الأنصاري، وخالد بن بُكَير حليف بني عَدي بن كعب، وعبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلَوِى، ومُعتب بن عُبيد أخو عبدالله بن طارق لأمه، وهؤلاء كلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام في المدينة، وكلهم قد شهدوا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى. قال الحافظ ابن حجر: ولعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم(٢٩١) فظلوا يسيرون الليل وَيَكْمُنُونَ النهار، فنزلوا بالسَّحَرِ فأكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض، فجاءت امرأة من هُذيل ترعى غنمًا، فرأت النواة فأنكرت صِغرها، وقالت: هذا تمر يثرب! فصاحت في قومها: أُتِيتُم، فجاءوا في طلبهم فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، فلم يَرُعْهم القوم إلَّا والرجال بأيديهم السيوف قد غَشَوْهم، وكان ذلك بمكان يسمي(الهَدْأَةُ)(٢٩٢) بين مكة وعُسفان على سبعة

١٩٨٨م، وتنظر القصة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٨٣: ١٨٩ والسيرة النبوية لابن كثير ٣/١٣٩: ١٤٤.

(٢٩١) فتح الباري ٧/ ٣٨٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/١٦٩: ١٧٤ وتراجمهم في: الإصابة ٢/١٩٤، ٢٢٥: ٢٢٧، ٥٠٠، و ٣/٤٦٠، ٤٦١، و ٤/١١٧، و ٦/٥٥، ٥٦، ١٣٦، ١٣٧ ط دار الكتب العلمية بيروت، وقصتهم قد أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه، وأول ترجمة ذكرها فيها هي قوله: باب؛ هل يستأسر الرجل، أي: هل يُسَلِّمُ نفسه للأسر أم لا؟ فتح الباري ٦/١٦٥: ١٦٧، كما أخرجها أصحاب السنن والمسانيد والسِّيَرِ والطبقات كلهم من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعدُ: إحدى هذه الطرق مع تخريجها، ولكننا الآن سنسوق القصة بمجموع رواياتها، والله الموفق.

(٢٩٢) (الهَدأَةُ) بفتح الهاء والهمزة بينهما مهملة ساكنة، كما في البخاري ٦/١٦٦ ويقال: (الهُدَّةُ) بضم الهاء وتشديد المهملة

أميال منها، فلجأ أصحاب رسول الله ﷺ إلى رابية مشرفة أو أرض مرتفعة عالية، فأحاط بهم مائة من بني لِحْيان[٢٩٣] كلهم رُمَاةٌ ومعهم مثلُهم يشدون أزرهم، ومن ورائهم قومُهم من هُذيل ينصرونهم؛ فقالوا لهؤلاء الرجال الذين يعدون على الأصابع: اعطوا بأيديكم، واستسلموا للأسر، وانقادوا لنا، فإنا والله لا نريد قتالكم؛ إنما نريد أن نصيب منكم شيئًا من أهل مكة، فقال عاصم: أما أنا فلن أنزل في ذمة كافر، ولا أقبلُ عهدًا من مشرك، اللّٰهم أخبر عنا رسولك، اللّٰهم إني أحمي لك اليوم دينك؛ فاحم لي لحمي.

فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسولَه خبره، فأخبر ﷺ أصحابه بذلك يوم أصيبوا، وحمى الله عاصمًا من أعدائه فلم ينتهك أحدٌ منهم حُرْمَتَهُ، ولم يقدروا على مس شيءٍ منه، حيث أرادت هُذيل قطع رأسه بعد قتله ليبيعوه لامرأة يقال لها: سلافة بنت سعد؛ أم مسافع وجُلاس، ابني طلحة العبدري اللذين قتلهما عاصم يوم أُحد، وكانت نذرت لئن قدِرتْ على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فأرسل الله على جسده مثل الظُّلَّة من الدِّبْرِ[٢٩٤] حتى صارت كالسحابة، كلما اقتربوا منه: طارت في وجوههم تَلدغُهم، فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْرَةُ قالوا: دعوه يُمسِي، فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي سيلاً فاحتمل عاصمًا فذهب به، وكان عمر يقول لما بلغه خبره: «يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته» وذلك لأن عاصمًا

المفتوحة كما في البخاري ٣٠٨/٧ وقيل في ضبطها غير ذلك، وهى موضع بين عُسفان ومكة، قرب ماءٍ لقبيلة هُذيل يقال له (الرجيع) كانت الوقعة عنده فسميت به، وهذه كانت قبل سرية القراء الذين تقدم ذكرهم. ينظر: فتح الباري ٣٧٩/٧، ٣٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢، ١٨٣: ١٨٧، ومراصد الاطلاع ١٤٢/١، و٦٠٦/٢، و ١٤٥٣/٣.

(٢٩٣) (لِحْيان) بكسر اللام وسكون المهملة، حي من هُذيل، وفى رواية البخاري ١٦٦/٦ قريبًا من مائتي رجل ... والجمع بينهما ممكن كما ستراه. وعمدة القارئ ٢٩٢/١٤، ٢٩٣.

(٢٩٤) (الدِّبْرُ، والدَّبْرَةُ) بفتح وتشديد المهملة وسكون الموحدة التحتانية، جماعة النحل والزنابير. القاموس ص٤٩٨.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد أعطى اللهَ عز وجل عهدًا أن لا يمس مشركًا، ولا يمسه مشرك(٢٩٥).

كما حيل بين قريش وبين عاصم حين أرسلت من يأتي بشيء من جسده يعرفونه، لأنه قتل عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر، ولقد كان عقبة بن أبي معيط كما ذكر ابن كثير: شَرَّ عباد الله، وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله، ولما أمر رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة عاصم بن ثابت أن يُقَدَّمَ عقبة من بين الأسرى فيضرب عنقة، قال عقبة: يا معشر قريش! علام أُقْتَلُ من بين من هَا هُنَا؟ فقال له عاصم: على عداوتك لله ورسوله(٢٩٦).

وهكذا مضى عاصم في سبعة من رفاقه إلى ربهم شهداء بررة مقبلين غير مدبرين، قد اختاروا لأنفسهم الحياة الحقة، في أكرم المنازل وأعلاها مع النبيين والصديقين، وبقى للناس عظيم القدوة فيهم وجميل التأسي بهم إلى يوم الدين، ولا تزال كلمات عاصم تدوي في سمع الزمان وهو يناضل في هذا القتال غير المتكافئ حيث يقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلٌ ❁❁❁ وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عُنَابِلُ
تَنْزِلُ عَنْ صَحْفِهَا الْمَعَابِلُ ❁❁❁ الْمَوْتُ حَقٌ وَالْحَيَاةُ بَاطِلُ
وَكُلُ مَا حَمَّ الإِلَهُ نَازِلُ ❁❁❁ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ إِلَيْهِ آئِلُ
إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ(٢٩٧)

---

(٢٩٥) يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١/٣٩، ٤٠ ط التحرير- القاهرة، مع ما تقدم من المراجع.

(٢٩٦) (قتل الأسير صبرًا) هو: أن تشد يداه ورجلاه ويمسك حتى تضرب عنقه، وذلك بخلاف المُثْلَةِ: التي هي قطع بعض الأطراف كالأنف والأذن وغيرهما قبل القتل أو بعده، وهى مَنْهِيٌّ عنها.ينظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٥٨، و٤/٢٩٤، والبداية والنهاية ٣/٣٠٥، ٣٠٦.

(٢٩٧) ذكر هذه الأبيات مع غيرها ابن هشام في السيرة ٢/١٧٠ (النابل) صاحب النبل، ويروى (بازل) وهو القوى (عُنابل) بالضم غليظ شديد (المعابل) جمع معبلة، وهو: نصل عريض طويل (حمَّ الإله) قدَّره، (وآئل) صائر وراجع.

وكذلك بقية العشرة: أعني عبدالله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، قد لحقوا بأصحابهم، على خير حال، وسلكوا طريق سلفهم إلى أحسن مآل، وإن كانوا في بادئ الأمر قد رضوا بالرخصة بدل العزيمة حيث رَقوا ولانوا واستسلموا للأسر وثوقًا منهم بعهد المشركين وميثاقهم، فلما أعطوا بأيديهم حل المشركون أوتار قِسِيِّهِم فربطوهم بها، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر، وأَبَى أن يصحبهم، فسحبوه وجروه حتى استُشْهِدَ، وفى رواية ابن إسحاق: أنه انتزع يده من القِران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وكان ذلك بمر الظهران وقبره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هناك.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدَّثِنةِ فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان مع مولى له يقال له: نيسطاس الى التنعيم(٢٩٨) وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالسٌ في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا(٢٩٩).

وأما خُبيب بن عدى: فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بأبيهم الحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، كما صرح بذلك أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل الذي وعدنا القارئ الكريم بمطالعته كاملاً، وهذه رواية البخاري في باب فضل من شهد بدرًا: قال أبو

---

(٢٩٨) التنعيم: أقرب أماكن الحل إلى الحرم، وكان بينه وبين مكة نحو خمسة كيلو مترات، ويسمى بالتنعيم لأن على يمينه جبل نعيم، وعلى يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نَعْمَانُ -بفتح النون وسكون المهملة- ونقل الحافظ ابن حجر، عن موسى بن عقبة: أن خُبَيْبًا صلى ركعتين بموضع مسجد التنعيم. فتح الباري ٧/ ٣٨٣، والقاموس المحيط ص١٥٠٢.

(٢٩٩) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧١، ١٧٢.

هريرة: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ، جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ! فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمْ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَمَّا أَنَا فَلا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةُ نَفَرٍ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، مِنْهُمْ: خُبَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ الْقَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا(٣٠٠) فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا(٣٠١) فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ

---

(٣٠٠) (مُوسًى) يجوز تنوينها وعدمه، وهى آلة يزال بها الشعر (يَسْتَحِدُّ بِهَا) أي: يتطهر بها ويحلق شعر عانته، خشية أن يظهر منه قبيح إن صلبوه أو مثلوا به بعد قتله، كما أن هذا العمل سُنَّة من سنن الفطرة. فتح الباري ٧/ ٣٨٢.

(٣٠١) وفى رواية ابن إسحاق: فلقد اطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنبًا يؤكل. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٢.

لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ۞۞۞ عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ۞۞۞ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(٣٠٢)

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا: الصَّلاةَ، وَأَخْبَرَ- يعنى: ﷺ- أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ- وهو عقبة بن أبى معيط- فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنْ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا»(٣٠٣).

وزاد ابن إسحاق في آخر الخبر: فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حَضَرْتُهُ يومئذٍ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقًا من دعوة خُبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعى عليه، فاضجع لجنبه زالت عنه، قال ابن إسحاق: حدثني يحي بن عَبَّادٍ بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عَبَّادٍ، عن عقبة بن الحارث(٣٠٤) قال: سمعته يقول: ما أنا والله قتلت

(٣٠٢) فى رواية أخرى فى الصحيح: (ولستُ أُبالى...) ، (أَوصال) أى: أعضاء، (شِلوٍ) بكسر المعجمة وسكون اللام: الجسد، (مُمَزَّعٍ) أى: مقطع. فتح البارى٧/ ٣٨٤.

(٣٠٣) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب هل يستأسر الرجل؟ ٦/ ١٦٥، ١٦٦، وفى كتاب المغازى: باب١٠ (واللفظ له) ٧/ ٣٠٨، ٣٠٩، وفى باب غزوة الرجيع ٧/ ٣٧٨، ٣٧٩، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الرجل يستأسر ٣/ ١١٥، ١١٦ ح٢٦٦٠، ومسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٠ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٧٩١٥، ٨٠٨٢، ومسند الطيالسى ص٣٣٨ ح٢٥٩٧، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب السير/ باب صلاة الأسير إذا قدم ليقتل ٩/ ١٤٥، ١٤٦.

(٣٠٤) هذا سندُ صحيحٌ، وعقبة بن الحارث النوفلي: صحابي أسلم بعد فتح مكة، وبقى إلى خلافة عبدالله بن الزبير،

خبيبا؛ لأني كنت أصغر من ذلك ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله(٣٠٥).

وقال الحافظ ابن حجر: ذكر أبو يوسف في كتاب: «اللطائف» عن الضحاك: أن النبي ﷺ أرسل المقداد والزبير في إنزال خُبيبٍ عن خشبته، فوصلا إلى التنعيم، فوجدا حوله أربعين رجلاً، فأنزلاه، فحمله الزبير على فرسه وهو رَطْبٌ لم يتغير منه شيءٌ، فنذر به المشركون، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض، فَسُمِّيَ: بَلِيعَ الأرض(٣٠٦).

ويستفاد من هذه الحادثة فوائد كثيرة، وحكم عظيمة، منها: أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه العدو ولو أدى ذلك إلى قتله حيًّا: حتى لا يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالعزيمة، فإن رغب في الرخصة فله أن يقع فى الأسر، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وكرهه سفيان الثوري.

ومنها: أن المؤمن يفي للمشركين بالعهد، ويتورع عن قتل أولادهم، والدعاء عليهم بالتعميم، وأنهم مع كفرهم: كانوا يعظمون الحَرم والأشهر الحُرم.

ومنها: ما كان عليه خُبيب من قوة اليقين والصلابة في الدين، والثبات على المعتقد، حيث صلى ركعتين قبل القتل، وأنشأ الشعر وأنشده.

ومنها أن الله عز وجل استجاب دعاء عاصم وأصحابِه، وأكرمهم في حياتهم وبعد استشهادهم، وأظهر ذلك للعالمين، وأنه سبحانه قد ابتلاهم كما سبق في علمه ليثيبهم ويعظم أجورهم ويرفع درجاتهم، وذلك بتمكين المشركين من قتلهم: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ

انظر: الإصابة ٤/٤٢٧، وتقريب التهذيب ص٣٩٤.

(٣٠٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧٣.

(٣٠٦) الإصابة ٢/٢٢٦.

مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢](٣٠٧).

وبالرغم من تلاحق الخسائر بالمسلمين في (الرجيع) و(بئر معونة).. ودخول المؤمنين في محنةٍ بعد أخرى: إلا أنهم لم يفقدوا ثقتهم بربهم..ولم يقطعوا صلتهم بخالقهم، واطمئنانهم لوعده لهم فى غدهم ومستقبل أمرهم، فشرعوا يردون الضربة بمثلها، فصبروا على ما نزل بهم من بأساء، كعاصمٍ وخبيبٍ ورفاقِهما: الذين تقلبت عليهم أصناف البلاء وألوان التعذيب، فصبروا واحتسبوا وآثروا القتل والشهادة، دون أن يرجع أحد منهم عن دينه، أو ينطق بكلمة الكفر على لسانه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

غَزوَةُ الخَندَقُ وبِدايَةُ الاستِقرَارِ

ثم كانت آخر الشدائد التي مرت برسول الله ﷺ وأصحابه: ما وقع في غزوة الأحزاب وهى الخندق، سنة خمس من الهجرة؛ وكانت بداية عهد الاستقرار، إذ في وقت الشدة ينبعث الأمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطلاق] ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح].

وذلك أن المسلمين بعد أن استقروا بالمدينة؛ وأصبحت لهم فيها دولة: أيقن عدوُّهُم أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإسلام إذا حاربته كلُّ طائفةٍ على حدةٍ، فأجمعوا أمرهم واتحدوا على الرغم من اختلافهم، فقرروا رمي المسلمين عن قوسٍ واحدةٍ؛ ليستأصلوا شأفتهم ويقضوا على الإسلام قضاءً محققًا، وقد برز ذلك جليًّا في عدد الجيش الذى جاءُوا به من قريش وغطفان وغيرهما؛ حيث كان عدده نحو عشرة آلاف مقاتل، فكيف إذا انضم إلى ذلك: اليهود المتواطئون

---

(٣٠٧) هذه الفوائد مقتبسة من: فتح الباري ٧/ ٣٨٤، ٣٨٥.

مع جحافل الشرك، ثم المنافقون المطلعون على أسرار المسلمين فى المدينة وما حولها!!!

فأخذ النبي ﷺ وأصحابُه يفكِّرون في دفع هذا العدوان، ويعملون على دَرْءِ ذلك الخطر الذى يتهددهم من الداخل والخارج على السواء، وصدق الله إذ يصور لنا بعض هذه المشاهد؛ ويُظْهِرُ لنا كيف أنها أسفرت عن أخلاق الرجال وكشفت عن معادنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه يقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا

بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ للأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

وفي رواية أخرى يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قَالَ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُ الآخِرَهْ، فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(٣٠٨).

وفي أثناء تلك الشدائد يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بمستقبل هذه الأمة وظهور ذلك الدين، أخرج الإمام أحمد: بسند حسن، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فوَضَعَ ثَوْبَهُ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»(٣٠٩).

---

(٣٠٨) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/٣٩٢ ح٤٠٩٩، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب عزوة الأحزاب وهي الخندق ٣/١٤٣١، ١٤٣٢ ح١٨٠٥.

(٣٠٩) المسند ٤/٣٠٣.

وله شاهد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ[٣١٠] شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنَا نَازِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ، قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ» قَالَ: «قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ، وَلا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ» فَقَالَ ﷺ: «قُومُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: وَيْحَكِ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «ادْخُلُوا، وَلا تَضَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ ﷺ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»[٣١١].

وهذه لمحة من الشدائد التي تعرض لها المسلمون في هذه الغزوة: فيها تعليم وتأديب للخلف بعدم الاجتراء بتمني حضور تلك المشاهد(*) يوضحها لنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في

---

(٣١٠) والكُدْية: بضم الكاف وسكون المهملة هي القطعة الصلبة من الأرض لا تؤثر فيها أدوات الحفر. ينظر: عمدة القاري ١٧/١٧٩.

(٣١١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٧/٣٩٥.

(*) راجع ص١٧ تحت عنوان: «خصائص السيرة» كلام القاضي عياض: «.. ومن محبته ﷺ... وتمني حضور حياته..» وفك الإشكال من كلام القاضي عياض تجده ص١٠٧ تحت عنوان: «السابقون الذين امتحنوا بالفتنة والأسوة بهم في

الحديث الذي أخرجه مسلم (ح١٧٨٨) بسنده إلى إِبْرَاهِيمَ بنِ يَزِيدِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ -أي: برد-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» -أي: لا تعلمهم بنفسك، وامش في خفاء لئلا ينفروا منك ويقبلوا عليَّ-، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ -أي: يدفئه-، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ: قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ» -أي: كثير النوم-.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن من طريق: مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِاللَّهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ!؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ

ذلك» ونصيحة المقداد بن عمرو لجلسائه يوم أن مَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ للمقداد: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ..

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا» ، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

فأكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بأن كبت عدوهم؛ فجعل كيدهم في نحورهم دون أن يغنموا شيئًا أو يتحقق لهم هدفٌ، وامتن الله عز وجل على المؤمنين بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا

لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ إلى قوله تبارك اسمه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

كما حلت النقمة بيهود بني قريظة؛ لنقضهم العهد مع رسول الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضًا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وكان ذلك بحكم سعد بن معاذ بن النعمان: أبي عمرو الأنصاري، سيدِ الأوس، الذي شهد بدرًا باتفاق، وقد رُمِيَ بسهمٍ يوم الخندق، وعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بنى قريظة، وأُجيبت دعوته في ذلك، ثم انتقض جُرْحُه فمات شهيدًا، بعد أن شفى الله غيظه من يهود بني قريظة، وأقرَّ عينه بفشل قريش في هجومها على المدينة، وانقلابها لتُغْزَى في عُقْر دارها، لا لتغزو الآخرين(٣١٢).

(٣١٢) ترجمة سعد بن معاذ في: الإصابة٣/ ٧٠، ٧١، والأحاديث الصحيحة كثيرة في مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نذكر واحدًا منها على سبيل المثال، أخرج الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة: «اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» فطفقَ المنافقونَ في جنازتِهِ وقالوا: ما أخفَّها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنما كانت تحمله الملائكة معهم». صحيح ابن حبان ٩/ ٨٩ ح٦٩٩٣، وأصل حديث أنس عند مسلم ٤/ ١٩١٦ ح٢٤٦٧، وأحمد ٣/ ٢٣٤ ح١٣٤٥٤، وله شواهد كثيرة من أقواها حديث جابر عند البخاري ٧/ ١٢٣ ح٣٨٠٣، ومسلم٤/ ١٩١٥، ١٩١٦ ح٢٤٦٦، وأحمد٣/ ٢٩٦، وله شواهد كثيرة تنظر على سبيل المثال في المسند ٣/ ٢٤ ح١١١٨٤ عن أبي سعيد الخدرى، و٦/ ٣٢٩ عن رميثة، وصحيح ابن حبان ح٦٩٩١ عن أَسِيدِ بنِ حُضَيْر، وح٦٩٨٨، ٦٩٨٩ عن عائشة، وفيه أحاديث أخرى تنظر في: ٩/ ٨٥: ٩٠ من حديث ٦٩٨٧: ٦٩٩٦، والله أعلم.

وبهذا نوقن بلا ريب: أن الله عز وجل لن يترك كلمته لِتَخفِق ولا دينَه لِيُهان ولا أولياءَه لِيَذِلُّوا... ومَن زَعَمَ أنَّ الإسلامَ سيموت، أو أنَّ الدين سيضعُف، أو أن المسلمين سيُقضَى عليهم... فقد كذب وافترى إفكًا مبينًا، ويؤكِّدُ ذلك اليقين ما حدث للمسلمين أثناء وبعد حصارهم فى شِعب أبى طالب، وما وقع لرسول الله ﷺ أثناء وبعد هجرته من مكة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[التوبة].

وفى غزوة الأحزاب دحر الله جحافل الشرك ومَن واطأهم وعاونهم من يهود ومنافقين دون أن تُحَقَّقَ له غاية أو تُرفع لهم راية؛ بل جعلهم الله لمن خَلفَهم عبرةً وآية: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[الأحزاب].

فِي عَامِ خَمْسَةٍ وَشَهرِ شَوَّالَ ❁❁ جَاءَت جُمُوعُ الكُفْرِ تَطلُبُ القِتَالَ
وَذَاكَ أَنَّ قَينُقَاعَ وَالنَّضِيرْ ❁❁ مِنَ اليَهُودِ قَدْ لَقَوْا سُوءَ المَصِيرْ
فَأُخرِجُوا مِن طَيْبَةَ المُقَدَّسَة ❁❁ وَلَحِقُوا بِخَيبَرَ المُنَجَّسَة
وَالمُشْرِكُونَ مِن ذَوِي الأَوْثَانِ ❁❁ يَبْغُونَ مَحوَ أَفْضَلِ الأَديَانِ
وَصَارَ خَوفُ المُسلِمِينَ لَمَّا ❁❁ جَاءَتْهُمُ الأَنبَاءُ خَوفًا جَمَّا

وَقَـالَ سَـلْـمَــانُ أَلَا تُخَـنْـدِقُـونَ ۞ حَـوْلَـكُـمُــو فَـشَـرَّهُـمْ سَـتَـتَّـقُـونَ
وَخَـطَّـطَ الـنَّـبِـيُّ مَـوْضِـعَ الـعَـمَـلْ ۞ وَابـتَـدَرُوهُ فِـي ثَـبَــاتٍ وَعَـجَــلْ
وَلَو سَمِعْتَ القَوْمَ حِينَ يَعْمَلُونَ ۞ وَمَعَـهُــم سَـيِّـدُهُـم يُــرَدِّدُونَ
يَـا رَبِّ لَـوْلَا أَنـتَ مَـا اهـتَـدَيـنَـا ۞ وَلَا تَـصَـدَّقْـنَــا وَلَا صَـلَّـيْـنَــا
فَـأَنْــزِلَــنْ سَـكِـيـنَــةً عَـلَـيـنَـا ۞ وَثَـبِّــتِ الأَقْـدَامَ إِن لَاقَـيْـنَـا
وَاعـتَـرَضَـتْـهُـم كُـدْيَـةٌ فِي الـعَـمَـل ۞ وَدَكَّـهَــا مُـحَـمَّـدٌ بِـالـمِـعْـوَل
وَسَـطَـعَـتْ مِـنْ تَـحْـتِـهَـا الأَنْـوَار ۞ فَـفَـرِحُـوا وَحَـزِنَ الـكُـفَّــار
وَجَـابِـرٌ حِـينَ رَأَى عَـصْـبَ الـحَـجَـرْ ۞ جُـوعًـا عَلَى بَطْنِ إِمَامِ البَشَرْ
وَكَانَ عِنـدَهُ قَلِـيـلٌ مِـن شَـعِـير ۞ وَمَعَـهُ فِي بَيْتِـهِ جَـدِيٌ صَغِـيرْ
وَقَــالَ لِـلـمَــرْأَةِ لَــوْ رَأَيْـتِ ۞ وَجْـهَ الـنَّـبِـيِّ الـمُـصْـطَـفَى بَـكَـيْـتِ
وَصَنَعُـوا مَا عِنـدَهُم مِنَ الطَّعَام ۞ ثُـمَّ دَعَـا إِلَـيْـهِ سَـيِّـدَ الأَنَــام
وَكَــانَ فِي قِـصَّـتِــهِ الـشَّـهِـيرَة ۞ مُـعـجِــزَةٌ عَـظِـيـمَـةٌ كَـبِـيــرَة
وَأَقْـبَـلَــتْ قَـبَـائِـلُ الأَحْــزَابِ ۞ تُـرِيـدُ مَـا لَـمْ يَـكُ فِي الـحِـسَـابِ
وَمِـنْ وَرَاءِ الـنَّـاسِ فِي الـمَـدِيـنَـةْ ۞ قُـرَيـظَـةُ الـخَـبِـيـثَـةُ الـلَّـعِـيـنَـة
وَاجْـتَـهَــدَ الـنَّـبِـيُّ فِي الــدُّعَــاء ۞ لِـجَـيْـشِـهِ الـثَّـابِـتِ لِـلأَعْـدَاء
وَقَـدْ هَـدَى اللهُ نُـعَـيْـمَ الأَشْـجَـعِي ۞ وَاعـتَـنَـقَ الإِسْـلَامَ هَـذَا الأَلـمَـعِي
وَبَــاتَ يَـسْـعَـى فِي ذَوِي الـرِّيَـاسَـة ۞ وَفَـرَّقَ الـجُـمُــوعَ بِـالـسِّـيَـاسَـةِ
وَأَرْسَـلَ اللهُ عَـلَـيْـهِـم جُـنْــدَهُ ۞ وَنَـصَـرَ الـلـهُ تَـعَـالَى عَـبـدَهُ
وَبَـعْـدَ مَــا تَـوَلَّـتِ الأَحْـزَابُ ۞ تَـفَـرَّغَ الـنَّـبِـيُّ وَالأَصْـحَــابُ
وَقَــالَ جِـبْـرِيـلُ الأَمِـيـنُ هَـيَّــا ۞ إِلَى خَـبَـاثِ الـطَّـبـعِ وَالـمُـحَـيَّـا
إِلَى بَـنِـي قُـرَيــظَــةَ الــذِّيـنَــا ۞ لَا يَـحْـفَـظُـونَ الـعَـهْـدَ وَالـيَـمِـيـنَـا
وَقَــامَ فِي الـمَـدِيـنَـةِ الـمُـنَـادِي ۞ يَـدعُــو الـمُـجَـاهِـدِيـنَ لِـلـجِـهَـادِ
يَـقُـولُ صَـلُّـوا الـعَـصْـرَ فِي دِيَـارِهِـمْ ۞ وَضَـايِـقُـوا الـيَـهُـودَ فِي حِـصَـارِهِـم
وَقَـد رَأَوْا مِـن سُـوءِ تِـلـكَ الـحَـالَـةْ ۞ أَنَّـهُـمُـو هَـلْـكَى بِـلَا مَـحَــالَــة

وَرَفَضُوا مَا قَالَهُ الأَمِير ۞۞ وَكُلُّهُم مُنَافِقٌ مُبِير
وَاسْتَسْلَمُوا لِحُكمِ سَعدِ بنِ مُعَاذ ۞۞ وَلَا مَفَرَّ دُونَهُ وَلَا مَلاذ
وَحَكَمَ الأَوْسِيُّ حُكْمًا عَدْلا ۞۞ بِأَن يُبَادَ البَالِغُونَ قَتْلا
وَالسَّبيُ لِلنِّسَاءِ وَالذَّرَارِي ۞۞ وَنَفَّذَ الحُكمَ بِأَمرِ البَارِي

الدَّعوةُ العَمَليَّةُ وصُلْحُ الحُدَيبِيَةِ

قد اتضح مما سبق: أن غزوة الأحزاب كانت أَول بشائرِ الفتحِ وبدايةَ عهدٍ متميزٍ في تاريخ المسلمين حيث قال ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»(٣١٣).

ومن ثَمَّ بدأ ﷺ بالأسلوب العملي لنشر الإسلام وتأمين سبله داخل الجزيرة العربية وخارجها، وأبان للدنيا كلها أنه ﷺ يريد قدرًا من السلام وقسطًا من القوة، ليؤمِّن به الدعاة الذين يبلغون الناس دين الله على وجهه الصحيح؛ ويحميَهم من بغى المعتدين: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود].

وذلك واضح فى قبوله ﷺ لشروط صلح الحديبية التى اعتبرها بعض أصحابه شروطًا مجحفة؛ لكنهم أيقنوا بعد ذلك بحكمة العليم الخبير الذى قدر الأمور ودبرها أحسن تدبير، قال جل فى علاه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

(٣١٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٤٠٥/٧ من حديث سليمان بن صرر، وله شاهد عند البزار من حديث جابر بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب – وقد جمعوا له جموعًا كثيرة –: «لا يغزوكم بعدها أبدًا، ولكن تغزوهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المغازي/ غزوة الخندق وقريظة ١٣٩/٦: رواه البزار ورجاله ثقات، لكن الحافظ ابن حجر حَسّنَ إسناده، ينظر فتح الباري ٤٠٥/٧.

كما تتضح الصورة أكثر جلاءً فى الكتب التى بعث بها ﷺ إلى الملوك والأمراء فى أقطار الأرض، وفى البعوث والغزوات التى بلغت تخوم الشام وأطرافه، مثل مؤتة وذات السلاسل وتبوك وفلسطين.

وفيما يلى عرض لبعض أحداث العام السادس وما بعده إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى فى شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة.

فبعد غزوة الخندق بنحو أربعة أشهر: قاد النبي ﷺ طائفة من أصحابه وغزا بهم بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع وقتلوا خُبيبًا وأصحابه، ووصل النبي ﷺ بأصحابه إلى عُسْفَان(٣١٤) التي تبعد عدة أميال عن مكة، ثم بعث أبا بكر الصديق على رأس جماعة من الصحابة إلى كُرَاع(٣١٥) الغَميم وهي أيضًا تبعد عدة أميال عن مكة.

- وفى العودة من غزوة بنى المُصْطَلِق التى وقعت سنة ست من الهجرة نرى موقفًا حدث بين عبدِاللهِ بن أُبَىٍّ ابن سلول، رأس النفاق وزعيم المنافقين فى المدينة، وبين ابنه عبدِالله الصحابى البار، يرويها جابر بن عبدالله فيقول: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ- ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه- فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَالِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَالِلأَنْصَارِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ- أى: اتركوا هذه الكلمة فإنها قبيحة ومن أخلاق الجاهلية- فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ، فَقَالَ: أَوَقَدْ

(٣١٤) قال ياقوت: غزا النبي ﷺ بني لِحيان بعُسْفان، وقد مضى لهجرته خمس سنين وشهران وأحد عشر يومًا، معجم البلدان ٤/ ١٢١، ١٢٢.

(٣١٥) (كُراع): بضم الكاف آخره مهملة، (الغَميم): بفتح المعجمة؛ موضع بناحية الحجاز، وادي أمام عسفان بثمانية أميال، المصدر السابق ٤/ ٤٤٣.

فَعَلُوهَا؟ وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ! لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَبْدِاللَّهِ: وَاللَّهِ لا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ. أخرجه الترمذى وصححه(٣١٦).

فعبدُالله بنُ عبدِالله بنِ أُبَيٍّ كان بَارًّا بأبيه هيابًا له، لكن مصلحة العقيدة هى المعتبرة عنده أولاً، فلما رأى أباه يؤذى رسول الله ﷺ والمسلمين معه: عرض على النبى ﷺ أن يقتله ويأتيه برأسه قائلاً: يا رسول الله! وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ: لَئِنْ شِئْتَ لَآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَه». أخرجه ابن حبان والبزار من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣١٧).

---

(٣١٦) الترمذى فى جامعه ٥/٣٨٩ ح٣٣١٥ وقال: حديث حسن صحيح، والحميدى فى مسنده ٢/٥١٩، ٥٢٠ ح١٢٣٩، ١٢٤٠.

(٣١٧) حديث حسن، أخرجه ابن وهب فى جامعه قال: وَأَخْبَرَنِي شَبِيبُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلٍّ...» الحديث. ١/١٨٢ ح١١٤، وشيخ ابن وهب هو: شبيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد التميمي، قال ابن عدي: «حَدَّث عنه ابن وهب بالمناكير... ثم قال: وأرجو أن لا يتعمد الكذب». الكامل في الضعفاء ٤/١٣٤٦، وشيخه محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى: صدوق حسن الحديث، وثقه بعضهم، وصحح له الترمذى.

وابن حبان من طريق أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الْهَمْدَانِيُّ، قَالَ حدثنا بن وَهْبٍ... به، واللفظ له. صحيح ابن حبان ٢/١٧٠، ١٧١ ح٤٢٨.

والطبرانى من طريق زيد بن بشر الحضرمى، عن شبيب بن سعيد.. به. المعجم الأوسط ح٢٢٩، وزَيْدُ بْنُ بِشْرٍ الْحَضْرَمِيُّ، مصرى ثقة؛ له ما ينفرد به، روى عنه أبو زرعة الرازي وغيره، وقال: «ثقة رجل صالح عاقل، خَرَجَ إلى المغرب فمات هناك». الجرح والتعديل ٣/٥٥٧.

وقبل أن يستدير العام بعد غزوة الأحزاب: عقد النبي ﷺ مع زعماء قريش صلح الحديبية الذي كان أعظم فتح في سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل كان فتح مكة أحد ثمار ذلك الصلح ونتائجه، ودخل في الإسلام في أقل من عامين أضعاف أضعاف من دخلوا فيه من أول البعثة إلى ذلك الصلح.

صُلْحُ الحُدَيبِيَةَ فِيهِ البَرَكَةْ ۞۞ لِلمُسْلِمِينَ وَلِتِلْكَ الحَرَكَهْ
تَفَرَّغُوا مِنْ حَرْبِ هَؤُلاءِ ۞۞ لِحَرْبِ غَيرِهِم مِنَ الأَعْدَاءِ
وَاسْتُؤمِنَتْ قُرَيشٌ فِي بِلَادِهَا ۞۞ وَوَضَعُوا الأَسْيَافَ فِي أَغْمَادِهَا
وَأَصْبَحَت طَيْبَةُ مُستَعِدَّهْ ۞۞ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ تِلْكَ المُدَّهْ

ثم واصل النبي ﷺ تبليغ دعوة الإسلام إلى ملوك وأمراء الأرض في ذلك الزمان، فما ترك ملكًا ولا أميرًا، داخل الجزيرة وخارجها: إلا أرسل إليه الكتاب تلو الكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، ويحمله تبعة رعيته إذا أعرض وأبى.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّنَ»(٣١٨) يعني عامة الناس الخاضعين له.

وللحديث متابعة أخرى لشبيب بن سعيد عند البزار من طريق عمرو بن خليفة، عن محمد بن عمرو بن علقمة... به. مسند البزار ح٢٧٠٨، وعَمرو بن خليفة: هو البَكْراويُّ، يكنى أبا عثمان، شيخ بصري صدوق، رَوَى عَنْ: محمد بْن عَمْرو، وأشعث الحُمْرانِيّ، وَعَنْهُ: محمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وغيرهما. تاريخ الإسلام ترجمة٢٢٥.

وذكر الهيثميُّ الحديثَ بطريقيه فى مجمع الزوائد ١٠٩/١ وقال: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، تَفَرَّدَ بِهِ زَيْدُ بْنُ بِشْرٍ الْحَضْرَمِيُّ. قُلْتُ: وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ». ح٤٢٠، وقال عن الطريق الثانية ٣١٨/٩: «رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ». ح١٥٧٦١.

(٣١٨) ينظر صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وباب كتب النبي

فمضت رسل النبي ﷺ تحمل الكتب إلى الأمراء المعينين من قبل الدولة التي يتبعونها، حيث كانت الفرس تحتل أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، فضلاً عن ملك الدولتين الكبيرتين الفرس والروم، والأقاليم التابعة لكل منهما، إذ كانت الرومان تسيطر في ذلك الوقت على أوروبا وأجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا، وكانت الفرس تسيطر على معظم قارة آسيا، إذًا فالمهمة كبيرة، والمسئولية ضخمة، ولكن من لها إلا محمد رسول الله ﷺ والذين معه.

- ولقد مضت الرسل في أمان تؤدي مهمتها، وتبين دين الله لكل من له عقل ولب دون أن يتعرض لهم أحد بأذى؛ لأنهم يحملون رسالة تقتضي ردًا وجوابًا، فكان هذا بمثابة عقد أمان لحاملها مدة مجيئه ورجوعه، حتى إنه يحرم قتله ولو نطق بكلمة الكفر، ففى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: «فَمَا تَقُولانِ أَنْتُمَا» قَالا: نَقُولُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»(٣١٩).

وسنذكر بعدُ نموذجين أحدِهما لملك عربى معين من قبل الدولة الرومانية، والآخر لهرقل نفسه؛ وذلك فى معرض الحديث عن غزوتى مؤتة وتبوك.

ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ٣/١٣٩٣: ١٣٩٧.

(٣١٩) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه الإمام أحمد ح٣٦٤٢، و٣٧٠٨، و٣٧٦١، و٣٨٣٧، و٣٨٥١، و٣٨٥٥ من طرق إلى عبدالله بن مسعود، وفى ٣/٤٨٧، ٤٨٨ ح١٥٩٨٩ عن نعيم بن مسعود الأشجعى، واللفظ له، وينظر: سنن أبو داود ح٢٧٦١، ٢٧٦٢.

هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم

ظلت مشروعية الهجرة إلى رسول الله ﷺ فى مدينته واجبةً على كل مسلم ومسلمةٍ، حتى فُتِحَت مكةُ فى رمضان من العام الثامن للهجرة، وفى تلك الفترة وقعت هجرات من كثيرين من الصحابة لها دلالاتها وفوائدها، نذكر منها نموذجًا واحدًا لصحابيٍ جليلٍ، كان قبل إسلامه حربًا على الإسلام وأهله، وكان أحد سفراء قريش إلى النجاشى لاسترداد المسلمين المهاجرين إلى مكة، لكن محاولاتهم تلك لم تُفلِحْ، ودونك بعضَ حديثِه عن نفسِه كما أخرجه أئمةُ الحديثِ والسِّيَرِ فى مصنفاتهم:

فقد روى ابن إسحاق بسند حسن، ومن طريقه الإمام أحمد فى المسند واللفظ له مِنْ حَديثِ حبيب بن أبى أوس الثقفى، قال: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ(٣٢٠) عَنِ الْخَنْدَقِ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا يَرَوْنَ مَكَانِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَنَكُونَ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا، كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عُرِفُوا، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: فَاجْمَعُوا لَهُ مَا نُهْدِي لَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الْأَدَمُ، فَجَمَعْنَا لَهُ أُدْمًا كَثِيرًا، فَخَرَجْنَا

---

(٣٢٠) أنقل فى هذا الهامش وما بعده بعض التتمات من رواية الواقدى: وهو مع ضعفه فى الحديث؛ إمام فى السير لا يُستغنى عنه، وقد سبقت ترجمته الجزء الأول الهامش رقم:١٠١.

روى الواقدى: عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: قال عمرو بن العاص: كنتُ للإسلام مجانبًا معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوتُ، ثم حضرتُ أُحُدًا فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق فقلتُ فى نفسى: كم أُوضِع؟ والله ليظهرن محمد على قريش.

حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ، فَوَاللهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ(٣٢١)، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيهِ، فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أُدْمًا كَثِيرًا، قَالَ: ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا، فَأَعْطِنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوِ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَهُ، فَقَالَ: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَكَذَاكَ هُوَ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، أَطِعْنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَبَايِعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي(٣٢٢).

---

(٣٢١) فى رواية الواقدى: وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان

(٣٢٢) فى رواية الواقدى: .. وفارقتهم كأنى أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شُحِنت تُدفَع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشُّعيْبَة – على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر قرب جدة –، وخرجت من الشُّعيبة ومعى نفقه، فابتعت بعيرًا وخرجت أُريد المدينة حتى خرجت على مر الظهران – جنوب الجموم على الطريق من مكة إلى المدينة، ثم مضيتُ حتى كنت بالهَدَّة، إذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يُريدان منزلاً، وأحدهما داخل فى خيمة، والآخر قائم يُمسك الراحلتين، فنظرتُ فإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم، قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت

ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِأُسْلِمَ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدِ اسْتَقَامَ الْمَنْسِمُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٌّ، أَذْهَبُ وَاللهِ أُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ مَا جِئْتُ إِلَّا لِأُسْلِمَ، قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(٣٢٣)، فَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ، ثُمَّ دَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، وَلَا أَذْكُرُ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا» قَالَ: فَبَايَعْتُهُ ثُمَّ انْصَرَفْتُ(٣٢٤).

قال الواقدى: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ الحارث بن هشام، قال: سمعت أبى يُحَدِّثُ يَقُولُ: قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي، وَقُلْت: قَدْ شَهِدْت هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مُوضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ وَأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَظْهَرُ، فَلَمَّا خَرَجَ

محمدًا وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بى فنزلنا جميعًا فى المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة.

(٣٢٣) فى رواية الواقدى: فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبى عِنَبة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد، ثم ولى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه يُبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننتُ، وأنخنا بالحَرَّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودى بالعصر فانطلقنا جميعًا حتى طلعنا عليه صلوات الله عليه، وإن لِوَجْهِهِ تهللاً، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا.

(٣٢٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦: ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد ٤/١٩٨، ١٩٩ ح١٧٧٧٧، ودلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٤٦: ٣٤٨، وفى رواية الواقدى: إِنَّ عَمْرًا، وخالدًا، وعثمانَ بن طلحة، قدموا المدينة لهلال صفر سنة ثمان. المغازى للواقدى: ٢/٧٤١: ٧٤٥ ط الثالثة عالم الكتب – بيروت ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م، ومن طريق الواقدى أخرجها البيهقى فى دلائل النبوة ٤/٣٤٣: ٣٤٦، وانظر الخرائط أرقام: ٣٥، ٤١، ٥٤ فى كتاب: أطلس تاريخ الإسلام، وراجع ما سبق تحت عنوان: «بَيتُ أَبِى سَلَمَةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» إذ فيه أن عثمان بن أبى طلحة ، هو الذى صحب أم سلمة إلى المدينة.

رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ خَرَجْت فِي خَيْلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَلَقِيت رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ بعُسْفان، فقمت بإزاءه وَتَعَرّضْت لَهُ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ الظّهْرَ آمِنًا مِنّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغِيرَ عَلَيْهِ، ثُمّ لَمْ يَعْزِمْ لَنَا- وَكَانَتْ فِيهِ خِيرَةٌ- فَاطّلَعَ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْ الْهُمُومِ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنّي مَوْقِعًا وَقُلْت: الرّجُلُ مَمْنُوعٌ! وَافْتَرَقْنَا وَعَدَلَ عَنْ سَنَنِ خَيْلِنَا وَأَخَذَ ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمّا صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْحُدَيْبِيَةِ وَدَافَعَتْهُ قُرَيْشٌ بِالرّوَاحِ قُلْت فِي نَفْسِي: أَيّ شَيْءٍ بَقِيَ؟ أَيْنَ الْمَذْهَبُ إلَى النّجَاشِيّ؟ فَقَدْ اتّبَعَ مُحَمّدًا، وَأَصْحَابُهُ آمِنُونَ عِنْدَهُ، فَأَخْرُجُ إلَى هِرَقْلَ؟ فَأَخْرُجُ مِنْ دِينِي إلَى نَصْرَانِيّةٍ أَوْ يَهُودِيّةٍ، فَأُقِيمُ مَعَ عَجَمٍ تَابِعًا، أَوْ أُقِيمُ فِي دَارِي فِيمَنْ بَقِيَ؟ فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَتَغَيّبْت فَلَمْ أشهد دخوله، وَكَانَ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ دَخَلَ مَعَ النّبِيّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَكَتَبَ إلَيّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، أَمّا بَعْدُ: فَإِنّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِك عَنْ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلُك عَقْلُك! وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ جَهِلَهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْك فَقَالَ: «أَيْنَ خَالِدٌ؟» فَقُلْت: يَأْتِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ: «مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ! وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجَدَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ». فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا فَاتَك، فَقَدْ فَاتَتْك مَوَاطِنُ صَالِحَةٌ، قَالَ: فَلَمّا جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشِطْت لِلْخُرُوجِ، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَسَرّنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ خَالِدٌ: وَأَرَى فِي النّوْمِ كَأَنّي فِي بِلَادٍ ضَيّقَةٍ جَدِيبَةٍ، فَخَرَجْت إلَى بَلَدٍ أَخْضَرَ وَاسِعٍ، فَقُلْت إنّ هَذِهِ لَرُؤْيَا. فَلَمّا قَدِمْت الْمَدِينَةَ قُلْت: لَأَذْكُرَنّهَا لِأَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَذَكَرْتهَا فَقَالَ: هُوَ مَخْرَجُك الّذِي هَدَاك اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَالضّيقِ الّذِي كُنْت فِيهِ مِنْ الشّرْكِ. فَلَمّا أَجْمَعْت الْخُرُوجَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْت: مَنْ أُصَاحِبُ إلَى رَسُولِ اللهِ؟ فَلَقِيتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيّةَ فَقُلْت: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ إنّمَا نَحْنُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَقَدْ ظَهَرَ مُحَمّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَى مُحَمّدٍ فَاتّبَعْنَاهُ فَإِنّ شَرَفَ مُحَمّدٍ لَنَا شَرَفٌ، فَأَبَى أَشَدّ الْإِبَاءِ وَقَالَ: لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا اتّبَعْته أَبَدًا، فَافْتَرَقْنَا وَقُلْت:

هَذَا رَجُلٌ مَوْتُورٌ يَطْلُبُ وِتْرًا، قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ بِبَدْرٍ، فَلَقِيت عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فَقُلْت لَهُ مِثْلَ الّذِي قُلْت لِصَفْوَانَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ صَفْوَانُ، قُلْت: فَاطْوِ مَا ذَكَرْتُ لَك، قَالَ: لَا أَذْكُرُهُ وَخَرَجْتُ إلَى مَنْزِلِي فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي تُخْرَجُ إلَيّ، فَخَرَجْت بِهَا إلَى أَنْ أَلْقَى عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَقُلْت: إنّ هَذَا لِي لَصَدِيقٌ وَلَوْ ذَكَرْت لَهُ مَا أُرِيدُ! ثُمّ ذَكَرْت مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ فَكَرِهْت أُذَكّرُهُ، ثُمّ قُلْت: وَمَا عَلَيّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي، فَذَكَرْت لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرُ إلَيْهِ فَقُلْت: إنّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ، لَوْ صُبّ عَلَيْهِ ذَنُوبٌ مِنْ مَاءٍ لَخَرَجَ، قَالَ: وَقُلْت لَهُ نَحْوًا مِمّا قُلْت لِصَاحِبَيْهِ، فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَقَالَ: لَقَدْ غَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُوَ، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفَخّ مُنَاخَةٌ، قَالَ: فَاتّعَدْت أَنَا وَهُوَ بِيَأْجَجَ، إنْ سَبَقَنِي أَقَامَ وَإِنْ سَبَقْته أَقَمْت عَلَيْهِ. قَالَ: فَأَدْلَجْنَا سَحَرًا فَلَمْ يَطْلُعْ الْفَجْرُ حَتّى الْتَقَيْنَا بِيَأْجَجَ، فَغَدَوْنَا حَتّى انْتَهَيْنَا إلَى الْهَدّةِ، فَنَجِد عَمْرو بْنَ الْعَاصِ بِهَا فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ! فَقُلْنَا: وَبِك! قَالَ: أَيْنَ مَسِيرُكُمْ؟ قُلْنَا مَا أَخرَجَك؟ قَالَ: فَمَا الّذِي أَخرَجَكُمْ؟ قُلْنَا: الدّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتّبَاعُ مُحَمّدٍ ﷺ قَالَ: وَذَلِكَ الّذِي أَقْدَمَنِي، قَالَ: فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَأَنَخْنَا بِظَاهِرِ الْحَرّةِ رِكَابَنَا، فَأُخْبِرَ بِنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسُرّ بِنَا، فَلَبِسْت مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمّ عَمِدْت إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَقِيَنِي أَخِي فَقَالَ: أَسْرِعْ فَإِنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِك فَسُرّ بِقُدُومِك وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ، فَأَسْرَعْت الْمَشْيَ فَطَلَعْت عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسّمُ إلَيّ حَتّى وَقَفْت عَلَيْهِ، فَسَلّمْت عَلَيْهِ بِالنّبُوّةِ فَرَدّ عَلَيّ السّلَامَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، فَقُلْت: إنّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي هَدَاك! قَدْ كُنْت أَرَى لَك عَقْلًا رَجَوْتُ أَلّا يُسَلّمَك إلّا إلَى الْخَيْرِ»، قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْت مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْك مُعَانِدًا عَنْ الْحَقّ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الإسلامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ» قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اللهُمّ اغْفِرْ لِخَالِدٍ كُلّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدّ عَنْ سَبِيلِك» قَالَ خَالِدٌ: وَتَقَدّمَ عَمْرٌو، وَعُثْمَانُ، فَبَايَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ قُدُومُنَا فى صفر سنة ثمان، فوالله مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

مِنْ يَوْمِ أَسْلَمْتُ يَعْدِلُ بِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ(٣٢٥).

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه واللفظ له من حديث عبدِالرحمنِ بنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي(٣٢٦).

وهكذا كان عمرو بن العاص داهية العرب رأيًا وعقلاً ولسانًا، ومع ذلك تأخر إسلامه

(٣٢٥) المغازى للواقدى ٢/٧٤٥: ٧٤٩، وهو يتقوى بما قبله وبما بعده.

(٣٢٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١/١١٢، ١١٣ ح١٢١، ومسند الإمام أحمد ٤/٢٠٥ ح١٧٨٢٧ مختصرًا.

أكثر من عشرين سنة من بعثة النبى ﷺ، ولما أسلم كان النبى ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، وولاه غزاة ذات السلاسل، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعبُ – أى: أدفع – لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعْمَا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(٣٢٧).

ومن مناقب عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أيضًا – أن رسول الله ﷺ استعمله على عُمان، فمات ﷺ وعمْرو أميرُها، ثم كان من أُمراء الأجناد فى الجهاد بالشام فى زمن عمر، وهو الذى افتتح قنّسرين، وصالحَ أهل حلب ومنْبج وأنطاكية، وولاه عُمر فلسطين، وقد وَلِيَ مصر عشر سنين وثلاثة أشهر: أربعة من قِبَلِ عمر، وأربعة من قِبَلِ عثمان، وسنتين وثلاثة أشهر من قِبَلِ معاوية، ولما حضرته الوفاة قال لابنه عبدالله: ائتنى بجامعة – رباط من قماش – فَشُدَّ بها يَدَيَّ إلى عنقى، ففعل، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللّهم إنك أمرتنى فعصيتُ، ونهيتنى فتجاوزتُ، ولستُ عزيزًا فأنتصر، ولا بريئًا فأعتذر، ولكنى أشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، ثم وضع إصبعه فى فمه كالمتفكر المتندم حتى مات سنة ٤٣ من الهجرة، عن عُمْرٍ يناهز التسعين عامًا، فرحمه الله وغفر له، وزاد فى إحسانه، وتجاوز عن سيئاته، فإنه من صحابة رسول الله ﷺ(٣٢٨).

(٣٢٧) مسند الإمام أحمد ١٩٧/٤ ح١٧٧٦٣ واللفظ له، وفى ٢٠٢/٤، ٢٠٣ ح١٧٨٠٢ بنحوه، وقد أسهب الشيخ شعيب فى تخريجه، فليراجعه من أحب.

(٣٢٨) ينظر: الإصابة ٥٣٧/٤: ٥٤١، وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لأستاذنا الدكتور: موسى شاهين لاشين رحمه الله

غَزْوَةُ مُؤْتَة

وكذلك كان خالد بن الوليد؛ سيف الله الذى فتح الله للمسلمين على يديه ونصرهم، حيث بَعث النبى ﷺ فى شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة: كتابًا إلى أمير بصرى[٣٢٩] بأرض الشام مع الحارث بن عمير الأزدي، فاعترضه فى طريق عودته شرحبيل بن عمرو الغساني بمؤتة من بلاد الأردن، وسأله: أأنت من رسل محمد؟ قال نعم، فأوثق رباطه وقتله صبرًا[٣٣٠] متناسيًا تلك المُسَلَّمة البدهية التي لا نقاش فيها: وهى أن الرسل لا تقتل، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فترامت تلك الأخبار إلى النبى ﷺ والمسلمين بالمدينة، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس، فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف[٣٣١] ولم يبين الأمر، فلما صلى الظهر جلس فى أصحابه وقال ﷺ: «زيدُ بنُ حارثةَ أميرُ الناسِ، فإنْ قُتِلَ زَيْدٌ: فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ: فَعَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فإن أصيب عبدالله بن رواحة فَلْيرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم» وعقد لواءًا أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فودع الناس الأمراء، وخرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف، وجعل المسلمون ينادون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع شمال غرب المدينة... وأمرهم أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير[٣٣٢].

فمضى الجيش إلى مؤته؛ لزلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان، وإعادة

تعالى ١٠٧/٢: ١١٠.

(٣٢٩) (بُصرَى): مدينة بها كثير من الآثار الرومانية والإسلامية جنوب شرق دمشق، بينهما نحو ١٤٠كم.

(٣٣٠) أي حبسًا من غير طعام ولا شراب حتى مات، القاموس المحيط ٦٨/٢.

(٣٣١) (الجُرْف): مكان واسع يجتمع فيه الجيش، ويقع فى شمال المدينة دون جبل أحد. أطلس تاريخ الإسلام ص٦٦.

(٣٣٢) ينظر فى ذلك؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٥١٠/٧ ح٤٢٦١، وإمتاع الأسماع للمقريزى ٣٤٤/١: ٣٤٧.

هيبة الدولة الفتية أمام تلك الأمبراطورية، وكان عدد الجيش كبيرًا بالنسبة للمسلمين؛ لكنه لقي من الروم نحو مائة ألف، ومثلهم من العرب الموالين لهم، فكان الارتداد المأمون أفضل من النصر.

وهؤلاء القادة الثلاثة: كلهم فى سن الشباب، وقد أخبرهم رسول الله ﷺ بمصرعهم دون أن يَفُت ذلك فى عضدهم وحماسهم لنيل الشهادة، وانطلق الجيش تحت إمرة زيد بن حارثة الذى استشهد فى هذه الغزوة مقبلاً غير مدبرٍ، وهو ابنُ بضعٍ وثلاثين سنة(٣٣٣).

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام؛ إلا أن أخباره سبقته إلى الروم، ولابد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقاتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف، فلما وصل المسلمون إلى معان– مدينة فى جنوب الأردن– عرفوا أن فى انتظارهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب.

والهجوم على جيشٍ تلك عُدته مجازفة مُخيفةٌ، فأقام المسلمون ليلتين بمعان يتدبرون أمرهم، وقال نفر منهم: نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالرجوع إليه، ولم يرق ذلك لعبدالله بن رواحة فشجع الناس قائلاً: يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون– الشهادة!– وما نقاتل الناس بِعُدَدٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلِقوا، والله! لقد رأيْتنا يوم بدر ما معنا إلا فَرَسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد! فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلفٌ؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان، فشجع الناس وزحفوا شمالاً إلى مؤتة، فالتقوا بعدوهم ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح، قال أبو هريرة: وقد

---

(٣٣٣) راجع : ما تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِى» ١/ ١٨٨.

شهدت ذلك فبرق بصرى، فقال لى ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة! مالك؟ كأنك ترى جموعًا كثيرة؟ قلت: نعم! قال: لم تشهدنا ببدر، إنا لم ننصر بالكثرة.

وقاتل الأمراءُ يومئذ على أرجلهم: واللواء بيد قائدهم زيد بن حارثة، فقاتل، وقاتل الناس معه؛ حتى قُتِل طعنًا بالرماح فكان أول شهيدٍ.

ثم أخذ اللواء القائد الثانى؛ جعفر بن أبى طالب الهاشمى؛ ذو الجناحين، وصاحب الهجرتين، الذى أسلم النجاشىُّ ومن تبعه على يديه، فنزل عن فرسه فقطع عرقوبها فكانت أول فرس عقرت فى الإسلام، وهذا مشروع عند اشتداد الحرب؛ كى لا تكون عائقًا له، وحتى لا يظفر بها العدو فيستعينَ بها على المسلمين.

ثم أقبل على الروم يجالدهم بعنف، وهو يُنشد:

يَا حَبَّذَا الجَنَّة واقتِرَابُهَا! ❁❁❁ طَيِّبَةً، بَاردًا شَرابُهَا!

وَالرُّومُ رومٌ قَد دَّنَا عذَابُهَا ❁❁❁ كَافِرة بَعيدةً أَنسَابُهَا!

عَلَيَّ إنْ لاَقَيتُهَا ضِرَابُهَا

وظل يقاتلهم حتى قُتِل وبه أكثر من تسعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فيما بين منكبيه مِن قِبَل يديه، كان قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد وهو ابن بضع وثلاثين سنة؛ فهو يطير فى الجنة بجناحيه.

يقول عبدالله بن عمر؛ وهو أحد فرسان تلك المعركة، وكان شاهد عيان: الْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي القَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، ليس شيء منها فى دبره، يعنى فى ظهره، وكان إذا سلم على أحد أبناء جعفر يقول له: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين(٣٣٤).

---

(٣٣٤) صحيح البخارى ٧/ ٧٥، ٥١٠، ٥١٥ ح٣٧٠٩، ٤٢٦٠، ٤٢٦١، ٤٢٦٤.

ثم تلقف اللواء القائد الثالث عبدالله بن رواحة؛ الخزرجى الأنصارى، الذى كان أحد النقباء فى بيعة العقبة، فجاءه ابن عم له بقطعة لحم قائلاً: شد بها صلبك؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فما كاد يقطع منها مضغة؛ حتى سمع الحطمة فى ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب، فقال لنفسه: وأنت فى الدنيا؟! ورمى بالطعام، ثم انتضى سيفه وهو يقول:

يَا نفسُ إنْ لم تُقتَلِي تَموتِي! ❁❁❁ هَذا حِمَامُ الموتِ قد صُلِيتِ!

ومَا تَمنيتِ فقد أُعطِيتِ! ❁❁❁ إنْ تَفعلِي فِعلَهُمَا هُدِيتِ!

وتقدَّمَ فقاتل حتى قُتل.

ثم أخذ اللواء الذى تداولته أيدى الأمراء الثلاثة: ثابت بن أقرم، وصاح: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فلما نظر إلى خالد بن الوليد؛ قال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: أنت أحق به، أنت رجل لك سِنٌّ؛ وقد شهدتَّ بدرًا، قال ثابت: خذه أيها الرجل، والله! ما أخذته إلا لك، وذلك الموقف من ثابت بن أقرم ليس تخوفًا من الموت ولا نكوصًا على الأعقاب، وإنما هو شعور منه بوجود الأكفأ فى القيادة، فهو قد حمل الراية؛ حتى لا تسقط.

فأخذ خالد بن الوليد اللواء، وشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا الموقف المتضايق؛ فإن الانسحاب بأقل الخسائر هو الأفضل فى تلك المعركة غير المتكافئة، ومما يدل على بسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى تلك الغزوة؛ قوله المدون فى الصحيح: لَقَدْ دُقَّ – أي كُسِر – فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِي يَدِي صَفِيحَةٌ لِي يَمَانِيَةٌ(٣٣٥).

وكان استشهاد عبدالله بن رواحة فى آخر النهار، ثم دخل الليل وخالد أمير الجيش يبلى بهم أحسن البلاء وينكل بالعدو أشد التنكيل؛ حتى حجز الظلام بين المتحاربين، فكانت هدنةً مؤقتة،

---

(٣٣٥) صحيح البخارى ٧/ ٥١٥ ح٤٢٦٥، ٤٢٦٦.

فلما أسفر الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة، فجعل المقدمة ساقه، والميمنة ميسرة.

وجعل هدفه مناوشة الرومان، بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت خطته فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه، وإنقاذ سمعة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدولة الكبرى.

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم انكشفت، وولت مهزومة.

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود- واللفظ له- من حديث عوف بن مالك الأشجعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِى غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، فَرَافَقَنِى مَدَدِىٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ، فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَزُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدَدِىُّ طَائِفَةً مِنْ جِلْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ عَلَيْهِ سَرْجٌ مُذْهَبٌ وَسِلاَحٌ مُذْهَبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِىُّ يُغْرِى بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمَدَدِىُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِىُّ فَعَرْقَبَ فَرَسَهُ فَخَرَّ وَعَلاَهُ فَقَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلاَحَهُ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَخَذَ مِنَ السَّلَبِ، قَالَ عَوْفٌ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّى اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ لأُعَرِّفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، قَالَ عَوْفٌ: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِىِّ وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ». الحديث بطوله(٣٣٦).

---

(٣٣٦) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير/ باب استحقاق القاتل سَلَب القتيل ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية رقم ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٦/٢٧، ٢٨، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب فى الإمام يمنع القاتل السلب ٣/١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩.

وفيه: أن المسلمين غنموا من الروم، وألحقوا بهم خسائر فادحة، فعلى أى شيء تكسرت الأسياف التسعة فى يد خالد؟! ثم ماذا صنع بالصفيحة اليمانية التى بقيت فى يده؟! ثم ماذا فعل أبو قتادة وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما من فرسان رسول الله ﷺ.

نعم: كانت هناك طائفة لاذت بالفرار لما رأت جموع الروم المحتشدة ولا حرج عليها فى ذلك؛ لأن الواحد منهم يقابله عشرات الأضعاف من الأعداد، يقول عبدالله بن عمر: لقينا العدو، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، واكتفى خالد بهذا النصر، وآثر الانحياز إلى النبى ﷺ الذى هو فئة كل مسلم، ورجع بالجيش إلى المدينة؛ فلم يكونوا فُرَّارًا، وإنما كانوا هم الكُرَّار(٣٣٧).

وفى هذه الغزوة: آيةٌ باهرة، وعلم من أعلام النبوة الظاهرة، ومعجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر الناسَ بوقائعها ساعة حدوثها؛ وهو على المنبر يخطب، فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ» قال أنس: وَعَيْنَاهُ ﷺ تَذْرِفَانِ، ثم قال ﷺ: «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»(٣٣٨).

كما أن عدد الشهداء فيها كان اثنى عشر رجلاً على أكثر تقدير؛ أربعة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار.

قال ابن كثير: وهذا عظيم جدًا؛ أن يتقابل جيشان متعاديان فى الدين، أحدهما: هو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل.. يتبارزون

---

(٣٣٧) راجع فى تفاصيل تلك الغزوة وما حصل فيها من غنائم: سنن أبى داود ٣/ ٦٢، ٧٣ ح٢٥٧٣، و٣/ ١٠٦، ١٠٧ ح٢٦٤٧، و٣/ ١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩، وأصله فى مسلم ٣/ ١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٢/ ١٠٠ ح٥٧٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٣: ٣٨٩، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٤٥٥: ٤٩١، وإمتاع الأسماع للمقريزى١/ ٣٤٤: ٣٥٢، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٠٩: ٤١٤.

(٣٣٨) صحيح البخارى ٣/ ١٦٦ ح١٢٤٦، و٦/ ١٦ ح٢٧٩٨، و٦/ ١٨٠ ح٣٠٦٣، و٧/ ١٠١ ح٣٧٥٧، و٧/ ٥١٢ ح٤٢٦٢.

ويتصاولون، ثم مع هذا كله: لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتِلَ من المشركين خلق كثير[٣٣٩].

فِي السَّنَـةِ الثَّامِنَةِ الهِجْرِيَّة ❁❁ بُورِكَـتِ الغَـزْوَةُ وَالسَّرِيَّـة
وَكَمْ أَتَى فِيهَا مِنَ الفَتْحِ المُبِينْ ❁❁ وَالانْتِصَارِلِجُيُوشِ المُسْلِمِينْ
إِلَّا الـذِي أَصَـابَ أَهْـلَ اللهِ ❁❁ زَيْـدًا وَجَـعْـفَـرًا وَعَـبـدَاللهِ
فِيمَا جَرَى عَلَى حُدُودِ الشَّامِ ❁❁ يَـومَ لِـقَـاءِ العُرْبِ وَالأَرْوَامِ
وَإِنَّ خَـالِـدًا لَسَيْـفُ اللهِ ❁❁ سَـمَّـاهُ إِذ ذَّاكَ رَسُـولُ اللهِ
وَأَحْسَـنَ التَّـدبِيـرَفِي الكِفَاحِ ❁❁ كَـبْشُ بَنِي مَخْزُومٍ لِلنِّطَاحِ

غزوةُ ذاتِ السَّلاسِل

وقعت هذه الغزوة فى جمادى الآخرة سنة ثمان فى قول الجمهور، وكان أميرهم فيها عمرو بن العاص، وأَمَره رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى مشارف الشام؛ حيث بلاد أخوال أبيه: العاص بن وائل السهمى؛ من بلى ومن يليهم من قضاعة ليتألفهم ويدعوهم إلى الإسلام، فلما وصل إلى ماء يقال له السلاسل؛ خاف غدر تلك القبائل الضارية، فبعث إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد، فبعث إليه بطائفة من المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر تحت قيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح، وعهد إليه: إذا لقيت صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، فلما قدموا على عمروٍ، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك؛ وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فلما رأى ذلك أبو عبيدة؛ وكان رجلاً حسن الخلق، لين الشيمة، قال: إن عصيتنى لأطيعنك، فسلم إليه الإمارة، وصلى عمرو بالناس.

وليس معنى ذلك أن عَمْرًا أفضل من أبى بكر وعُمَر وأبى عبيدة وغيرهم من السابقين الأولين

(٣٣٩) السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٩/٣.

إلى الإسلام والهجرة؛ بل لأنه أيقظ عينًا، وأبصر بالحرب، ولقد غضب عمر حين أمرهم عمرو بن العاص ألا ينوروا نارًا بالليل، فأخبره أبو بكر: أن رسول الله ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، ثم سار عمرو بالجيش؛ وقد بلغوا خمسمائة رجل، يواصلون الليل بالنهار فى السير، فكلما انتهى عمرو إلى موضع؛ قيل له: كان هنا جمعٌ فلما سمعوا بك تفرقوا، ولقى فى آخر ذلك على مشارف الشام جمعًا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، ثم حمل المسلمون عليهم فهربوا وتفرقوا فى البلاد، ودوخ عَمْرُو مَن هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون، وقد انزاح بهذا غبارٌ كثيرٌ عن سمعة المسلمين فى تلك البلاد(٣٤٠)، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

وفى طريق عودته وقعت حادثة لعمرو بن العاص تدل على حُسن فَهمه وجميل اجتهاده وعظيم فقهه... فى مقاصد الشريعة وتأويل نصوصها، وأقره النبى ﷺ على ذلك، فأخرج أبو داود وغيره بسند صحيح إلى عمرو بن العاص قال: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ: فتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الِاغْتِسَالِ، وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا(٣٤١).

(٣٤٠) تُراجع روايات تلك الغزوة عند الإمام البيهقى فى دلائل النبوة ٤/٣٩٧: ٤٠١.

(٣٤١) سنن أبى داود: كتاب الطهارة/ باب إذا خاف الجنب البرد: أيتيمم؟ ١/٢٣٨ ح٣٣٤، ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة ٤/٤٠٢، ٤٠٣.

الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ

وهكذا شُغل المسلمون بعد صلح الحديبية بنشر الدعوة وعَرضِ تعاليم الإسلام على كل ذى عقل، وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره فى العالم كله، وكان أول ذلك التغيير الجذرى هو: أَنْ فَتَحَ الله على المسلمين مكةَ التى كانت من قَبلُ قلعة الشرك وحصن المشركين، وكان ذلك الفتح العظيم فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

والسبب المباشر لذاك الفتح؛ يتضح فيما أخرجه البيهقي بسندٍ صحيح إلى ابن إسحاق قال: حَدَّثَنا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ جَمِيعًا، قَالَا: كَانَ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ: أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاثَبُوا خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْمُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةَ أَوِ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَهْدِهِ لَيْلًا بِمَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ «الْوَتِيرُ»[٣٤٢] قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، فَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ لِلضَّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ رَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.. يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ.. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ

---

(٣٤٢) (الوتير) في كلام العرب: الورد الأبيض، ويطلق على ماء لخزاعة.

سَالِمٍ» فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عنَانَةٌ(٣٤٣) فِي السَّمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ» وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ... وَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ الْعَقْدَ وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ»... ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ! مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ؟ أَوْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ شَيْءٌ بَعْدِي، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ، فلم يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ عُمَرُ: أَأَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ لَكُمْ إِلَّا الذَّرَّ –صِغار النمل– لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَمَسُّ الْقَوْمِ بِي رَحِمًا، وَأَقْرَبُهُمْ مِنِّي قَرَابَةً، وَقَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أَرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! وَاللهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ... الخبر بطوله(٣٤٤).

وهكذا أنجز الله للمسلمين ما وعدهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ وفتح لهم: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح].

وَافـتُـتِـحَـتْ مَـكَّـةُ شَـهْـرَ رَمَـضَـان ❁❁ وَهُـوَ الـذِي فِـيـهِ نُـزُولُ الـقُـرآن
وَقَـد أَمَـدَّتْ بَـكْـرَ بِـالـسِّـلَاحِ ❁❁ وَبِـالـرِّجَـالِ سَـادَةُ الـبِـطَـاحِ

(٣٤٣) جمعها: عنان، وهو السحاب.

(٣٤٤) دلائل النبوة للبيهقي ٥/٥: ٨، بسند حسن فيه: ابن إسحاق، وهو عند ابن هشام في السيرة ٢/٣٨٩: ٣٩٧.

فَبَيَّتُوا خُزَاعَةَ وَقَتَلُوا ❁❁ مِنْهُم رِجَالاً بِالوَتِيرِ نَزَلُوا

وَجَاءَ وَفْدٌ فِيهِمُ المِقْدَامُ ❁❁ عَمرُو بنُ سَالِمٍ وَمَا اسْتَسَامُوا

حَتَّى أَتَى بِقِصَّةِ الخِيَانَهْ ❁❁ وَطَلَبَ النَّجْدَةَ وَالإِعَانَهْ

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ❁❁ حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوعِدَا ❁❁ وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤَكَّدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا ❁❁ وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا أَبِي الزَّهْرَاءِ ❁❁ بِالدَّمعِ وَاستَعَدَّ لِلأَعدَاءِ

وَأَدْرَكَتْ مَكَّةُ مَا فِي الأَمْرِ ❁❁ فَأَرْسَلَتْ بِالعَبْقَرِي صَخْرِ

يُؤَكِّدُ العَهْدَ وَعِنْدَ رَمْلَه ❁❁ كَانَ نُزُولُه وَحَطَّ رَحْلَه

وَلَمْ يَجِد فِي طَيْبَةَ مَا يَهْوَى ❁❁ فَعَادَ رَاجِعًا بِغَيرِ جَدْوَى

وَقِيلَ مَن كَانَ يُعِزُّ دِينَهْ ❁❁ فَلْيَشْهَدِ الصِّيَامَ بِالمَدِينَهْ

وَاتَّخَذَ النَّبِيُّ أُهْبَةَ السَّفَرْ ❁❁ وَلَمْ يُبَيِّنْ لِلجَمَاهِيرِ الخَبَرْ

وَحَاطِبٌ مِنْ عُظَمَاءِ الصَّحْبِ ❁❁ قَدْ كَادَ يُفْشِي سِرَّ هَذا الحَرْبِ

وَأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى ❁❁ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى(*)

وَسَارَ فِي جَيْشٍ مِنَ الأَمْجَادِ ❁❁ وَمِنْ حُمَاةِ الحَضَرِ وَالبَوَادِي

فَمِنْ غِفَارِيٍّ وَمِن مُزَيْنَهْ ❁❁ وَالأَسْلَمِيينَ وَمِنْ جُهَيْنَه

(*) المجرور بحرف إلى: محذوف للعِلْمِ به، وهو (أهل مكة)، وقد ذكر السهيلى أن الْكِتَاب كان فيه: «إِنَّ النَّبِيّ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاَللهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَه» الروض الأنف ٨٦/٧، وحاطب بن أبي بلتعة صحابى شهد بدراً والحديبية، قال لرسول الله ﷺ: لا تعجل علي يا رسول الله، والله ما خنت الله ورسوله أبداً؛ ولكنه ما من أحد من أصحابك إلا وله في مكة من يحفظ أهله وماله بها، وليس لي أحد: فأردت أن أتخذ عندهم يداً يحفظ بها أهلي ومالي، وأنا أعلم أن ذلك لا يغني عنهم من شيء، فصدَّقه رسول الله ﷺ، وقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق الذي خان الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ:

عَشْـرَةُ آلافٍ وَكُـلُّ وَاحِـد ✿✿ فِي عَزْمِ جُنْـدِيٍّ وَرَاءَ الْقَـائِـد
مُسْتَخْلِفًا وَرَاءَهُ الضَّرِيـرَا ✿✿ صَيَّـرَهُ مِـن بَعْـدِهِ أَمِيـرَا

غَزوَةُ تَبوك والكِتَابُ الثَّانِى إلَى هِرَقل

فلما أَمَّنَ النبى ﷺ المدينة المنورة عاصمة الدولة المسلمة من الجنوب بفتح مكة والطائف فى العام الثامن الهجرى؛ استقبل ﷺ فى العام التاسع وفود القبائل المسلمة من كافة أقطار الجزيرة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، ثم أراد ﷺ أن يُؤَمِّن الدولة المسلمة من جهة الرومان فى الشمال؛ لأنهم أهل كتاب فالخطر من جهتهم أعظم، واختلاطهم بالعرب أكثر.. فاعتزم ﷺ أن يرسى العلائق بينه وبينهم على دعائم مكينة؛ حتى يكون الدعاة إلى دين الله أحرارًا فى عرضهم دين الله على الناس: إن راقهم قبلوه ودخلوا فيه؛ وإن ساءهم تركوه وانصرفوا عنه، أمَّا أن يحاربوا الدعاة ويصدوا الناس عن سبيل الله: فهذا يرفضه الإسلام ويقاومه بالقوة.

أشارت سورة التوبة إلى غزوة حنين فى ثلاث آيات من ٢٥: ٢٧، ثم فصَّلتْ أحوال الناس فى غزوة تبوك ضمن آيات كثيرة فى السورة نفسِها، بدأً من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

«مهلاً يا عمر إنه من أهل بدر، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونزل في ذلك الآيتين الأوليين من سورة الممتحنة. يراجع الهامش رقم ١٦٢.

فاستحثَّ الناسَ رسولُ الله ﷺ إلى غزو الروم فى تبوك، على أطراف الشام مع جزيرة العرب بجيشٍ سُمِّى جيش العسرة، وكان ذلك فى شهر رجب من العام التاسع للهجرة.

وكان من عادته ﷺ في الحرب أنه لا يريد غزوة إلا ورى غيرها(٣٤٥)، لكنه ﷺ أعلم أصحابه بالجهة التي يقصدها وذلك لبعد الشقة وعظم المشقة، حيث كان ذلك فى فصل الصيف سنة٦٣٠م؛ عند اشتداد الحر وطيب الظلال وجنى الثمار فى المدينة، أما فى الصحراء فإنها على العكس من ذلك؟، حيث يكابد الناس فيها شدة القيظ والقحط، قال عمر بن الخطاب: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطِشٌ؛ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَنْحَرُ بَعِيرَهُ: فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ ﷺ يَدَيهُ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ فَأَظْلَمَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَازَتِ الْعَسْكَرَ(٣٤٦).

ثم إن الصدام مع الروم ليس قتالاً لقبيلة محدودة العَدَدِ والعُدَدِ؛ بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على عدة قارات من العالم، وتملك موارد كثيرة من الأموال، وتقهر شعوبًا عديدة

---

(٣٤٥) أي إذا أراد السفر إلي جهة سأل عن مكان بجهة أخرى، فيظن الناس أن تجهزه للسفر يريد به ما سأل عنه، أما أن يصرح بجهة معينة ويريد غيرها فلا، وذلك مشروع في الحرب ليتحقق الهدف ويتم النصر.بأقل خسائر، وفي صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب إذا أراد غزوة ورى بغيرها ١١٢/٦ ،١١٣، من حديث طويل لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عز وجل عليهم – قال «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلا وَرَّى بِغَيْرِهَا».

(٣٤٦) إسناده حسن، وصححه ابن خزيمة، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، قال الهيثمى: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات. مجمع الزوائد ١٩٤/٦، ١٩٥، وينظر: السيرة النبوية لابن كثير ١٦/٤.

تحتل بلادها وتستنزف مواردها... فليتحامل المسلمون على أنفسهم، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض عليهم من تضحيات فى سبيل إعلام الناس بهذا الدين(٣٤٧).

لقد كانت هذه الغزوة درسًا عمليًا للمسلمين في نشر دين الله في العالمين لأنه ينبغي مقاتلة من يصد عن سبيل الله أو يحول دون تبليغ دينه للمكلفين ويبدو أن الرومان قد أحسوا بخطر المواجهة فلم يخرج منهم أحد إلى تبوك(٣٤٨)، فلم يلق النبي ﷺ، ولا أصحابه بها كيدًا ولا حربًا، فلم يخرج أحد من الرومان، وصالح النبى ﷺ نصارى العرب الضاربين فى هذه الأرجاء؛ لأنهم أيقنوا أن اعتمادهم على سادتهم الأقدمين لا فائدة منه، فدخل فى عهده ﷺ أصحاب أيلة وتيماء ودومة الجندل وغيرهم، وكانت الرسالة الثانية التى بعث بها رسول الله ﷺ وهو في تبوك إلى هرقل تأكيدًا لنشره ﷺ دين الله في العالمين.

أخرج الإمام أحمد(٣٤٩) بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد قال: لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ(٣٥٠) رَسُولَ

---

(٣٤٧) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤: ٥٠، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٤٧: ٤٥٤.

(٣٤٨) موضع شمال المملكة العربية السعودية بالقرب من حدود مصر والأردن، وكانت هذه الغزوة في رجب سنة ٩ هجرية، ورجع منها رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة نفسها. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٨/١/٢: ١٢١، الأطلس العربي ص ٣٥.

(٣٤٩) المسند ٤٤١/٣، ٤٤٢ ح١٥٦٥٥، وفى ٧٤/٤، ٧٥ ح١٦٦٩٤ من رواية: عبدالله ابن الإمام أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ حَوْثَرَةُ بْنُ أَشْرَسَ، إِمْلَاءً عَلَيَّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ.. بمعناه مختصرًا، ومسند أبى يعلى ح١٥٩٧ بالإسناد نفسه... بمعناه مطولاً، وقال الهيثمي: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك. مجمع الزوائد ٢٣٤/٨: ٢٣٦. وفات الهيثمى نسبته إلى الإمام أحمد، وهو الموضع الذى هنا، وضعف إسناده بعضهم، لأن فيه: سعيد بن أبى راشد لم يوثقه سوى ابن حبان؛ لكنه تابعى لم يجرحه أحد قبل ابن حبان ولا بعده، وما اعترض على توثيق ابن حبان له أحد من الأئمة، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به، وعزاه إلى الإمام أحمد. البداية والنهاية ١٥/٥، ١٦.

(٣٥٠) نسبة إلي تنوخ، ومعناها الإقامة، وأصلها: عدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا علي التناصر فأقاموا هناك

هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمْصَ– وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا– فَقُلْتُ: أَلا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبُوكَ، فَبَعَثَ دِحْيَةَ(٣٥١) الْكَلْبِيَّ إِلَى هِرَقْلَ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا قِسِّيسِي الرُّومِ وَبَطَارِقَتَهَا ثُمَّ أَغْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَابًا فَقَالَ: قَدْ نَزَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَيْثُ رَأَيْتُمْ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَدْعُونِي إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ: يَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ، أَوْ عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا– وَالأَرْضُ أَرْضُنَا– أَوْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ الْحَرْبَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ فِيمَا تَقْرَءُونَ مِنَ الْكُتُبِ: لَيَأْخُذَنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ، فَهَلُمَّ نَتَّبِعْهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ نُعْطِيهِ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا، فَنَخَرُوا نَخْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا: تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَدَعَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ نَكُونَ عَبِيدًا لأَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنَ الْحِجَازِ، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ أَفْسَدُوا عَلَيْهِ الرُّومَ رَفَّأَهُمْ(٣٥٢) وَلَمْ يَكَدْ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لَكُمْ لأَعْلَمَ صَلابَتَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، ثُمَّ دَعَا رَجُلاً مِنْ عَرَبِ تُجِيبَ(٣٥٣) كَانَ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: ادْعُ لِي رَجُلاً حَافِظًا لِلْحَدِيثِ عَرَبِيَّ اللِّسَانِ، أَبْعَثْهُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِجَوَابِ كِتَابِهِ، فَجَاءَ بِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ هِرَقْلُ كِتَابًا فَقَالَ: اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَمَا ضَيَّعْتَ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلاثَ خِصَالٍ، انْظُرْ: هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، وَانْظُرْ: إِذَا قَرَأَ كِتَابِي، فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ،

فسموا تنوخا. اللباب ١/ ٢٢٥.

(٣٥١) بمهملتين الأولى مكسورة وقد تفتح، والثانية ساكنة بعدها مثناة تحتانية، ابن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي مشهور أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان جبريل ينزل علي صورته، لأنه كان حسن الصورة، حتى كان يضرب به المثل في ذلك، وهو الذي حمل الرسالة الأولى من رسول الله ﷺ إلى هرقل في أول سنة ٧ أو آخر سنة ٦ من الهجرة. الإصابة ٣/ ١٩٢،١٩١.

(٣٥٢) أي سكَّنهم وهدَّأهم وأبدى لهم موافقته مداراة وتوددًا. لسان العرب ٣/ ١٦٨٥، ١٦٨٦.

(٣٥٣) بضم المثناة الفوقانية بعدها جيم فمثناة تحتانية فموحدة: إحدى قبائل العرب. اللباب في تهذيب الأنساب ٢٠٧/١.

وَانْظُرْ فِي ظَهْرِهِ، هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيبُكَ؟ فَانْطَلَقْتُ بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ مُحْتَبِيًا(٣٥٤) عَلَى الْمَاءِ فَقُلْتُ: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ؟ قِيلَ هَا هُوَ ذَا، فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي، فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ»؟ فَقُلْتُ: أَنَا أَحَدُ تَنُوخَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ فِي الإِسْلامِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ»؟ قُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ، لا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]، يَا أَخَا تَنُوخَ، إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْرَى فَمَزَّقَهُ، وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزِّقٌ مُلْكَهُ، وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا، وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ وَمُخْرِقٌ مُلْكَهُ(٣٥٥) وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْسًا مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ» قُلْتُ: هَذِهِ إِحْدَى الثَّلاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي، وَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي، ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلاً عَنْ يَسَارِهِ، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمْ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ؟ قَالُوا: مُعَاوِيَةُ، فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ»؟ قَالَ: فَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهُ فِي جِلْدِ سَيْفِي، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي، قَالَ: «إِنَّ لَكَ حَقًّا وَإِنَّكَ رَسُولٌ، فَلَوْ وُجِدَتْ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ جَوَّزْنَاكَ بِهَا، إِنَّا سُفْرٌ مُرْمِلُونَ»(٣٥٦).

---

(٣٥٤) أي جالسًا ضامًا رجليه إلي بطنه بيديه. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(٣٥٥) هذا مَلِك آخر وَلِيَ الحبشة، وكان نصرانيًا بعد وفاة النجاشي الذي كان قبله، لأن النجاشي الذي أسلم قديمًا وهاجر إليه المسلمون توفي في رجب سنة تسع من الهجرة، وقيل: توفي قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي ﷺ وأصحابُه صلاة الجنازة وهم بالمدينة، ومعني خرق: قطَّع وشقَّ ومزَّق، والله أعلم. ينظر: الإصابة ١/ ١٧٧، فتح الباري ٣/ ١١٦: ١١٨، ١٨٨، النهاية ٢/ ٢٦.

(٣٥٦) أي: إنا مسافرون قد نفد زادنا أو كاد ينفد. القاموس ٢/ ٥٠، ٣/ ٣٩٨.

قَالَ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ، قَالَ: أَنَا أُجَوِّزُهُ، فَفَتَحَ رَحْلَهُ، فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ(٣٥٧)، فَوَضَعَهَا فِي حَجْرِي، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ؟ قِيلَ لِي: عُثْمَانُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ يُنْزِلُ هَذَا الرَّجُلَ» فَقَالَ فَتًى مِنْ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَقَامَ الأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ» فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِمًا فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَلَّ حَبْوَتَهُ(٣٥٨) عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ: هَاهُنَا امْضِ(٣٥٩) لِمَا أُمِرْتَ لَهُ، فَجُلْتُ فِي ظَهْرِهِ، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ(٣٦٠) الْكَتِفِ مِثْلِ الْحَجْمَةِ(٣٦١) الضَّخْمَةِ.

وهذه معجزة ظاهرة وآية بينة، وعلامة من علامات النبوة الواضحة، حيث كان التنوخي قد شغل بالجائزة وكرم الضيافة عن الأمر الثالث الذي كان هرقل قد كلفه به، فنبهه إليه رسول الله ﷺ، ومع هذا فلم يؤمن التنوخي إلا بعد وفاة النبي ﷺ بزمن طويل، ومن ثم لم يذكره أحد فى الصحابة، واتفقوا على أنه تابعي، لكن حديثه متصل لقبولهم رواية المسلم البالغ لما تحمله قبلها في حال الكفر والصِّبَى(٣٦٢)، والله أعلم.

ونلحظ كيف تغير أسلوب الرسالة الثانية من رسول الله ﷺ إلى هرقل، إذ في الرسالة الأولى كان يعرض عليه الإسلام ويدعوه إلى الدخول فيه، أما في هذه الرسالة فقد تجهز إليه رسول الله ﷺ قاصدًا إليه في بلده وبعث له بالرسالة من مكان قريب يرغبه في الإسلام ويخيره

---

(٣٥٧) يعني ثوبًا مصبوغًا بنبات طيب الرائحة كالزعفران وغيره. ينظر: القاموس ٢/٧٣.

(٣٥٨) أي: ثوبه الذى يلبسه. النهاية ١/٣٣٥.

(٣٥٩) أي: دقِّق النظر لترى ما جئت من أجله (خاتم النبوة). لسان العرب ص ٤٢٣٥، ٤٢٣٦.

(٣٦٠) أي: ثنايا الجِلْد وتكسره بسبب عَظْم الكَتف. ينظر: مقاييس اللغة ٤/٤٢٧.

(٣٦١) الحَجْمُ من الشيء: ملمسه الناتئ تحت يدك. القاموس المحيط ١/١٠٩١.

(٣٦٢) ينظر: تدريب الراوي ١/٢٠٧، و٢/٤، تعجيل المنفعة ص ٥٣٥.

بين إحدى ثلاث: إما أن يقبل الإسلام ويدخل فيه، أو يؤدي الجزية، أو يبرز إليه في مكان الحرب حتى يحكم الله بينهما وتكون كلمته هي العليا.

حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع

ثم حج رسول الله ﷺ بالناس فى العام العاشر من الهجرة: حجة الوداع في أكثر من مائة وثلاثين ألف مسلم، بعد أن كانوا في صلح الحديبية خمس عشرة مائة على أكثر تقدير، وكانوا في فتح مكة نحو عشرة آلاف، وهكذا انتشر الإسلام واتسعت أرضه ودخل الناس في دين الله أفواجًا، قال أبو زرعة الرازى: قُبِضَ رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن رآه وسمع منه... كلٌّ رآه وسمع منه بعرفة(٣٦٣).

وخاطب الله عز وجل ذلك الجمع المحتشد في حجة الوداع ممتنًا على الأمة ونبيها ﷺ بتمام النعمة وإكمال الدين، وانحصار رقعة الكفر وكبت أهله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

إن هذا التوجيه من الله تعالى للأُمَّةِ المسلمة في ذاك الوقت ليس قاصرًا عليهم بل هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان ومكان...

فالمؤمنون حقًا هم الذين يرتضون ما رضيه الله لهم من هذا الدين، بمعناه الكامل الشامل، الذين يتخذون هذا الدين كله منهاجًا للحياة، حتى إن أشد الناس عداءً لهذه الأمة ليحسدونها على ما آتاها الله من فضله، وحباها بنعمه وكرمه، ففي أمهات كتب السنة الأصيلة ومصادرها

---

(٣٦٣) مقدمة ابن الصلاح ص٢٩٨، وتدريب الراوى ٢/ ٢٢٠.

الوثيقة بأسانيد صحيحة، عن طارق بن شهاب قال: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ(٣٦٤): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ(٣٦٥).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾: يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم، ويؤكد هذا: الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(٣٦٦) يعني أن الشيطان رضي بذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ معناه: لا تخافوا منهم في مخالفتكم لأهل الشرك، واخشوني أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة، وقوله:

---

(٣٦٤) اللفظ للإمام أحمد في المسند ١/ ٢٨.

(٣٦٥) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة: البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه ١/ ١٠٥، وفي كتاب المغازي/ باب حجة الوداع ٨/ ١٠٨، وفي كتاب التفسير/ سورة المائدة ٨/ ٢٦٨، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٣/ ٢٤٥، ومسلم في صحيحه: كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٢، والترمذي في جامعه: كتاب التفسير/ سورة المائدة ٥/ ٢٥٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في المجتبى من سننه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ٨/ ١١٣، ١١٤، وكان ذلك اليوم بالتقويم الشمسى هو الموافق ٥/ ٣/ ٦٣٢م، وراجع ما سبق فى هذا الجزء تحت عنوان «التَّأْرِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ».

(٣٦٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٤/ ٢١٦٦، والترمذي في جامعه: البر والصلة/ ما جاء في التباغض ٤/ ٣٣٠، وأحمد في مسنده ٣/ ٣١٣، ٣٥٤، والتحريش: هو إغراء بعضهم على بعضهم الآخر بإثارة التباغض والفتن والشحناء... ونحو ذلك مما يُوغر الصدور.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... فلما أكمل الدين لهم تمت بذلك النعمة عليهم، فارضَوْا لأنفسكم الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وأكمله لهم، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا(٣٦٧).

وهكذا ابتدأ الإسلام في غار حراء بمكة برسول الله ﷺ منفردًا وهو شاخص ببصره إلى السماء، وجبريل يقول له أنت رسول الله وأنا جبريل، وها هو ذا يكمل بجوار غار حراء عند الصخرات من جبل عرفة، وحول رسول الله ﷺ مائة وثلاثون ألفًا من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة(٣٦٨) يقتدون بالنبي ﷺ ويشاهدونه ويسمعون منه ويتلقون عنه، فتمت النعمة، وعظمت المنة، وكانت حجة البلاغ والوداع، وتم بناء صرح الإسلام الشامخ برسالة خاتم النبيين كما قال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»(٣٦٩).

---

(٣٦٧) تفسير الطبري: ٩/٥١٦: ٥١٨، وتفسير ابن كثير ٣/٢٢، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

(٣٦٨) ينظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ٣/١٩٨، ١٩٩.

(٣٦٩) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/١٧٩٠، ١٧٩١، عن أبي هريرة واللفظ له، وكذا نحوه عن جابر وأبي سعيد، وينظر مسند أحمد ٣/٩.

إعدادُهُ ﷺ خُلفاءَهُ لِتَحمُّل الأمانةِ

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه يثبت قدمه على الخطوة التالية ويمكن لها ولو لم يخطوها، فلما أحس ﷺ بدنو أجله وانتهاء عمره ليلحق بالرفيق الأعلى أراد أن يؤصل في نفوس أصحابه الوسيلة التي بها ينشرون دين الله في الأرض، وهي: الجهاد في سبيل الله عز وجل، لأن هذه الفريضة ذروة سنام الإسلام وبها يعبد الله وحده لا شريك له، مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشر، وحفظ الأنفس والأموال، ورعاية الحق، وصيانة العدل، وتعميم الخير ونشر الفضيلة، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

فأمر ﷺ بإنفاذ الجيش إلى بلاد الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة؛ ولمَّا يبلغ عمره عشرين سنة، وتحت لوائه كبار الصحابة وفضلاؤهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

ففى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر من العام الحادى عشر الهجرى: أمر رسول الله ﷺ بغزو الروم، وحثهم على الإسراع فى السير؛ حتى لا يسبقَهم الخبرُ إلى عدوهم، ووجههم إلى أُبنَى(٣٧٠) من أرض فلسطين بين الرملة وعسقلان، وبالقطع لا بد أن يمر الجيش بمؤتة التى استشهد بها الأمراء الثلاثة.

فلما كان يوم السبت بعد ابتداء مرض النبى ﷺ وقبل موته بيومين: دَعَا أُسَامَةَ فَقَالَ ﷺ:

---

(٣٧٠) (أُبْنَى): بضم الهمزة والقصر، وهى الآن تنطق بالياء (يُبْنَى): اسم موضع من فلسطين بين عسقلان والرملة شمال غزة. ينظر: معجم البلدان ١/ ٧٩.

«سِرْ إِلَى مَوضِعِ مَقْتَلِ أَبِيكَ؛ فَأَوْطِئْهُمُ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ، وَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أُبْنَى، وَحَرِّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعِ الْمَسِيرَ تَسْبِقِ الْخَبَرَ، فَإِنْ ظَفَّرَكَ اللَّهُ بهم، فَأَقِل اللَّبْث فِيهِمْ»(٣٧١).

ونلحظ أنه ﷺ زادَه فى التكليف بتجاوز مؤتة التى استشهد بها أبوه متوغلاً فى أرض الروم حتى يصل إلى أُبنَى غرب بيت المقدس بفلسطين.

ثم عقد ﷺ اللواء لأسامةَ بيده، فأخذه أسامةُ فدفعه إلى بريدة بن الحُصيب، فعسكر بالجُرف، وقد انتُدِبَ كثير من المهاجرين الأولين والأنصار فى جيشه، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب (وكان من أكبرهم) ومَن قال: إن أبا بكر كان فيهم؛ فقد غلط، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيِّم بالجُرف، وقد أمَر النبى ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس: فكيف يكون فى الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين، ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة فى الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام(٣٧٢).

وقال البخارى: بَعَثَ النبيُّ ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فى مرضه الذى توفى فيه، ثم أخرج من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رسول الله بعث بعثًا، وأَمَّر عليهم أسامة بن

---

(٣٧١) وفى سنن أبى داود بسند ضعيف أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «أَغِر عَلَى أُبنَى صَباحًا وَحَرِّق» كتاب الجهاد/ باب فى الحرق فى بلاد العدو ٣/٨٨ ح٢٦١٦، وفيه: أن التحريق والتخريب فى بلاد العدو جائز لضرورة الحرب إن وقع تبعًا لها. نيل الأوطار ٧/٢٥١، وسبل السلام ٤/٥١، ٥٢.

(٣٧٢) ينظر: صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ٢/١٦٤ ح٦٧٨، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ٢/٣١١: ٣١٦ ح٤١٨، ويراجع: هامش رقم ٣٣١، وعنوان: «استطراد فى هذا الفرع دفاعًا عن النبى ﷺ وأصحابه» بخصوص ما قيل فى مرض رسول الله ﷺ.

زيد، فطعن الناس فى إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»(٣٧٣).

ثم اشتد برسول الله ﷺ الوجع، فقال: «أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ» فَأَنْفَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الصديق بعد أن ولى الخلافة.

ثم لما توفى ﷺ استطلق الصديقُ عمرَ بن الخطاب من أسامةَ بن زيد واستأذنه فى الإقامة معه، وخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشيع أسامة، فركب من الجرف لهلال ربيع الآخر فى ثلاثة آلاف: وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى جَنْبِهِ سَاعَةً، ثُمّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك، إِنّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يُوصِيك، فَانْفُذْ لِأَمْرِ رسول الله ﷺ، فإني لَسْت آمُرُك وَلَا أَنْهَاك عَنْهُ، وَإِنّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرٍ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فخرج أسامةُ بالجيش سريعًا، فسار الجيش عشرين ليلة إلى الجهة التى وُجِّه إليها، وقَدَّم أسامةُ عينًا إلى أُبنى، فعاد فأخبره أن الناس غافلون؛ ولا جموع لهم، فعبَّأ أصحابه وأغار عليهم قبل أن يجتمعوا فقتل وسبى وحَرَّق، وقَتَلَ أسامةُ قاتِلَ أبيه، ثم رحل مساءًا حتى قدم المدينة، وقد غاب خمسة وثلاثين يومًا، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لى، فسألته فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، وعاش أسامة إلى سنة أربع وخمسين، وقيل قبلها، وكانت وفاته بالمدينة أو بوادى القرى، رحمه الله ورضى عنه(٣٧٤).

---

(٣٧٣) صحيح البخارى ح٤٤٦٩، وأصله فى ح٣٧٣٠، وراجع شرح الحديث فى فتح البارى ٨/ ١٥٢.

(٣٧٤) يراجع فى ذلك: فتح البارى ٧/ ٨٧، ٨/ ١٥٢ ح٤٤٦٩، والإصابة ١/ ٤٥ ترجمة أسامة، والسيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٤٤٠، ٤٤١، وإمتاع الأسماع ١/ ٥٣٥: ٥٤٠.

لُحُوقُه ﷺ بالرفيق الأعلى

نعم: فارق رسول الله ﷺ الدنيا بعدما استقر الوحي في صدور الرجال، وبطون الكتب، وأصبح للإسلام فيها دولةٌ قائمة، ودعوة واضحة، وقوة مهيبة، وسلطان يعصم دماء المؤمنين وأموالهم، ويرد نزوات السفهاء عنهم، واتسعت الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم، حتى شملت الجزيرة كلها: من أطراف الشام إلى أقصى اليمن، ومن الخليج العربي إلى شواطئ البحر الأحمر، وأخذ أمر الإسلام يعلو، والرقعة التي يسودها تتسع، والأفواج التي تدخل فيه تزداد يومًا بعد يوم، نتيجة جهد دؤوب، وعطاء غير محدود طيلة ثلاث وعشرين سنة، من حياة رسول الله ﷺ هي مدة الوحي وزمن الرسالة، وقد استنار وجه رسول الله ﷺ حتى كأنه مُذْهَبَة، وذلك حين رمق المصلين في مسجده، وهم صفوف خلف أبى بكر يستمعون القرآن وينصتون له في خشوع ويقين، والدنيا في طول الجزيرة وعرضها تَدِين بهذا الكتاب، والأمة والدولة كلتاهما سند له وأشياع وحراس، كيف لا؟ وهو روحهم وحياتهم وعقيدتهم ومنهجهم ودستورهم وسر سعادتهم وسبب عزهم، والعناية بأمره لا تحتاج إلى تكلف أو مشقة.

قال الإمام ابن حزم: ثمَّ حَضرته ﷺ المَنِيَّةُ وأيقن بِالْمُوْتِ، وَله عَمٌّ أَخُو أَبِيه هُوَ أحبُ النَّاس إِلَيْهِ، وَابْنُ عَمٍ هُوَ من أخصِّ النَّاس بِهِ، وَهُوَ أَيْضًا زوجُ ابْنَته الَّتِي لَا وَلَدَ لَهُ غيرَهَا، وَله مِنْهَا ابنان ذَكَران، وكِلا الرَّجُلَيْن الْمَذْكُورين عَمِّه وَابْنِ عَمِّه: عِنْده من الْفضلِ وَالدّينِ والسياسةِ فِي الدُّنْيَا والبأس والحلم وخلال الْخَيْر.. مَا كَانَ كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقًا -جديرًا- بسياسةِ الْعَالمِ كُلِّه: فَلم يُحَابِهما، وهُما مِن أَشد النَّاسِ غِنَاءًا عَنهُ ومَحَبَّةً فِيهِ، وَهُوَ من أحبِّ النَّاسِ فيهمَا؛ إِذْ كَانَ غَيرُهمَا مُتَقَدما لَهما فِي الْفضل، وَإِن كان بعيدَ النّسَب مِنْهُ؛ بل فَوَّضَ الْأَمرَ إِلَيْهِ قَاصِدًا إِلَى مُرِّ الْحق وَاتِّبَاع مَا أَمَرَ بِهِ، وَلم يُورِّث وَرَثَته ابْنَته ونِسَاءَه وَعَمَّه فِلسًا فَمَا فَوْقَه، وهُم كلُّهم أحبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وأطوعُهُم لَهُ، وَهَذِه أُمُور لمن تأملها كَافِيَةٌ مغنيَةٌ فِي أَنه إِنَّمَا تَصَرَّفَ بِأَمْر الله تَعَالَى لَا بسياسةٍ وَلَا

بهوى: فوضحَ بِمَا ذكرنَا، وَلله الحَمدُ كثيرًا أَن نبوة مُحَمَّدٍ ﷺ حقٌ، وَأَن شَرِيعَته الَّتِي أَتَى بهَا هِيَ الَّتِي وَضَحَت براهينُها واضطرت دَلائِلُها إِلَى تَصدِيقِها، وَالْقطع على أَنَّهَا الْحقُّ الَّذِي لَا حَقَّ سِواهُ، وَأَنَّهَا دِينُ اللهِ تَعَالَى الَّذِي لَا دِينَ لَهُ فِي الْعَالمِ غَيرُه، وَالْحَمْدُ للهِ ربِ الْعَالمينَ عَدَدَ خَلقِهِ ورِضَا نَفسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ(٣٧٥).

• وبعدَ أنْ لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى فى ضُحى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر من الهجرة النبوية الموافق ٦٣٢/٦/٧م: بايع الناسُ أبا بكر الصديق بالخلافة وقد لخص ذلك الشيخ محمد سالم البيحانى فقال:

أَحَـقُّ أَهْـلِ الأَرضِ بِـالخِـلَافَـةْ ❁❁ بَـعْـدَ الـنَّـبِيِّ ابنُ أَبِي قُـحَـافَـةْ
سَـيِّـدُنَـا الـصِّـدِّيـقُ عَـبـدُاللهِ ❁❁ خَـيْـرُ إِمَـامٍ آمِـرٍ وَنَـاهِـي
وَخُـطْبَـةُ الـصِّدِّيقُ كَانَت جَامِعَـه ❁❁ لأمْـرِهِـم وَكُلُّـهُـم قَدْ بَـايَـعَـهْ
إِلاَّ الـقَـلِـيـلُ مِـنْـهُـمُ ولِـعُـذرِ ❁❁ وَأَنـتَ قَـدْ تَـدْرِي وَقَـدْ لا تَـدْرِي
وَأَوَّلُ الـمُـبَـايِـعِـيـن عُـمَـرُ ❁❁ ثُـمَّ أَبُـو عُـبَـيـدَةَ الـمُـبَـشَّـرُ
وَجَـاءَ فِي خُـطـبَـةِ هَـذا الـوَالِي ❁❁ مَـا صَـدَّقَ الأَقـوَالَ بِالأَفـعَـالِ
أَضعَـفُكُم عِندِي القَـوِيُّ الجَانِبُ ❁❁ مِـن أَبـعَـدِ الـنَّـاسِ أَوِ الأَقَـارِبِ
وَإِنَّ أَقْـوَى رَجُـلٍ عَـلَـيَّـا ❁❁ صَـاحِـبُ حَـقٍّ يَـبْـتَـغِي لَـدَيَّـا
حَـتَّى يُـؤدِّي الـقَـوِيُّ الـحَـقَّـا ❁❁ وَيَـأخُـذَ الـضَّـعِيفُ مَا استَحَقَّا
وَفِي عَـزِيـمَـةٍ وَفِي صَـرامَـهْ ❁❁ نَـفَّـذَ جَـيـشًـا قَـادَهُ أُسَـامَـهْ
فَـأَصبَـحَ الإِسْـلامُ فِي الـجَـزِيـرَة ❁❁ يُـضِـيءُ مِـثْـلَ الـشَّمسِ فِي الـظَّـهِيرَة

---

(٣٧٥) الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٣٤١، ٣٤٣ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، وراجع لأهميته هنا ما سبق في هذا الجزء– قسم الهجرة العامة: «الْهُجْرُ بِمَعْنَى الْهَذَيَانِ وَالْفُحْشِ» لاسيما «استِطرَادٌ فِي هَذَا الفَرعِ دِفَاعًا عَنِ النَّبِى ﷺ وَأَصحَابِهِ» ١٥/٢ : ٢٥ حول كلمة وردت في الحديث المتفق عليه: «.. فَتَنَازَعُوا، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: مَا لَهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ؟..».

وَهَبَّتِ الآسَادُ مِنْ عَرِينِهَا ❁❁ لِنَشْرِ عِلمِهَا وَنَشْرِ دِينِهَا
وَجَاءَ فِي وَصِيَّةِ الصِّدِّيقِ ❁❁ مَا يُرشِدُ النَّاسَ إِلَى الطَّرِيقِ
فَنَمْ أَبَا بَكْرِ قَرِيرَ العَينِ ❁❁ وَقُمْ إِلَى المَحْشَرِ ثَانِيَ اثْنَينِ

وهكذا: حَمَلَ أصحابُ رسول الله ﷺ راية الإسلام ليؤدوا الأمانة ويواصلوا المهمة التي عهد بها إليهم نبيهم ﷺ، فأخذوا ينساحون في الأرض؛ لينشروا في العالمين ضياء الإسلام في دنيا الناس ويبددوا به الظلمات، ويزيلوا به الغشاوات، وصاروا كالغيث النافع في الأرض الطيبة: أحيا الله بهم البلاد وأسعد بهم العباد، فكانوا خير خلف لخير سلف.

وهكذا: أصبحت كلمة الإسلام بعد رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ تعني كل ما جاء به من عقائد وتشريعات وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق، وصارت -عند النطق بها أو سماعها- عَلَمًا على هذا الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لجميع المكلفين الذين بلغتهم دعوة الإسلام في أي زمان أو مكان، سواء في ذلك منهم: مَن قَبِلَه أو أَعرَضَ عنه، أو أذعن له أو ندَّ عنه، أو دَعَا إليه أو صَدَّ عنه، أو كان على ملةٍ صحيحة لم تبدل، أو على ملة حُرِّفت وبُدِّلت، أو لا ملة له ولا اعتقاد، أخرج مسلم وغيره(٣٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فمن سمع أو علم برسالة سيدنا محمد ﷺ وبمعجزاته، ثم أصر على كفره، ومات على ذلك فهو من المخلدين في النار، وذلك لأن رسالة نبينا محمد ﷺ نسخت جميع الملل قبلها، وأن شرعه

---

(٣٧٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلي جميع الناس ونسخ الملل بملته ١/١٣٤، مسند أحمد ٢/٣١٧، ٣٥٠، وينظر شرح النووي صحيح مسلم ١/٣٦٩، وللحديث شاهد عن أبي موسى الأشعري أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٣٦٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٨/٢٦١، ٢٦٢ والمراد (بالأمة في الحديث): أُمَّة الدعوة، وليست أُمَّة الاجابة.

ﷺ أبطل كل تشريع سابق عليه، وأما من لم تبلغه الدعوة فهو معذور لا عقاب عليه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وكذا من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها، وتخصيص اليهودي والنصراني في الحديث للتنبيه على مَن سواهما، إذ اليهود والنصارى لهم كتاب، فغيرهم ممن لا كتاب لهم من باب أولى(٣٧٧).

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تصرح بعموم رسالته ﷺ للخلق عامة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي السنة المشرفة قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه(٣٧٨): «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» وفيه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» وفي رواية لمسلم: «وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» وفي رواياته: «وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً».

وليس معنى أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة: أنه يأتي بدين غير الإسلام كاليهودية أو النصرانية مثلاً، بل معناه: أنه كان يبعث بالإسلام إلى قومه الذين أرسل إليهم، وكُلِّفَ بدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فكان هذا تخفيفًا على نبي ذاك الزمان ورفقًا به، ورحمة بأمته ورأفة بها، إذ كانت أحوالهم

---

(٣٧٧) ينظر فتح المنعم ٢/٢٥٢: ٢٥٤

(٣٧٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، قول النبي ﷺ «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» ١/٥٣٣، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١٣٧٠، وكذا عن أبي هريرة بلفظ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ... وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»، وأحمد ٣/٣٠٤.

البيئية وظروفهم المعيشية تقتضي ملازمةَ كل رسول لقومه وكل نبي لأمته، وتَفَرُّغَ كلٍّ واحدٍ منهم لأتباعه، وتعهدَه بهم، ومعايشتَه لهم وقربَه منهم، وعدمَ الانشغالِ بسواهم، ليكون أبصرَ بدائهم، وأخبرَ بدوائهم، وأعلمَ بما ينفعُهم ويُفيدُهم، وذلك مثلُ كليم الله موسى وأخيه هارون مع بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف].

أما خاتم النبيين الذي كلفه ربه بتبليغ الرسالة للعالمين، فإن ذلك كان تشريفًا لقدره، ورفعة لذكره، وإكرامًا لأمته التي بلغت حدَّ النضجِ والكمال، فتحمَّلت أعباءَ الرسالة وأمانةَ هذا الدين وكانت بحقٍّ خيرَ أمة أُخرجت في العالمين.

وربما يفهم البعض من قول الله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المائدة: ٤٨]، أن لكل أمة من الأمم السابقة دينًا خاصًا بها أو اعتقادا تتميز به على غيرها.

والحق: أن الإسلام عالمي منذ نشأته تسميةً ومضمونا، وهو الذي بُعِثَ من أجله كلُّ نبي، وأُرسل به كل رسول، وأُنزل بيانًا له كلُّ كتاب.

وهكذا: لم يترك النبي ﷺ الدنيا، ولم يفارق هذه الحياة، وما لحق بالرفيق الأعلى... إلَّا بعد أن أدى رسالته وبلغها للناس على أكمل وجه وأتمه، وأبان لهم الحجة، وأوضح لهم المحجة، وتركهم على البيضاء ليلِها كنهارها لا يزيغ عنها إلَّا هالك.

وبهذا تنتهى هذه اللمحات السَّنية من سيرة خير البرية ﷺ لكنها باقية فى قلب كل مسلم؛ ليسترشد بها فى سلوكه وأخلاقه وعباداته ومعاملاته، وينتفعَ بها على أحسن حال وأكملِه، ويهتدىَ بها إلى أقوم طريق وأعدلِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل].

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المُقَدِّمَة	٣ : ١٢
خصائِصُ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وثَمَرَةُ دِرَاسَتِهَا	١٣ : ٢٠
دُعَاءُ إبرَاهِيمَ بِبَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ	٢٠ : ٢٣
أُمُّ إسْمَاعِيلَ ونَبعُ زَمْزَمَ	٢٣ : ٢٩
خَبَرُ تُبَّعٍ وإسْلامِه	٣٠ : ٣٧
مَوْلِدُهُ ﷺ	٣٨ : ٤٢
نَشأتُه ﷺ يَتيمًا وتَربِيَةُ اللهِ لَه	٤٣ ، ٤٤
شَقُّ الصَّدْرِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ	٤٤ : ٤٦
حِمَايَتُهُ ﷺ مِنَ الْبَاطِلِ وَنَهْيُه ﷺ لِمَن رَآهُ يَفْعَلُهُ	٤٧
تَحْكِيمُه ﷺ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَشَهَادَةُ قَوْمِهِ لَهُ	٤٨ ، ٤٩
كَيْفِيَّةُ زَوَاجِهِ ﷺ الْمُوَافِقَةُ لاِصْطِفَاءِ اللهِ لَهُ كَمَا نَقَلَهَا الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ	٥٠ : ٥٣
كَثْرَةُ الإِرْهَاصَاتِ قَبْلَ بَعْثَتِه ﷺ	٥٣ : ٦٣
حَدِيثُ بَدءِ الوَحيِ ومَا يُستَفَادُ مِنه	٦٤ : ٨١
لَمْ يُوحَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَنَامًا	٨١ : ٨٤
فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا	٨٥ : ٩٢
فِقهُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ وفَضلُهم	٩٢ : ١٠٦
١ – خَدِيجَةُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَآزَرَتْ رَسُولَهُ ﷺ	٩٣ : ١٠٠
فَضْلُهَا وَرَجَاحَةُ عَقْلِهَا وَالأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ	٩٥ ، ٩٦

الموضوع	رقم الصفحة
بِشَارَتُهَا بِبَيْتٍ فِى الجَنَّةِ وَالحِكْمَةُ مِنْهُ	٩٦ : ٩٨
حِفْظُهُ ﷺ لِوُدِّهَا وَعَهْدِهَا	٩٨ : ١٠٠
٢- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِى	١٠٠، ١٠١
٣- أَبُو بَكْرٍ أَوَّلُ السَّابِقِينَ وَأَنْفَعُهُمْ لِلدِّينِ	١٠١ : ١٠٦
السَّابِقونَ الذين امْتُحِنُوا بالْفِتْنَةِ والأُسْوَةُ بِهِم فى ذَلِك	١٠٦ : ١١٤
تَحْقِيقٌ حَوْلَ فِتْنَةِ السَّابِقِينَ وَ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ	١١٤ : ١٢٠
الدَّعْوَةُ مِن بَدْءِ البَعْثَةِ	١٢٠ ، ١٢١
إِسْلاَمُ أَبِى ذَرٍّ وَصَدْعُهُ بِكَلِمَةِ الحَقِّ	١٢٢ : ١٢٤
الدُّرُوسُ وَالْعِبَرُ فِى تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ	١٢٤ : ١٤٠
١- فِقْهُ الصحابةِ فى التخفِى والاقتداءُ بهم فى ذلك عند الفتنِ	١٢٥ : ١٢٧
٢- الحيطة والحذر مع اتساعِ نطاقِ الدعوةِ	١٢٧ : ١٣٠
٣- عَالميةُ الإسلامِ مِن مُبْتَدأِ البَعْثَةِ	١٣٠ : ١٣٥
إذَن: لَمْ يَسْتَخْفِ ﷺ بِدَعْوَتِهِ	١٣٥ : ١٤٠
هِجْرَةُ الصَّحَابَةِ إِلَى أَرضِ الْحَبَشَةِ	١٤٠ : ١٤٨
إِسْلاَمُ النَّجَاشِى وَمَنْ شَابَهَهُ فِى صَنِيعِهِ	١٤٩ : ١٥٢
إِسْلاَمُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	١٥٢ : ١٦٠
خُرُوجُهُ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ بَحْثًا عَن مَكَانٍ آمِنٍ لِنَشرِ الدَّعوَة	١٦١ : ١٦٥
الاِتِّصَالُ بِالأَنْصَارِ وَاسْتِجَابَتُهُمْ	١٦٦ : ١٦٩
مُبَايَعَةُ الأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ	١٦٩ : ١٧٣

الموضوع	رقم الصفحة
الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ	١٧٤ : ١٨٣
طَلَائِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ	١٨٣
مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهِجْرَةِ	١٨٤ : ١٩٠
بَيتُ أَبِى سَلَمَةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ	١٨٤ : ١٨٦
أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير	١٨٦ ، ١٨٧
تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ	١٨٨ : ١٩٠
هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ	١٩٠ : ٢٠٩
يَوْمُ الْهِجْرَةِ	١٩٢ : ١٩٤
لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ	١٩٥ : ٢٠٣
اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ	٢٠٤ ، ٢٠٥
بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ	٢٠٥ : ٢٠٩
تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِى مَدِينَتِهِ	٢٠٩ : ٢١٥
صُهَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقصةُ هِجْرَتِهِ	٢١٠ : ٢١٥
العِفَّةُ والإِيثَارُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار	٢١٥ : ٢٢١
الإِسلامُ وتَربِيَتُهُ لأَمثَلِ مُجتَمَعٍ وإِقَامَتُهُ لأَكمَلِ دَولَة فِى التعَامُلِ مَع الغَيرِ	٢٢١ : ٢٢٧
لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزْوَاتِ	٢٢٨ : ٢٦٤
تَمحِيصٌ للمُؤمنينَ فى بَدرٍ وأُحُد	٢٢٨ : ٢٣٨
خَطَرُ النِّفَاقِ وَاليَهُودِ عَلَى الدَّولَةِ النَّاشِئَةِ	٢٣٨ : ٢٤٣
شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ	٢٤٣ : ٢٥٥

الموضوع	رقم الصفحة
فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ	٢٤٤ : ٢٤٧
عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهِم	٢٤٨ : ٢٥٥
غَزوَةُ الخَندَقُ وبِدايَةُ الاستِقرَارِ	٢٥٥ : ٢٦٤
الدَّعوةُ العَمَليَّةُ وصُلْحُ الحُدَيبِيَةِ	٢٦٤ : ٣٠٣
هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم	٢٦٩ : ٢٧٥
غَزْوَةُ مُؤتَة	٢٧٦ : ٢٨٢
غزوةُ ذاتِ السَّلاسِلِ	٢٨٢ ، ٢٨٣
الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ	٢٨٤ : ٢٨٧
غَزوَةُ تبُوك والكِتَابُ الثَّانِى إِلَى هِرَقل	٢٨٧ : ٢٩٣
حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع	٢٩٣ : ٢٩٥
إعدادُهُ ﷺ خُلفاءَهُ لِتَحمُّلِ الأمانةِ	٢٩٦ : ٢٩٨
لحُوقُه ﷺ بِالرفيقِ الأعلى	٢٩٩ : ٣٠٣
فهرس الموضوعات	٣٠٤ : ٣٠٧

وَالحَمدُ للَّهِ الذى بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الْمُرسَلِ رَحمَةً لِجميعِ المَخلُوقَاتِ.

قُطُوفٌ مِنَ

المَعِينِ الرَّائِقِ

في سِيرَةِ خَيرِ الخَلائِقِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزء الثاني: الهجرة النبوية

إعداد وتأليف الدكتور

سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ بْنِ صَوَابِي

أستاذ الحديث الشريف وعلومه

كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

الطبعة السادسة

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف
١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع
بدار الكتب والوثائق المصرية
٢٠١٥/١٠٩٤٣م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمدُ لِلَّهِ على وافرِ فضلِهِ وقديمِ إحسانِه، وسابغِ نِعَمِهِ وكريمِ امتنانِه، أحمدُه حمدًا لا ينقطع أوَّلُه؛ ولا يَنفَدُ آخره، حمدًا يُرضيه ويَرتضيه؛ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على صفوةِ خلقِه، وخيرتِه من عبادِه: سيدِنا ونبيِّنا وحبيبِنا... محمدٍ ﷺ، وعلى جميع آلِهِ وأصحابِهِ، وأتباعِهِ وأحبابِه، وكل من تبعهم بإيمانٍ وإحسانٍ إلى يومِ الدينِ: وأدخلْنا اللَّهُمَّ جميعًا برحمتِك فى عبادِك الصالحينَ، اللَّهُمَّ آمِينَ، أَمَّا بَعْدُ:-

فلقد سبق لنا – بكرم الله وتسديده- كتابة ثلاثة بحوث فى هذه السيرة المباركة فى الجزء الأول من هذا الكتاب، وقد ركزتُ الدراسةَ فيه على العناصر التى تميز شخصية الرسول ﷺ عن غيره، وتختص به دون سواه: كالمبشرات به ﷺ قبل مولده، وما تميزت به شخصيته ﷺ من الصيانة فى نشأته، ثم كان الوحى الذى هو أكبر الدعائم التى ترتكز عليها حقيقة الرسالة، وهو الذى دارت حوله اللجاجة والجدل؛ وهو الذى جعله ﷺ متميزًا على سائر من عداه، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] و [فصلت:٦].

ولذا: أخذتْ دراستُه حيزًا كبيرًا؛ للرد على شبهات المستشرقين ومَن سار فى ركابهم من المسلمين مستندين فى ذلك إلى بعض العلل الخفية فى الأحاديث الصحيحة التى توجب أحيانًا ضعف الحديث والقدح فيه، وأحيانًا أخرى لا تؤثر فى قوته وصحته.

فمثال الأول: الزيادة فى آخر حديث عائشة عن بدء الوحى عند البخارى وغيره[1].

---

(١) وقد حققتُ القولَ فى الحديث بصفةٍ عامة، تحت عنوان: «حَدِيثُ بَدءِ الوَحيِ ومَا يُستَفادُ مِنه»، وحققت تلك الزيادة

ومثال الثانى: أعنى: ما يتوهمه بعض الناس عن جهلٍ أو عمدٍ من فهم خاطئ لأحد ألفاظ الحديث الصحيح؛ كسؤال هرقل لأبى سفيان عن رسول الله ﷺ: فأشراف الناس يَتَّبِعُونَهُ أم ضعفاؤُهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم...(٢) الحديث عند البخارى وغيره.

وقد اجتهدت ما وسعنى الجَهد؛ وحَرَصتُ كل الحرص: أن يكون الأئمة الذين أخرجوا الحديث فى مصنفاتهم؛ لاسيما البخارى ومسلم هم الذين يكشفون تلك العلة، ويظهرون ضعفها فى ذاك الحديث؛ حتى لايتجرأ أحد على الطعن فى الصحيحين، أو النيل من أحدهما، فضلاً عن كتب السنة الأخرى.

وأما الأحاديث الضعيفة: فالبلاء فيها أعظم، والفتنة بها أطم وأعم، وما أكثرها فى السيرة النبوية! فالمستشرقون: ينسجون منها قصصًا وتخيلات لا حقيقة لها ولا أصل، والسطحيون من المسلمين يستنبطون منها أحكامًا، وينشئون من فهمهم لها قواعد لا أصل لها، وقد يُخدعون بحكم أحد الحفاظ على سند الحديث بأن رواتِه كلَّهم عدولٌ ضابطون، أو قد أخرج لهم الشيخان، ونحو ذلك من الأحكام التى لا تقطع بصحة الحديث، لأنها اقتصرت على شرطين فقط من الشروط الخمسة التى يجب توافرها فى الحديث حتى يكون صحيحًا، فالتحقيق لمثل هذه الأحاديث آكد وأوجب، والله المستعان(٣).

بصفةٍ خاصة، تحت عناوين: «زَعْمٌ فاسدٌ وفِرْيَة مَرْدُودَة» و «افْتِرَاءَاتٌ وَمَزَاعِمُ يُبْطِلُهَا الْقُرْآنُ وَحَدِيثُ أَبِى الْقَاسِمِ» و «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا»، ولله الحمد.

(٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب عند الهامش رقم٣١٧ للرد على المستشرق النصرانى ر.ف.بودلى: الذى زعم أن السابقين إلى الإسلام هم من التجار المخفِقين أو الرجال الساخطين، فبيَّنَّا فساد قوله، تحت عنوان: «فِقهُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ وفَضلُهم» وما بعده من بحوث.

(٣)راجع فى الجزء الأول ما ورد من الأحاديث الضعيفة فى تزويج النبى ﷺ بأم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكيف فُتِن بها

وهكذا: ما حقَقْتُ جزئيةً فى ذاك الجزء: إلا أوضحت سببها، مع الالتزام بأدب أهل العلم وطلابه(٤)، وما تعرضتُّ لمسألة فيها خلاف: إلا نقلت أرجح الأقوال فيها، مع تدعيمه بالأدلة، والاكتفاء فقط بالإشارة إلى الآراء الأخرى، ليرجع إليها من أحب، وذلك دون أن يشعر القارئ بأنه يتعرض لمسألة خلافية، أو يتعرف على حقيقة مختلف فيها(٥).

وها نحن أولاء- بعون الله وفضله- نواصل مسيرتنا فنجدد الطبعة السادسة للجزء الثانى من كتاب: «المَعِين الرَّائِق مِن سِيرَةِ خَيرِ الخَلائِقِ ﷺ» فى سلسلة الدراسات التحليلية لقضايا وأحداث السيرة النبوية، وهذا الجزء يبدأ من هجرة النبى أبى القاسم: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، صاحب اللواء المرفوع فى: عبدمناف بن قصى، ذى الفرع المُنيف الشريف فى: كعب بن لؤى، الراسخ الأصل فى: مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ الموصول النسب بإسماعيل بن إبراهيم: عليهم جميعًا من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ وذلك حتى إعداده ﷺ خلفاءه لتحمل الأمانة من بعده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى(٦).

وهذا- بحمدِ اللهِ وتوفيقِه- عَوْدٌ حَمِيدٌ كَرِيمٌ، لإعادة طبع ما سبقت كتابَتُهُ فى هذه الدراسةِ التحليليةِ للسيرةِ النبويةِ: التى لا يَنضبُ مَعِينُها، ولا يغيض نَبعُها، ولا يتناهى خيرُها، ولا ينقطع

بعض المسلمين، واستغلها المستشرقون على أسوأ حال، وذلك عند الهامش رقم ١٦٠.

(٤) اقرأ على سبيل المثال في الجزء الأول: «اصطفاءُ اللهِ نَبيَّهُ ﷺ نسبًا ونشأةً» وما بعده، و «إِسلاَمُ النَّجَاشِى وَمَن شَابَهَهُ فِى صَنِيعِهِ» و «وَفَاةُ أَبِى طَالِب». وسيرى القارئ: كيف يكون الأدب مع العلماء إذا اختلفت وجهات النظر، ويُستَثنى من ذلك: حِدَّتُنَا على المستشرقين الذين يطعنون فى دين الله تعالى وكتابه ورسوله وسلف هذه الأمة.

(٥) راجع على سبيل المثال في الجزء الأول: «تَحقِيقٌ حَولَ فِتنَةِ السَّابِقِينَ وَإِكرَاهِهِم عَلَى الكُفْر» و «الدَّعوَةُ مِن بَدءِ البَعثَةِ».

(٦) ينظر: كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، لتقى الدين أحمد بن على المقريزى، تحت عنوان: ما جاء فى أسمائه ﷺ ونسب أبيه ٣/١ تصحيح وشرح الأستاذ محمد شاكر.

مددُها، ولا تنعدم بركتُها، ولا تنقطع ثمرتُها... نفعنا الله وجميعَ المسلمين بها وبصاحبها ﷺ فى الآخرة والأولى، وهدانا بإيماننا، وأكرمنا بصالح عملنا، وبارك لنا فى سعينا، ووفقنا لخدمة شرعه والقيام بدينه، وعفا عن زللنا وخطئنا، ووقانا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ورزقنا الرضا به والرضا عنه، حتى يرضَى عنا: رِضًا لا يَسْخَطُ علينا بعده أبدًا برحمته وهو أرحم الراحمين؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد انتقيت من هذا الجزء الثاني قطوفًا من المعين الرائق، تبدأ: بتجلية المراد من كلمة الهجرة لغة وشرعًا؛ مع سرد أقوال الأئمة والموازنة بينها، والانتهاء بذلك إلى تعريفٍ جامعٍ لكل طرائقها الشرعيةِ التى سلكها الأولون والآخرون، وبيان صلة المهاجرين إلى المدينة بأصل كلمة الهجرة وفروعها.

ثم شَرَعتُ فى سرد أحداث الهجرةِ النبوية حَسْبَ وقوعِها، وتفهُّمِ قضاياها وِفْقَ ورودِها، بتنوع بحوثها، وتجدد أحداثها، وتوضيح ذلك بنماذجَ محققةٍ من سيرةِ خيرِ البريةِ ﷺ، وحياةِ أصحابه الأطهار من المهاجرين والأنصار، ومعرفة البواعث التى أفضت بهم إلى الهجرة، وكيف أرسى رسول الله ﷺ أسس الدولة، وربَّى المجتمع على العقيدة والعبادة والمعاملة مع المسلم وغيره؛ ليقتدى بها كل مسلم ومسلمة فى طول الزمان وسائر الأوطان.

وهذه الدراسة المستوعبة للهجرة النبوية: تؤكد عالمية الهجرة، ودوام انتفاعِ الناس بها؛ وذلك واضح فى مسيرة النبيين بدءًا بهجرة الخليل إبراهيم، ومرورًا بفرار موسى الكليم، وظهورًا بهجرة خاتم الأنبياء والمرسلين، وإعزازًا لأصحابه أجمعين، وفتحًا للبلد الأمين، واستمرارًا مع سائر المؤمنين إلى يوم الدين.

وأرجو كل مُطالع لهذا الكتاب: ألا يتعجلَ استنباطَ حكم من نص يقرأه أو رأى يطالعُه:

حتى يراجع فيه أهل الاختصاص عملاً بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وذلك لوفرة الأحوال وتنوعها، وكثرة الصور وتشابهها، ومن ثَمَّ: أتبعتُ هذه الدراسة للهجرة: بِلَمْحَاتٍ مِن بَعضِ الغَزْوَات، الأولى التى جاء بها المشركون ومن شايعهم لحرب المسلمين فى المدينة وما حولها، وِفق التسلسل التاريخى لكل منها، وكان موقف المسلمين فيها الدفاع والتصدى لتلك الهجمات.

ثم ختمتُ هذا الجزء: بالدعوةَ العملية داخل وخارج الجزيرة العربية على يد خير البرية ﷺ وخلفائه الأخيار وجميع أصحابه الأطهار؛ لِتكُون نِبراسًا لكل مَن تَبِعهم بإيمان وإحسان إلى يوم القرار.

ولا أُذيع سرًا إذا قلتُ: إنى قد طالعت كتبًا كثيرة، ونقلت أقوالاً عديدة لأئمتنا العلماء وشيوخِنا الفضلاء قدامى ومُحْدَثين وسابقين ومعاصرين، وقد جعلتُ هذه البحوث التحليلية وغيرَها مما لم أُشِرْ إليه هنا مبثوثةً خلال أحداث السيرة النبوية من الهجرة النبوية إلى وفاة خير البرية مراعيًا الترتيب الزمنى واختيار المكان المناسب للبحث التحليلى المراد تحقيقه فى حينه، والله المستعان.

ودائمًا أوصِى كلَّ طالبِ علمٍ: أن يعرفَ محتوياتِ كل كتاب وطريقةَ مؤلِّفِهِ فيه، وإن كان لذلك الإمام أكثرُ من كتاب فى الموضوع الذى يريد دراستَه أو تحقيقَه: فلا بد من مطالعتِه والإحاطةِ به؛ لأن بعض الأئمة قد يرى ما لا يراه الآخر، وقد يفقه ما لا يدُركُه غيرُه، بل إن العالِمِ الواحد قد يرجع عن بعض ما كَتَبَ؛ بسبب فتح جديد له من الله، وكذلك الفتوى تقدر بقدرها، لأن المفتِى بها يراعى الظروفَ والأحوالَ المناسبةَ لها ولطالِبها.

كما أن فى هذه الدراسة خيرًا كثيرًا لم أُشِرْ إليه ليُسرِه وسهولته ووضوح دلالته، وهذا يتضح بمطالعة فهرس كل جزء على حِدَة من هذا الكتاب، وقراءة مقدمة كل منهما، ثم دراسة الموضوعات المترابطة كلٍّ على حِدة، والتدقيق فى كل جزئية منه، وكثيرًا ما أُضيف هوامش غير مرقمة لتوضيح ما قد يعرض من لبس وأحيل فيها على الهوامش الأصيلة المرقمة ترقيمًا تسلسليًا التى تحتوى على تخريج الحديث، أو تراجم الرواة، أو تحديد المصدر الذى استقيت منه الفائدة العلمية.. وغير ذلك.

وأُرَدِّدُ دون مللٍ ما ذكره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على لسان نبيه شعيب: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

والحمد لله على ما وفق ويسر، ونسأله سبحانه: الإخلاص والقبول، وأن ينفع بهذا العمل: صاحبه وكل من بذل فيه جهدًا، أو أصلح فيه خللاً وجميع الناظرين فيه، والقارئين له، والمستفيدين به، حتى يكون من الباقيات الصالحات: فى الحياة وبعد الممات.

ونضرع إليه جل وعلا؛ آملين فى كرمه وإحسانه، وجوده وامتنانه: أن يرزقنا جميعًا حبه وطاعته، وحسن الاقتداء بنبيه ﷺ: حتى يتحقق لنا الفلاح فى الدارين، والفوز فى الحياتين، والأمن يوم الفزع الأكبر، ونبتهل إليه سبحانه: أن يمن علينا بخشيته فى السر والعلن، وتقواه فى الغيب والشهادة، وأن يعافينا من كل مكروه وسوء، وأن يتكرم علينا بالعفو والغفران والستر لما مضى من ذنوبنا؛ واللطف والتوفيق والرضا فيما بقى من عمرنا: إنه – جل وعلا – خير مأمول وأكرم مسئول وصلِّ اللّهم وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وشفيعنا وسيدنا: محمد، وعلى جميع أصحابه، وكل من تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين: اللّهم آمين.

أ.د/ سعيد صوابى

يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر المحرم عام ١٤٤٠ للهجرة– الموافق ١/١٠/٢٠١٨م.

الهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ والشَّرْع وَمَسَالِكُ المُهَاجِرِينَ وَصِلَتُهُم بِكُلٍّ مِنهَا

الأصل اللغوى لكلمة الهجرة هو: المصارمة والقطع والمفارقة والترك والبعد، يقال: هاجر القوم من دارٍ إلى دار، أى: تركوا الأولى وفارقوها إلى الثانية، وكذا فعل المهاجرون الأولون حين هاجروا من مكةَ إلى المدينة، فرارًا بالدين من بين أظهر المشركين إلى مناصرة خاتم المرسلين ﷺ، وهذه الهجرة هى التى وعد الله تعالى أصحابَها بالجنة، كما قال ابن الأثير: حيث كان الرجل يأتى النبى ﷺ ويدع أهله وماله لا يرجع فى شىءٍ من ذلك، وينقطع بنفسه إلى مُهَاجَرِه، وذلك حين كانت مكة بلد كفرٍ وشركٍ قبل فتحها.

والهجر بهذا المعنى: منه ما يكون حسيًا، ومنه ما يكون معنويًا، ومنه ما يكون بالبدن، ومنه ما يكون باللسان، ومنه ما يكون بالقلب، فيقال: هجرت الشىء هجرًا: إذا تركته وأغفلته، أى: يترك وصلَه وقربه مع سخطه هناك، وأغلب ما يكون السخط من الهاجر كما يقال: هجرت فلانًا الخائن، وهجرت هذا العمل المَقِيتَ، وقد يكون السخط من المهجور، كما يقال: أيها الغادر اهجرنى ولا تدنُ منى.

كما قال آزرُ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رافضًا لنصحه ومتوعدًا له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر العلامة ابن فارس أن لكلمة الهجرة أصلين: أولهما ما ذكرناه، وثانيهما: بمعنى رَبْطُ شىءٍ فى شىءٍ آخر، حيثُ قال: الهِجَار ككتابٍ؛ حبلٌ يسوَّى فى طرفيه عروتان؛ تُشَدُّ إحداهما فى يد الفرس، والأخرى فى رجله؛ حتى يمشى مثقلاً متقارب الخطو، فيقال فيه: فرسٌ هَجِرٌ؛ ككتف، وهو الذى يمشى مثقلاً ضعيفًا إذا شده صاحِبُه بالهجار كالزمام والعقال، ومنه: هِجَارُ

القوسِ؛ وهو وتَرُها(٧).

وهذا الأصل الثانى الذى أضافه ابن فارسٍ؛ لا يبعد عن الأصل الأول وما يندرج تحته من معانٍ، لأن الفحل إذا شُد بالهِجَارِ: كان ذلك سببًا فى هجرانه الإبل ومفارقتها والبعد عنها.

وكذلك السابقون الأولون من الصحابةِ: لما ارتبطت قلوبهم بالإيمان، وتوثقت نُفُوسُهُم بِعُرَاهُ؛ هجروا المشركين وفارقوهم فى الأقوال والأفعال، وإن لم تتيسر لهم بعدُ مفارقتهم بالأبدان والأوطان.

وفى استعمال الهجرة بمعنى البُعد تقول العرب: هاجر الرجل إذا تباعد ونأى، ومنه جاء لقبُ المهاجرين المحمودُ، حيث نأوا عن مخالطةِ المشركين، وبعدوا عن مساكنتِهم.

وبقدر ذاك الاتساع اللغوى لكلمة الهجرة: كذلك تعددت أقوال العلماء فى المراد بالهجرة شرعًا، وسأحاول مستعينًا بالله تعالى جمْعَ أطرافِ كلامهم للتوصل منه إلى تعريفٍ جامعٍ لكل أنواع الهجرة الشرعية، وشامل لجميع طرائقها التى سلكها الصحابة الأولون وسُمِّىَ كل واحد منهم مهاجرًا، كمن هاجر إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة، وهؤلاء وأولئك مشهورون: بل إنَّ مَنْ هاجر من المدينة إلى مكة لمبايعة رسول الله ﷺ ونصرته؛ فإن اسم الهجرة يشملهم وينطبق عليهم؛ حيث فارقوا أوطانهم، وجاءوا للإيمان برسول الله ﷺ ومناصرته.

---

(٧)ينظر فى ذلك: مقاييس اللغة لابن فارس ٣٤/٦ : ٣٦ ، ولسان العرب لابن منظور ٤٦١٦/٦: ٤٦٢١، والقاموس المحيط للفيروز آبادى ص٦٣٧ ، ٦٣٨ ط الثانية مؤسسة الرسالة، والمفردات فى غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهانى ص٧٨٢ ، ٧٨٣، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٧٨٣/٢، ٧٨٤ الطبعة الثانية عن مجمع اللغة العربية- القاهرة، والنهاية لابن الأثير ٢٤٤/٥: ٢٤٦ ط عيسى الحلبى، ومجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للشيخ محمد طاهر الصديقى الهندى ١٤٤/٥: ١٥٠، ٧٢٢، ٧٢٣ ط الثالثة مكتبة دار الإيمان بالمدينة المنورة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، وسوف أعزو بعد ذلك كلام كل واحد منهم إلى كتابه فى المادة نفسها، فضلاً عما يستجد من مراجع كالفائق للزمخشرى وغيره.

أخرج الإمام النسائى بسندٍ صحيح من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ: كَانُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هَجَرُوا الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ مُهَاجِرُونَ: لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ دَارَ شِرْكٍ، فَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ»(٨).

جمع المناوى بين التعريف اللغوى، والتعريف الشرعى للهجرة، فقال: الهجر والهجران؛ مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، والهجرة فى الأصل: مفارقة الغير ومتاركته، لكن خُص شرعًا بترك الوطن الذى بين الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام(٩).

وهذا التعريف الشرعى مع وجازته: لكنه لاينطبق على الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة، لأنها ليست دار إسلام، مع أن النبى ﷺ: قد أذن لهم فى الهجرة إليها، وبشرهم بعظيم فضل هذه الهجرة، وأخبرهم بجزيل أجرها وكريم ثوابها؛ لكن النجاشىَّ ملِكَ الحبشةِ؛ قد أسلم، وإن لم يَعلَم قومه بذلك.

وقال الجرجانى فى تعريف الهجرة: هى ترك الوطن الذى فيه الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام(١٠).

ونقل ابن منظور تعريفًا آخر للهجرة عن الأزهرى قال: المهاجَرة عند العربى: خروج البدوى من باديته إلى المدن، وكذلك كل مُخْلٍ بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين فقد هاجر قومه.

وقد سُمِّى المهاجرون: مهاجرين؛ لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشأوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حتى هاجروا إلى المدينة، فكان من فارق بلده من بدوى أو حضرى أو سكن بلدًا آخر فهو مهاجر، وكل من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم، ولم

---

(٨) سنن النسائى: كتاب البيعة/ باب تفسير الهجرة ٧/١٦٣.

(٩) كتاب: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى ص٧٣٨ الطبعة الأولى دار الفكر – بيروت.

(١٠) كتاب: التعريفات للجرجانى ص٣١٩.

يلحقوا بالنبى ﷺ، ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أُحدِثت فى الإسلام، وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين، ويُسَمَّوْنَ الأعراب(١١).

وهذا كلام نفيس غير أنى أنبه على ما ورد فى أوله من قوله: خروج البدوى من باديته إلى المدن، هذا إن صح إطلاقه على بعض الصحابة، فإنه لا يصح إطلاقه على الأكثرين منهم، كالذين هاجروا من بلاد متحضرة كمكة وغيرها.

وقوله: «وكل من أقام من البوادى بمباديهم...» إلى آخره: هذا ليس على إطلاقه كمن أذن لهم النبى ﷺ فى الإقامة بأوطانهم فى مثل قوله ﷺ: «وَيْحَكَ! إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ...»(١٢).

وأوجز التعريفات وأجمعُها فيما أرى ما ذكره ابن الأثير فى كتابه النهاية، حيث قال ما نصه: «اشتهرت الهجرة فى لسان الشرع الإسلامى فى انتقال المؤمن من بلد الفتنة والخوف على دينه إلى حيث يأمن، وغلب هذا فى الهجرة من مكة إلى المدينة فى حياة الرسول ﷺ، حين كانت مكة بلد كفر وشرك قبل فتحها».

وهذا التعريف يشمل جميع الصحابة الذين تشرفوا بالهجرة أثناء استضعافهم فى مكة قبل أن تكون لهم دارُ إسلام يهاجرون إليها، والذين هاجروا إلى النبى ﷺ فى مدينته بعد أن صارت لهم فيها دولة، وأضْحَتْ لهم بها قوة ومنعة، كما يشمل التعريف كل من هاجر ويهاجر فرارًا بدينه من بلد الفتنة والكفر إلى دار الإسلام والأمان، وأما تعريف الجرجانى وغيره الذى قيد فيه الأرض المهاجر إليها بكونها دار إسلام؛ فهو ما استقر عليه أمر الشرع بعدُ، والله أعلم.

---

(١١) لسان العرب مادة: هجر.

(١٢) الحديث متفق عليه، وسيأتى لفظه وتخريجه وشرح غريبه تحت عنوان: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ».

الْهُجْرُ بِمَعْنَى الْهَذَيَانِ

وهذا أول فرع للهجرة بعد ذاك الأصل المتقدم، وهو: (الهُجْرُ) ومعناه: الهَذَيَان وَالْفُحْش والخنا والقبيح من القول، يقال: أهجر فى مَنْطِقِهِ إذا أفحش وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغى، فيقولون: رماه بالهاجرات، وهى الفضائح والقبائح، وقد ورد هذا المعنى فى القرآن والسنة، ففى الكتاب العزيز قوله تعالى فى وصفه للمشركين وخبره عن حالهم ومقالهم: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون].

أى: هذا حالهم حين نُكوصِهم عن الحق ورفضهم له استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، ومرجع الضمير فى قوله تعالى ﴿بِهِۦ﴾ فِيهِ ثَلاَثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أنه الحرم بمكة، ذُموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام، وكانوا يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه.

وَثَانِيهَا: أن الضمير يعود إلى القرآن حيث كانوا يَلْغُون عند سماعه ويذكرونه بالهجر من الكلام، فيقولون فيه: إنه سحرٌ، إنه شعرٌ، إنه كهانة... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

وَثَالِثُهَا: أن الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ فكانوا يتحدثون عنه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، ويصفونه بما هو مبرَّأٌ منه، كقولهم: إنه شاعرٌ، أو كاهنٌ، أو ساحرٌ، أو كذابٌ، أو مجنونٌ، وكل ذلك باطل؛ بل هو عبدالله ورسوله الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور(١٣).

وَخُلاَصَةُ مَعْنَى الآيَةِ: أن المشركين كانوا يجتمعون حول البيت بالليل، ويسمرون بالطعن فى القرآن والرسول، ويهذون فى شأنهما.

---

(١٣) تفسير ابن كثير ٥/٤٧٦ بتصرف.

كما أن فى الآية ذمًّا لكل من يسمر فى غير طاعة الله.

قال الإمام القرطبى: اتفقوا على كراهية الحديث بعد صلاة العشاء، لأن الصلوات قد كفرت خطايا الإنسان فينام على سلامة، وقد خَتَمَ الحفظةُ صحيفةَ العبدِ بالعبادةِ؛ فإن سمر بعدها فقد لغا، وجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين، وهذه الكراهة تختص بما لا يكون من الطاعات ومصالح المسلمين، وما شابه ذلك(١٤).

وفى السنة المشرفة من الأحاديث ما رواه أبو سعيد الخدرى فى آخر حديث طويل عن النبى ﷺ أنه قال: «...وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا، وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا»(١٥).

ومعنى الحديث: أنه ﷺ قد أذن فى زيارة القبور، ونهاهم عن التحدث بما لا ينبغى من الكلام كالفُحش وقول السوء؛ فإنه ينافى المطلوب وهو الاعتبار بحال الأموات والدعاء لهم، وتذكر الآخرة... ونحو ذلك مما يدمع العين ويرق القلب.

والهُجر -بفتح الهاء وضمها أيضًا-: معناه الهذيان واختلاط الكلام، ومنه حديث سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ لِي أَصْحَابِي: بِئْسَ مَا قُلْتَ! قُلْتَ هُجْرًا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَانْفُثْ عَنْ شِمَالِكَ ثَلَاثًا، وَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ لَا تَعُدْ».

---

(١٤) باختصار فى تفسير القرطبى ١٣٦/١٢: ١٣٩، ويراجع فى ذلك صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب العلم والعظة بالليل، وباب السمر فى العلم ٢١٠/١: ٢١٣، وكتاب الصلاة/ باب السمر فى الفقه والخير بعد العشاء، وباب السمر مع الضيف والأهل ٧٣/٢: ٧٦.

(١٥) حديث صحيح أخرجه الإمام مالك فى الموطأ كتاب الضحايا/ باب ادِّخار لحوم الأضاحى ٤٨٥/٢، والإمام أحمد فى المسند ٦٣/٣، ٦٦، وله شواهد من حديث بريدة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ينظر سنن النسائى كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور٣٩٤/٤ بسند حسن عن بريدة، ومسند الإمام أحمد ٣٦١/٥، بسند ضعيف، وقد فصَّلتُ تخريجه فى كتاب: (حديث وموقف)، فليراجعه من أحب، وأما حديث أنس ففى المسند ٢٣٧/٣، ٢٥٠.

ومعناه أن سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حلف باللات والعزى فى ذهول، وعن غير قصدٍ لقرب عهده بالشرك وأهله، فأجرى الشيطان الكلام على لسانه دون وعيٍ منه، ولما ذكَّره أصحابه ونصحوه بالذهاب إلى رسول الله ﷺ بادر وأسرع ليجد عنده العلاج والشفاء.

وهذه رواية أخرى للحديث فيها مزيد من التفصيل يقول فيها سعد: كُنَّا نَذْكُرُ بَعْضَ الْأَمْرِ وَأَنَا حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ فَحَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ لِي أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: بِئْسَ مَا قُلْتَ: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبِرْهُ، فَإِنَّا لَا نَرَاكَ إِلَّا قَدْ كَفَرْتَ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِي: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا تَعُدْ لَهُ»(١٦).

وهذه المعانى سواء كانت من الفُحش أم من التخليط؛ فإنها من المهجور الذى لا خير فيه، وهى من الأسباب الحاملة للصحابة على الهجرة من بين المشركين للراحة من رؤية المنكر وسماع القبيح، وأيضًا فإن هذه المعانى لا تبعد عن معنى الترك، لأن مقتضى ذلك: هجران الشهوات والأخلاق الذميمة، وترك الخطايا ورفضها، والتخلى عن كل قبيح.

---

(١٦) الحديث حسن بروايتيه أخرجهما الإمام النسائى فى سننه: كتاب الأيمان والنذور/ باب الحلف باللات والعزى ١١/٧، ١٢ ح٣٧٨٥، ٣٧٨٦ من طريقين عن أبى إسحاق السبيعى، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، فأما الطريق الأولى فجميع رواتها ثقات، لكن سماع زهير بن معاوية بن حديج من أبى إسحاق بآخَرةٍ، التقريب ص٢١٨، وأما الطريق الثانية، ففيها مخلد بن يزيد الحرانى، قال أحمد: لابأس به، وكان يَهِمُ، وقال أبو حاتم: صدوق، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان وابن حبان وغيرهم، تهذيب التهذيب ٧٧/١٠، ٧٨، عن يونس بن أبى إسحاق السبيعى: ضعفه أحمد وغيره، وقال ابن عدى: له أحاديث حِسان، وقال النسائى وابن مهدى ليس به بأس، وقال أبو حاتم: كان صدوقًا، ووثقه ابن معين وابن حبان، التهذيب ٤٣٤/١١، عن أبيه: أبى إسحاق، وهو أعرف بحديثه، وَاللهُ أَعْلَمُ.

التَّهْجِيرُ بِمَعْنَى السَّبْق وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى الصَّلَوَاتِ

وهذا فرع ثان للهجرة؛ وهو من التهجير بمعنى: التبكير إلى كل شئ، والمبادرة إليه، ومنه حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ: لاَسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ: لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ: لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا» متفق عليه(١٧).

و: «النِّدَاءُ» هو الأذان للصلاة، و«الاستِهَام» هو:الاقتراع و«العَتَمَة» -بفتحات- هى صلاة العشاء.

ومعنى الحديث: أن الناس لو علموا فضيلة الأذان والصف الأول، وعظيم جزائه، ثم لم يجدوا طريقًا لتحصيله إلا الاقتراع: لفعلوه، وفيه الحث العظيم على التبكير إلى الصلوات وأدائها مع الجماعة؛ لاسيما صلاتى العشاء والفجر، ويحصل أجر التهجير إلى الصلوات بالمُضِىِّ إليها قبل دخول وقتها، وبالمشى إليها فى أول وقتها لأدائها مع الجماعة فى المسجد.

قال النووى: «التهجير» التبكير إلى الصلاة، أى صلاة كانت، قال الهروى وغيره: وخصه الخليل بالجمعة، والصواب المشهور: الأول(١٨).

---

(١٧) صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب الاستهام فى الأذان ٩٦/٢ واللفظ له، وفى باب فضل التهجير إلى الظهيرة ١٣٩/٢ مقتصرًا على التهجير والعتمة، وفى باب الصف الأول ٢٠٨/٢ مختصرًا أيضا، وفى كتاب الشهادات/ باب القرعة فى المشكلات٢٩٣/٥، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب تسوية الصفوف وإقامتها ١٥٧/٤، ١٥٨، وفى كتاب الإمارة/ باب بيان الشهداء ٦٢/١٣ مطولاً شرح النووى، والموطأ: كتاب الصلاة/ باب ما جاء فى النداء للصلاة ٦٧/١، وفى كتاب صلاة الجماعة/ باب ما جاء فى العتمة والصبح ١٣١/١ مطولاً، ومسند الإمام أحمد ٢٣٦/٢، ٢٧٨، ٣٠٣، ٣٧٤، ٣٧٥.

(١٨) شرح النووى لصحيح مسلم ١٥٨/٤ باختصار.

ومما لا شك فيه أن المسارعة إلى صلاة الجمعة، والتبكير لحضورها: له من الثواب والأجر ما ليس لسائر الصلوات، ويدل لذلك الحديث المتفق عليه، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي الْبَدَنَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ» هذا لفظ الإمام مسلم(١٩).

ومعنى الحديث: أن الملائكة تكتب أسماء المصلين بالترتيب حسب وفودهم إلى المسجد، لتفاوت أجورهم، والمُهَجِّر -بضم الميم وفتح الهاء وكسر الجيم المشددة- من التهجير، قيل المراد به المبادرة إلى الجمعة بعد صلاة الصبح، وقيل: بل فى قرب الهاجرة أى: نصف النهار، ونقل القاضى عن الحربى، عن أبى زيد، عن الفراء وغيره أنهم قالوا: التهجير: السير فى الهاجرة، وهى اشتداد الحر وسط النهار، قال النووى: والصحيح هنا أن التهجير هو التبكير.

وفى أصل كلمة الهاجرة يقول الزمخشرى: الهجير والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر، أو من عند زوالها إلى العصر، لأن الناس يستَكِنُّون فى بيوتهم، كأنهم قد تهاجروا لشدة الحر، وصلاة الظهر تسمى صلاة الهجير، فلا يستوى من سار إليها فى الهاجرة بمن أقام فى بيته ساعة القيلولة(٢٠).

---

(١٩) صحيح البخارى: كتاب الجمعة/ باب الاستماع إلى الخطبة ٤٠٧/٢، وصحيح مسلم: كتاب الجمعة/ باب فضل التهجير يوم الجمعة ١٤٥/٦، وسنن النسائى: كتاب الجمعة/ باب التبكير إلى الجمعة ١٠٨/٣، ١٠٩، وسنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء فى التهجير إلى الجمعة ٣٤٧/١، ومسند الإمام أحمد ٢٥٩/٢، ٢٨٠، ٥٠٥، ٥١٢، وسنن الدارمى: كتاب الصلاة/ باب فضل التهجير إلى الجمعة ٤٣٥/١، ٤٣٦، وينظر: الموطأ ١٠١/١، وسنن أبى داود ٢٤٩/١، ٢٥٠، وجامع الترمذى ٣٧٢/٢.

(٢٠) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ٣١٩/١، والنهاية: مادة هجر.

ولا يخفى أن هذه المعانى وثيقة الصلة بأصل الهجرة، وهو المفارقة والترك، وكذلك كان شأن المهاجرين الأولين فى هجرتهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ: لا يبالون بلفح القِفَار، ولا تعوقهم شدة الحر فى منتصف النهار، وأما فى الطاعات والقربات: فكانوا أول الناس فى التبكير إليها والمبادرة بها، وصدق الله عَزَّوَجَلَّ فى وصفه لهم، ومدحه إياهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

تَهَجَّرَ وتَمَهْجَرَ: تَشَبَهَ بِالْمُهَاجِرِينَ

وهذا فرع ثالث من معانى الهجرة، يقولون: تَهَجَّر- بتشديد الجيم المفتوحة- وتَمَهْجَر الرجل، يعنون: أنه تشبه بالمهاجرين فى الأقوال والأعمال والأوصاف دون صحة قصد منه، ولا نية خالصة، وهذا كقولهم: فلان يتحلم، وليس بحليم، ويتشجع، أى: يظهر ذلك وليس فيه.

وهذا كشأن المنافقين الذين يخالف ظاهرُهم باطنَهم، وعلانيتُهم سرائرَهم.

وفى الحديث عن أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هُجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ» وَقَالَ يَزِيدُ -يعنى ابن هارون- مَرَّةً: «سُخُبٌ بِالنَّهَارِ»(٢١).

---

(٢١) حديث حسن – إن شاء الله تعالى – أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٢/٢٩٣، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد: كتاب الإيمان/ باب فى النفاق وعلاماته ١/١٠٧، وقال رواه أحمد والبزار، وفيه عبدالملك بن قدامة الجمحى، وثقه يحيى بن معين وغيره، وضعفه الدارقطنى وغيره، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن، وفى سنده: عبدالملك بن قدامة الجمحى، كان عبدالرحمن بن مهدى يثنى عليه، وثقه ابن معين والعجلى، وقال ابن عبدالبر: مدنى ثقة شريف، وضعفه أبو حاتم والنسائى والدارقطنى، وقال البخارى يعرف وينكر، وقال العقيلى: عنده عن عبدالله بن دينار مناكير، وكذا قال الحاكم وأبو نعيم

ومعنى الحديث: أن من علامات المنافقين أنهم يُحَيُّون الناس بألسنتهم، ويلعنونهم فى قلوبهم، وأنهم لا يتورعون عن أكل الحرام دون أن يشعر بهم أحد، فيختلسون وينتهبون، وإذا خلوا بشىء من الغنيمة سرقوه، وخانوا أصحابهم فيه، وذلك من الكبائر، ولا تجوز الاستهانة به ولو كان يسيرًا، ومن صفاتهم أيضًا: «لَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هُجْرًا» – بفتح الهاء وضمها وسكون الجيم– فبفتح الهاء معناه: أنهم يفارقون المساجد بأبدانهم، ويتركون ذكر الله فيها بألسنتهم، فقلوبهم منكِرة لذلك، منصرفة عنه، خالية من الصدق والإخلاص؛ فكأن قلوبَهم مهاجِرَةٌ لألسنتهم وأبدانهم، كما أنهم : «لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا» بفتح الدال المهملة، ويجوز ضمها مع إسكان الباء، والمراد به: أنهم يُصَلُّون الصلاة فى آخر وقتها، أو لا يحضرون إلى المسجد إلا حين يوشك الإمام أن يفرغ من الصلاة، كما أنهم لايصلون بالليل لشدة صخبهم وصياحهم بالنهار، ورفع أصواتهم فيه بالمجادلة والخصومة وغير ذلك، وصدق الله عَزَّ وَجَلَّ حيث يقول فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء][22].

نحوه عن إسحاق بن بكر بن أبى الفرات المدنى: قال فيه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الراوى قال فيه الذهبى وغيره: مجهول، ولكن ذكره ابن حبان فى الثقات، وصحح له الحاكم ووافقه الذهبى، فهو قد عَرف بعضُهم شخصَه وحاله فهو على الستر –على الأقل– ويكون حديثه لايقل عن درجة الحسن، ثم إن الذهبى لم يذكره فى ميزان الاعتدال، والأغرب منه أن يوافق الحاكم على تصحيح حديثه، ينظر تهذيب التهذيب ٢٤٧/١، والمسند تحقيق الشيخ أحمد شاكر ٣٧/١٥، ٣٨، ٥٠، ٥١ والحديث رقم ٧٩١٣ وأقول: لعل الذى جعل الحافظ الذهبى يحكم عليه بالجهالة: هو أنه لم يرو عن أحد غير سعيد بن أبى سعيد المقبرى، ولم يرو عنه أحد سوى عبدالملك بن قدامة كما فى هذا الحديث وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وأما بقية رجال الإسناد؛ فثقات أخرج لهم الجماعة. تهذيب التهذيب ٤١٤/٦، ٤١٥.

(٢٢) ينظر: القاموس ص ١٣٤٣ مادة: غلل، ومقاييس اللغة ٣٦٠/٥ مادة: نهب، والفائق فى غريب الحديث ٣٧٠/١، وبقية المراجع المدونة بالهامش رقم٧.

وكان ابن مسعود يقول فى خطبته: الشباب شعبة من الجنون، وشر الروايا روايا الكذب، ومن يَنوِ الدنيا تعجزه، ومن الناس من لا يأتى الصلاة إلا دبرا، ولا يذكر الله إلا مهاجرًا، أى: يهاجر قلبه لسانه ولا يواطئه على الذكر.

وأخرج الطيالسى فى مسنده بسند صحيح على شرط الشيخين، عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : «الْمُنَافِقُونَ الْيَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَوْمَئِذٍ يَكْتُمُونَهُ، وَهُمُ الْيَوْمَ يُظْهِرُونَهُ»(٢٣).

وحذيفة بن اليمان هذا: صحابى ابن صحابى، وكان صاحب سر رسول الله ﷺ حيث أعلمه بأسماء المنافقين، وله علم واسع بأحاديث الفتن، وقد توفى فى أول خلافة على بن أبى طالب سنة ست وثلاثين من الهجرة(٢٤)، وهو يقول مقالَته المتقدمة عن المنافقين الذين كانوا لا يملكون سوى الأمانى، فكيف لو رأى اليوم من يجترئون على حرب الله ورسوله؟!!

أخرج عبدالرزاق في مصنفه عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: خَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي مَشْهَدٍ لَهُمْ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَصْلَعَ أَعْسَرَ أَيْسَرَ قَدْ أَشْرَفَ فَوْقَ النَّاسِ بِذِرَاعٍ عَلَيْهِ إِزَارٌ غَلِيظٌ، وَبُرْدٌ غَلِيظٌ قُطْنٌ، وَهُوَ مُتَلَبِّبٌ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَاجِرُوا، وَلَا تَهَجَّرُوا وَلَا يَخْذِفَنَّ أَحَدُكُمُ الْأَرْنَبَ بِعَصَاةٍ أَوْ بِحَجَرٍ، ثُمَّ يَأْكُلُهَا وَلْيُذَكِّ لَكُمُ الْأَسَلُ: الرِّمَاحُ، وَالنَّبْلُ»، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البيهقي بأطول من هذا من طريق أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَخَرَجْتُ فِي يَوْمِ عِيدٍ فَإِذَا رَجُلٌ مُتَلَبِّبٌ أَعْسَرُ أَيْسَرُ يَمْشِي

---

(٢٣) مسند أبى داود الطيالسى ص٥٥ ح٤١٠، وأخرجه من طريقه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/ ٢٨٠، وينظر: كنز العمال ١/٣٦٧، ٣٦٨ح١٦١٥، وصفة النفاق للفريابى ص٥٣، ٥٦.

(٢٤)الإصابة ١/٣٣٢، ٣٣٣، وراجع الجزء الأول تحت عنوان: «فقه الصحابة فى التخفى والاقتداء بهم فى ذلك عند الفتن».

مَعَ النَّاسِ كَأَنَّهُ رَاكِبٌ وَهُوَ يَقُولُ: هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا ، وَاتَّقُوا الْأَرْنَبَ أَنْ يَحْذِفَهَا أَحَدُكُمْ بِالْعَصَا ، وَلَكِنْ لِيُذَكِّ لَكُمُ الْأَسَلُ وَالرِّمَاحُ وَالنَّبْلُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَوْلُهُ هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا ، يَقُولُ: أَخْلِصُوا النِّيَّةَ فِي الْهِجْرَةِ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْمُهَاجِرِينَ عَلَى غَيْرِ نِيَّةٍ مِنْكُمْ فَهَذَا هُوَ التَّهَجُّرُ. قَالَ: وَكَلَامُ الْعَرَبِ أَعْسَرُ أَيْسَرُ وَهُوَ الَّذِي يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا سَوَاء[٢٥] أي: أنه يصفه بأوصاف حميدة.

ومعنى قول عمر بن الخطاب: «هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا» أي: أخلصوا الهجرة لله، ولا تتشبهوا بالمهاجرين فى القول دون الفعل، أو فى الظاهر دون الباطن؛ بل كونوا منهم موافقين لهم فى الأقوال والأعمال والأوصاف وجميع الأحوال، ولا تكونوا مثل المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون[٢٦].

وفى مثل هذه الأحوال يكون التشبه مدحًا وليس قدحًا، كما ثبت عن عبدالله بن عمر، وحذيفة بن اليمان من جوامع كلم رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[٢٧].

---

(٢٥)المصنف: كتاب: المناسك/باب: صيد العراض ٤/٤٧٧ ح٨٥٣٣، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب: الصيد/ باب الصيد يُرمَى بحجر أو بندقةٍ ٩/٤١٧ ح١٨٩٤٥.

(٢٦) يراجع فى ذلك: الفائق فى غريب الحديث ٢/٢٥١، ٢٥٢، ٣/٢٩٨ والنهاية: مادة هجر.

(٢٧) حديث حسن أخرجه أبو داود: كتاب اللباس/ باب لبس الشهرة ٤/٣١٤ ح٤٠٣١، والإمام أحمد فى المسند ٢/٥٠، وصححه الشيخ أحمد شاكر تحت رقم ٥١١٤، عن ابن عمر، وفى سنده عندهما: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان الشامى، قال أبو داود: ليس به بأس، وكان فيه سلامة، وقال أبو حاتم والفلاس ودُحيم: ثقة، وذكره ابن حبان فى الثقات، وكان ابن المدينى حسن الرأى فيه، فقال: ابن ثوبان رجل صدق لابأس به، وقد حمل عنه الناس، وضعفه النسائى وغيره، وقال أحمد: كان عابد أهل الشام، لم يكن قويًا فى الحديث، وقال ابن معين: ضعيف، يكتب حديثه على ضعفه، وكان رجلاً صالحًا. تهذيب التهذيب ٦/١٥٠، ١٥١، وميزان الاعتدال ٢/٥٥١، وقال ابن حجر: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان: مختلف فى توثيقه، وحسَّن الحديث السيوطى بشاهده عن حذيفة عند الطبرانى فى الأوسط وقال الهثيمى عنه: وفى سنده على بن غراب وقد وثقه غير واحد، وضعفه بعضهم، وبقية رجاله ثقات. انظر: المعجم الأوسط ٩/١٥١ ح٨٣٢٣، ومجمع الزوائد ١٠/٢٧١، وفتح البارى ٦/٩٨، وفيض القدير ٦/١٠٤.

الْهِجْرَةُ بِمَعْنَى الشَّىْءِ الْعَظِيمِ الَّذِى لاَ نَظِيرَ لَهُ

وهذا فرع رابع للهجرة تقول العرب: هذا شىء هَجْرٌ – بفتح الهاء وسكون الجيم – أى: لا نظير له، فكأنه لمباينته الأشياء: قد هجرها وفارقها، ويقولون: هذا أهجر من هذا: أى أكرم منه وأفضل وأعظم... ونحو ذلك من أفعل التفضيل.

وهذه بعض أمثلةٍ لذلك من كلامهم، يقولون: ذهبت الشجرة هَجْرًا، أى: طولاً وعظمًا، ونخلة مُهْجِرَة، أى: طويلة عظيمة، مفرطة فى الطول والعِظَم، وناقة مُهْجِرَة، أى: فائقة فى الشحم والسير، وبعير مُهْجِر، وهو الذى يتناعته الناس، ويهجرون بذكره غيرَه، وأَهْجَرَتِ الجاريةُ، أى: شبت شبابًا حسنًا.

والهَجُرُ: الحوض العظيم الواسع والقدح الضخم، الهَجِرُ – بكسر الجيم – الحسن الكريم، الجيد النجيب الجميل، يقال كبش هَجِرٌ، أى: حسن جميل، ومنه قول الأعرابية حين قال لها معاوية: هل من غذاء ؟ فقالت: نعم خبزٌ خميرٌ، ولبن هجيرٌ، وماء نميرٌ أى: ماء طيب عذب(٢٨).

الهِجِّير: الدَّأْبُ وَالْعَادَةُ

وهذا فرع خامس للهجرة، وهو: (الهِجِّير) –بكسر الهاء والجيم المشددة– وهو ما يجعله المرء دأبه وديدنه وعادته، قال الزمخشرى: يجوز أن يكون اسمًا للفعلة التى يلزمها الرجل ويهجر إليها ما سواها، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف بالبيت وهو يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة]، ما له هِجِّير غيرها(٢٩) يعنى أنه لزم هذا الدعاء دون غيره.

---

(٢٨) راجع الفائق فى غريب الحديث ٤/ ٩٤، والقاموس المحيط ص٦٢٧ واللسان: مادة هجر.

(٢٩) انظر الفائق ٤/ ٩٤.

والمعنى الذى تضمنه هذا الفرع قريب من الذى قبله.

وكذلك المهاجرون لما عرفوا دين الله عَزَّ وَجَلَّ: لزموه وتمسكوا به ولم يحيدوا عنه وهجروا بسببه كل ما سواه.

وهكذا تعددت الأساليب العربية والنصوص الشرعية فى استعمالات كلمة الهجرة وما يشتق منها من معانٍ، قد ذكرنا بعضها؛ مع ضرب الأمثلةِ لكل منها، والحمد لله على التوفيق.

الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ

إن مفارقة الوطن ليست شيئًا سهلاً؛ بل إنها فى حكم الشرع مساوية للقتل الذى هو من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

قال الحافظ ابن كثير: يُخبر تعالى عن أكثر الناس: أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا فى علمه تبارك وتعالى بما لم يكن: لو كان؛ كيف كان يكون، ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما يُنْهَونَ عنه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء].

ولربما يستبعدُ كثيرون من الناس وجودَ تلك النماذج من المهاجرين الذين تركوا أرضهم وفارقوا مجتمعهم الذى نشأوا فيه وتربوا بين دروبه: فقصَّ اللهُ علينا مثلاً واقعيًّا بالمنافقين فى المدينة الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ أيمانًا مُغلظة: لئن أمرهم بالخروج ليخرجُنَّ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: لا تحلفوا، فقد عرفنا طاعتكم إنها قولٌ؛ لا فعلَ معه، وكذبٌ؛ لا صدقَ فيه، وهذا خُلُقكم؛ وتلك سجيتكم، والمطلوب منكم: أن تكون طاعتكم بالمعروف مطابقة لأقوالكم لا كذب فيها ولا مخادعة، وبدون حلف ولا أيمان، لأن الخبير بكم والرقيب

عليكم يعلم السر وأخفى، مطلعٌ على ضمائركم، لا يخفى عليه شيء من بواطنكم، وعليكم أن تَعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما التزم بهما المؤمنون الصادقون، وإن توليتم وأعرضتم بعد البلاغ والبيان فإن مرجعكم إلى الله وحسابكم عليه وحده لا شريك له، وذلك واضح فى قوله تبارك اسمه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور](٣٠).

والمقصود من تلك الآيات: بيان شدة الخروج من الوطن على نفس الإنسان الذى درج على أرضه، وتربى بين ربوعه، وعاش فيه بين أهله وذويه، وأن ذلك الفعل يَعْدِلُ قتل النفس وإزهاقَها.

ففى الصحيحين وغيرهما، عن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النبى ﷺ عَنْ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ»(٣١) «وَيْحَكَ» كلمة ترحم تقال لمن وقع فى هلكةٍ لا يُطِيقُها، أو مَشقَّةٍ لا يتحملها، فكأنه ﷺ علم أن الأعرابى لا يستطيع تحمل شدائد الهجرة ومتاعبها فأشار عليه بتركها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: والمراد بالهجرة التى سأل عنها هذا الأعرابى هى ملازمة المدينة مع النبى ﷺ وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبى ألَّا يقوى عليها، ولا يقوم

---

(٣٠) تفسير الإمام ابن كثير ٢/٣٠٩، ٦/٨٢، ٨٣ باختصار وتصرف.

(٣١) صحيح البخارى: كتاب الزكاة/ باب زكاة الإبل ٣/٣١٦، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب المبايعة بعد فتح مكة ٣/١٤٨٨، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو ٣/٦ ح٢٤٧٧، بسند حسن، ومسند أبى يعلى ٢/٤٩٢ ح١٢٦٦ بسندٍ ضعيف، لكن متن الحديث فى الصحيحين كما قدمنا.

بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التى سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير فى مكانك وحيث ما كنت فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئًا والله أعلم(٣٢).

ومن هذا الحديث وتلك الآيات: نعلم أن إخراج الناس من ديارهم وتهديد المؤمنين فى أوطانهم جريمة لا يُقِرُّها شرعٌ، ولا يُسَوِّغُها عقلٌ، وإنكارها مركوزٌ فى الأخلاق القويمةِ، والطبائع المستقيمةِ على طول الزمانِ وامتداده، قال تعالى فيما أخذه على بنى إسرائيل من عهود ومواثيق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة].

ومن ثَمَّ: حذر سبحانه عباده المؤمنين أشد التحذير، من موالاتهم للكافرين، أو مهادنتهم؛ بل أكد عليهم وجوب مباينتهم ومفاصلتهم، وحرَّم عليهم التشبه بهم فى صفةٍ من الصفات، أو الركون إليهم بحالٍ من الأحوال، وذلك لأن ما يفعلونه بهم من الإخراج، ويوقعونه عليهم من التعذيب والإيذاء: كفيل بأن يؤصل العداوة بينهم، وحريٌّ بغرس البغضاء فى نفوسهم، قال تعالى فى افتتاحية سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ

(٣٢) شرح النووى لصحيح مسلم ١٣/ ٩، والنهاية فى غريب الحديث ٥/ ٢٣٥، وبذل المجهود ١١/ ٣٧٠.

تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله سبحانه فى السورة نفسها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم استحثهم على مقاتلتهم بأبلغ عبارة، وحضهم على مناضلتهم بأفصح بيان، وذلك فى قوله جل وعلا: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وذلك حتى تستقيم الموازين فى الأرض، ولايستشرى الباطل، أو يعم الفساد: كما قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وإذا كان القرآن الكريم قد صور بشاعة هذه الجريمة التى هى طرد المؤمنين من أوطانهم: بما يقشعر له بدن كل مسلم، وتشمئز منه نفسه، فإن الذى يقارن ما كان عليه الجاهليون فى أوائل القرن السابع الميلادى وما قبله مع ما كانوا عليه من شرك وأمية... بما عليه الناس اليوم فى هذا القرن الحادي والعشرين: مع ما يدعونه من تدين، وما يزعمونه من تحضر... فإنه سيرى بأدنى تأمل: ما تتفطر منه القلوب، وتتفتت منه الأكباد، وتذهل منه العقول... لِما يجدُه من الفرق الشاسع بين ما عليه هؤلاء من الفظاظة والفظاعة والغلظة والقسوة... على إخوانهم وذويهم بما لا يقره شرع ولا يسوغه خُلق، وبين ما كان عليه أولئك من وفاءٍ بالعهد، ومحافظةٍ على العرض، واحترامٍ للآدمية، ومعرفةِ أقدارِ ذوى الفضل... ولا شك أن كل قارئٍ أَخْبرُ منى وأبصر بما عليه هؤلاء المتأخرون، وأنا سأُنبئُه عن شيء من خبر أولئك المتقدمين:

فهذا الحارث بن يزيد، وسماه السهيلى مالكًا، ولَقَبُهُ: ابن الدَّغِنَة- بفتح المهملة المشددة، وكسر المعجمة المخففة، وفتح النون المخففة- سيد الأحابيش: وهم بنو الهُون- بضم الهاء- وبنو الحارث من كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبَّشوا- أى: تجمعوا- وتحالفوا عند جبل صغير يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، وكانوا حلفاء بنى زُهرة من قريش، وكان يُضرب بهم المثل فى قوة الرمى: قد لقى أبا بكر الصديق بعد مسيرة يوم أو يومين حين خرج من مكة مهاجرًا إلى أرض الحبشة لما اشتد عليه أذى الكفار، فسأله ابن الدَّغِنَة هذا- وهو من المشركين-: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى، وقد ورَّى أبو بكر بهذا الجواب، ولم يفصح عن جهة مقصده لكون ابن الدَّغِنَة أحد الكفار، ومن المعلوم أنه لايصل إلى أرض الحبشة إلا بعد أن يسير فى الأرض زمانًا فيصدق أنه سائح، قال ابن الدَّغِنَة: والله! إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم؛ ارجع وأنت

فى جوارى[٣٣].

وهذه هى القصة كما ترويها لنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وكما أخرجها البخارى فى صحيحه بسنده فى أكثر من موضع.

تقول الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ[٣٤]، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ: سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ وَلا يُخْرَجُ، إِنَّكَ! تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً! يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، لَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلا يَسْتَعْلِنُ بِصَلاتِهِ، وَلا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ

---

(٣٣) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٢/١: ٣٧٤، والروض الأنف ٣٣٦/٣، ٣٣٧، ٣٥٢، وفتح البارى ٢٣٣/٧ وضبَط أهل اللغة لفظ: (ابن الدَّغِنَة) بضم المهملة المشددة، والمعجمة المخففة، وفتح النون المشددة هكذا: ابن الدُّغُنَّة، وما ذكرناه من ضبط فى الصلب هو المعتمد عند المحدِّثين، والله أعلم.

(٣٤) (بَرْكَ الْغِمَاد) بفتح الموحدة التحتانية، وسكون الراء، وحكى كسر أوله والغماد بكسر المعجمة وقد تضم وتخفيف الميم، موضع على خمس ليال من مكة جهة اليمن، وقيل فيه غير ذلك. فتح البارى ٢٣٢/٧، ومراصد الاطلاع ١٨٧/١.

دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَقَذَّفُ(٣٥) عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِن الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِك، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ...» الحديث مطولاً(٣٦)، وستأتى بقيته بعدُ مع غيره من فوائد إن شاء الله تعالى تحت عنوان: «يوم الهجرة».

ومعلومٌ أن الذى افزع الكفار وأهاجهم من صنيع أبى بكر هو ما عُرِفَ من رقة قلوب النساء والشباب، وسرعة استجابتهم لدين الإسلام، ومبادرتهم فى الدخول فيه.

---

(٣٥)فى رواية: (فَيَنقَذِفُ) وفى أخرى: (فيتقصَّف) والمعنى: أنهم يتزاحمون عليه، ويتدافعون حتى يتساقط بعضهم على بعض ويقعون عليه. فتح البارى٧/ ٢٣٤ بتصرف.

(٣٦) هذا الحديث تكرر فى صحيح البخارى تسع مرات، وأول موضع له فى كتاب الصلاة/ باب المسجد يكون فى الطريق من غير ضرر بالناس ١/ ٥٦٣، ٥٦٤ ح٤٧٦، وبنحو اللفظ المذكور فى: كتاب الكفالة/ باب جوار أبى بكر فى عهد النبى ﷺ وعقده ٥/ ٤٧٥، ٤٧٦، وبلفظه فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٣٠: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وقال الحافظ ابن كثير: تفرد الإمام البخارى بهذا الحديث. البداية والنهاية ط دار الفكر ٣/ ٩٤، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه: فصل فى هجرته ﷺ/ باب ذكر وصف كيفية خروج المصطفى من مكة لمَّا صعب الأمر على المسلمين بها، ٨/ ٦٠: ٦٢ ح٦٢٤٤ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.

والأوصاف التى وصف بها ابن الدغنة أبا بكر قد سبق أن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصفت بها رسول الله ﷺ حين جاءها فزعًا من هول ما رأى لأول مرة من صورة المَلَكْ، وشدة ما لقيه من ثِقَلِ الوحى، كما مر ذلك فى حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحى، وفى هذا دليل على أن العرب برغم ما كانوا فيه من جهالة، إلا أنهم كانوا يعرفون لذوى القَدْرِ أقدارَهم، ولأصحابِ الفضل فضائلَهم، ويُنزلونهم منازلهم، وقد سبق فى الجزء الأول نماذج للأنبياء والمرسلين مع أممهم وأقوامهم ليكونوا أسوة لمن بعدهم، وذلك تحت عنوان: «مُحَاصَرَةُ المُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ وما يُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ».

وسيأتى مزيدٌ من الأمثلة لذلك -إن شاء الله تعالى- فى البحوث المتوالية للهجرة النبوية، والله الموفق.

وهذا أكمل الخلق وصفوتُهم ﷺ قد أحس بهذا الألم من أول ما أعلمه ورقةُ بن نوفل أن قومه سيخرجونه من هذا البلد، وذلك واضحٌ فى قوله: لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ... الحديث(٣٧).

وقد استبعد ﷺ أن يخرجه قومه، لأنه لم يكن هناك سببٌ يقتضى إخراجَه من وطنه، وذلك لما عرفوه عنه صلوات الله وسلامه عليه من جميل الخصال، ومكارم الأخلاق التى سبق من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقريرها له ﷺ ووصفه بها، قال السهيلى: يؤخذ من قوله ﷺ «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» شدة مفارقة الوطن على النفس، فإنه سمع قول ورقة: إنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذَكر له الإخراج تحركت نفسه لحب الوطن وإلفِه، فقال: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» ويؤيد ذلك: إدخال الواو بعد همزة الاستفهام، مع اختصاص الإخراج

(٣٧) متفق عليه، واللفظ المذكور هنا مِنْ: صحيح البخارى، فى: كتاب بدء الوحى ١/ ٣٢.

بالسؤال عنه، فأفاد أن: الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع، ويؤكد ذلك: أن الوطن المشار إليه: حرم الله، وجوار بيته، وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل كلام السهيلى مُلَخَصًا: ويحتمل أن يكون انزعاجه ﷺ من كلام ورقة كان من جهة خشية فوات ما أمَّله من إيمان قومه بالله، وإنقاذهم به من وضر الشرك- أى: دنسه وتبعاته- ومن عذاب الآخرة، وليتم له المراد من إرساله إليهم، ويحتمل أن يكون انزعج من الأمرين معاً(٣٨).

وفى الحديث الصحيح، عن عبدالله بن عدى قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ(٣٩) يَقُولُ- مخاطبًا مكة-: «وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ! لَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ: مَا خَرَجْتُ»(٤٠).

---

(٣٨) فتح البارى ١٢/ ٣٥٩.

(٣٩) بفتح المهملة والواو، بينهما زاى ساكنة، التل الصغير، وكان عندها سوق مكة، ثم ضم إلى المسجد الحرام لما زيد فيه. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٥٥.

(٤٠) جامع الترمذى: كتاب المناقب/ باب فى فضل مكة ٥/ ٦٧٩ ح٣٩٢٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس، عن الزهرى نحوه، ورواه محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ وحديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبدالله بن عدى بن حمراء عندى أصح، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب الحج/ باب فضل مكة ٢/ ٤٧٩، ٤٨٠ ح٤٢٥٢ : ٤٢٥٤ وفيه: (بالجرول) بدل (بالحزورة) وهى: مكان غرب الكعبة، دخل فى توسعة المسجد الحرام، وسنن ابن ماجه: كتاب المناسك/ باب فضل مكة ٢/ ١٠٣٧ ح٣١٠٨، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٣٠٥ عن عبدالله بن عدى، وعن أبى هريرة، الذى أشار إليه الترمذى، وعن بعضهم – يعنى: أصحاب النبى ﷺ- وسنن الدارمى: كتاب السير/ باب إخراج النبى ﷺ من مكة ٢/ ٣١١ ح٢٥١٠، وينظر: الخريطة رقم: ٣٨ من كتاب: «أطلس تاريخ الإسلام» ص٦٢.

وله شاهد من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ! وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ» أخرجه الترمذى وحسنه(٤١).

وقد ظل ذاك الإحساس يمور فى صدر النبى ﷺ وهو فى طريق هجرته حتى طمأنه ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، وقد فسرها ابن عباس فقال: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ إلى مكة. كما ورد ذلك في: كتاب التفسير من صحيح البخارى.

ثم أضف أخى الدارس إلى ما لقيه المصطفى ﷺ من الألم النفسى والبدنى الذى نزل به حين خروجه مهاجرا من مكة التى ولد بها وعاش فى أرجائها أكثرمن خمسين سنة.. ما كان يعانيه ﷺ من الإيذاء من أجل كل صحابى أُخرج من بلده وهاجر من أرضه دون ذنب أو جريرة إلا أنه رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً! وصدق القائل:

وَأَقتَلُ داءٍ رُؤيةُ العَينِ ظالِمًا ۞۞۞ يُسيءُ ويُتلَى حمَدُهُ فى المَحافِلِ

طَلَائِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ

ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق: أن أبا سلمة بن عبدالأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة(٤٢).

وفى صحيح البخارى، عن البراء بن عازب قال: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ

(٤١) ينظر: جامع الترمذى، فى: الكتاب والباب المتقدمين ٥/٦٧٩، ٦٨٠ ح٣٩٢٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٦٨ من طريق ابن إسحاق بدون إسناد، وابن حجر: فتح البارى ٧/٢٦١ لذلك قالت أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: إن أبا سلمة أول بيتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ. صحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند المصيبة ٢/٦٣٢.

أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِنْ الْمُفَصَّلِ(٤٣).

والمعنى أن البراء قد حفظ قصار السور، ثم توجه باقى الصحابة شيئًا فشيئًا، وخرج من بقى من المسلمين مهاجرين إلى النبى ﷺ فى المدينة المنورة، وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرًا، حتى لم يبق بمكة إلا من غُلِبَ على أمره من المستضعَفين.

مُحَاوَلاتٌ فَاشِلَةٌ لإعَاقَةِ الهِجْرَةِ

سعت قريشٌ بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرةِ إلى المدينة، وإثارةِ المشاكلِ أمام المهاجرين، مرةً بحجز أموالِهم ومنعِهم من حملها، ومرةً بحجز زوجاتِهم وأطفالِهم، وثالثةً بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكنَّ شيئًا من ذلك كله لم يُعِقْ موكبَ الهجرة.

وذلك لأن المهاجرين كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم، والتضحية بالنفس والنفيس طلبًا لرضوان الله جَلَّجَلَالُهُ، وفى النماذج التالية شرحٌ لذاك الإجمال:

(٤٣) صحيح البخارى ٧/٢٥٩، ٢٦٠ ح٣٩٢٥.

بيتُ أبي سَلمةَ أوّلُ من هَاجرَ إلى المدِينَةِ

قالت أم المؤمنين أم سلمة(٤٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا ابْنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أَمْسَى، سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي -أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ- فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِالْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِالدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا اللَّهُ

---

(٤٤) مشهورة بكنيتها، واسمها: هند بنت أبى أمية، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ولما مات زوجها أبو سلمة بن عبدالأسد تزوجها رسول الله ﷺ، ينظر: الإصابة لابن حجر ٨/ ١٥٠، وقد ذكر الواقدى أن عمرها كان عند وفاتها أربعًا وثمانين سنة، وبينت الروايات الصحيحة أنها كانت موجودة فى أيام ثورة ابن الزبير على يزيد بن معاوية، فقد توفيت بعد سنة ٦١ من الهجرة، وبذلك يكون عمرها عند الهجرة ٢٣ سنة، وعند زواجها بالنبى ﷺ ٢٧ سنة، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَبُنَيَّ هَذَا، قَالَ: وَاَللَّهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوى بى، فو الله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّي إلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ- وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاَللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ(٤٥).

وقد سُقتُ الخبر بطوله لما فيه من دلالةٍ على الصعوبات التى واجهها المهاجرون، وهى تشيرُ إلى أثر العصبية فى اتخاذ العشائر القرشية مواقفَها من الأحداث، فقد انحاز قومُ أبى سلمة إليه على الرغم من مخالفتهم له فى العقيدة.

ثم إن الخبرَ يكشف عن صورةٍ من صور المروءةِ التى عرفها المجتمعُ القرشيُّ قبل الإسلام تتمثلُ فى موقف عثمانَ بنِ طلحةَ بن أبى طلحة العبدرى، حاجب البيت الحرام، وذلك جليٌّ فى تطوعِه لمصاحبة أم سلمة وإحسانِ رُفقتها فى تلك الرحلة الشاقة الطويلة، حيث كان ماشيًا يقود

(٤٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٩/١، ٤٧٠ من رواية ابن إسحاق بإسنادٍ صالحٍ للاعتبار، فيه سلمة بن عبدالله بن أبى سلمة، وثقه ابن حبان، ولم يخالفه فيه أحدٌ بعده؛ بل قال الحافظ ابن حجر عنه: مقبول، ولم أجد له متابعًا، وعلى أية حال: فحديثه حسن، وقد ورد من طريق صالحة لإثبات الحدث تاريخيًا. ينظر: التاريخ الكبير للبخارى ٨٠/٤، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١٦٦/٤، والثقات لابن حبان ٣٩٩/٦، وتهذيب التهذيب ١٤٨/٤، ١٤٩، وتقريب التهذيب ص٢٤٨، والإصابة ٣٧٣/٤ ترجمة عثمان بن طلحة، وله تتمة تأتي في عنوان: «هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ ورفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم».

لها بعيرها الذى تركبه هى وابنها؛ مما يدل على سلامةِ الفطرةِ التى قادته أخيرًا إلى الإسلام بعد صلح الحديبية فى أول العام الثامن من الهجرة، إذ توجه مهاجرًا من مكة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة، وقد التقى به فى الطريق: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فأسلموا جميعًا، ثم شهدوا فتح مكة، وأعطى النبىُّ ﷺ مفتاح الكعبةِ لعثمان بن طلحة؛ فلعل إشراقَ نورِ الإسلامِ فى قلبه بدأ منذ هذه الرحلة مع المرأة المسلمة.

أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير

وذكر ابن إسحاق أن النبى ﷺ بعث مع الاثنى عشر رجلاً مصعب بن عمير العبدرى، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زرارة، وللدارقطنى من حديث ابن عباس، أن النبى ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم، فأسلم خلقٌ كثيرٌ من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زراره حتى فشا الإسلامُ بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم فى السَّنَة المقبلة حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلمًا وزيادة، فبايعوا وحظوا بلقاء رسول الله ﷺ وروى أبو داود من طريق عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة.

ولقد كان مصعب بن عمير أحد السابقين، أسلم قديمًا والنبى ﷺ فى دار الأرقم وكتم إسلامه خوفًا من أمه، فعلم بإسلامه عثمان بن طلحة فأخبر أهله بإسلامه فأوثقوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الأولى ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، ثم شهد أُحُدًا، وكان معه لواء المسلمين يومئذٍ إلى أن استشهد بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وفى الفردوس الأعلى أسكنه وآواه.

أخرج الترمذى وحسنه من حديث على بن أبى طالب قال: إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنْ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَى الْمُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»(٤٦).

فرحم الله مصعب بن عمير ورضى عنه حيث كان من السابقين الذين هاجروا الهجرتين وشهد بدرًا واستشهد بأُحُدٍ.

تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ

وهذا عمر بن الخطاب يهاجر سرًا مستخفيًا آخذًا بالأسباب وفق سنن الله الجارية، فيتفق مع غيره من المسلمين المستضعفين بمكة على موعدٍ يجتمعون فيه محدد الزمان والمكان، فإذا تأخر عنه أحدهم فليمض الباقون دون أن ينتظروه حتى لا يكشف أمرهم، وهذه هى القصة مرويةٌ بسندٍ حسن لذاته؛ بل صححها غير واحدٍ من الأئمة، والذى يُحَدِّثُ بها هو عمر بن الخطاب نفسُه، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَّعَدْتُ- يعنى: ضرب مع غيره موعدًا يلتقون فيه- لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى

(٤٦) ينظر فى ترجمة مصعب: كتاب الإصابة٦/٩٨، وفى مناقبه يراجع؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة أحد٧/٣٥٣ ح٤٠٤٥، وباب: من قُتل من المسلمين يوم أحد ٧/٣٧٥ ح٤٠٨٢، وجامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٣٥ ج٢ ص٥٥٨ ح٢٤٧٦، وكتاب المناقب/ باب فى مناقب مصعب بن عمير ٥/٦٤٩ ح٣٨٥٣، وانظر ما سيأتى تحت عنوان: «تمحيص للمؤمنين في بدر وأحد».

الْمَدِينَةِ، أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ التَّنَاضِبَ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَوْقَ سَرِفٍ، وَقُلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضِبِ، وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ، وَفُتِنَ فَافْتُتِنَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا، حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَكَلَّمَاهُ وَقَالَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَاكَ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَاكَ، فَرَقَّ لَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دينك فَاحْذَرْهُمْ، فو الله لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطَتْ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ. قَالَ: فَقَالَ: أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي، وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخُذُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. قَالَ: فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا، فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ، فَالْزَمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ، فَانْجُ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَا بن أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَظْتُ بَعِيرِي هَذَا، أَفَلَا تُعْقِبَنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَنَاخَ، وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ، ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ، وَفَتَنَاهُ فَافْتُتِنَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ: أَنَّهُمَا حِينَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوثَقًا، ثُمَّ قَالَا: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، هَكَذَا فَافْعَلُوا بِسُفَهَائِكُمْ، كَمَا فَعَلْنَا بِسَفِيهِنَا هَذَا(٤٧).

---

(٤٧) هذه الجزئية من قول ابن إسحاق لما في إسنادها من جهالة: بَعْضُ آلِ عَيَّاشٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ، قَالَ: فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ أُفْتُتِنَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ! قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ، وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ، وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي: فَلَمَّا أَتَتْنِي جَعَلْتُ أَقْرَؤُهَا بِذِي طُوًى -وادٍ بمكة-، أُصَعِّدُ بِهَا فِيهِ وَأُصَوِّبُ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهمّ فَهِّمْنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا، وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي، فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ(٤٨).

وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به: بثكلِ أمه، وَتَيْتِيم ولده، وترميلِ زوجه... فلم يصح، وإن تناقله بعض كُتَّاب السير القدامى والمعاصرين(٤٩)، والذى صح عن

(٤٨) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٤/١ بإسنادٍ حسن لذاته، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث، ومن طريق ابن إسحاق: أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤٣٥/٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وقال الهيثمى: رواه البزار ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٦١/٦، وانظر روايات أخرى للواقدى نقلها ابن سعد، وكأنها اختصار لمتن ابن إسحاق، وفيها: وكنا إنما نخرج سرًا. الطبقات الكبرى ٢٧١/٣.

(٤٩) الخبر أورده ابن الأثير بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة. أسد الغابة ١٥٢/٤، ١٥٣ ط الشعب، القاهرة، وشرح المواهب اللدنية ٣١٩/١، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣١٥/٣، ٣١٦ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، كلهم بإسنادٍ فيه

عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ فى استخفائه بهجرته: هو الموافق للعقل والنقل، فما كان عمر ليغتر بقوته وشجاعته ويفتح بذلك ثغرةً يدخل منها الأعداء لحرب أولياء الله، وقد ورد فى الحديث المتفق عليه قول رسول الله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ...».

وقد استقر كثيرٌ من المهاجرين فى قباء فى مكان يسمى: العُصْبة، قبل مَقدَمِ رسولِ الله ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبى حذيفة يؤمهم فى مسجد قباء، لكونه أكثرَهم قرآنًا(٥٠).

ثم تتابع المهاجرون أرسالاً إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ

ولما انقضى موسم الحج فى شهر ذى الحجة من العام الثالث عشر للبعثة، وبايع النبى ﷺ الأنصار البيعة الأخيرة عند العقبة فى أوسط أيام التشريق: اعتزم رسول الله ﷺ أن يهاجر، ويلحق بالمسلمين فى المدينة من المهاجرين والأنصار، ومما ينبغى أن نعلمه أيضًا: أن رسول الله ﷺ كان يقدم المثل الذى يطيقه عامة الناس، وذلك واضحٌ فى الكثير من شأنه ﷺ، حيث كان ﷺ يقدم الضعفاء ويكرمهم، ويلازم المتواضعين والمخبتين ويُجِلُّهم، كما أمره الله عز وجل فى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

مجاهيل ثلاثة، ومن عجبٍ: أنهم ذكروا أيضًا القصة الصحيحة التى رواها عمر بنفسه، ولكن دون تمحيص. ينظر: دفاع عن الحديث النبوى والسيرة ص١٤٣ للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، والسيرة النبوية الصحيحة ٢٠٤، ٢٠٥، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٥٠) الحديث فى صحيح البخارى: عن عبدالله بن عمر ٢/ ١٨٤ ح٦٩٢، و١٣/ ١٦٧ ح٧١٧٥.

وهو ﷺ القائل فى صحيح الحديث عنه: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ» وفى رواية أخرى أنه ﷺ قال: «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ: فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»(٥١).

وقد سبق أن علمنا: أن جهره ﷺ بالدعوة، واستخفاءه بها كان من باب التلوين فى الدعوة، والتنوع فى أساليبها، وسلوك كل سبيلٍ تؤدى إليها، كما قال سُبْحَانَهُ فى شأن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح].

ومن ثَمَّ: تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة؛ حتى هاجر معظمُ القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، كما هاجر ﷺ مستخفيًا ليضرب المثل للمستضعفين من المؤمنين، وقد مر قريبًا تحت عنوان: «تناصح المهاجرين وتعاونهم فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هاجر مستخفيًا مع عشرين من أصحاب النبى ﷺ كسائر مَن سبقوهم فى الهجرة، وليس كما هو شائع بين الذين لا يدققون فى توثيق الأخبار وتحقيق النصوص حيث يزعمون أن عمرَ هاجرَ علانيةً متوعدًا لقومه ومتحديًا لهم!.

---

(٥١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ٦/٨٨ ح٢٨٩٦، وفى سنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/٧٣ ح٢٥٩٤.

يَوْمُ الْهِجْرَةِ

إن وقائعَ يومِ الهجرةِ ليست بأقلَّ خطرًا ولا إعجازًا من أحداث ليلة الهجرة، فقد أخرج الإمامُ أحمد من طريقين، رجالهما رجالِ الصحيح، من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: إِنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلاءِ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بُنَيَّةُ! أَرِينِي وَضُوءًا» فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ التُّرَابِ، فَقَالَ ﷺ: «شَاهَتْ الْوُجُوهُ» ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلاً مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا. الحديث صححه ابن حبان والحاكم(٥٢).

وله طريقٌ أخرى: عن ابن عباسٍ، عن فاطمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: اجتمع مشركو قريش فى الحِجْر، فقال رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّةُ اسكنى» ثم خرج ﷺ فدخل عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسَهم ثم نُكِسُوا، فأخذ ﷺ قبضةً من ترابٍ فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فما أصاب رجلاً منهم إلا قُتِل يومَ بدرٍ. صححها الحاكم(٥٣).

---

(٥٢) مسند الإمام أحمد ٣٠٣/١ ح٢٧٦٢ (واللفظ له) وفى ٣٦٨/١ ح٣٤٨٥، وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص٤٠٩، ٤١٠ ح١٦٩١، والمستدرك: كتاب الطهارة ١٦٣/١ ح٥٨٣، ودلائل النبوة للبيهقى ٢٤٠/٦، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٢٨/٨ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٥٣) هذه الرواية: صححها الحاكم، فى: المستدرك ١٥٧/٣ ح٤٧٤٢.

وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا تقص علينا وقائع الهجرة فى حديثها الطويل الذى تقدم شىءٌ منه تحت عنوان: «الطرد من الوطن كفصل الروح عن البدن» فتقول فيه: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً...» إلى أن قالت رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا فى ذاك الحديث: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ» وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ، وَهُوَ: الخَبَطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ؛ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ! قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ! بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا

عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ: لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا- أى: الذى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته، فيصير على هيئة الجبن- حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ(٥٤).

فهذا الحديث يُستفاد منه: أنه ﷺ كان يتردد على بيت أبى بكر كل يومٍ فى الصباحِ وفى المساء، لا يكاد يدع ذلك، ومن ثَمَّ ترجم له البخاري في كتاب الأدب بقوله: «بَابٌ: هَلْ يَزُورُ صَاحِبَهُ كُلَّ يَوْمٍ، أَوْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

فلما أُذِنَ له ﷺ بالهجرة جاء إلى بيت أبى بكر فى وقت الظهيرة على غير عادته وهو مستخفٍ، فأخبر أبا بكر بذلك، واختياره ﷺ وقت الظهيرة: لأن الناس تأوى إلى بيوتها للقيلولة فرارًا من الحر، وتَقَنُّعُه ﷺ يفيد شعوره بالخطر من حوله، فقد اعتزمت قريش قتله، ولا بد أنها ستعمد إلى رصد تحركه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال](٥٥).

---

(٥٤) هذا لفظ البخارى، فى: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٢٣٠/٧: ٢٣٢ ح٣٩٠٥، وأما عبدالله بن أريقط الديلى: فلم يذكره أحدٌ فى الصحابة سوى الحافظ الذهبى، حيث ذكره فى كتابه: «تجريد أسماء الصحابة» ٢٩٦/١ رقم: ٣١٣٢ ط دار المعرفة، بيروت، وينظر: الإصابة ٥/٤، و٢٤: ٢٦ فلعلهم أغفلوه لأنه لا رواية له، والحمد لله الذي أكرمه بالاسلام والصحبة لرسول الله ﷺ.

(٥٥) ينظر: فتح البارى ٢٣٢/٧ : ٢٣٨ فى شرح الحديث المتقدم.

لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ

كان رسول الله ﷺ يعتصم بكلام ربه دائمًا، وكثيرًا ما كان يقرؤه ليستخفى به عن أعين المشركين، أخرج البزَّار بسندٍ حسن، وصححه ابن حبان – واللفظ له- من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبى لهبٍ إلى النبى ﷺ ومعه أبو بكرٍ، فلما رآها أبو بكر قال: يارسولَ اللهِ إنها امرأةٌ بذيئةٌ، وأخافُ أن تؤذِيَكَ، فلو قمتَ – يعنى: حتى لا ينالَكَ أذاها- قال ﷺ: «إنها لن تَرانِى» فجاءت فقالت: يا أبا بكر! إن صاحِبَكَ هَجانِى، قالَ: لا، وما يقولُ الشِّعْرَ، قالت: أنتَ عندِى مُصَدَّقٌ، وانصرفَتْ، فقلتُ: يارسول الله! لم تَرَكَ؟ قال ﷺ: «..لَمْ يَزلْ مَلَكٌ يَستُرُنى مِنها بجناحَيهِ»(٥٦).

فاستخفاؤه ﷺ عن أعين أعدائه بقراءته للقرآن مخافة كيدهم له، أو فتكهم به: ثابتٌ بصريح القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء].

ومعلومٌ أنه ﷺ: لا يغفل عن ذكره لربه، ولا يفتر عن تلاوته لكلام خالقه، وهو سبحانه الذى أنزل عليه فى مكة: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف].

وهذه رواية أخرى تعددت مخارجها تثبت ما وقع من ذلك فى ليلة الهجرة: فيروى ابن إسحاق قائلاً: فحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره: كنتم ملوك

---

(٥٦) مختصر زوائد البزار ٢/١٢١، ١٢٢ ح١٥٣٩، وكشف الأستار ح٢٢٩٤، وحسنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٧٣٨/٨، ولفظه من: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ٥١٦ ح٢١٠٣، وقد سبق له شاهد من حديث أسماء بنتِ أبى بكر فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان: «مَا لَقِيَهُ المصطفَى ﷺ فِى إِقَامةِ الدِّينِ وحِمَايةُ اللهِ لَهُ».

العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنن كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها، قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من صدر سورة يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾.

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم أتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًّا عَلَى الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صَدَقَنَا الذى حدثنا(٥٧).

---

(٥٧) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٣/١ بسند صحيح، من طريق: ابن إسحاق إلى محمد بن كعب القرظى، لكنه مرسل، ورواها ابن جرير: تاريخ الطبرى ٣٧٢/٢، ٣٧٣، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص١٥٩، ١٦٠، والبيهقى فى دلائل النبوة ٤٦٩/٢، ٤٧٠ ثم قال: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا، وهو شاهد آخر رواته ثقات، لكنه مرسل أيضًا، أخرجه

وقد بين ابن عباس حصار المشركين لبيت رسول الله ﷺ ابتغاء قتله، ومبيت عليٍّ على فراشه، ولحاقه ﷺ بالغار.

ولما علم المشركون ذلك في الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت(٥٨) فتركوه.

وهي رواية حسنها كثيرون من الحفاظ، وليس هناك ما يدفعها من عقلٍ أو نقل؛ بل على العكس من ذلك: تؤيدها الآيات القرآنية الكثيرة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب وِفْقَ سنن الله الجارية، فلما انقطعت الأسباب: بقى له مددُ الكبيرِ الوهاب، فصنع له ربه ما لم يخطر له على بال.

ومما يدل على أخذه ﷺ بالأسباب: أنه كان دائمًا يبدأ بالإمكانات المتاحة، ويبذل قصارى جهده ما أمكنه ذلك، فإنه ﷺ لم يختر عند هجرته مكانًا تجاه المدينة في شمال مكة من أعلاها؛ بل

عبدالرزاق في تفسيره ٢/١١٢ ح٢٤١٥: عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمدًا لأفعلن ولأفعلن...، فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ [يس]، فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو...؟ لا يبصره!!. وينظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٧/٤٣ ط دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٥٨) مسند الإمام أحمد ١/٣٤٨ بإسناد ضعيف، لكنه صالح للاعتبار، وقد حسنه ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٧٩ وقال: وهو أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار، وحسنه ابن حجر في الفتح ٧/٢٣٦، وحسنه الزرقاني في شرح المواهب ١/٣٢٣ وفي السند: عثمان بن عمرو بن ساج الجزري، فيه ضعف، ووثقه ابن حبان، فحديثه صالح للاعتبار، ينظر: تهذيب التهذيب ٧/١٤٥، وتقريب التهذيب ٣٨٦.

اختار أقصى جبل جنوب مكة من أسفلها، وحدد غارًا يكمن فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع طالبوه، وهذا الغار إذا حاول أَحدٌ الآن الصعود إليه فإنه يأخذ من الشاب المشتد فى سيره أكثر من ثمانين دقيقة حتى يصل إلى الغار، فضلاً عن بضعة كيلو مترات يبعد بها الجبل عن المسجد الحرام؛ بل لقد تواعد رسول الله ﷺ مع أبى بكر الصديق أن يتقابلا عند مكان يسمى: بئر ميمون فى طريق مِنى، ثم ركبا منه إلى الغار فى الجهة المقابلة جنوب مكة، وقد ورد هذا فى حديثٍ طويلٍ، حسن الإسناد، أخرجه الإمام أحمد، يفيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته، حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فَلَبِسَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثوبه ونامَ مكان النبى ﷺ، واخترقَ رسولُ الله ﷺ حصارَ المشركين لِبَيتِه دون أن يرَوْه، بعد أن أوصى عليًّا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به، فيقول عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ نَائِمٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ،فَأَدْرِكْهُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الْغَارَ، قَالَ: وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ، كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيُّ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَوَّرُ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثَّوْبِ لا يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَلَئِيمٌ! كَانَ صَاحِبُكَ نَرْمِيهِ فَلا يَتَضَوَّرُ، وَأَنْتَ تَتَضَوَّرُ، وَقَدْ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ(٥٩).

كما سجل جَلَّجَلَالُهُ مناجاة نبيه ﷺ لرفيقه أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى القرآن المجيد بقوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

(٥٩) مسند الإمام أحمد ١/٣٣١ ح٣٠٦٢ وقد صححه الشيخ أحمد محمد شاكر، من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وفى سنده؛ أبو بلج: صدوق، وقال الهيثمى: رجال أحمد رجال الصحيح، غير أبى بلج الفزارى، وهو: ثقة وفيه لين. مجمع الزوائد ٩/١١٩، ١٢٠، وقال ابن حجر: أبو بلج صدوق ربما أخطأ. تقريب التهذيب ٦٢٥. وقد انفرد بهذا الحديث وقد قال ابن حبان: أرى ألَّا يحتج بما انفرد به من الرواية. المجروحين ٣/١١٢.

وهذا الذى وقع للنبى ﷺ قد أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به آحاد الأمة وأفرادها – بعد نبيها– الذين أيقنوا بالله وأخلصوا له، قال الإمام القرطبى المتوفى عام ٦٧١ من الهجرة: ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحِصنٍ منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك: أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحيةٍ عنه، فلم أَلبَثْ أن خرج فى طلبى فارسان، وأنا فى فضاءٍ من الأرض قاعدٌ ليس يسترنى عنهما شىءٌ، وأنا أقرأُ أول سورة يَس، وغير ذلك من القرآن، فعبَرا عَلَىَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطانا – وكلمة: دِيَابْل بالفرنسية تعنى: جِنًّا أو شيطانًا – وأعمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبصارهم فلم يرونى، والحمد لله حمدًا كثيرًا على ذلك.

ونقل الإمام القرطبى، عن كعب الأحبار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنه ذكر آيات كان النبى ﷺ يستتر بها من المشركين ثم قال: فحدثت بهم رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقامَ بها زمانًا، ثم خرج هاربًا، فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن، فصاروا يكونون معه على طريقه، ولا يبصرونه، قال الثعلبى: وهذا الذى يَرْوُونَهُ عن كعب حَدَّثْتُ به رجلاً من أهل الرِّىّ فأُسِرَ بالدَّيلم، فمكث زمانًا، ثم خرج هاربًا فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهن؛ حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه(٦٠).

وهذا بلا شك يحصل لكل من استنفذ الأسباب التى يقدر عليها، وصدق فى التجائه لربه، وأحسنَ فى توكله عليه، كما قال عز فى علاه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق].

(٦٠) تفسير القرطبى ١٠/٢٦٩، ٢٧٠.

وقد حمل أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فى تلك الليلة ثروته ليضعها تحت تصرفِ رسولِ الله ﷺ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ عَبَّادًا حَدَّثَهُ عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةُ آلَافٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ؛ إِذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ. قالت أسماء: لَا وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ(٦١).

والقدر الذى حمله معه أبو بكر من ماله يساوى نصف الدية الشرعية، وهى ستة آلآف درهم ووزنها فى أيامنا من الفضة ٢٣٤٠٠ جرامًا عيار ٨٠، ومن الذهب ٢٤٥٠ جرامًا عيار ٢١.

وروى أَن الْمُشْركين كَانُوا يعلمُونَ محبَّة رَسُول الله لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فَذَهَبُوا لطلبه على بَاب أبي بكر وَفِيهِمْ أَبُو جهل، فَخرجت إِلَيْهِم أَسمَاء بنت أبي بكر فَقَالُوا لَهَا: أَيْن أَبوك؟ فَقَالَت:لَا أَدْرِي، فَرفع أَبُو جهل يَده وَكَانَ فَاحِشا خبيثاً فلطم خدها لطمة خرج مِنْهَا قُرْطهَا وَسقط، ثمَّ انصرفوا(٦٢).

ويقال: إن أبا جهل قال لرفقائه: اكتموا عنى هذا الفعل حتى لا أُفضَحَ بين العرب. ففى أى

---

(٦١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٨/١ بإسناد حسن، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك ٥/٣، والبيهقى فى دلائل النبوة ٤٨٠/٢ بإسنادٍ فيه انقطاع بين: يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، وبين أسماء، ولكن يحيى أخذ الخبر عن أبيه عباد فهو الذى يروى عن جدته أسماء، ومن ثم: فإن السند حسن، والله أعلم.

(٦٢) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس لحسين بن محمد الدِّيار بَكْري المتوفى ٩٦٦هـ ٣٢٨/١، وكتاب: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبدالملك بن حسين العصامي المكي المتوفى ١١١١هـ- تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ٣٤٩/١.

الدركات تصنف قبائح المعاصرين فى حق النساء؟!!

وكان خروج رسول الله ﷺ بِصُحْبَةِ أبى بكر إلى غار ثور جنوب مكة فى سحر ليلة الخميس فكَمَنَا فيه ثلاثَ ليال بأيامها كاملةً، بدأت بليلة الجمعة وانتهت بآخر يوم الأحد، وقريش تطاردهما سحابة النهار، وتبحث عنهما، وتقتفِى آثارهما... حتى انتهوا إلى باب الغار ووقفوا عليه؛ ولكن حال الله بينهم وبين الوصول إلى الرسول ﷺ وصاحبه.

ثم لما وقف المشركون على فم الغار الذى بداخله رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، لم يجترئ أحدٌ منهم على الدخول فى الغار ليستبرئه ويقطع الشك باليقين؛ حتى قال أحد المعاصرين الغربيين: لم أجد أغبى من أهل مكة؛ إذ وقفوا عند باب الغار ومحمد بداخله، فلم يدخل أحد منهم الغار ليفتشه بعد هذا العناء الطويل. لكن هذا الكافر لم يفقه أن الغباء جند من جنود الله القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

أما رسول الله ﷺ فقد كان فى معية الله يرتل كلامه؛ ليستخفى به عن أعين المشركين، كما كان يفعل ﷺ ذلك من قبل.

وأما الصِّدِّيق فقد كان قلقًا لا يَقَرُّ له قرار، من شدة خوفه على رسول الله ﷺ لاسيما بعد رؤيته لأقدام المشركين عند باب الغار، فيقول: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ ﷺ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ! اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»(٦٣).

وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

(٦٣) صحيح البخارى ٧/٢٥٧ ح٣٩٢٢، وصحيح مسلم ح٢٣٨١ عن أنس بن مالك.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وقد ورد حديثٌ سنده ضعيفٌ جدًا، يفيد: أن الرسول ﷺ لما بات فى غار ثور أمر الله شجرة فنبتت فى وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن ذلك كان سبب صدود المشركين عن دخول الغار واستبرائه من داخله، ومثل هذه الأساطير كثيرًا ما تسربت إلى العديد من كتب السيرة.

وما أحسن ما عقب به الحافظ ابن كثير على حديث أنس الصحيح المتقدم الذى قال فيه أبو بكر الصديق: «لو أن أحدَهم نظر إلى قدميه لأبصرنا...» حيث قال: «وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبى ﷺ: «لو جاءونا من ههنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه. وليس هذا بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا؛ ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به، والله أعلم»(٦٤).

(٦٤) أخرجه ابن سعد: ٢٢٩/١ وفى سنده؛ أبو مصعب المكى: مجهول، وعوين بن عمرو: منكر الحديث، وسماه: (عون) وأخرجه البزار ٩/٢ ح١٣٤٠ مختصر زوائد البزار، وانظر: كشف الأستار ٢٩٩/٢، ٣٠٠ وفى إسناده: عوين بن عمرو، وهو منكر الحديث، لا شيء، وقد تفرد به، وشيخه؛ أبو مصعب: مجهول، والحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ٤٤٣/٢٠، ودلائل النبوة لأبى نعيم ٢٦٩/٦، ٢٧٠، ودلائل النبوة للبيهقى ٢١٣/٢، ٢١٤، والبداية والنهاية لابن كثير ١٨١/٣ وقال: غريب جدًا من هذا الوجه، وشرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣٣١/١، وسبل الهدى والرشاد ٣٣٩/٣، ٣٤٠، وقال الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنه لا يصح حديث فى العنكبوت والحمامتين: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٣٩/٣، وينظر

قال الشيخ محمد سالم البيحانى فى أرجوزته:

قَد شَرَحَ اللهُ تَعَالَى صَدْرَهْ ۞۞ وَأَذِنَ اللهُ لَهُ بِالهِجْرَهْ
فَأَخبَرَ الصِّدِّيقَ وَاستَعَدَّا ۞۞ بِنَاقَتَينِ حَسَنَتَينِ جِدًّا
سُلِّمَتَا إِلَى الدَّلِيلِ الدِيلِي ۞۞ وَهْوَ الذِّي أَسْرَى بِهِم فِي اللَّيْلِ
وَقَرَّرَتْ قُرَيشٌ أنْ تَمْنَعَهُ ۞۞ مِنَ الخُرُوجِ أَو تَرَى مَصْرَعَهُ
وَلَمْ يَخَافُوا مِن عِقَابِ رَبِّهِمْ ۞۞ بَل مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ
وَمَرَّ بَينَهُمْ وَهُم يَنتَظِرُون ۞۞ خُرُوجَهُ لَكِنَّهُم لَا يُبْصِرُون
وَاسْتَخْلَفَ القَوِيَّ فِي فِرَاشِه(٦٥) ۞۞ مَن كَعَلِيٍّ فِي ثَبَاتِ جَاشِهِ
وَاختَبأَ الصِّدِّيقُ وَالنَّبِيُّ ۞۞ فِي غَارِ ثَورٍ وَغَدَى التَّيْمِيُّ
يَقُولُ كَادَ القَومُ أَنْ يَرَوْنَا ۞۞ لَو طَأطَأوا الرُّؤوسَ وَالعُيُونَا
وَالمُصطَفَى يَقُولُ نَحْنُ اثنَانِ ۞۞ ثَالِثُنَا مُنْزِلُ القُرآنِ
وَأَصلَحَتْ زَادَهُم أَسْمَاءُ ۞۞ ذَاتُ النِّطَاقَينِ كَمَا تَشَاءُ
وَانْطَلَقُوا بَعدَ ثَلاثٍ مَعَهُمْ ۞۞ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ يَنْفَعُهُم
وَابنُ أُرَيْقِطٍ هُوَ الدَّلِيلُ ۞۞ وَامْتَلأَتْ بِالرَّصَدِ السَّبِيلُ
قَد جَعَلُوا دِيَتَهُ لِمَن أَتَى ۞۞ بِهِ أَسِيرًا أَو قَتِيلاً أَو مَيْتَا
وَلِسُرَاقَةَ حَدِيثٌ يُعْرَف ۞۞ سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنتَ المُنْصِف

التعقيب الأخير للحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ١٨٢.

(٦٥) فى أرجوزته: (الوصى)، وهذا يشير إلى أنه زيدى غير مغالٍ فى تشيعه كما كان من قبله الإمام الشوكانى، والله أعلم.

التَّأْرِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ

تواترت الأخبار بورود النبى ﷺ قباء يوم الاثنين لثمانٍ خلون من ربيع الأول في العام الأول من الهجرة النبوية، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٢٢م وكانت بداية العام الهجري في ليلة الجمعة غرة شهر الله المحرم للعام الأول من الهجرة الموافق ١٤ يوليو سنة ٦٢٢م، وكان له ﷺ من العمر يوم هجرته ثلاثةٌ وخمسون عامًا، والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان فى اليوم الثامن من ربيع الأول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م، وهذا لا يختلف مع التاريخ الذى ذكره الدكتور حسين مؤنس، كما نص فى كتابه ذاك: «أطلس تاريخ الإسلام» أن أول المحرم سنة واحد هجرية يقابل ١٦ يوليو سنة ٦٢٢م، وهو بداية التاريخ الهجرى.

وبِناءً على ما سبق نسجل هنا: أن هلال شهر صفر كان في ذاك العام ليلة السبت ١٢ أغسطس ٦٢٢م، وكان خروجه ﷺ من مكة إلى الغار فى ليلة الخميس العشرين من شهر صفر من العام نفسه، الموافق أول سبتمبر ٦٢٢م، ثم كان خروجه من الغار فى ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر صفر، الموافق ٥ سبتمبر٦٢٢م، واستغرقت الرحلة من الغار إلى قباء اثنى عشر يومًا، حيث كان وصولُه ﷺ يوم السبت السادس من ربيع الأول، الموافق ١٦سبتمبر ٦٢٢م، وفي حديث عبدالله بن عمر المتفق عليه أن رسول الله ﷺ «كَانَ يَأْتِي قُبَاءَ - يَعْنِي - كُلَّ سَبْتٍ، كَانَ يَأْتِيهِ رَاكِبًا وَمَاشِيًا»(٦٦).

وقد مكث ﷺ بقباء خمسة أيام كاملةٍ بلياليها أسس فيها مسجد قباء، ثم استقر ﷺ بالمدينة من ظهر يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيعٍ الأول، الموافق ٢٢سبتمبر ٦٢٢م، وهذا

(٦٦) صحيح البخاري ح/ ٧٣٢٦ وصحيح مسلم ح/ ١٣٩٩ الرواية رقم ٥٢١ وصحيح ابن حبان ح/ ١٦٣٢ وبوَّب عليه بقوله: «باب ذكر اليوم الذي يستحب إتيان مسجد قباء لمن أراده».

التأصيل التاريخي هو الموافق لوقفة عرفات في حجة الوداع ٩ من ذي الحجة في العام العاشر من الهجرة، الموافق ٥ مارس ٦٣٢م وكان يوم الجمعة، والحديث الوارد فى ذلك متفق عليه، والحمد لله رب العالمين.

ولما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة.

ولقد وُلد رسول الله ﷺ وبُعث، ولَحق بالرفيق الأعلى دون أن يؤرخ الناس بشىءٍ من ذلك؛ بل إنهم قد أغفلوا التاريخ وأهملوه وتركوه؛ لكنهم بعد ذلك استدركوه وأثبتوه، وهذا هو معنى الحديث الذى أخرجه البخارى فى صحيحه، في: باب التاريخ، ومن أين أرَّخوا التاريخ؟ حيث قال: حَدَّثَنَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُالْعَزِيزِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلا مِنْ وَفَاتِهِ: مَا عَدُّوا إِلَّا مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ(٦٧).

فلما كانت خلافة عمر، وفى العام السابع عشر من الهجرة، وفى شهر شعبان على التقريب: استشار الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أصحابَ رسول الله ﷺ: من أين يبدءُون التأريخ؟ فوفقهم الله وهداهم إلى بدئه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ دخل فيه النبى ﷺ مع أصحابه المدينة، وهجروا أرض الشرك، وابتدءوا بناءَ المسجد، وعبدوا ربهم آمنين.

وهكذا اجتمعت كلمة المسلمين على بدء التأريخ من زمن الهجرة، وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبةً، فقال: كانت القضايا التى اتفقت له ﷺ ويمكن أن يُؤَرَّخَ بها أربعة: مولده، ومبعثه، وهجرته، ووفاته. فرجح عندهم جعلها من الهجرة؛ لأن المولد والمبعث لا يخلو

---

(٦٧) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار٧/٢٦٧ ح٣٩٣٤، والمستدرك على الصحيحين: كتاب الهجرة ٣/١٣ ح٤٢٨٥، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبى.

واحدٌ منهما من النزاع فى تعيين السَّنَة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما يُتوقَّع بذكره من الأسف عليه ﷺ، فانحصر فى الهجرة.

قال الحافظ ابن حجر فى شرحه للحديث المتقدم ما ملخصه: التاريخ: تعريف الوقت، ويقال أول ما أُحدِث التاريخ من الطوفان، وقد روى الحاكم فى الإكليل بسندٍ معضل، من طريق ابن جريج، عن أبى سلمة، عن ابن شهاب الزهرى: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة: أمر بالتاريخ فكُتِب فى ربيع الأول.

والمشهور أن ذلك كان فى خلافة عمر، وفى العام السابع عشر من الهجرة.

وأفاد السهيليُّ: أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وهو أول الزمن الذى عز فيه الإسلام، وعَبَدَ فيه النبي ﷺ ربه آمنا، وابتدأ بناء المسجد: فوافق رأىُ الصحابةِ ابتداءَ التاريخ من ذلك اليوم، وفهمنا من فعلهم: أن قوله تعالى ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: أنه أول أيام التاريخ الإسلامى.

وإنما أخروا البدء بالتاريخ من شهر ربيع الأول إلى شهر الله المحرم، لأن ابتداء عزمه ﷺ على الهجرة كان فى المحرم، إذ البيعة وقعت فى أثناء ذى الحجة وهى مُقَدِّمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة: هو هلال المحرم، فناسب أن يُجعل مُبتدأ التاريخ من أول السنة.

وذكروا فى الباعث لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على التأريخ من بدء الهجرة آثارًا عديدةً، منها:

ما رواه ابن أبى خيثمة من طريق ابن سيرين، قال: قَدِمَ رجلٌ من اليمن فقال رأيتُ باليمن شيئًا يسمونه التاريخ، يكتبونه من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: هذا حسن! فَأَرِّخُوا، فلما جمع على ذلك قال قومٌ: أرخوا للمولد، وقال قائلٌ: للمبعث، وقال قائلٌ: من حين خرج مهاجرًا، وقال قائلٌ: من حين توفى، فقال عمر: أَرِّخُوا من خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة، ثم قال: بأى

شهرٍ نبدأ؟ فقال قومٌ: من رجب، وقال قائلٌ: من رمضان، فقال عثمان: أَرِّخُوا المحرم؛ فإنه شهرٌ حرام، وهو أول السنة، ومنصرف الناس من الحج، قال: وكان ذلك سنة سبع عشرة، وقيل سنة ست عشرة فى ربيع الأول.

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم: الفضل بن دكين فى تاريخه، ومن طريقه الحاكم: إلى الشعبى أن أبا موسى كتب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه يأتينا منك كُتُبٌ ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم: أَرِّخْ بالمبعث، وبعضهم: أَرِّخْ بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فَأَرِّخُوا بها. وذلك سنة سبع عشرة، فلما اتفقوا، قال بعضهم: ابدءوا برمضان، فقال عمر: بل بالمحرم؛ فإنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه.

وروى البخارى فى الأدب، والحاكم من طريق ميمون بن مهران قال: رُفِعَ لعمر صكٌّ مَحِلُّه شعبان، فقال: أى شعبان؟! الماضى، أو الذى نحن فيه، أو الآتى!! ضعوا للناس شيئًا يعرفونه.

وروى الحاكم: عن سعيد بن المسيب قال: جمع عمر الناس فسألهم عن أول يوم يُكتَب التاريخ؟ فقال علىٌّ: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، ففعله عمر.

ثم قال الحافظ ابن حجر: فاستفدنا من مجموع هذه الآثار أن الذى أشار بالمحرم عمرُ وعثمانُ وعلىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٦٨).

وهكذا: اتفق رأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على بدء التاريخ من هجرة المصطفى ﷺ وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(٦٨) فتح البارى ٢٦٨/٧، ٢٦٩بتصرف، والمستدرك ١٤/٣ ح٤٢٨٧، وصحح الحاكم أثر سعيد بن المسيب، وأقره الذهبى على ذلك.

اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بقباء أيامًا قلائل: خرج إلى المدينة، فروى البخارى أن ابن شهاب قال: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنْ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ، وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ –حصن– مِنْ آطَامِهِمْ لأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمْ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنْ الأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ، حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ(٦٩).

ويستفاد من هذا الحديث: أن أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم كانوا يخرجون إلى الحرة– وهى أرض ذات حجارة سود، كأنها أُحرقت بالنار من شدة سوادها– ينتظرون مقدم رسول الله عليهم، فيظلون كذلك، حتى يردهم حر الظهيرة، يفعلون ذلك كل

---

(٦٩) صحيح البخارى ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

يوم، فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم، أطل رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم، فأبصر رسول الله ﷺ ومن معه من بعيد، فنادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا حَظُّكُم الذى تنتظرون، فأسرع إلى رسول الله ﷺ أشراف بنى النجار فى المدينة، وهم أخوال جده عبدالمطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم معلقيها على أكتافهم، استعدادًا للدفاع ورمزًا للنجدة، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وأردف أبا بكر خلفه عليها، وملأُ بنى النجار ووجهاؤهم حوله يحيطون بركبه تكريمًا وتشريفًا.

وسار الركب حتى دخل المدينة، وكلٌّ يريد أن يتشرف بنزول رسول الله فى داره أو بجوارها، يحاولون وقف الناقة، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة» حتى وصلوا إلى بيت أبى أيوب، وفى فناء البيت بركت الناقة(٧٠)، فأخذ جَبَّار بن صخر ينخسها برجله لتقوم: يبغى أن تصل إلى داره، ورآه أبو أيوب، فقال: يا جبار! أعن منزلى تنخسها؟ أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتُك بالسيف.

بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ

المسجد النبوى الشريف، هو المسجد الثانى الذى بُنى فى المدينة بعد مسجد قباء؛ وكلاهما يصدق فيه قول الحق جل فى علاه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

والمسجد النبويُّ كذلك، هو المسجد الثانى فى الفضل والمنزلةِ وكثرة الثواب للمصلين فيه والقاصدين له، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى

(٧٠) دار أبى أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه هى التى بناها تُبَّعٌ، وتوارثها أبناء الحبر الذى أسدى النصيحة لِتُبَّعٍ حتى ملكها أبو أيوب وهو من نسل ذلك الحبْر، والله أعلم. راجع: القصة فى الجزء الأول تحت عنوان: «خَبَرُ تُبَّعٍ وإسْلامِه».

ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المُسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»(٧١).

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان قد اعتزم بناء مسجدٍ فى المكان الذى بركت فيه ناقته، وكان يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ: غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ المَنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الغُلامَيْنِ، فَسَاوَمَهُمَا بِالمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالا: لا؛ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً، حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ:

«هَذَا الحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ»

وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ   فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَهْ»

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ(٧٢).

ومعناهُ: أن رسول الله ﷺ قد اعتزم بناء المسجد، ووقع اختياره على أرضٍ لبنى النجار فيها نخل، وفيها قبور المشركين، وفيها آثار بناء محطم، وبها حُفَرٌ، وقال: «يا بنى النجار، ساومونى على هذه الأرض لأشتريها فأقيم عليها مسجدًا نصلى فيه» فقالوا: لا، والله لا نأخذ لها ثمنًا، إنما هى لله تعالى.

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بقطع النخل فقطعوه، وأمر بقبور المشركين فنُبشت، وجمع عظامها وترابها وغُيِّبَتْ فى باطن الأرض، وأمر بآثار الهدم والحجارة فسويت ومهدت الأرض واستوت ثم بنى المسجد، فصفوا النخل حائطًا جهة القبلة، جهة المسجد الأقصى ببيت المقدس

---

(٧١) صحيح البخارى: الباب الأول من كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ٦٣/٣، وصحيح مسلم: كتاب الحج/ باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ١٠١٤/٢، ومسند الإمام أحمد ٢٧٨/٢، ٥٠١.

(٧٢) صحيح البخاري ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ح٣٩٠٦.

بطول مائة ذراع، وبنيت جدرانه باللَّبِنِ فوق أساس من الحجارة ارتفاعه ثلاثة أذرع، وجُعِل ارتفاع الجدار قامةً وبسطةً نحوًا من سبعة أذرع، بحيث لو رفع الرجل الطويل يده إلى أعلى أصابت السقف، وجعل طولَ كلِّ ضلعٍ مائة ذراع، فهو مربع الشكل، أى ما يقارب ١٦٠٠ مترًا مربعًا على تقدير طول الذراع ٤٠سم، ومنهم من اعتبر طول الذراع ٥٠سم فتقارب مساحة المسجد ٢٥٠٠ مترًا مربعًا.

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب فى مؤخرة المسجد من جهته الجنوبية، وباب الرحمة جهة الغرب، والباب الذى كان يدخل منه ﷺ من جهه الشرق، وهو الذي عُرِفَ بعدُ باسم باب جبريل، وجعل جانبى كل باب من الحجارة، وجعل عُمُدُ المسجد من جذوع النخل، وسقفه من الجريد، وكان النبى ﷺ ينقل معهم الحجارة واللبِن بنفسه حتى أغبر صدره الشريف وكان ينشد معهم: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّخَيْرُالآخِرَهْ فَانْصُرِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

وفى رواية: اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجَرَ أَجْرُ الآخِرَهْ فَارْحَمْ الأَنْصَارَوَالْمُهَاجِرَهْ

وكان يقول ﷺ وهو ينقل اللبِن معهم للبناء:

هَذَا الْحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرَ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وكلها فى الصحيح، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا – فى الأحاديث – أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعرٍ تام غير هذه الأبيات.

والمراد أنه ﷺ كان يحثهم على العمل ويشاركهم فيه، وأن نقل هذه الحجارة واللَّبِن لبناء المسجد أبر وأطهر عند الله عز وجل مما يُحمل من خيبر زبيبًا كان أو تمرًا.

وقال بعض المسلمين: لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذًا لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتنظفًا: يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فإذا حمل اللَّبِنة فى ثوبه نظَّف كمه إذا وضعها، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نَفَضَه، فلما رآه

عليٌّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنشأ يقول:

لاَ يَسْتَوِى مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَا ... يَدْأَبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدًا

وَمَنْ يُرَى عَنِ التُّرَابِ حَائِدًا

فردد عمار بن ياسر تلك الكلمات دون أن يدرى مَنِ المراد بها، فلما مر بعثمان بن مظعون غضب منه ظانًا أنه يُعرِّضُ به، فأغلظ له القول، وسمعه النبى ﷺ فغضب من أجل عمار، فقال الصحابة لعمار: إن النبى ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أُرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله! ما لى ولأصحابِك؟ فقال ﷺ: «مالك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلى! يحمل كلُّ واحدٍ منهم لبنةً لبنة، ويحملون علىَّ اللبنتين والثلاث، فأخذ بيده رسولُ الله ﷺ وطاف به فى المسجد يمسح مؤخرة رأسه من التراب وهو يقول: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ليس هؤلاء بالذين يقتلونك؛ وإنما تقتلك الفئة الباغية(٧٣).

وهكذا: ظل الصحابة ينقلون اللبِن والحجارة حتى تم بناء المسجد النبوى بالمدينة، فأخذ يؤدى رسالته فى المجتمع، لأنه دائمًا مهبط النور ومصدره فى هذه الحياة، والحمد لله رب العالمين(٧٤).

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيحانى أحداث هذه الحقبة فى أرجوزته بقوله:

وَطَلْحَةُ التَّيْمِيُّ وَابنُ العَوَّامْ ۞۞ قَـد أَقبَلاَ فِي مَتْجَـرٍ مِنَ الشَّـامْ

فَكَسَيَا مِنَ الثِّيَابِ الْمُصْطَفَى ۞۞ وَالصَّاحِبُ الصِّدِّيقُ صَاحِبُ الوَفَا

وَكَانَتِ الأَنصَارُ فِي انتِظَارِهِم ۞۞ يُـهَـيِّـئُونَ نُـزُولاً فِي دَارِهِـمْ

وَفِي بَنِي عَمرِو بنِ عَوفٍ بِقُبَا ۞۞ حَـطَّ النَّبِيُّ رَحْلَـهُ فَـمَرْحَبَـا

---

(٧٣) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٢ ح١١٠١١ حيث توسع الشيخ شعيب الأرنؤوط فى تخريجه، ومجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب فضل عمار بن ياسر ووفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٩/ ٢٩٦، وقال الهيثمى: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. وقد كتبنا فى الهجرة العامة عنوانًا: «التأدب والاعتدال فيما وقع بين الصحابة من التهاجر والاقتتال» ج٢.

(٧٤) راجع كتاب: «المسجد النبوى عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص١٨ : ٢٦.

وَأَسَّسَ الـمَـسـجِـدَ ثُمَّ ارْتَحَلَا ۞۞ إِلَى أَبِي أَيــوبَ حَـيْــثُ نَــــزَلَا
وَثَـمَّ كَـانَ قَـبْـرُهُ وَمَـسْـجِـدُه ۞۞ وَهْـوَ الــذِّي نَـزُورُهُ وَنَـقـصِـدُه
وَاشـتَـرَكَ الـنَّـبِيُّ فِي بِنَـائِـهِ ۞۞ بِـنَـفْـسِـهِ وَاشـتَـدَّ فِي ثَـنَـائِــهِ
عَـلَى الـمُـهَـاجِـرِيـنَ وَالأَنْـصَار ۞۞ وَضَـحِـكَ الـنَّـبِيُّ مِـن عَـمَّـار

تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِى مَدِينَتِهِ

وبعد هجرة النبى ﷺ وأصحابه: خلت مكة من المسلمين أو كادت، وأغلقت بعض الدور نتيجة لذلك، منها دار بنى جحش... وكل ذلك حدث أو معظمه فى فترةٍ قصيرةٍ بين موسم الحج وشهر ربيع الأول... الأمر الذى أيقظ قريشًا من غفلتها.. ولعلها لم تهتم للأمر أولاً، ثم فكرت فوجدت فيه الخطر عليها حسب زعمها.

وبعد أن استقر النبى ﷺ فى المدينة بأيام قلائل: وصل إليها عليٌّ بنُ أبى طالب مهاجرًا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها فى مكة.

قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحدٌ، إلا مفتونٌ أو محبوس...[٧٥].

ومن جملة هؤلاء: صهيب الذى اضطر إلى التنازل عن ماله لقريشٍ التى زعمت أنه لم يكن ذا مالٍ قبل قدومه مكة، وذلك فى مقابل أن يَسمحوا له بالهجرة..[٧٦].

---

(٧٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٩/١.

(٧٦) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٧/١.

ومن منا معشر المسلمين لا يعرف صهيبًا الرومى، ولا يُلِم بطرفٍ من أخباره وقطوفٍ من سيرته؟!

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون منا هو أن صهيبًا لم يكن روميًا، وإنما كان عربيًا خالصًا، نُميرىَّ الأبِ تميمىَّ الأم.

ولانتساب صهيبٍ إلى الروم قصةٌ ما تزال تعيها ذاكرة التاريخ، وترويها أسفاره.

فقبل البعثة بحوالى عقدين من الزمان كان يتولى الأُبُلَّةَ – وهى مدينة قديمة دخلت فى البصرة وأصبحت جزءًا منها – سنان بن مالك النُمَيْرِىّ، من قِبَلِ كسرى ملك الفرس.

وكان أحب أولاده إليه طفلٌ لم يجاوز الخامسة من عمره، سماه صهيبًا.

وكان صهيب: أزهرَ الوجهِ، أحمرَ الشعرِ، متدفقَ النشاطِ، ذا عينين تتقِدَانِ فطنةً ونجابةً، وكان إلى ذلك مِمْراحًا، عذب الرُّوح، يدخل السرور على قلب أبيه، وينتزع منه هموم المُلْكِ انتزاعًا.

مضت أم صهيب مع ابنها الصغير وطائفةٍ من حشمها وخدمها إلى قرية «الثِّنِىِّ» من أرض العراق طلبًا للراحة والاستجمام، فأغارت على القرية سرية من سرايا جيش الروم، فقتلت حراسها، ونهبت أموالها، وأسرت ذراريها فكان فى جملة من أسرتهم صهيب.

بِيعَ صهيب فى أسواق الرقيق ببلاد الروم، وجعلت تتداوله الأيدى فينتقل من خدمة سيدٍ إلى خدمة آخر، شأنه فى ذلك كشأن الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين كانوا يملأون قصور بلاد الروم.

وقد أتاح ذلك لصهيب أن ينفذ إلى أعماق المجتمع الرومى، وأن يقف عليه من داخله، فرأى بعينيه ما يعشش فى قصوره من الرذائل والموبقات، وسمع بأذنيه ما يرتكب فيها من المظالم

والمآثم، فكره ذلك المجتمع وازدراه، وكان يقول فى نفسه: إن مجتمعًا كهذا لا يُطَهِّرُه إلا الطوفان.

وعلى الرغم من أن صهيبًا قد نشأ فى بلاد الروم، وشب على أرضها وبين أهلها، وعلى الرغم من أنه نسى العربية أو كاد ينساها، فإنه لم يغب عن باله قط أنه عربىٌّ من أبناء الصحراء، ولم تَفْتُر أشواقُه لحظةً إلى اليوم الذى يتحرر فيه من عبوديته، ويلحق ببنى قومه، وقد زاده حنينًا إلى بلاد العرب فوق حنينه، أنه سمع كاهنًا من كهنة النصارى يقول لسيدٍ من أسياده: لقد أطل زمانٌ يخرج فيه من مكة فى جزيرة العرب نبىٌّ يُصدق رسالة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ويُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ثم أُتِيحت الفرصة لصهيبٍ فولى هاربًا من رق أسياده، ويَمَّمَ وجهه شطرَ مكةَ أمِّ القرى موئِل العرب، ومبعث النبى المرتقب، ولما ألقى عصاه فيها، واستقر بها أطلق الناس عليه اسم صهيب الرومى لِلُكْنَة لسانه وحُمْرة شعره، وقد حالف صهيبٌ سيدًا من سادات مكة هو عبدالله بن جُدْعَان وطفق يعمل فى التجارة، فدرَّت عليه الخيرَ الوفير والمال الكثير.

وفى ذاتِ يومٍ عاد صهيب إلى مكة من إحدى رِحْلَاتِه، فقيل له إن محمد بن عبدالله قد بُعث وقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله وحده، ويحضهم على العدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، فقال: أليس هو الذى يلقبونه الأمين؟! فقيل له: بلى، فقال: وأين مكانه؟ فقيل: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، ولكن حَذَارِ من أن يراك أحدٌ من قريش، فإن رَأَوْك فعلوا بك وفعلوا وأنت رجل غريب لا عصبية لك تحميك، ولا عشيرة عندك تنصرك.

مضى صهيب إلى دار الأرقم حذرًا يتلفت، فلما بلغها وجد قرب الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تريد يا عمار؟ فقال عمار: بل ما تريد أنت؟ فقال صهيب: أردتُ أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول، فقال عمار: وأنا أريد أيضًا، فقال صهيب: إذن ندخل معًا على بركة الله، دخل صهيب بن سنان الرومى وعمار بن ياسر على رسول

الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان فى صدريهما، وتسابقا فى مد يديهما إليه، وشهدا ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومِهما عنده ينهلان من هديه وينعمان بصحبته ﷺ.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جنح الظلام وقد حمل كل منهما من النور فى صدره ما يكفى لإضاءة الدنيا بأسرها.

تحمل صهيب نصيبه من أذى قريش مع بلال وعمار وسمية وخباب وغيرهم من عشرات المؤمنين، وقاسى من نكال قريش ما لو نزل بجبلٍ لهده، فتلقى ذلك كله بنفس مطمئنة صابرة، لأنه كان يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ولما أَذِنَ الرسولُ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب على أن يمضى فى صحبة الرسول ﷺ وأبى بكر، لكن قريشًا شعرت بعزمه على الهجرة فصدته عن غايته، وأقامت عليه الرُّقَباء حتى لا يفلت من أيديهم، ويحمل معه ما دَرَّتهُ عليه التجارة من ذهبٍ وفضة.

ظل صهيب بعد هجرة الرسول ﷺ وصاحبه يتحين الفرص لِلَّحاق بهما فلم يُفلح، إذ كانت أعين الرقباء ساهرةً عليه متيقظةً له، فلم يجد سبيلاً غير اللجوء إلى الحيلة.

وفى ذات ليلة باردة: أكثر صهيب من الخروج إلى الخلاء كأنه يقضى الحاجة، فكان لا يرجع من قضاء حاجته حتى يعود إليها، فقال بعض رقبائه لبعض: طِيبوا نفسًا؛ فإن اللات والعزى شغلاه ببطنه، ثم أووا إلى مضاجعهم وأسلموا عيونهم إلى الكرى وراحوا فى نومٍ عميق، فتسلل صهيب من بينهم، ويمم وجهه شطر المدينة، وسار نحو عشرين كيلو مترًا، ثم فطن له رقباؤه، فهبوا من نومهم مذعورين، وامتطوْا خيولهم السوابق، وأطلقوا أعنتها خلفه حتى أدركوه، فلما أحس بهم، وقف على مكان عالٍ وأخرج سهامه من كنانته ووتر قوسِه، وقال: يا معشر قريش! لقد علمتم – والله – أنى من أرمى الناس وأحكمهم إصابة، ووالله! لا تصلون إِلَيَّ حتى أقتل

بكل سهمٍ معى رجلاً منكم، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى شىءٌ منه، فقال قائل منهم: والله لا ندعك تفوز منا بنفسك وبمالك، لقد أتيت مكة صعلوكًا فقيرًا فاغتنيت وبلغت ما بلغت، فقال: أرأيتم إن تركت لكم مالى، أَتُخَلُّونَ سبيلى؟ قالوا: نعم، فدلهم على موضع ماله فى بيته فى مكة، روى الحاكم عَنْ عِكْرِمَةَ -مرسلاً- قَالَ: لَمَّا خَرَجَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَثَلَ كِنَانَتَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا، فَقَالَ: لاَ تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدُ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَهُمَا لَكُمْ. ونحوه عن أنس مرفوعًا.

فصدَّقوه ليقينهم أن أصحاب محمد لا يكذبون، وعادوا وأخذوا المال فوجدوه كما وصف لهم، وأخذ صهيب يسرع السير نحو المدينة فارًا بدينه إلى الله، غير آسفٍ على المال الذى أَنفَقَ فى جَنْبِهِ زهرة العمر، وكان كلما أدركه النصب وأصابه التعب، حدا به الشوق إلى رسول الله ﷺ فيعود إليه نشاطه، ويواصل سيره.

فلما بلغ قباء رآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقبلاً، فهش له وبش وقال: ربح البيع أبا يحيى، وها هو يُحدِّثُ عن هجرته حتى لقى رسول الله ﷺ فى قباء، فيقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فَصَدَّنِي فِتْيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقُومُ وَلاَ أَقْعُدُ، فَقَالُوا: قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بِبَطْنِهِ وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا، فَقَامُوا فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيَرُدُّونِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَتُخَلُّونَ سَبِيلِي، وَتَفُونَ لِي فَتَبِعْتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقُلْتُ لَهُمُ: احْفِرُوا تَحْتَ أُسْكُفَّةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الأَوَاقِ، وَاذْهَبُوا إِلَى فُلاَنَةَ فَخُذُوا الْحُلَّتَيْنِ، وَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ

يَتَحَوَّلَ مِنْهَا -يَعْنِي قُبَاءَ-، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «يَا أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ» ثَلاثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاسَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ، وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٧٧).

فَعَلَت الفرحة وجه صهيب وقال: والله ما سبقنى إليك أحد يا رسول الله، وما أخبرك به إلا جبريل.

حقًا لقد ربح البيع، وصدَّق ذلك وحى السماء، وشهد عليه جبريل، حيث نزل فى صهيب قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة].

فطوبى لصهيبِ بن سِنَان الرومى، وحُسنُ مآب(٧٨).

(٧٧) راجع: المستدرك على الصحيحين ٣/٣٩٨ فى مرسل عكرمة وقال الحاكم بعده: وَحَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ - نَحْوَهُ -، وَنَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ» قَالَ: وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ. صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، و٣/٤٠٠ حديث صهيب وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقرّه الذهبى، وفى سنده: يَعقُوب بْن مُحَمد بْن عِيسَى الزهرى، وهو ممن يصلح للمتابعة، قال فيه الذهبى فى الميزان ٤/٤٥٤: مشهور مُكثر، وقال ابن حجر فى هدى السارى ص٤٥٩: ضعفه الجمهور، وقال الحاكم وحده: ثقة مأمون، علق له البخاري موضعا واحدا في حد جزيرة العرب، وقال ابن معين: صدوق؛ ولكن لا يبالي عمن حدث، وقال مرة: أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي، عن حُصَيْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ صُهَيْبٍ: ذكره ابن حبان فى الثقات ٨/٢٠٨، ولم يذكر البخارى فيه جرحًا. التاريخ الكبير ٣/١٠، وقال أبو حاتم: مجهول. الجرح والتعديل ٣/١٩١، ومن عمومة حصين بن حذيفة بن صيفى: زياد بن صيفي، ويقال يزيد بن صيفي: ذكره ابن حبان فى الثقات وروى له ابن ماجة، قال ابن حجر: صدوق، وذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحا. تهذيب التهذيب ٣/٣٧٤، والتقريب ص٢٢٠، و«أُسْكُفَّةِ الْبَابِ»: خشبتة الطويلة المغروسة فى الأرض ليتحرك بها الباب.

(٧٨) للاستزادة من أخبار صهيب الرومى، انظر: الإصابة ٣/٣٦٤: ٣٦٦، وطبقات ابن سعد ٣/٢٢٦، وأسد الغابة ٣/٣٠، والاستيعاب «على هامش الإصابة» ٢/١٧٤، وصفة الصفوة ١/١٦٩، والبداية والنهاية ٧/٣١٨، ٣١٩، وصور من حياة الصحابة ص١٩٥ :٢٠٢.

وكان ﷺ يدعو للمستضعفين أن يفرج الله عنهم وييسر لهم الهجرة، ففى الصحيحين: عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قبل أن يسجد قال: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَام، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ...»(٧٩).

وبهذا أصبحت الهجرة فى مجال الفرض والواجب، فكان كل من أسلم يجب عليه أن يبذل جهده قدر استطاعته فى الهجرة، فإن لم يستطع كان ممن عذرهم الله تعالى.

الْمُؤَاخَاةُ فِى عَهْدِ النُّبُوَّةِ

اعتبر الإسلام المؤمنين كلَّهم إخوةٌ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم والتناصر فى الحق بينهم، وقد اختلف العلماء فى ثبوت المؤاخاة فى العهد المكى قبل الهجرة، فذكر البلاذرى إلى أن النبى ﷺ آخى بين المسلمين فى مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبى بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشى، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيدالله، وبينه ﷺ وبين على بن أبى طالب(٨٠).

---

(٧٩) الحديث متفق عليه، واللفظ المذكور فى صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب القنوت ٢/٢٨٤، وفى باب: يهوى بالتكبير حين يسجد ٢/٢٩٠، وفى مواطن أخرى من الصحيح، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت فى جميع الصلوات ٥/١٧٦ : ١٧٨ شرح النووى.

(٨٠) أنساب الأشراف للبلاذرى ١/٢٧٠، ٢٧١ تحقيق د/محمد حميد الله، ط دار المعارف بمصر المجلد الأول، وينظر:

ويعتبر البلاذُرى أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية وقد تابعه فى ذلك ابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣هـ دون أن يصرح بالنقل عنه(٨١)، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن واحد منهما(٨٢)، وقد أخرج الحاكم فى المستدرك من طريق جميع بن عمير، عن ابن عمر: «آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبدالرحمن بن عوف وعثمان».

وأخرج الحاكم وابن عبدالبر بسندٍ حسنٍ، عن أبى الشعثاء، عن ابن عباس: «آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود»(٨٣).

ومال كلٌّ من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال ابن القيم: وقد قيل إنه ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها عليًّا أخًا لنفسه، والثَّبتُ الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار.

وقد سبقه شيخه ابن تيمية فنفى وقوع المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصًا مؤاخاة النبى ﷺ لعلى، لأن المؤاخاة شُرِعَت لإرفاق بعضهم بعضا، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحدٍ منهم ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى.

وتعقبه الحافظ ابن حجر بقوله: وهذا ردٌّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فآخى ﷺ بين الأعلى والأدنى

السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٤٠: ٢٥٥، وكتابه الآخر: «المجتمع المدنى فى عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى» ط الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

(٨١) الدرر فى اختصار المغازى والسير ص١٠٠.

(٨٢) عيون الأثر ١/ ١٩٩.

(٨٣) فتح البارى: ٧/ ٢٧١.

ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلى لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة... وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة. لأن زيدًا مولاهم فقد ثبتت أخوتهم وهما من المهاجرين(٨٤).

وأما ابن كثير فقد ذكر أن من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلة نفسها التى ذكرها ابن القيم(٨٥).

ومما يرجح ما ذهب إليه ابن القيم وابن كثير أن كتب السيرة الأولى المختصة: لم تشر إلى وقوع المؤاخاة بمكة، كما أن البلاذُرى وهو المصدر الوحيد القديم الذى أشار إليها، قد ساق الخبر بلفظ (قالوا) دون إسناد مما يضعف الرواية، وعلى فرض صحة وقوع هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن يترتب عليها حقوق التوارث.

وأما وقوع المؤاخاة فى المدينة: فقد أجمع عليها العلماء؛ وذلك دفعًا للمشكلات المتعددة التى واجهها المهاجرون فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والصحية، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، كما أن مهاراتِهم كانت فى التجارة التى تمرست بها قريش، ولم تكن لهم خبرةٌ فى الزراعة والصناعة، وهما يشكلان أساسين مهمين فى اقتصاديات المدينة، وبما أن التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم فى المجتمع المدنى بسهولة، وكانت مشكلة معيشتهم وسُكناهُم تواجه الدولة الناشئة، كما أن علائق المهاجرين بالمجتمع الجديد كانت حديثة، فقد ترك المهاجرون أهليهم ومعارفَهم بمكة، وانبتَّت صلتهم بهم، وانقطعت بالكلية: مما ولَّدَ إحساسًا بالوحشة والحنين إلى بلدتهم مكة، بالإضافة إلى اختلاف مُناخ المدينة عن مكة،

---

(٨٤) زاد المعاد ٧٩/٢، ومنهاج السنة النبوية ٩٦،٩٧/٤، للإمام ابن تيمية، وفتح البارى ٢٧١/٧.

(٨٥)السيرة النبوية لابن كثير ٣٢٤/٢.

وإصابة المهاجرين بالحمى... ومن ثَمَّ: أقسم -سبحانه- على أن يرزق المهاجرين فى سبيله رزقًا حسنًا سواء قُتِلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فُرُشِهم فى غير جهاد؛ فقال جل فى علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ [الحج].

وبالرغم من الأخوة التى كانت بين المسلمين فى مكة، وبذْلِ الأنصار وكرمِهم فى المدينة؛ فإن الحاجةَ ظلت قائمةً إلى تشريعٍ يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة، ويدفع عنهم أى شعور بأنهم عالةٌ على الأنصار، فكان تشريع المؤاخاة؛ الذى حفظ للمهاجرين عزتهم وكرامتهم.

وقد أجمع المؤرخون وكُتَّابُ السيِّر على أن المؤاخاة قد وقعت فى العام الأول من الهجرة أثناء بناء المسجد أو بعده بقليل، وكان إعلان هذا التشريع فى دار أنس بن مالك وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجرى وأنصارى اثنين اثنين.

وشملت خمسةً وأربعين رجلاً من المهاجرين، وخمسةً وأربعين رجلاً من الأنصار، وذكر ابن سعد أنهم كانوا مائةً؛ خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، وأن هناك مؤاخاةً وقعت بين المهاجرين أنفسِهم فى المدينة، ولم يعقب على ذلك أحدٌ، وذكر البلاذرى مؤاخاة حمزة بن عبدالمطلب لكلثوم بن الهدم أو غيره، كما ذكر مؤاخاة زيد بن حارثة لأسيد بن حضير، ومؤاخاة علىّ لسهل بن حنيف، ويقال: إنه لم يبق من المهاجرين أحدٌ إلا آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أنصارى، وكان عدد من اشترك من المهاجرين فى بدر ثلاثةً وثمانين رجلاً، ولربما كان عددهم مع عوائلهم إذ ذاك: لا يتجاوز أربعمائة نفر، ثم إن استمرار الهجرةِ، وتدفق المهاجرين إلى المدينة: ترتب عليه بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، فكان العلاجُ الأمثلُ لها هو: تشريع المؤاخاة، والله أعلم(٨٦).

---

(٨٦) ينظر: أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢/٩ ط التحرير، وفيها: حدد المؤاخاةَ بأنها

وقد ترتب على المؤاخاةِ حقوقٌ خاصَّةٌ بين المتآخِيَن كالمواساة المطلقة فى كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواءٌ كان عونًا ماديًا كالمعونة والرعاية، أو معنويًا كالنصيحةِ والتزاور؛ بل: ارتقت إلى ما هو أعلى وأعمق من أخوة النسب والدم؛ فيتوارث المتآخون دون ذوى أرحامهم(٨٧).

العِفَّةُ والإيثَارُ بَينَ المُهَاجِرِينَ وَالأنصَار

وقد بلغ كرم الأنصار حدًا عاليًا عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين، لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين فى التمر(٨٨).

سواءٌ أكانت الشركةُ فى التمرِ محددةً بنسبةٍ معينةٍ؛ كالمناصفة، أم كانت إعانةً من الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإعالةً لهم فى تلك الفترة، والظاهر: أن رسول الله ﷺ لم يُرِد أن يشغل المهاجرين بالزراعة لقلة خبرتهم فى هذا المجال، وذلك حتى لا يؤدى إلى خفض الإنتاج وضعف الاقتصاد، كما أنه ﷺ يحتاج المهاجرين فى مهام الدعوة والجهاد فى تأسيس الدولة الفَتِيَّةِ(٨٩).

كانت بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى، والدرر فى اختصار المغازى والسير ص٩٦ وحدد فيها ابن عبدالبر تاريخ تشريع المؤاخاة بعد الهجرة بخمسة أشهر، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠، وكتاب: «الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق» للأستاذ: محمد عبدالله السمان، نشر: مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

(٨٧) البخارى: ح٢٢٩٢، ومسلم: ح٢٥٢٨، والطبقات الكبرى ١/ ٢/ ٩، وأنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، والدرر ص٩٦، وزاد المعاد ٢/ ٧٩، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠.

(٨٨) صحيح البخارى ٥/ ٨ ح٢٣٥٢.

(٨٩) ينظر: فتح البارى ٥/ ٥٢٤.

كما وهبت الأنصارُ لرسول الله ﷺ كل فضل فى حظها، وقالوا له: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيرًا، وابتنى لأصحابه فى أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكًا لأحد، وهكذا: لم يبخل الأنصار بشىء من العون؛ بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد فى كتاب الله العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩](٩٠).

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة فى نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بالثناء على الأنصار والدعاءِ لهم لما بذلوه من جود وكرم، فعن أنس قال: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلا أَحْسَنَ بَذْلاً فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، قَالَ ﷺ: «لا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَهُمْ»(٩١).

ومن النماذج الفريدة لهذا الإيثار الذى يُصَوِّر عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة وتفانيهم فى تنفيذه، ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد (واللفظ له)، من حديث أنس بن مالك: أَنَّ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَيْ أَخِي! أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالاً؛ فَانْظُرْ شَطْرَ مَالِي فَخُذْهُ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ؛ فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا، فَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ، فَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ،

(٩٠) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠.

(٩١) جامع الترمذى: كتاب صفة القيامة/ باب ٤٤، ج٤ ص٥٦٣ ح٢٤٨٧ وقال أبو عيسى: حديثٌ صحيح حسن غريب، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٠٠، ٢٠٤، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٠٠، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٣٢٨.

فَجَاءَ وَعَلَيْهِ رَدْعُ – أى: أثر – زَعْفرَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْيَمْ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَصْدَقْتَهَا؟» قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ» قَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَلَوْ رَفَعْتُ حَجَرًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً(٩٢).

وهكذا: طابت نفوس الأنصار بما بذلوه لإخوانهم المهاجرين من عون؛ فاستحقوا مدح اللهِ لهم وثناءه عليهم فى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وقد قابل المهاجرون هذا الإيثار بالعفة والكدح، فى طلب العيش وتحصيل الرزق، فلم يكن مسلك عبدالرحمن بن عوف متفردًا؛ بل إن كثيرين من المهاجرين كان مُكْثُهُم يسيرًا فى بيوت إخوانهم من الأنصار، ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتًا لأنفسهم وتكفلوا بنفقات أهليهم وذويهم.

ومما لا شك فيه: أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل الذى لا نشهد له مثيلاً فى تواريخ الأمم الأخرى.

وليس موقف ابن عوف فى أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه: بأقل روعة من إيثار سعد بن الربيع، فقد تمكن عبدالرحمن – وهو التاجر الماهر– من شق طريقه فى الحياة الجديدة، وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج، ودفع المهر نواة من ذهب(٩٣).

---

(٩٢) حديث أنس فى: صحيح البخارى فى أحد عشر موضعًا، أولها برقم ٢٠٤٩، وصحيح مسلم ح١٤٢٧، وجامع الترمذى ح١٠٩٤، وسنن ابن ماجه ح١٩٠٧، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٢٧١ ح١٣٨٦٣ (واللفظ له)، ونحوه عند البخارى ح٢٠٤٨ عن عبدالرحمن بن عوف.

ثم بارك الله له فى سعيه؛ فَنَمَتْ ثروتُهُ، وصار من كبارِ أغنياء المسلمين؛ حيثُ أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التى تعطى ولا تأخذ.

إن كرم الأنصار وسخاءهم الكبير، قابله عفةٌ وكرمُ نفسٍ من المهاجرين قلما نجد له نظيرًا، فهم لم يتركوا أموالهم فى مكة على أمل تعويضها من أموال إخوانِهم الأنصار، وإنما تركوها فى سبيل عقيدتهم، وإذا ألجأتهم الحاجة فى هذه الفترة فقد كانوا يقتصرون على ما يقيم أَوَدَهُم.

وقد سبق أن عمر بن الخطاب خرج بأمواله أيضًا، وذلك فى قصة هجرته مع عياش بن أبى ربيعة، حيث قال لعياش – حين جاءه أبو جهلٍ يقنعه بالعودة إلى مكة رحمةً بأمه–: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالى ولا تذهب، وهذا يعنى: أن عمر قد خرج بماله، وإلا فكيف يَعِدُ عياشًا بنصف ماله إن لم يكن قد خرج به؟ وعمر كان تاجرًا، وقد مارس تجارته بعد وصوله إلى المدينة، وكذلك أبو بكرٍ قد حمل معه عند هجرته ثروته التى كانت تقدر بنحو ستة آلاف درهم، وكان تاجرًا أيضاً(٩٤).

وكذلك حمل عثمان جميع أمواله معه، وأن عثمان بن مظعون قد خرج بماله، فقد أخرج ابن سعد: أنَّ امرأة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبى ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: مالك؟ فما فى قريش أغنى من بعلك، فقالت: ما لنا منه شيء! أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه فقال: «يا عثمانُ بنَ مظعونٍ! أما لك بي أسوة؟» فقال: يا رسول الله! بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: «تصوم النهار وتقوم الليل؟» قال: إني لأفعل، قال: «لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسدك حقًا، وإن لأهلك حقًا، فصلي ونم، وصم

---

(٩٣) البخارى ح٥١٤٨، ٥١٥٥، فتح البارى ٢٠٤/٩، ٢٢١.

(٩٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٥/١ وراجع ما تقدم، تحت عنوان: «تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب» وعنوان: «ليلة الهجرة».

وأفطر» فأتتهن بعد ذلك عَطِرةً كأنها عروس، فقلن لها: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

وهذا يعنى: أن عثمان بن مظعون، قد خرج بأمواله؛ لأن الفترة التى عاشها فى المدينة كانت قليلة، لا يتمكن فيها من كسب الأموال التى تجعله من الأغنياء؛ حيث توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة(٩٥).

ولا شك أن غيرهم أيضًا من المهاجرين قد استطاع أن يحمل ماله أو بعض ماله فتكفَّل بنفقات نفسه وعياله دون أن يكلف أحدًا من الأنصار شيئًا؛ بل ربما ساهم فى نفقات بعض إخوانه من المهاجرين والفقراء كأهل الصُّفَّةِ؛ لأن العقيدة الإسلامية قد منعت ظهور الصراع الطبقى بين أفراد المجتمع الإسلامى، بالمؤاخاة بين الأغنياء والفقراء، وتوحيد الصف الداخلى لمواجهة متطلبات الجهاد، فكانوا جميعًا فى صفٍّ واحدٍ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة](٩٦).

ولما أَلِفَ المهاجرون جوَ المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم... رجع التوارث إلى وضعه الطبيعى المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس الفروض المذكورة في كتاب الله تعالى للأصول والفروع والحواشي والزوجية والوصية بذوي الأرحام؛ فأُبْطِلَ التوارث بين المتآخين؛ لأنه كان قد شُرِعَ لمعالجة ظروف استثنائية كانت تمر بها الدولة الناشئة، وذكر ابن سعد أن ذلك الإلغاء كان بعد غزوة بدر، بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ

---

(٩٥) فتح البارى ٤١١/١٢، وسنده عند ابن سعد صحيحٌ؛ لكنه مرسل، وللحديث شواهد مشهورة صحيحة.

(٩٦) الطبقات الكبرى ٢٥٥/١، تفسير الطبرى ٢٩١/٥ تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

﴿ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٥](٩٧).

فهذه الآية نسخت التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي كان ثابتًا بموجب المؤاخاة في عهد النبوة أول الهجرة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: ٣٣]، قَالَ: «وَرَثَةً»: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ -قراءة العشرة سوى الكوفيين- قَالَ: «كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ، يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: ٣٣] نَسَخَتْ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَاقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ «إِلَّا النَّصْرَ، وَالرِّفَادَةَ، وَالنَّصِيحَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ»(٩٨).

فيرى ابن عباس أن آية: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ [النساء: ٣٣]، نسخت التوارثَ بالمؤاخاة، فالموالى فى رأيه هم الورثة بالرحم: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة، وذكر ابن عباس أن ما أُلْغِيَ من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصرة والرفادة والنصيحة: فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخِيَين.

---

(٩٧) وانظر تفسير الآية، فى: فتح القدير للشوكانى ٢/٣٣٠، ٣٣١، وما ورد فى سبب نزولها عند الطيالسى فى مسنده: منحة المعبود ١٩/٢ ح١٩٥٢، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٨/٧، ويراجع: الطبقات الكبرى ١ /٢/٩، وأنساب الأشراف ٢٧٠/١، ٢٧١، وزاد المعاد ٧٩/٢، وعيون الأثر ١/ ٢٠٠، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص٢٦٠.

(٩٨) صحيح البخارى: كتاب الكفالة/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَاقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ ٩٥/٣ ح٢٢٩٢ واللفظ له، وفي كتاب التفسير/ بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ ٤٤/٦ ح٤٥٨٠، وفي كتاب الفرائض/ بَابُ ذَوِي الأَرْحَامِ ١٥٣/٨ ح٦٧٤٧.

وصفوة القول: أن المؤاخاة التى شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبُوسِعُ المؤمنين فى كل عصر أن يتآخَوْا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين.

الإِسلامُ وتَربِيَتُهُ لأمثَلِ مُجتَمَعٍ وإقَامَتُهُ لأكمَلِ دَولَةٍ فِى التعَامُلِ مَعَ الغَيرِ

إن الذي أمر نبيه ﷺ في مكة أن يقول للكافرين: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون] هو الذي أوحى إليه في المدينة أن يعقد عهدا مع اليهود وكتب فيه: «لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم» لأنه سبحانه يعلمُ بحكمته: أن الإكراه على الدخول فى الإسلام قد يثمر نفاقا؛ فيكون الجزاء كما قال جلَّ وعلا:﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾.

وقد ينتفع به صاحبه؛ فيكون جزاؤه الجنة فى الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ» ويكون فى الدنيا من خير الناس، كما قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قَالَ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كتابًا بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، وادعَ فيهِ يهودَ وعاهدهم وأَقَرَّهُم عَلَى دِينِهِم وَأَمْوَالِهِم وَشَرَطَ لَهُم وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ... لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسلِمَيْنِ دِينُهُم مَوَالِيهِم وَأَنْفُسُهُمْ إلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إلا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ[٩٩].

---

(٩٩) الحديث المرفوع: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ» فى صحيح البخارى ح٣٠١٠، وسنن أبى داود

وبهذه المعاهدة أصبحت المدينة المنورة دارَ إسلام، وصار مَن فيها من اليهود أهل ذمة وعهد؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فيحرم إيذاؤهم أو الاعتداء عليهم أو قتلهم... ونحو ذلك؛ إلا بحق ماداموا ملتزمين بالعهد مستمسكين بما فيه، وعلى كل مسلم أن يرعى لهم ذلك، ومن خالف: فقد استحق الوعيد الوارد فى قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا: لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ؛ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أخرجه البخارى(١٠٠).

فأمثال هؤلاء: لهم حق الأخوة في المواطنة والأخوة في القوميات؛ لأنهم جميعا يعيشون في وطن واحد تحت حكم الإسلام وإن لم يؤمنوا به؛ وقد ذكر ذلك ربنا في كلامه عن كثيرين من أنبيائه ورسله مع أقوامهم، كنوح وهود وصالح ولوط، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

وشعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين أُرسل إلى قومه في مدين؛ أطلق عليه أنه أخ لهم كذلك؛ كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ [الأعراف:٨٥] و[هود:٨٤] و[العنكبوت:٣٦].

ح٢٦٧٧ واللفظ له، والحديث الموقوف من كلام أبى هريرة: فى صحيح البخارى ح٤٥٥٧، له حكم الرفع؛ لأنه ليس للرأى مجال فيه، وكلام ابن إسحاق فى: السيرة النبوية لابن هشام ٥٠١/١: ٥٠٣، وعيون الأثر ٣١٨/١، ٣١٩، والبداية والنهاية ٢٢٤/٣، ٢٢٥، ومعنى: (يُوتِغ): يُهلِك.

(١٠٠) صحيح البخارى: كتاب الجزية والموادعة/ باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم ٢٦٩/٦، ٢٧٠، وكتاب الديات – واللفظ له–/ باب إثم من قتل ذميًا بغير جُرمٍ ٢٥٩/١٢، ٢٦٠، وسنن النسائى: كتاب القسامة/ باب تعظيم قتل المعاهد ٣٩٤/٨، وسنن ابن ماجه: كتاب الديات/ باب من قتل معاهدًا ٨٩٦/٢، ومسند الإمام أحمد ١٨٦/٢، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر تحت رقم ٦٧٤٥ وله فيه تحقيق نفيس. المسند ٢٨/١١، ٢٩، وللحديث شواهد عن أبى هريرة وأبى بكرة، وهذا أصحها.

وحينما أُرسل إلى أصحاب الأيكة: لم يوصف بهذا الوصف لأنه ليس من بلدهم؛ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [الشعراء].

فلفظ الأخ مذكرًا ومؤنثًا ومفردًا ومثنًا ومجموعًا: الأصل فيه هو الأخوة في النسب أو الرضاعة، ثم توسع فية وأطلق على كل من تجمع بينهم صفة أو أكثر كالدين و الهدف والمصير... ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧].

والمنافقون الذين يعلنون الإسلام ويخفون الكفر؛ هم إخوان للكافرين المعادين للإسلام وأهله، كما قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ [الحشر:١١].

وكذلك الكافرون إخوان للمنافقين؛ لاجتماعهم علي الكيد للإسلام والتثبيط للمسلمين، قال تباركت أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهؤلاء وأولئك لن تثبت لهم الأخوة في الدين إلا باعتناقهم الإسلام والانقياد لتشريعاته، قال سبحانه: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة].

والأخوة في الدين: هي الأخوة الحقة التي تعلو علي كل ماسواها من القوميات والأوطان... وغير ذلك؛ بل إنها ترتفع فوق النسب وإن كانت لا تنفيه.

قال فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى فيما هو مسجل عنه بالصوت والصورة: «يجب أن نستعيذ بالله من أن نصنع تصرفًا يرضى عنا اليهود أو النصارى؛ لأن معنى أنى أتصرف

تصرفا يرضى اليهود والنصارى: فإننى بحكم الله أكون قد تبعت ملتهم، لأنه قال: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾[البقرة:١٢٠]، فنعوذ بالله أن نكون منهم محل الرضا.

ويجب أن تفرقوا بين الرضا وبين التعايش، فهناك فرق بين الرضا وبين التعايش، لأن التعايش يقتضيك أن تتحمل فعل قَالَب ولكن لا بحب قلب، والرضا: أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، ولذلك كان عهده ﷺ مع اليهود: لا رضا من اليهود عليه، ولا رضا منه على اليهود، وإنما كان تعايشا فقط، لأنه ما كان لرسول الله أن يفعل فعلا ترضى به اليهود، ولأنه إن رضيت اليهود عن واحد: فليعلم بأنه فارق ملة الله: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾[البقرة:١٢٠].

إذا: يجب أن نفرق بين الرضا وبين التعايش، فالرضا أن تقبل فعل القالَب بحب القلب، وقد تقبل فعل القالب تعايشا لا حُبًّا، ولذلك يجب أن تتنبهوا إلى أننا قلنا سابقا: إن الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال فى شأن الولد مع والديه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾[لقمان:١٥]، فهذا هو التعايش مع الأبوين، فالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فإنك تصنعه مع من تحب، وإياكم أن تفهموا كما يقول بعض المستشرقين: إن فى بعض الآيات القرآنية تعارضًا، والذى يجعل المسلمين يغفلون عنه أنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة، ولولا هذه القداسة لأمكنهم أن يستقبلوا آيات من القرآن فيها تعارض، وجاء بهذه الآية: وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ ثم جاء بالآية الأخرى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ

ﷲَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ [المجادلة:٢٢]، ثم يقول: ها هو ذا القرآن يقول ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ فنقول له: يا غبى! افهم أن الصحبة بالمعروف غير الود بالقلب، الصحبة بالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فتصنعه مع من تحب، فاصنع مع أبيك المعروف تعايشًا وقلبك غير راض.

إذا: فالرسول ﷺ حين عاهد اليهود أو عاهد غيرَهم: لم يكن عن رضًا قلبى، وإنما هو تعايش كما اقتضت الظروف، والإنسان المؤمن يستعيذ بالله أن يكون محل الرضا من هؤلاء أبدًا، فالحق سبحانه يقول كلامًا لا يُنقَض: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، فنعوذ بالله أن يرضوا عنا، وليس هناك مانع إذا أرادوا التعايش: فنتعايش، فافهموا بِدِقَّة».

وقال فى اجتماع مع كبار القساوسة فى مصر مجيبًا على قول أحدهم: الدين لله والوطن للجميع: «لا، بل كل وطن لا دين فيه؛ لا تعتز بوطنيتك له، لازم منهج، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مادمتُ مستضعفًا فى الأرض فلا تُسمَّى -الأرض- وطني ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ ابحث عن مكان آخر، أما الوطن الذى لا أستطيع أن أقيم فيه أمر لله: افعل ولا تفعل: فلا أعتز به» ثم سُئِل عن أثر زيارته لهم، فقال: «إن شاء الله ترونها فيما بعد؛ لأن الأثر لا يكون ساعة الحدث، وإنما يكون بعده». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضى عنه.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما قال: فما خرج النبى ﷺ وأصحابه مهاجرين من مكة إلا طلبًا لمكان آمن، وبحثًا عن أرض جديدة يتمكنون فيها من إقامة دين الله فى الأرض.

وهذا الفهم الجيد من هؤلاء الأئمة الكرام: ينبغي أن يوضع في سويداء قلب كل مسلم؛ لأنه قد يتزوج من الكتابية؛ فيصير أهلها أصهارًا له وأقارب لذريته، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

ولا ينبغى لمؤمن أن يُصغِىَ إلى مَن يُشكك فى فهم النصوص الشرعية قائلاً: كيف يُبيحُ للمسلم التزويج من الكتابية؛ ثم ينهاه عن حبها؟!

لأن إباحة تزويجه يكون عند الحاجة، وهى تُقدَّر بقدرها، ولا شك أن اختيار الزوجة المؤمنة هو خير من تلك الكتابية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

ثم إن الحُرَّة المؤمنة بلا ريب خير من الأَمَةِ المؤمنة التى يُباح التزوج بها فى حال الضرورة فقط، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء].

ولا ننسى حالة التعايش التى وضَّحها قريبًا فضيلة الشيخ الشعراوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليس فى هذا حَيفٌ ولا ظلم للزوجة كائنةً مَن كانت؛ لما ثبت عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: يَعْنِي الْقَلْبَ(١٠١).

فالجَوْرُ المنهى عنه يكون فى القِسمة أو العِشرة أو المطعم أو الكسوة، أما فى ميل القلب إلى إحدى الزوجتين أكثر من الأخرى فلا مؤاخذةَ فيه إن وقع، والله أعلم.

وهكذا: أحدثَ الإسلام بعقيدته وشريعته تغيُّرًا حقيقيًا فى حياة الفرد والمجتمع فى المدينة المنورة؛ لِمَا تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياةَ كلَّها بصبغته: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

(١٠١) سنن أبى داود: كِتَاب النِّكَاحِ/ بَابٌ فِي الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ ٢/٢٤٢ ح٢١٣٤، قال الخطابى: «المكروهُ مِن الميل هو ميلُ العِشْرة الذي يكون معه بخسُ الحق، دونَ ميلِ القلوب، فإن القلوب لا تُملَك». معالم السنن ٣/٢١٨، ٢١٩، والحديث بسند أبى داود أخرجه: الحاكم فى المستدرك ٢/٢٠٤ ح٢٧٦١ وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وأقره الذهبى، وهو كما قال الحاكم؛ لكن حماد بن سلمة خالف فيه مَن هو أوثق منه وأحفظ وهو حماد بن زيد وغيره الذين رووا الحديث إلى أبى قلابة مرسلاً، كما قال الترمذى بعد إخراجه الحديث رقم١١٤٠ فى جامعه: «حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَرَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ مُرْسَلاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ». كما أن نسبة عبدالله بن يزيد إلى الخطمى خطأ كذلك؛ لأنه لا تعرف له رواية عن عائشة، ولا يعرف أن أبا قلابة قد روى عنه، وأما الراوي عن عائشة، فإنما هو عبد الله بن يزيد رضيع عائشة، وهو الذي روى عنه أبو قلابة، وقد ذكر الحافظُ وشيخُه المزي هذا الحديث في ترجمته، والله أعلم.

خُلاصَةُ الهِجرَةِ النَّبويَّةِ

قَدِم المهاجرون إلى المدينة المنورة -التى كانت تسمى يثرب قبل الإسلام- وكانوا فى البدء من عشائر مختلفة من قريش: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب].

ثم استمرت الهجرة، وصار حقًا على المسلمين الجدد فى أرجاء الجزيرة أن يهاجروا إليها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال:٧٢].

وظل الأمر كذلك حتى أُوقفت الهجرة بفتح مكة، عام ثمان من الهجرة، وكذلك لا هجرة من أى بلد يفتحه المسلمون، ويصير دار إسلام: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» متفق عليه.

والهجرة كانت ولا تزال وستظل: دليلاً على الإخلاص والتفانى فى سبيل العقيدة، حيث فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل].

ولما اعترضت قريش سبيل صهيب الرومى بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة، ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة: ترك لهم أمواله، وهاجر بنفسه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهَيب».

ومنع المشركون أبا سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الهجرة بزوجه وابنه فلم يمنعه ذلك من أن يهاجر وحده تاركًا زوجه وطفله، وقد ظلت زوجه أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تُمسِى نحو عام كامل، حتى تمكنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها.

وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظروف صعبة، كانت تمحيصًا لإيمان المؤمنين، واختبارًا لقوة عقيدتهم، واستعلاء إيمانهم على الأغراض والمصالح والعلائق الدنيوية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل].

ومن هنا: كانت الهجرةُ أمرًا هامًا لإعلاء شأن الدين، ولحصولِ الحرية الكاملة لطاعة الله وعبادته لدى كل فرد من أفراد المؤمنين، كما أن الهجرة لا تقع إلا بسبب الحرب والمضايقة من أعداء الله لأوليائه؛ لذا وغيره: كانت الهجرة النبوية نتيجةً حتميةً لرسالة النبى ﷺ والوحى الذى نزل عليه، وقد أُعْلِمَ بذلك ﷺ من بدء نبوته، وفى مبتدأ رسالته، كما ثبت ذلك فى حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى بدء الوحى.

فيتأكد لدينا: أنَّ الدين الذى من أجله يهاجر كلُّ مسلم: واحدٌ، وهو لا يكمل إلا باتباع خاتم النبيين وسيد المرسلين، والامتثال لما جاء به من وحيٍ عن رب العالمين.

كما دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية النبوية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف فى الأرض، وتحكيم شرع الله، والقيام بأمره، والجهاد فى سبيله، وهم يُقبلون على بناء دولة المدينة المنورة، بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وقد اختار الله تعالى المدينة لهجرة المسلمين لِمَا صح عن رسول الله ﷺ: «قد أُرِيتُ دَارَ هِجرَتِكُم، رَأَيتُ سَبِخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ..» متفق عليه.

وتأخر الرسول ﷺ فى الهجرة وأخر معه أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فلما أذن الله لرسوله بالخروج لم يُعلِم أحدًا بذلك إلا عليًا وأبا بكر وآله، وكان المشركون قد غاظهم هجرة المسلمين، فائتمروا على قتل رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وقد خرج الاثنان إلى جبل ثور حيث أويا إلى غار فيه، وتعقبهم المشركون إلى المكان حتى بدت أقدامُهم خارج الغار، فقال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَو نَظَرَ أَحَدُهُم تَحتَ قَدَمَيهِ لَرَآنَا، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «يَا أَبَا بَكرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» أخرجه الشيخان.

لكن الله تعالى صرف المشركين عنهما، فلم يفطنوا لهما، وخرج الاثنان بعد ثلاثة أيام فى طريقهما إلى المدينة يقطعان الصحراء، ورسول الله قد بلغ الثالثة والخمسين وأبو بكر بلغ الحادية والخمسين، لكن القلوب الموصولة بالله تعالى لا يعيقها شيءٌ عن بلوغ القصد وتحقيق أهداف الرسالة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت].

ثم تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، واستمر الحث على الهجرة، وبيان فضل المهاجرين بنزول الآيات القرآنية، واستمر معها تدفق المسلمين الجدد من كل مكان، حيث كانت الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة المنورة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين، ليتوطد سلطان الإسلام فيها، إذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون، وتحيط به قوى الأعراب المشركين الذين مردوا على النفاق من حول المدينة، ويترصده كفار قريش الذين أقضَّت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفَتِيّ ودولته الناشئة، لذلك تتابعت الآيات فى الأمر بالهجرة، وأثبتت بقاءها ودوامها واستمرارها... إذا وجد ما يقتضيها أو يبعث عليها حِسيَّة كانت أو معنوية: كهجر المعاصى والآثام، والبعد عن كل ما نهى الله عز وجل عنه: «وَالمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» متفق عليه.

كما بينت النصوص: استمرار فضلها وعظيم أجرها، حتى وعد الله تعالى المهاجرين بنصرهم والتوسعة عليهم فى أرزاقهم، وتمكينهم من مراغمة أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾[النساء].

أى أن الذى يخرج من بيته بنية الهجرة فيموت فى الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر.

وكان عدد من اشترك من المهاجرين فى بدر ثلاثة وثمانين رجلاً، ولربما كان عددهم مع عوائلهم إذ ذاك: لا يتجاوز أربعمائة نفر، ومما لا شك فيه: أن تدفق المهاجرين إلى المدينة وَلَّدَ مشاكل اقتصادية واجتماعية، فكان لابد من مواجهتها بقرار حاسم، فَشُرِع نظام المؤاخاة.

ومن ثَمَّ: جوزى المهاجرون بالأجر العظيم، والثواب الجزيل؛ لأنهم تعرضوا لأبشع أنواع الظلم، وأفظع ألوان الابتلاء: أُخرِجُوا من ديارهم، وطُرِدوا من أوطانهم بلا ذنبٍ ولا جريرةٍ إلا أنهم مؤمنون يقولون: ربُّنا الله، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾[الحج: ٤٠].

وقد أقسم -سبحانه- على أن يرزق المهاجرين فى سبيله رزقًا حسنًا سواء قُتِلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فُرُشهم فى غير جهاد؛ فقال جل فى علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾[الحج].

والهجرة شرع قديم ومستمر إلى أن يهاجر المسلمون فى آخر الزمان إلى بلاد الشام، حيث منع القرآن الكريم المسلمين القادرين على الهجرة من الإقامة مع المشركين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ۝٩٩﴾[النساء].

وذلك لأن الإقامة مع المشركين: فيها تكثير سوادهم، وانتفاعهم بالمسلمين فى صناعتهم وزرعهم، بل ربما اضطروهم للمشاركة معهم فى حربهم ضد المسلمين كما وقع فى غزوة بدر

الكبرى، بالإضافة إلى تعرضهم للفتنة من قبل الكفار لصرفهم عن دينهم، ولا يخفى ما فى بُعدِهم عن دولة الإسلام من منع استفادة المسلمين منهم فى سلمهم وحربهم ومصالحهم وتكثير سوادهم... ونحو ذلك مما سبق بيانه فى مباحث الهجرة العامة.

ثم إن بعض المسلمين قد تأخر بمكة عن الهجرة تحت ضغط الأزواج والأولاد، فلما هاجروا رأوا إخوانهم الذين سبقوهم من المهاجرين قد تفقهوا فى الدين: هموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، وكان ذلك سببًا فى نزول الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَـٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[التغابن:١٤](١٠٢).

وهكذا سمت العقيدة التى استعلت على الارتباطات القبلية وعصبيتها، وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة التى صار أساسها عقديًا، وأصبحوا يُقَسَّمون إلى ثلاث مجموعات هى: المؤمنون، والمنافقون، واليهود.

فرسالة الإسلام جاءت تنظم أمور العبادات والمعاملات، فهى دستور للحياة، لابد لتطبيقه من أرض وأمة تقام فيها أحكام الله تعالى، حيث اكتمل تشريعها بما نزل فى المدينة المنورة من قرآن، وما نطق به رسول الله ﷺ، أو عَمِلَه، أو أقره أو أمر به من سنة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

فالهجرة كانت هى الفاصل بين عهدى السيرة: عهدها المكى، وعهدها المدنى.

وهى الفاصل بين الإعداد والتهيئة وبناء القاعدة، وبين البدء والبناء.

---

(١٠٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب فى قصة نعيم بن عبدالله النحام تحت عنوان: «إسلام عمر بن الخطاب»، والحديث أخرجه الترمذى ٥/٣٩١ ح٣٣١٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم فى المستدرك ٢/٤٩٠ ح٣٨١٤، وصححه وأقره الذهبى، والحمد لله رب العالمين.

وهى المَعْلَم الذى اختاره المسلمون ليكون بدءًا لتاريخهم منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب التقويم الهجرى.

فالهجرة النبوية كانت مَعْلمًا هامًّا وقع فى وقتٍ معينٍ؛ لكنه قد سبقها جهدٌ كبيرٌ تُوِّجَت به، ثم استمرت مع دعوةِ الإسلامِ، وامتدت مع حياة كل مسلم ومسلمة: ما بقيت الدنيا، وبها اتصل الحاضر الذى نعيشه؛ بالماضى الذى كان فيه أسلافنا؛ فهى عبادة يقوم بها المؤمنون اقتداءً برسول الله ﷺ كلما ألجأتْهمُ الحاجةُ إليها.

وإلى هذا كلِّهِ تشير خاتمة سورة الأنفال حيث قَسَمَت المجتمعات البشرية إلى أربعة أقسام: الكفار بكافة أصنافهم، والمؤمنون الذين لم يهاجروا، والمؤمنون الذين هاجروا وجاهدوا وآووا ونصروا، والمؤمنون الذين جاءوا بعد ذلك مقتدين بسلفهم فى الهجرة والجهاد، وكل ذلك لا يخفى على ذوى البصائر والألباب الذين يتأملون نص الآيات من ٧٢: ٧٥ سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزْوَاتِ

قد فصَّلَ القرآن الكريم أحداثًا كثيرةً فى بعض الغزوات كغزوة بدر فى سورة الأنفال، وغزوة أحد وما تبعها من وقائع فى سورة آل عمران، وغزوة الخندق وإجلاء يهود بنى قريظة فى سورة الأحزاب، وإخراج يهود بنى النضير وخذلان مَن عاونهم من إخوانهم المنافقين فى سورة الحشر.. وأحداثًا أخرى تُذكر فى حينها فى آيات متفرقة فى أكثر من سورة كما وقع مع يهود بنى قينقاع ومَن عاونهم من المنافقين فى الآيات: ١٢ و١٣ من سورة آل عمران، والآيات٥١: ٥٦ من سورة المائدة، وبحمد الله كان النصر فيها للمؤمنين والعاقبة للمتقين.

تَمحِيصٌ للمُؤمنِينَ فى بَدرٍ وأُحُد

وذلك كلُّه كان بعد الاختبار والابتلاء الذى كشف عن معادن الرجال؛ فظهر به النفيس من الخسيس، وامتاز به الطيب من الخبيث، ومن ذلك: غزوة بدرٍ الكبرى التى وقعت أحداثها فى يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثانى من الهجرة، وقد سمى الله يومها: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المؤمنين والمشركين، ومن الملائكة والشياطين، حيث كان التمحيصُ للمسلمين فى أبدانهم باختيار الجهاد لهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الانفال]، وكذلك كان التمحيص فى نفوسهم وقلوبهم بالغنائم؛ وقبول حكم رسول الله ﷺ فيها حين رغبوا فى أخذ الفداء من الأسرى، قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال].

فَيَومُ بَدرٍ أَحَدُ الأَيَّامِ ❁❁ مِن رَمَضانَ مَوسِمِ الصِّيَام
وَمَا تَزَالُ النَّاسُ تُحْيِي الذِّكْرَا ❁❁ بِهِ وَفِيهِ يَذْكُرُونَ النَّصْرَا
وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي جَمَاعَة ❁❁ يَطلُبُ تِلْكَ العِيرَ وَالبِضَاعَة
لَكِنَّهُ جَاءَ الصَّرِيخُ المُنْذِر ❁❁ يَقُولُ يَا قُرَيشُ هَلَّا تَنفِرُوا
وَخَرجُوا بِالقَضِّ وَالقَضِيضِ ❁❁ فِي طُولِ فَخْرِهِمُ وَفِي العَرِيض
وَاجتَمَعُوا فِي بَدرٍ لِلقِتَال ❁❁ زِهَاءَ أَلفٍ فِي جَمِيلِ حَال
وَجَيْشُنَا كَانَ قَلِيلاً عَدَدُه ❁❁ ثُلْثُ لِأَلفٍ نَاقِصَاتٌ عُدَدُهْ
وَالتَحَمَ القِتَالُ بينَ المُسلِمِين ❁❁ وَالمُشرِكِينَ وَانْجَلَى الحَقُّ اليَقِين
فَمِنْ قُرَيشٍ قُتِلَ سَبْعُونَا ❁❁ يَا وَيْلَهُمْ وَأُسِر سَبْعُونَا
وَمِنهُمُ الذِينَ آذَوا أَحْمَدَا ❁❁ فِي المَسجِدِ الحَرَامِ يَومَ سَجَدَا
وَوَضَعُوا عَلَيهِ مِنْ فَرَثِ الجَزُورْ ❁❁ وَمَكَرُوا وَالمَكْرُ كُلُّهُ يَبُورْ
وَجَمَعَ القُتَلاءَ فِي القَلِيبِ ❁❁ لِكَيْ يَذُوقُوا أَلَمَ التَّأنِيبِ
وَفُدِيَ الأَسْرَى بِالأَمْوَالِ ❁❁ وَهَكَذَا نَتِيجَةُ القِتَالِ
وَفِي المُفَاداةِ خِلافٌ قَد جَرَى ❁❁ وَأَيَّدَ القُرآنُ فِيهِ عُمَرَا
وَيَوْمُ بَدرٍ ظَهَرَ الإِسلَامُ ❁❁ وَهَزَمَ البَاطِلَ وَالأَصْنَام
وَالقَائِدُ العَظِيمُ مَهمَا انتَصَرَا ❁❁ لَا يَتْبَعُ الجَيشَ إِذَا مَا انْكَسَرَا
وَرُبَّمَا يُعَامِلُ الجَرِيحَا ❁❁ بِغَيْرِ مَا يُعَامِلُ الصَّحِيحَا
وَصَارَتِ الأَحْكَامُ حِينًا بَعدَ حِينْ ❁❁ تُشْرَعُ لِلإِسْلَامِ فِي العَشرِ السِّنِين
حَتَّى أَتَمَّ اللهُ أَمْرَ الدِّينْ ❁❁ قَبْلَ وَفَاةِ المُصطَفَى الأَمِينْ

وكذلك كان الابتلاء والتمحيص للمؤمنين أشد وأنكى فى غزوة أحد التى وقعت في يوم السبت منتصف شهر شوال من العام الثالث للهجرة؛ حيث وصل إلى المدينة نحو ثلاثة آلاف من المشركين بزعامة أبى سفيان يريدون محق النبى ﷺ وأصحابِهِ انتقامًا للسبعين الذين قُتلوا منهم فى بدر، وقد كان على قيادة خيلهم: خالد بن الوليد؛ الذى اهتبل فرصة نزول الرماة عن الجبل لجمع الغنائم مخالفين وصية رسول الله ﷺ لهم: أن لا يبرحوا أماكنهم؛ سواء انتصر الجيش أو هزم، فاستدار خالد بخيل المشركين، وبغت المسلمين وأربك صفوفهم؛ حتى قُتل سبعون من المسلمين، فضلا عمن جرح وأصيب، وأُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ونزل فى بيان ذلك نحو ستين آية من سورة آل عمران من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩ منها قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران]، ثم أدب الله المؤمنين الذين ما زال فى قلوبهم حب الدنيا؛ حتى لا يعودوا لمخالفة أمر

رسول الله ﷺ مهما كان الثمن؛ بعد أن اتخذ من خيرتهم وصفوتهم سبعين شهيدًا، وذلك جلي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

أخرج البخاري من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ – أي: الرُّماة– يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً، عَبْدَاللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا، حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ –البراء–: فَأَنَا وَاللهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْدُدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ ابْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِئَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلاً، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ –أبو سفيان–: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ،

وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى، وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

وقد سبق فى سيرة خير البرية ﷺ أكثرَ من مثال للمقارنة بين ما كان عليه الجاهليون من أخلاق عُليا؛ وبين ما فيه المعاصرون من تسفُّل وسفه على الرغم من تحضرهم المزعوم، فهذا زعيم المشركين فى الحرب (أبو سفيان) يعتذر عما صنعته امرأته والنسوة اللائى كن معها من تمثيل بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ يُقَطِّعنَ الآذَان وَيُجَدِّعنَ الأُنُوف، وبقَرَت هند بنت عتبة بطن سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب واستخرجت كبده ولاَكَتْهُ بأضراسها ثم لَفظته... فقال أبو سفيان: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا..» وكل مطالع لهذه السيرة أخبرُ منى وأبصر بما يفعله بعض المسلمين بإخوانهم فى هذا الزمان، فالله المستعان[١٠٣].

وَبَعْدَ عَامٍ غَزْوَةٌ فِي أُحُدِ ❁❁ ثَعَالِبُ تَغْزُو عَرِينَ الأَسَدِ
صَخْرُبنُ حَرْبٍ فِي جُيُوشِ الكُفْرِ ❁❁ جَاءَ لِمَحْوِ العَارِيَومَ بَدْرِ
وَاخْتَلَفَتْ آرَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ ❁❁ وَبَعْضُهُم فِي الرَّأيِ ضِدُّ بَعْضِ
فَابْنُ أُبَيٍّ صَاحِبُ النِّفَاقِ ❁❁ يَدعُو إِلَى الفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ
وَالأَمْرُ جَاءَ لِأَخِي خَوَاتِ[١٠٤] ❁❁ أَنْ يُلْزِمَ الرُّمَاةِ بالثَّبَاتِ

(١٠٣) الحديث فى صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالاِخْتِلاَفِ فِي الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ ح٣٠٣٩ واللفظ له، وبنحوه مختصرًا ح٣٩٨٦، وح٤٠٦١، وح٤٠٦٧، ومسند الإمام أحمد ح١٨٥٩٣. وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١، ٩٢، وراجع فى هذا الجزء: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ»، وبعد الهامش رقم ٦١ فى عنوان: «ليلة الهجرة».

(١٠٤) أخو خوات بن جبير هو: عبدالله بن جبير الأنصاري شهد العقبة وبدرًا، واستشهد بِأُحُد مع الرماة العشرة الذين

لَكِنَّهُم لَمَّا رَأَوْا الهَزِيمَهْ ❁❁❁ قَالُوا لِمَاذَا نَتْرُكُ الغَنِيمَهْ
وَخَالَفُوا أَمْرَ أَمِيرِهِمْ ❁❁❁ فَمَكَّنُوا الأَعْدَاءَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ
وَصَمَدَ النَّبِيُّ فِي القِتَال ❁❁❁ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةُ الأَبْطَال
مِثْلُ أَبِي دُجَانَةَ المِغْوَار ❁❁❁ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار
وَخَاضَتِ النِّسَاءُ تِلكَ المَعْرَكَة ❁❁❁ وَاشْتَرَكَتْ نَسِيبَةٌ فِي الحَرَكَة
وخُضِّبَ النَّبِيُّ بِالدِّمَاء ❁❁❁ وَغَسَلَتْهَا ابنَتُهُ بِالمَاء
أَكْرِمْ بِهَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ ❁❁❁ مَا أَحْسَنَ الطَبِيبَ وَالدَّوَاءَ
وَحَمْزَةٌ وَمُصْعَبٌ فِي سَبْعِين ❁❁❁ قَدْ قُتِلُوا مِنَ الرِّجَالِ المُؤمِنِين
قَالَ أَبُو سُفيَان فَلْيَعْلُ هُبَلْ ❁❁❁ فَقِيلَ إِنَّ اللهَ أَعْلَى وَأَجَلْ
قَالَ لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ ❁❁❁ قَالُوا لَنَا المَوْلَى وَلَا مَوْلَى لَكُمْ
وَقِيلَ إِنَّهُم سَيَغْزُونَ البَلَدْ ❁❁❁ وَسَارَ بَعْدَهُم إِلَى حَمْرَا الأَسَد
جَمَاعَةٌ يَقُودُهُمْ مُحَمَّدُ ❁❁❁ لِيَأخُذُوا بِالثَّأرِ أَوْ يُسْتَشْهَدُوا
وَنَزَلَ القُرَآنُ فِيهِم يُتْلَى ❁❁❁ وَمِثلُهُم لَا يَرْهَبُونَ القَتْلَ

وأذكر هنا بعض النماذج المُثْلَى فى الغزوتين تجسد ما كان عليه الصحابة من قيم، وتبرهنُ على صدقهم فى الطاعة والحب لله ولرسوله:

- فهذا أبو عبيدة بن الجراح؛ الذى قال فيه عمر بن الخطاب حين رأى عيشَه الخشن: «كلنا غَيَّرَتْهُ الدنيا غَيْرَكَ يا أبا عبيدة» قيل: اسمه عامر بن عبدالله بن هلال القرشى، هو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، كان إسلامه هو وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد في ساعةٍ واحدةٍ قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة،

ثبتوا معه ولم يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم.

وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، شهد بدرًا، وأُحدًا، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وأبو عبيدة هو الذي انتزع حلقتى المِغْفَر من وجه رسول الله ﷺ يومَ أحدٍ، فسقطت ثنيتاه من ذلك، توفي في طاعون عمواس سنة ثمانٍ عشرة من الهجرة، عن أنس بن مالك، ونحوه، عن حذيفة، أن رسول ﷺ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» متفق عليه، واللفظ للبخارى، وهذا الصحابى مع فضله ومكانته! انظر ماذا صنع بأبيه المشرك لما حارب الله ورسوله، ففى المعجم الكبير للطبرانى بسند جيد: أن والد أبي عبيدة ابن الجراح كان يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر: قَصَدَهُ أبو عبيدةَ فقتَلَهُ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة](١٠٥).

- وهذا أبو حذيفةَ؛ صحابى جليل مشهورٌ بكنيته، مختلفٌ فى اسمه، وهو ابن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبدمناف القرشى: كان من فضلاء الصحابة، جمع الله له الشرف والفضل، فكان من السابقين، وأسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة وأربعين إنسانًا، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين

---

(١٠٥) ترجمة أبى عبيدة، فى: المعجم الكبير للطبراني ١/١٥٤، ١٥٥ ح٣٦٠، وحلية الأولياء ١/١٠٠: ١٠٢، وأسدالغابة ٦/٢٠٥، ٢٠٦، والإصابة ٣/٤٧٥: ٤٧٨، و٧/٢٢٥، والحديث المتفق عليه، فى: صحيح البخاري ح٤٣٨٠: ٤٣٨٢، وصحيح مسلم ح٢٤١٩،٢٤٢٠، ومسند الإمام أحمد ٣/١٨٩، ٢٤٥، والسنن الكبرى للبيهقى ٦/٢١٠، ٣٧١.

عباد بن بشر الأنصاري، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقُتِل يوم اليمامة شهيدًا، عن بضعٍ وخمسين سنة، تأمل موقفه من أبيه الذى قُتِل ودُفن فى قَلِيبِ بدر! قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما أُلْقُوا - يعني قتلى المشركين- يوم بدر، وقف رسول الله ﷺ عليهم وقال: «يا عتبة، ويا شيبة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل - يعدد كل من فى القليب - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؛ فقد وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» وقال ابن إسحاق: وحدثنى حُميد الطويل، عن أنس... فذكره بأطول منه، وقال ابن إسحاق: فبلغني أن رسول الله ﷺ نظر عند مقالته هذه في وجه أبى حذيفة بن عتبة فرآه كئيبًا قد تغير، فقال رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟» قال: لا، واللهِ ما شككتُ في أبى ولا في مصرعه، ولكنى كنت أَعرِفُ من أَبِى رأيًا وحِلمًا وفضلاً، فكنت أرجو أن يُقَرِّبَه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابَه وذكرتُ ما مات عليه مِن الكُفرِ بعد الذى كنتُ أرجو له، حزننى ذلك، فدعا رسول الله ﷺ لأبى حذيفة بخير، وقال له خيرًا(١٠٦).

- وهذا أبو عزيز بن عمير؛ شقيقُ: مصعب بن عمير، يقع فى الأسر يوم بدرٍ، فلعلك تَعَجب ماذا صنع به أخوه مع الذى أسره؟! قال ابن إسحاق: وحدثنى ابن وهب أخو بنى عبدالدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال ﷺ: «استوصوا بهم خيرًا»، وكان أبو عزيز- واسمه: زرارة- بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسرى، قال أبو عزيز: مَرَّ بِى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال: اشدد يديك به فإن أمه ذات متاعٍ لعلها تفديه منك... قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا

(١٠٦) ترجمة أبى حذيفة، فى: الإصابة ٧/ ٧٤، وأسد الغابة٦/ ٧١، ٧٢، والحديث مطولاً فى: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٨: ٦٤١، وحديث أنس مطولاً ومختصرًا ح٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٣/ ١٠٤ ح١٢٠٢٠، و٣/ ١٤٥ ح١٢٤٧١، و٣/ ١٨٢ ح١٢٨٧٣، و٣/ ٢٦٣ ح١٣٧٧٣، وعن أبى طلحة فى ٤/ ٢٩ ح١٦٣٥٦.

صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبى اليَسَرِ- وهو الذى أسره- ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخى! هذه وَصَاتُك بى؟!! فقال له مصعب: إنه أخى دونك، فسألتْ أُمُّه عن أغلى ما فُدِى به قُرَشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثتْ بأربعة آلاف درهم، ففدته بها، وقد أكرم الله أبا عزيزٍ بالإسلام بعد ذلك والصحبة لرسول الله ﷺ، وقد غلط من قال إنه قُتِلَ يوم أُحدٍ كافرًا، والحمد لله على ذلك(١٠٧).

• وهذا مصعب بن عمير الذى كان معه لواء المسلمين فى غزوة أحد حتى استشهد بها، ثبت فى الصحيح من حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى، أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً- أى: ثوبًا- كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ؛ خَرَجَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاهُ؛ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ» أَوْ قَالَ: «أَلْقُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ الإِذْخِرِ» وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ: فَهُوَ يَهْدِبُهَا. أى: يجنيها ويستمتع بها، وهذا الحديث يدل على أن مصعب بن عمير كان متقشفًا زاهدًا بعدما كان مع أبويه أنعم غلام وأجوده ثوبًا؛ ولكنهم لم يجدوا لكفنه بعد موته إلا ثوبًا قصيرًا لا يستر جميع جسده، فإذا غطوا به رجليه ظهر رأسه، وإذا غطوا به رأسه ظهرت رجلاه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ شَيئًا مِن الإِذْخِرَ» وهو نباتٌ طيب الرائحة يضعه أهل مكة والمدينة فى بيوتهم وقبورهم(١٠٨).

---

(١٠٧) يُراجع: السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٤٥، ٦٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٠٦، ٣٠٧، والإصابة ٧/٢٢٨ ترجمة عزيز بن عمير، و٧/ ٣٨٠ ترجمة أبى اليَسَرِ الأنصارى، وللفائدة: راجع قصة حذيفة بن اليمان ١/ ٢٢١،٢٢٠.

(١٠٨) راجع ما تقدم فى هذا الجزء تحت عنوان: «أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير».

- وختام هذه النماذج: حنظلةُ غسيل الملائكة: هو ابن أبى عامر بن صيفي بن مالك، الأوسى الأنصاري، صحابي جليل كان حديث عهدٍ بالزواج، فسمع الدعوة للجهاد، فخرج مسرعًا دون أن يغتسل من الجنابة إلى غزوة أُحد، ثم استُشْهِدَ بها، فغسَلتة الملائكة، وأما أبوه الذي كان يُدْعَى في الجاهلية بالراهب: فقد حسد النبي ﷺ ولم يؤمن، وحضر غزوة أُحد مع المشركين فاستأذن حنظلةُ النبي ﷺ في قتل أبيه فنهاه ﷺ عن ذلك. وظل على كفره حتى مات بأرض الروم(١٠٩).

وبهذا الأدب الربانى؛ والتقويم الإلهى، والتربية المُثْلَى... تركز الولاء والإخلاص فى قلوب أصحاب النبى ﷺ الذين اختارهم الله لرفقة نبيه ومؤازرته ونصرته... فترجمتْه جوارحهم عملاً وسلوكًا، وقد سردت سورة الأنفال جوانب عديدة من غزوة بدر، كما بينت سورة آل عمران مواقف كثيرة من غزوة أحد، والله أعلم.

وبهذا تحيا المبادئ التي يظن الناس أن أصحابها قد فنوا، لتأسيسها وترسيخ العقائد التي رواها أهلُها بدمائهم، وهم عند الله أحياء يرزقون فرحين مستبشرين: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

(١٠٩) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «افْتَخَرَ الحَيَّانِ مِنَ الأَنْصَارِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، فَقَالَتِ الأَوْسُ: مِنَّا غَسِيلُ المَلَائِكَةِ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنِ اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتْهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الأَقْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيزَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَتِ الخَزْرَجِيُّونَ: مِنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا القُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَجْمَعْهُ غَيْرُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» مسند أبى يعلى ٣٢٩/٥ ح٢٩٥٣، وقال محققه: إسناده صحيح، ونحوه فى المعجم الكبير للطبراني ١٠/٤ ح٣٤٨٨ ترجمة ٣١٥: حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ الرَّاهِبِ الْأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الْأَوْسِيُّ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد/ كتاب المناقب، باب: فضل الأنصار ٤١/١٠ وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.

بعد أن أظهرت نتائج غزوة بدر جوانب عديدة من قوة المسلمين، وتأييد الله لهم: بدأ غرس النفاق يُخرِج شطأه ويشتد أزره لموالاتهم لشياطينهم من اليهود القاطنين معهم فى المدينة المنورة، وظلَّ ذلك المكر يتنامى ويتعاظم حتى وصل إلى جذوته بالمواجهة والحرب المعلنة، وذلك واضح فى إجلاء اليهود من المدينة كلما نقضوا العهود ولم يلتزموا بالمواثيق، ومن تأمل الآيات فى سور: آل عمران والحشر والأحزاب: عرف ذلك فيما حدث لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ومَن ناصرهم من المنافقين.

وهذا نموذج لهذا المزيج العَكِر بين المنافقين وشياطينهم من اليهود: ذكر الزهري أن إجلاء بنى قينقاع وقع في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنه كان يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أن ذلك وقع بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ماأصاب قريشاً في بدر، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يامحمد لايغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لايعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا..، وهكذا بدأت الأزمة تتفاقم إذ لم يكن في جوابهم مايشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحدٍّ واستعلاء واستعداد للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغۡلَبُونَ

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف ﷺ على المدينة: أبا لبابة بن عبدالمنذر العمري واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]، وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة كما ذكر ابن هشام، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بذلك، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد، وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من

المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي، وحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفاء ه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه، فاضطر عبدالله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد! أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج- قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يامحمد! أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أُبَي يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك! أرسلني» قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ماكان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال:لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبَي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أُبَي الجدار فسال الدم، ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبَي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام، وهناك

بُعدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث إن بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبدالله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولايتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبدالله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه، بل أرادوا قتله . ولاينسى مسلم موقف ابن سلول يوم أُحد حين رجع بثلث الجيش من الطريق وكان عددهم ثلاثمائة مقاتل تقريبًا .

أما موقف عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان على النقيض مما كان عليه ابن سلول: إذ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عزوجل وإلى رسوله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يارسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف هؤلاء اليهود وولايتهم، وفى ذلك نزلت الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يُجلِيَهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج - ونحن مواليك - فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أُبَي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبدالله بن أُبَي: تبرأتَ من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكّره مواطن قد أبْلَوا فيها، فقال عبادة:يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمُعْتصِمٌ بأمر سنرى غَيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دَيْناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تَعَجَّلوا وضعوا» وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولاساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيد عليها هذا أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام، ولحقوا بأذرعات، وهكذا خرجوا من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين وقد كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وكسر شوكتها، والفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى كان مثلاً حياً للمسلم الصادق المخلص لعقيدته؛ إذ تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه وقوي إيمانه وتنور عقله،

فتخلص من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة(١١٠).

شَقَّ عَلَى الكُفَّارِ مِن أَهْلِ الكِتَابْ ❁❁ وَالمُشْرِكِينَ مَا رَأَوْا مِنَ الصَّوَابْ
وَأَنَّ هَـذَا الـدَّاعِيَ الـعَظِـيمَـا ❁❁ قَـدْ جَعَلَ الإِسلَامَ مُسْتَقِيمَا
وَأَنَّـهُ فِي قَـومِـهِ يَـسُـودُ ❁❁ وَحَـوْلَـهُ فِي يَـثْـرِبَ الأُسُـودُ

شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ

وبعد ما أصاب المسلمين من ابتلاء فى أحد؛ حيث قُتِل منهم سبعون: ظنت القبائل المتناثرة خارج المدينة في الجزيرة العربية أنها تستطيع أن تُوقِعَ بالمسلمين أمثالَهَا، فأخذوا يكيدون ويمكرون، ويظهرون خلاف ما يبطنون؛ فَأَبدت قبائل متعددة الرغبة في الدخول في الإسلام، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُمِدَّهم بما يعينهم على تحقيق ذلك، فكانت واقعة الرجيع، وبئر معونة بعد أُحد بنحو أربعة أشهر، وبالتحديد: في شهر صفر من العام الرابع للهجرة،

(الرجيع) ماءٌ لقبيلة هُذيل قرب مكان يسمى (الهَدَأَةُ) ويقال: (الهَدَّةُ) وهو موضع بين عُسفان(١١١) ومكة، كانت الوقعة عنده فسميت به.

و(بئر معونة) هى بين أرض بنى عامر وحَرَّةِ بني سُليم، حيث غدر بالقراء: قبائل رِعل-

(١١٠) ينظر فى ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ٣/٥٤، ٥٥، والمغازي للواقدي ١/١٧٦، والطبقات لابن سعد ٢/٢٨، ٢٩، وتاريخ الطبري ٢/٤٨١، والمحرر الوجيز لابن عطية ١/٤٧٧، ٤٧٨ تفسير آيات سورة المائدة، والسيرة النبوية الصحيحة ١/٢٩٩: ٣٠٢، وموسوعة نضرة النعيم ١/٢٦٩، واليهود في السنّة المطهرة ١/٢٧٦، ٢٧٩: ٢٨٥، والسيرة النبوية دروس وعبر لعلى محمد الصلابى «غزوة بنى قينقاع».

(١١١) عُسْفان: بمهملتين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، بعدها فاء آخره نون، علي مرحلتين من مكة وسميت عُسْفان لتعسف السبل فيها، وقيل: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع علي ستة وثلاثين ميلاً من مكة، معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢.

بكسر الراء- وذكوان وغيرهم، وهذه تعرف بسرية القراء الذين كان عددهم سبعين صحابيًا، و(الرجيع) و(بئر معونة) متقاربتان في الزمان والمكان؛ حتى إن بعض مصنفي السير خلط بينهما، وكُلُّهم يقدم موقعة الرجيع على بئر معونة، لكني أُقدم شهداء بئر معونة لشرف القراء، وإظهار التواتر الثابت للقرآن الكريم منذ زمنه الأول، والله المستعان.

وفيما يلي بيان لهاتين الحادثتين مع تجلية ما يستفاد من كل منهما، وبالله التوفيق.

فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

هذا نموذج لحفاظ القرآن يحقق التواتر ويؤكد حفظ القرآن لدى الكثيرين من الصحابة بصفةٍ عامةٍ، ومن الأنصار على وجه الخصوص في وقت نشأة الإسلام وغربته بين قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة العربية، حيث قُتل في موقعة بئر معونة سبعون رجلاً من الأنصار كلهم من قُرَّاءِ القرآن وحفظته، يقول أنس بن مالك: كنا نسميهم القراء، يَحتطِبون بالنهار، ويُصَلُّون بالليل، حتى بلغوا بئر معونة، فغدروا بهم- يعني: الذين زعموا أنهم أسلموا- وقتلوهم، فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع: بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا(١١٢).

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه الحادثة: ... مع أن هذه الواقعة تُوجبُ على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة، إِلَّا أن ضرورة بث الدعوة- مهما فدحت الخسائر- جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمرٌ لابد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر، لأن الانسحاب من السوق بُغْيَةَ تجنبها: قضاء عليه، فهو يبقى متحملاً حتى تَهُبَّ الريحُ من جديد رخاءً تعوِّض ما

(١١٢) ينظر: صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب العون بالمدد ٦/ ١٨٠ ح٣٠٦٤، وكتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع... وبئر معونة ٣٥٨/٧، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١.

فَقَدَ، وذاك سر استجابة الرسول لأبي براء؛ عامر بن مالك الملقَّب بـ(ملاعب الأسنة) حين عرض عليه أن يُرسل وفدًا من الدعاةِ ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبي ﷺ خشيته من أن يُصاب رجاله بسوء، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذِمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار(١١٣).

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا (بئر معونة) وكانوا سبعين من خيار المسلمين يُعرفون بالقراء، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، ويَحْيَوْن على هذا النسق الرتيب بين جهادٍ في الحياة ورغبةٍ في الآخرة.

فلما أمرهم الرسول ﷺ بالمسير لإبلاغ رسالات الله، خرجوا، وما كانوا يعرفون أنهم -جميعًا- يحُثُّون الخُطَا إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجاجها.

وحين انتهى القراء إلى (بئر معونة) بعثوا أحدهم -حرام بن ملحان- إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام فلم ينظر (عامر) في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة، فما شعر (حرام) إلا وطعنةً نجلاءَ تخترق ظهره وتنفذ من صدره، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم فقد صاح (حرام) على أثر ذلك: فُزتُ وربِّ الكعبة!.

ومضى (عامر) في غَشَمِه، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت إليه قبائل (رِعْلٍ) و (ذكوان) و(القارة) فهجم بهم عامر على القراء الوادعين.

ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوبٍ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يَغشَوهُم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم.

(١١٣) رواه ابن هشام ٢/ ١٨٤، عن ابن إسحاق بسندٍ صحيح مرسلاً، وكذا رواه الطبراني، عن ابن إسحاق كما في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٨، ١٢٩ ورواه الطبراني أيضًا من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه نحوه، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم (عمرو بن أمية الضمري) ولم يعرفا النبأ المحزن، إلَّا من أفواج الطير المتوحشة، تنطلق نحو المعسكر مُحَوِّمةً حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر، طامعة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها، قالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا. فأقبلا لينظرا فإذا القوم مضرجون في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة! قال زميل عمرو له: ماذا ترى؟ قال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ نقص عليه الخبر، لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى (المنذر) لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلاً: ما كنتُ لأرغبَ بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر! وما كنت لأبقى حتى أَقُصَّ خبره على الرجال! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل وأُخِذَ عمرو أسيرًا، فأعتقه (عامر بن الطفيل) كبير الغادرين عن رقبةٍ زعم أنها على أمه!.

ورجع (عمرو) إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المُصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذَكِّرُ نكبتهم الكبيرة بنكبة (أُحُد) إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتالٍ واضح، وأولئك ذهبوا في غدرةٍ شائنة.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظًا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب؛ بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة: أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلٍ كامنٍ على الإسلام وأهله، غلٍ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل قادرٍ أن يُلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء.

وفى طريق (عمرو) إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من (بنى عامر) فقتلهما ثائرًا لأصحابه، ثم تبين أنهما من (بني كلاب) وأنهما معاهدَين للمسلمين.

ولما قدم (عمرو) على الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخبره الخبر، قال النبي ﷺ للناس: «إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ

وَرَضِيتَ عَنَّا»(١١٤).

ثم قال النبي ﷺ لعمرو: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا» وانشغل بجمع دياتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود!.

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل... وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضِغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال].

غير أن هذه الكراهية قد بدا نبتها بعد انتصار (بدر) بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلَّبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد قلنا: إن النبي ﷺ أدرك هذه الحال بما فعله مع يهود بني قينقاع، وكذالك بعد (أحد) إذ بذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتْباع (أحد) بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد(١١٥).

---

(١١٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٧/٣٨٨، ٣٨٩ ح٤٠٩٣ من طريق هشام بن عروة، عن أبيه مرسلاً، لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث أنس ٧/٣٨٥، ٣٨٦ ح٤٠٩٠، ٤٠٩١، والطبراني من حديث ابن مسعود كما في مجمع الزوائد ٦/١٣٠.

(١١٥) كتاب: «فقه السيرة» للإمام الغزالي ص٣١٦: ٣١٩ مع تصرف يسير، ط الأولى، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وتنظر القصة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٨٣: ١٨٩ والسيرة النبوية لابن كثير ٣/١٣٩: ١٤٤.

عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهِم

وهذا نموذج آخر يُشبه حال من سبقهم، متفق معهم في الزمان، ومُقاربٌ في الجهةِ والمكان إذ كان في أول السنة الرابعة من الهجرة أيضًا، ولكنهم هذه المرة كانوا عشرة رجال صبروا وثبتوا على الحق حتى نالوا الشهادة، وذلك حين بعثهم رسول الله ﷺ عيونًا إلى مكة، ليأتوه بخبر قريش، وهم: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وهو أميرهم، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخُبَيْبُ بن عَدى الأنصاري، وزيد بن الدَّثِنَّةِ الأنصاري، وخالد بن بُكَير حليف بني عَدي بن كعب، وعبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلَوِى، ومُعتب بن عُبيد أخو عبدالله بن طارق لأمه، وهؤلاء كلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام في المدينة، وكلهم قد شهدوا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى. قال الحافظ ابن حجر: ولعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم(١١٦) فظلوا يسيرون الليل وَيَكْمُنُونَ النهار، فنزلوا بالسَّحَرِ فأكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض، فجاءت امرأة من هُذيل ترعى غنمًا، فرأت النواة فأنكرت صِغرها، وقالت: هذا تمر يثرب! فصاحت في قومها: أُتِيتُم، فجاءوا في طلبهم فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، فلم يَرُعْهم القوم إِلَّا والرجال بأيديهم السيوف قد غَشَوْهم، وكان ذلك بمكان يسمي(الهَدْأَةُ)(١١٧) بين مكة وعُسفان على سبعة

---

(١١٦) فتح الباري ٧/ ٣٨٠، والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢: ١٧٤ وتراجمهم في: الإصابة ١٩٤/٢، ٢٢٥: ٢٢٧، ٥٠٠، و ٣/ ٤٦٠، ٤٦١، و ٤/ ١١٧، و ٦/ ٥٥، ٥٦، ١٣٦، ١٣٧ ط دار الكتب العلمية بيروت، وقصتهم قد أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه، وأول ترجمة ذكرها فيها هي قوله: باب؛ هل يستأسر الرجل، أي: هل يُسَلِّمُ نفسه للأسر أم لا؟ فتح الباري ٦/ ١٦٥: ١٦٧، كما أخرجها أصحاب السنن والمسانيد والسِّيَرِ والطبقات كلهم من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعدُ: إحدى هذه الطرق مع تخريجها، ولكننا الآن سنسوق القصة بمجموع رواياتها، والله الموفق.

(١١٧) (الهَدأَةُ) بفتح الهاء والهمزة بينهما مهملة ساكنة، كما في البخاري ٦/ ١٦٦ ويقال: (الهُدَّةُ) بضم الهاء وتشديد المهملة

أميال منها، فلجأ أصحاب رسول الله ﷺ إلى رابية مشرفة أو أرض مرتفعة عالية، فأحاط بهم مائة من بني لِحْيان(١١٨) كلهم رُمَاةٌ ومعهم مثلُهم يشدون أزرهم، ومن ورائهم قومُهم من هُذيل ينصرونهم؛ فقالوا لهؤلاء الرجال الذين يعدون على الأصابع: اعطوا بأيديكم، واستسلموا للأسر، وانقادوا لنا، فإنا والله لا نريد قتالكم؛ إنما نريد أن نصيب منكم شيئًا من أهل مكة، فقال عاصم: أما أنا فلن أنزل في ذمة كافر، ولا أقبلُ عهدًا من مشرك، اللّهم أخبر عنا رسولك، اللّهم إني أحمي لك اليوم دينك؛ فاحم لي لحمي.

فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسولَه خبره، فأخبر ﷺ أصحابه بذلك يوم أصيبوا، وحمى الله عاصمًا من أعدائه فلم ينتهك أحدٌ منهم حُرْمَتَهُ، ولم يقدروا على مس شيءٍ منه، حيث أرادت هُذيل قطع رأسه بعد قتله ليبيعوه لامرأة يقال لها: سلافة بنت سعد؛ أم مسافع وجُلاس، ابني طلحة العبدري اللذين قتلهما عاصم يوم أُحد، وكانت نذرت لئن قَدِرتْ على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه، فأرسل الله على جسده مثل الظُّلَّة من الدِّبْرِ(١١٩) حتى صارت كالسحابة، كلما اقتربوا منه: طارت في وجوههم تَلدغُهم، فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْرَةُ قالوا: دعوه يُمسِي، فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي سيلاً فاحتمل عاصمًا فذهب به، وكان عمر يقول لما بلغه خبره: «يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته» وذلك لأن عاصمًا

المفتوحة كما في البخاري ٣٠٨/٧ وقيل في ضبطها غير ذلك، وهى موضع بين عُسفان ومكة، قرب ماءٍ لقبيلة هُذيل يقال له (الرجيع) كانت الوقعة عنده فسميت به، وهذه كانت قبل سرية القراء الذين تقدم ذكرهم. ينظر: فتح الباري ٣٧٩/٧، ٣٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢، ١٨٣: ١٨٧، ومراصد الاطلاع ١٤٢/١، و٦٠٦/٢، و ١٤٥٣/٣.

(١١٨) (لِحْيان) بكسر اللام وسكون المهملة، حي من هُذيل، وفى رواية البخاري ١٦٦/٦ قريبًا من مائتي رجل ... والجمع بينهما ممكن كما ستراه. وعمدة القاري ٢٩٢/١٤، ٢٩٣.

(١١٩) (الدِّبْرُ، والدَّبْرَةُ) بفتح وتشديد المهملة وسكون الموحدة التحتانية، جماعة النحل والزنابير. القاموس ص٤٩٨.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد أعطى اللهَ عز وجل عهدًا أن لا يمس مشركًا، ولا يمسه مشرك(١٢٠).

كما حيل بين قريش وبين عاصم حين أرسلت من يأتي بشيء من جسده يعرفونه، لأنه قتل عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر، ولقد كان عقبة بن أبي معيط كما ذكر ابن كثير: شَرَّ عباد الله، وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله، ولما أمر رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة عاصم بن ثابت أن يُقَدِّمَ عقبة من بين الأسرى فيضرب عنقة، قال عقبة: يا معشر قريش! علام أُقْتَلُ من بين من هَا هُنَا؟ فقال له عاصم: على عداوتك لله ورسوله(١٢١).

وهكذا مضى عاصم في سبعة من رفاقه إلى ربهم شهداء بررة مقبلين غير مدبرين، قد اختاروا لأنفسهم الحياة الحقة، في أكرم المنازل وأعلاها مع النبيين والصديقين، وبقى للناس عظيم القدوة فيهم وجميل التأسي بهم إلى يوم الدين، ولا تزال كلمات عاصم تدوي في سمع الزمان وهو يناضل في هذا القتال غير المتكافئ حيث يقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلٌ ❁❁❁ وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عُنَابِلُ
تَنْزِلُ عَنْ صَحْفِهَا الْمَعَابِلُ ❁❁❁ الْمَوْتُ حَقٌ وَالْحَياةُ بَاطِلُ
وَكُلُ مَا حَمَّ الإِلَهُ نَازِلُ ❁❁❁ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ إِلَيْهِ آئِلُ
إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ(١٢٢)

---

(١٢٠) يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٩/١/٢، ٤٠ ط التحرير - القاهرة، مع ما تقدم من المراجع.

(١٢١) (قتل الأسير صبرًا) هو: أن تشد يداه ورجلاه ويمسك حتى تضرب عنقه، وذلك بخلاف المُثْلَةِ: التي هي قطع بعض الأطراف كالأنف والأذن وغيرهما قبل القتل أو بعده، وهى مَنْهِيٌّ عنها.ينظر: النهاية في غريب الحديث ٥٨/٣، و٢٩٤/٤، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣، ٣٠٦.

(١٢٢) ذكر هذه الأبيات مع غيرها ابن هشام في السيرة ١٧٠/٢ (النابل) صاحب النبل، ويروى (بازل) وهو القوى (عُنابل) بالضم غليظ شديد (المعابل) جمع معبلة، وهو: نصل عريض طويل (حمَّ الإله) قدَّره، (وآئل) صائر وراجع.

وكذلك بقية العشرة: أعني عبدالله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، قد لحقوا بأصحابهم، على خير حال، وسلكوا طريق سلفهم إلى أحسن مآل، وإن كانوا في بادئ الأمر قد رضوا بالرخصة بدل العزيمة حيث رَقوا ولانوا واستسلموا للأسر وثوقًا منهم بعهد المشركين وميثاقهم، فلما أعطوا بأيديهم حل المشركون أوتار قِسِيِّهِم فربطوهم بها، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر، وأَبَى أن يصحبهم، فسحبوه وجروه حتى استُشْهِدَ، وفى رواية ابن إسحاق: أنه انتزع يده من القِران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وكان ذلك بمر الظهران وقبره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هناك.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدَّثِنةِ فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان مع مولى له يقال له: نيسطاس الى التنعيم(١٢٣) وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالسٌ في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا(١٢٤).

وأما خُبيب بن عدى: فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بأبيهم الحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، كما صرح بذلك أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل الذي وعدنا القارئ الكريم بمطالعته كاملاً، وهذه رواية البخاري في باب فضل من شهد بدرًا: قال أبو

(١٢٣) التنعيم: أقرب أماكن الحل إلى الحرم، وكان بينه وبين مكة نحو خمسة كيلو مترات، ويسمى بالتنعيم لأن على يمينه جبل نعيم، وعلى يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نَعْمَانُ -بفتح النون وسكون المهملة- ونقل الحافظ ابن حجر، عن موسى بن عقبة: أن خُبَيْبًا صلى ركعتين بموضع مسجد التنعيم. فتح الباري ٧/٣٨٣، والقاموس المحيط ص١٥٠٢.

(١٢٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧١، ١٧٢.

هريرة: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ، جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ! فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَمَّا أَنَا فَلا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةُ نَفَرٍ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، مِنْهُمْ: خُبَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ لِي بِهَؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ الْقَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسًى يَسْتَحِدُّ بِهَا[١٢٥] فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا[١٢٦] فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ

---

(١٢٥) (مُوسًى) يجوز تنوينها وعدمه، وهى آلة يزال بها الشعر (يَسْتَحِدُّ بِهَا) أي: يتطهر بها ويحلق شعر عانته، خشية أن يظهر منه قبيح إن صلبوه أو مثلوا به بعد قتله، كما أن هذا العمل سُنَّة من سنن الفطرة. فتح الباري ٧/ ٣٨٢.

(١٢٦) وفى رواية ابن إسحاق: فلقد اطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنبًا يؤكل. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٢.

لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ❁❁❁ عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ❁❁❁ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(١٢٧)

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا: الصَّلاةَ، وَأَخْبَرَ- يعنى: ﷺ- أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ- وهو عقبة بن أبى معيط- فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنْ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا»(١٢٨).

وزاد ابن إسحاق في آخر الخبر: فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حَضَرْتُهُ يومئذٍ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقًا من دعوة خُبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعى عليه، فاضجع لجنبه زالت عنه، قال ابن إسحاق: حدثني يحي بن عَبَّادِ بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عَبَّادٍ، عن عقبة بن الحارث(١٢٩) قال: سمعته يقول: ما أنا والله قتلت

(١٢٧) فى رواية أخرى فى الصحيح: (ولستُ أُبالى...) ، (أَوصال) أى: أعضاء، (شِلوٍ) بكسر المعجمة وسكون اللام: الحسد، (مُمَزَّعٍ) أى: مقطع. فتح البارى٧/ ٣٨٤.

(١٢٨) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب هل يستأسر الرجل؟ ٦/ ١٦٥، ١٦٦، وفى كتاب المغازى: باب١٠ (واللفظ له) ٧/ ٣٠٨، ٣٠٩، وفى باب غزوة الرجيع ٧/ ٣٧٨، ٣٧٩، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الرجل يستأسر ٣/ ١١٥، ١١٦ ح٢٦٦٠، ومسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٠ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ ٧٩١٥، ٨٠٨٢، ومسند الطيالسى ص٣٣٨ ح٢٥٩٧، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب السير/ باب صلاة الأسير إذا قدم ليقتل ٩/ ١٤٥، ١٤٦.

(١٢٩) هذا سندٌ صحيحٌ، وعقبة بن الحارث النوفلي: صحابي أسلم بعد فتح مكة، وبقى إلى خلافة عبدالله بن الزبير، انظر: الإصابة ٤/ ٤٢٧، وتقريب التهذيب ص٣٩٤.

خبيبا؛ لأني كنت أصغر من ذلك ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله(١٣٠).

وقال الحافظ ابن حجر: ذكر أبو يوسف في كتاب: «اللطائف» عن الضحاك: أن النبي ﷺ أرسل المقداد والزبير في إنزال خُبيبٍ عن خشبته، فوصلا إلى التنعيم، فوجدا حوله أربعين رجلاً، فأنزلاه، فحمله الزبير على فرسه وهو رَطْبٌ لم يتغير منه شيءٌ، فنذر به المشركون، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض، فَسُمِّيَ: بَلِيعَ الأرض(١٣١).

ويستفاد من هذه الحادثة فوائد كثيرة، وحكم عظيمة، منها: أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكِّن من نفسه العدو ولو أدى ذلك إلى قتله حيًّا: حتى لا يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالعزيمة، فإن رغب في الرخصة فله أن يقع فى الأسر، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وكرهه سفيان الثوري.

ومنها: أن المؤمن يفي للمشركين بالعهد، ويتورع عن قتل أولادهم، والدعاء عليهم بالتعميم، وأنهم مع كفرهم: كانوا يعظمون الحَرم والأشهر الحُرم.

ومنها: ما كان عليه خُبيب من قوة اليقين والصلابة في الدين، والثبات على المعتقد، حيث صلى ركعتين قبل القتل، وأنشأ الشعر وأنشده.

ومنها أن الله عز وجل استجاب دعاء عاصم وأصحابِه، وأكرمهم في حياتهم وبعد استشهادهم، وأظهر ذلك للعالمين، وأنه سبحانه قد ابتلاهم كما سبق في علمه ليثيبهم ويعظم أجورهم ويرفع درجاتهم، وذلك بتمكين المشركين من قتلهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ

---

(١٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧٣.

(١٣١) الإصابة ٢/٢٢٦.

مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢](١٣٢).

وبالرغم من تلاحق الخسائر بالمسلمين في (الرجيع) و(بئر معونة).. ودخول المؤمنين في محنةٍ بعد أخرى: إلا أنهم لم يفقدوا ثقتهم بربهم..ولم يقطعوا صلتهم بخالقهم، واطمئنانَهم لوعده لهم فى غدهم ومستقبل أمرهم، فشرعوا يردون الضربة بمثلها، فصبروا على ما نزل بهم من بأساء، كعاصمٍ وخبيبٍ ورفاقِهما: الذين تقلبت عليهم أصناف البلاء وألوان التعذيب، فصبروا واحتسبوا وآثروا القتل والشهادة، دون أن يرجع أحد منهم عن دينه، أو ينطق بكلمة الكفر على لسانه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

غَزوَةُ الخَندَقُ وبِدايَةُ الاستِقرَار

ثم كانت آخر الشدائد التي مرت برسول الله ﷺ وأصحابه: ما وقع في غزوة الأحزاب وهى الخندق، سنة خمس من الهجرة؛ وكانت بداية عهد الاستقرار، إذ في وقت الشدة ينبعث الأمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق] ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح].

وذلك أن المسلمين بعد أن استقروا بالمدينة؛ وأصبحت لهم فيها دولة: أيقن عدوُّهُم أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإسلام إذا حاربته كلُّ طائفةٍ على حدةٍ، فأجمعوا أمرهم واتحدوا على الرغم من اختلافهم، فقرروا رمي المسلمين عن قوسٍ واحدةٍ؛ ليستأصلوا شأفتهم ويقضوا على الإسلام قضاءً محققًا، وقد برز ذلك جليًّا في عدد الجيش الذى جاءُوا به من قريش وغطفان وغيرهما؛ حيث كان عدده نحو عشرة آلاف مقاتل، فكيف إذا انضم إلى ذلك: اليهود المتواطئون

---

(١٣٢) هذه الفوائد مقتبسة من: فتح الباري ٧/ ٣٨٤، ٣٨٥.

مع جحافل الشرك، ثم المنافقون المطلعون على أسرار المسلمين فى المدينة وما حولها!!!

فأخذ النبي ﷺ وأصحابُه يفكِّرون في دفع هذا العدوان، ويعملون على دَرْءِ ذلك الخطر الذى يتهددهم من الداخل والخارج على السواء، وصدق الله إذ يصور لنا بعض هذه المشاهد؛ ويُظْهِرُ لنا كيف أنها أسفرت عن أخلاق الرجال وكشفت عن معادنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه يقول: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا

بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالجُوعِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ للأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ» فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

وفي رواية أخرى يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قَالَ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيْرَ إِلا خَيْرُ الآخِرَهْ، فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(١٣٣).

وفي أثناء تلك الشدائد يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بمستقبل هذه الأمة وظهور ذلك الدين، أخرج الإمام أحمد: بسند حسن، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فوَضَعَ ثَوْبَهُ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»(١٣٤).

---

(١٣٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/٣٩٢ ح٤٠٩٩، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب عزوة الأحزاب وهي الخندق ٣/١٤٣١، ١٤٣٢ ح١٨٠٥.

(١٣٤) المسند ٤/٣٠٣.

وله شاهد من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ(١٣٥) شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنَا نَازِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ، قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ» قَالَ: «قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ، وَلا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ» فَقَالَ ﷺ: «قُومُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: وَيْحَكِ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «ادْخُلُوا، وَلا تَضَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ ﷺ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»(١٣٦).

وهذه لمحة من الشدائد التي تعرض لها المسلمون في هذه الغزوة: فيها تعليم وتأديب للخلف بعدم الاجتراء بتمني حضور تلك المشاهد يوضحها لنا حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنهُ(١٣٧) في الحديث الذي أخرجه مسلم (ح١٧٨٨) بسنده إلى إِبْرَاهِيمَ بنِ يَزِيدِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا

---

(١٣٥) والكُدْية: بضم الكاف وسكون المهملة هي القطعة الصلبة من الأرض لا تؤثر فيها أدوات الحفر. ينظر: عمدة القاري ١٧/١٧٩.

(١٣٦) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٧/٣٩٥.

(١٣٧) وقد سبق نموذج آخر في العهد المكي أبانه المقداد ابن الأسود في عنوان: «السابقون الذين امتُحِنوا بالفتنة والأسوة بهم في ذلك».

عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ -أي: برد-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» -أي: لا تعلمهم بنفسك، وامش في خفاء لئلا ينفروا منك ويقبلوا عليَّ-، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ -أي: يدفئه-، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ: قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ» -أي: كثير النوم-.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن من طريق: مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِاللَّهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ!؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا

فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا» ، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

فأكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بأن كبت عدوهم؛ فجعل كيدهم في نحورهم دون أن يغنموا شيئًا أو يتحقق لهم هدفٌ، وامتن الله عز وجل على المؤمنين بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ إلى قوله تبارك اسمه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

كما حلت النقمة بيهود بني قريظة؛ لنقضهم العهد مع رسول الله ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وكان ذلك بحكم سعد بن معاذ بن النعمان: أبي عمرو الأنصاري، سيدِ الأوس، الذي شهد بدرًا باتفاق، وقد رُمِيَ بسهمٍ يوم الخندق، وعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بنى قريظة، وأُجيبت دعوته في ذلك، ثم انتقض جُرْحُه فمات شهيدًا، بعد أن شفى الله غيظه من يهود بني قريظة، وأقرَّ عينه بفشل قريش في هجومها على المدينة، وانقلابها لتُغْزَى في عُقْر دارها، لا لتغزو الآخرين(١٣٨).

وبهذا نوقن بلا ريب: أن الله عز وجل لن يترك كلمتَه لِتَخفِق ولا دينَه لِيُهان ولا أولياءَه لِيَذِلُّوا... ومَن زَعَمَ أنَّ الإسلامَ سيموت، أو أنَّ الدين سيضعُف، أو أن المسلمين سيُقضَى عليهم... فقد كذب وافترى إفكًا مبينًا، ويؤكِّدُ ذلك اليقين ما حدث للمسلمين أثناء وبعد

---

(١٣٨) ترجمة سعد بن معاذ في: الإصابة٣/ ٧٠، ٧١، والأحاديث الصحيحة كثيرة في مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نذكر واحدًا منها على سبيل المثال، أخرج الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة: «اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» فطفقَ المنافقونَ في جنازتِهِ وقالوا: ما أخفَّها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنما كانت تحمله الملائكة معهم». صحيح ابن حبان ٨٩/٩ ح٦٩٩٣، وأصل حديث أنس عند مسلم ١٩١٦/٤ ح٢٤٦٧، وأحمد ٢٣٤/٣ ح١٣٤٥٤، وله شواهد كثيرة من أقواها حديث جابر عند البخاري ١٢٣/٧ ح٣٨٠٣، ومسلم٤/١٩١٥، ١٩١٦ ح٢٤٦٦، وأحمد٣/٢٩٦، وله شواهد كثيرة تنظر على سبيل المثال في المسند ٢٤/٣ ح١١١٨٤عن أبي سعيد الخدرى، و٦/٣٢٩ عن رميثة، وصحيح ابن حبان ح٦٩٩١ عن أَسِيدِ بنِ حُضَيْر، و ح٦٩٨٨، ٦٩٨٩ عن عائشة، وفيه أحاديث أخرى تنظر في: ٨٥/٩: ٩٠ من حديث ٦٩٨٧: ٦٩٩٦، والله أعلم.

حصارهم فى شِعب أبى طالب، وما وقع لرسول الله ﷺ أثناء وبعد هجرته من مكة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وفى غزوة الأحزاب دحر الله جحافل الشرك ومَن واطأهم وعاونهم من يهود ومنافقين دون أن تُحَقَّق له غاية أو تُرفع لهم راية؛ بل جعلهم الله لمن خَلفَهم عبرةً وآية: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

فِي عَـامِ خَـمْـسَـةٍ وَشَـهـرِ شَـوَّالَ ❁❁ جَاءَت جُمُوعُ الكُفْرِ تَطلُبُ القِتَالَ
وَذَاكَ أَنَّ قَـيـنُـقَـاعَ وَالـنَّـضِـيـرْ ❁❁ مِنَ اليَهُودِ قَدْ لَقَوْا سُوءَ المَصِيرْ
فَـأُخـرِجُـوا مِن طَيْبَةَ المُقَدَّسَة ❁❁ وَلَحِقُوا بِخَـيـبـرَ المُـنَـجَّـسَـة
وَالمُـشْـرِكُونَ مِن ذَوي الأَوثَـانِ ❁❁ يَبْـغُـونَ مَـحـوَ أَفْـضَـلِ الأَديَـانِ
وَصَـارَ خَـوفُ المُـسلِمِينَ لَمَّـا ❁❁ جَـاءَتْـهُـمُ الأَنـبَـاءُ خَـوفًـا جَـمَّـا
وَقَـالَ سَـلْـمَـانُ أَلَا تُـخَـنْـدِقُـونَ ❁❁ حَـوْلَـكُـمُـو فَـشَـرُّهُـمْ سَـتَـتَّـقُـونَ
وَخَـطَّـطَ الـنَّـبِـيُّ مَـوْضِـعَ الـعَـمَـلْ ❁❁ وَابـتَـدَرُوهُ فِي ثَـبَـاتٍ وَعَـجَـلْ
وَلَو سَمِعْتَ القَوْمَ حِينَ يَعْمَلُونَ ❁❁ وَمَعَـهُـم سَـيِّـدُهُـم يُـرَدِّدُونَ
يَـا رَبِّ لَـوْلَا أَنـتَ مَـا اهـتَـدَيـنَـا ❁❁ وَلَا تَـصَـدَّقْـنَـا وَلَا صَـلَّـيْـنَـا

فَأَنْــزِلَــنْ سَكِينَــةً عَلَينَا ❁❁ وَثَبِّــتِ الأَقْــدَامَ إِن لَاقَيْـنَا
وَاعتَرَضَتْهُـم كُدْيَةٌ فِي العَمَل ❁❁ وَدَكَّـهَـا مُحَمَّـدٌ بِالمِعْوَل
وَسَطَعَتْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْوَار ❁❁ فَفَرِحُوا وَحَزِنَ الكُفَّـار
وَجَابِرٌ حِينَ رَأَى عَصْبَ الحَجَرْ ❁❁ جُوعًا عَلَى بَطْنِ إِمَامِ البَشَرْ
وَكَانَ عِندَهُ قَلِيلٌ مِن شَعِير ❁❁ وَمَعَهُ فِي بَيْتِهِ جَدِيٌ صَغِيرْ
وَقَالَ لِلمَرْأَةِ لَـوْ رَأَيْتِ ❁❁ وَجْهَ النَّبِيِّ المُصْطَفَى بَكَيْتِ
وَصَنَعُوا مَا عِندَهُم مِنَ الطَّعَام ❁❁ ثُمَّ دَعَا إِليهِ سَيِّدَ الأَنَام
وَكَانَ فِي قِصَّتِهِ الشَّهِيرَة ❁❁ مُعجِزَةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَة
وَأَقْبَلَتْ قَبَائِلُ الأَحْـزَابِ ❁❁ تُرِيدُ مَا لَمْ يَكُ فِي الحِسَابِ
وَمِنْ وَرَاءِ النَّاسِ فِي المَدِينَةْ ❁❁ قُرَيظَةُ الخَبِيثَةُ اللَّعِينَة
وَاجْتَهَدَ النَّبِيُّ فِي الدُّعَاء ❁❁ لِجَيْشِهِ الثَّابِتِ لِلأَعْدَاء
وَقَدْ هَدَى اللهُ نُعَيْمَ الأَشْجَعِي ❁❁ وَاعتَنَقَ الإِسْلَامَ هَذَا الأَلْمَعِي
وَبَاتَ يَسْعَى فِي ذَوِي الرِّيَاسَة ❁❁ وَفَرَّقَ الجُمُوعَ بِالسِّيَاسَةِ
وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ جُنْدَهُ ❁❁ وَنَصَرَ اللهُ تَعَالَى عَبدَهُ
وَبَعْدَ مَا تَوَلَّتِ الأَحْزَابُ ❁❁ تَفَرَّغَ النَّبِيُّ وَالأَصْحَابُ
وَقَالَ جِبْرِيلُ الأَمِينُ هَيَّا ❁❁ إِلَى خِبَاثِ الطَّبعِ وَالمُحَيَّا
إِلَى بَنِي قُرَيظَةَ الذِّينَا ❁❁ لَا يَحْفَظُونَ العَهْدَ وَاليَمِينَا
وَقَامَ فِي المَدِينَةِ المُنَادِي ❁❁ يَدعُو المُجَاهِدِينَ لِلجِهَادِ
يَقُولُ صَلُّوا العَصْرَ فِي دِيَارِهِمْ ❁❁ وَضَايِقُوا اليَهُودَ فِي حِصَارِهِم
وَقَد رَأَوْا مِن سُوءِ تِلكَ الحَالَةْ ❁❁ أَنَّهُمُو هَلْكَى بِلَا مَحَالَة
وَرَفَضُوا مَا قَالَهُ الأَمِير ❁❁ وَكُلُّهُم مُنَافِقٌ مُبِير
وَاسْتَسْلَمُوا لِحُكمِ سَعدِ بنِ مُعَاذ ❁❁ وَلَا مَفَرَّ دُونَهُ وَلَا مَلاذ
وَحَكَمَ الأَوْسِيُّ حُكْمًا عَدْلا ❁❁ بِأَن يُبَادَ البَالِغُونَ قَتْلا
وَالسَّبيُ لِلنِّسَاءِ وَالذَّرَارِي ❁❁ وَنَفَّذَ الحُكْمَ بِأَمرِ البَارِي

قد اتضح مما سبق: أن غزوة الأحزاب كانت أَول بشائرِ الفتحِ وبدايةَ عهدٍ متميزٍ في تاريخ المسلمين حيث قال ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»(١٣٩).

ومن ثَمَّ بدأ ﷺ بالأسلوب العملي لنشر الإسلام وتأمين سبله داخل الجزيرة العربية وخارجها، وأبان للدنيا كلها أنه ﷺ يريد قدرًا من السلام وقسطًا من القوة، ليؤمِّن به الدعاة الذين يبلغون الناس دين الله على وجهه الصحيح؛ ويحميَهم من بغى المعتدين: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود].

وذلك واضح فى قبوله ﷺ لشروط صلح الحديبية التى اعتبرها بعض أصحابه شروطًا مجحفة؛ لكنهم أيقنوا بعد ذلك بحكمة العليم الخبير الذى قدر الأمور ودبرها أحسن تدبير، قال جل فى علاه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

كما تتضح الصورة أكثر جلاءً فى الكتب التى بعث بها ﷺ إلى الملوك والأمراء فى أقطار الأرض، وفى البعوث والغزوات التى بلغت تخوم الشام وأطرافه، مثل مؤتة وذات السلاسل وتبوك وفلسطين.

وفيما يلى عرض لبعض أحداث العام السادس وما بعده إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى فى

---

(١٣٩) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٤٠٥/٧ من حديث سليمان بن صرر، وله شاهد عند البزار من حديث جابر بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب – وقد جمعوا له جموعًا كثيرة –: «لا يغزوكم بعدها أبدًا، ولكن تغزوهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المغازي/ غزوة الخندق وقريظة ١٣٩/٦: رواه البزار ورجاله ثقات، لكن الحافظ ابن حجر حَسّنَ إسناده، ينظر فتح الباري ٤٠٥/٧.

شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة.

فبعد غزوة الخندق بنحو أربعة أشهر: قاد النبي ﷺ طائفة من أصحابه وغزا بهم بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع وقتلوا خُبيبًا وأصحابه، ووصل النبي ﷺ بأصحابه إلى عُسْفَان(١٤٠) التي تبعد عدة أميال عن مكة، ثم بعث أبا بكر الصديق على رأس جماعة من الصحابة إلى كُرَاع(١٤١) الغَميم وهي أيضًا تبعد عدة أميال عن مكة.

- وفى العودة من غزوة بنى المُصْطَلِق التى وقعت سنة ست من الهجرة نرى موقفًا حدث بين عبدِالله بن أُبَيِّ ابن سلول، رأس النفاق وزعيم المنافقين فى المدينة، وبين ابنه عبدِالله الصحابى البار، يرويها جابر بن عبدالله فيقول: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ- ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه- فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَالِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَالِلأَنْصَارِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ- أى: اتركوا هذه الكلمة فإنها قبيحة ومن أخلاق الجاهلية- فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ، فَقَالَ: أَوَقَدْ فَعَلُوهَا؟ وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ! لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَبْدِاللَّهِ: وَاللَّهِ لا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقِرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ،

---

(١٤٠) قال ياقوت: غزا النبي ﷺ بني لِحْيان بعُسْفان، وقد مضى لهجرته خمس سنين وشهران وأحد عشر يومًا، معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢.

(١٤١) (كُراع): بضم الكاف آخره مهملة، (الغَميم): بفتح المعجمة؛ موضع بناحية الحجاز، وادي أمام عسفان بثمانية أميال، المصدر السابق ٤/٤٤٣.

فَفَعَلَ. أخرجه الترمذى وصححه(١٤٢).

فعبدُالله بنُ عبدِالله بنِ أُبَيٍّ كان بَارًّا بأبيه هيابًا له، لكن مصلحة العقيدة هى المعتبرة عنده أولاً، فلما رأى أباه يؤذى رسول الله ﷺ والمسلمين معه: عرض على النبى ﷺ أن يقتلَه ويأتيَه برأسه قائلاً: يا رسول الله! وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ: لَئِنْ شِئْتَ لَآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَه». أخرجه ابن حبان والبزار من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١٤٣).

وقبل أن يستدير العام بعد غزوة الأحزاب: عقد النبي ﷺ مع زعماء قريش صلح الحديبية الذي كان أعظم فتح في سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل كان فتح مكة أحد ثمار ذلك الصلح ونتائجه، ودخل في الإسلام في أقل من عامين أضعاف أضعاف من دخلوا فيه من أول البعثة إلى ذلك الصلح.

صُلْحُ الحُدَيبِيَةَ فِيهِ البَرَكَةْ ❁❁ لِلمُسْلِمِينَ وَلِتِلْكَ الحَرَكَهْ
تَفَرَّغُوا مِنْ حَرْبِ هَؤُلَاءِ ❁❁ لِحَرْبِ غَيرِهِم مِنَ الأَعْدَاءِ
وَاسْتُؤمِنَتْ قُرَيشٌ فِي بِلَادِهَا ❁❁ وَوَضَعُوا الأَسْيَافَ فِي أَغْمَادِهَا
وَأَصْبَحَت طَيْبَةُ مُستَعِدَّهْ ❁❁ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ تِلْكَ المُدَّهْ

(١٤٢) الترمذى فى جامعه ٣٨٩/٥ ح٣٣١٥ وقال: حديث حسن صحيح، والحميدى فى مسنده ٥١٩/٢، ٥٢٠ ح١٢٣٩، ١٢٤٠.

(١٤٣) حديث حسن، أخرجه ابن وهب فى جامعه قال: وَأَخبرَنِي شَبِيبُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلٍّ...» الحديث. ١٨٢/١ ح١١٤، وشيخ ابن وهب هو: شبيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد التميمي، قال ابن عدي: «حَدَّث عنه ابن وهب بالمناكير... ثم قال: وأرجو أن لا يتعمد الكذب». الكامل في الضعفاء ١٣٤٦/٤، وشيخه محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى: صدوق حسن الحديث، وثقه بعضهم، وصحح له الترمذى.

ثم واصل النبي ﷺ تبليغ دعوة الإسلام إلى ملوك وأمراء الأرض في ذلك الزمان، فما ترك ملكًا ولا أميرًا، داخل الجزيرة وخارجها: إلا أرسل إليه الكتاب تلو الكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، ويحمله تبعة رعيته إذا أعرض وأبى.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ»(١٤٤) يعني عامة الناس الخاضعين له.

فمضت رسل النبي ﷺ تحمل الكتب إلى الأمراء المعينين من قبل الدولة التي يتبعونها، حيث كانت الفرس تحتل أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، فضلاً عن ملك الدولتين الكبيرتين الفرس والروم، والأقاليم التابعة لكل منهما، إذ كانت الرومان تسيطر في ذلك الوقت على أوروبا وأجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا، وكانت الفرس تسيطر على معظم قارة آسيا، إذًا فالمهمة كبيرة، والمسئولية ضخمة، ولكن من لها إلا محمد رسول الله ﷺ والذين معه.

- ولقد مضت الرسل في أمان تؤدي مهمتها، وتبين دين الله لكل من له عقل ولب دون أن يتعرض لهم أحد بأذى؛ لأنهم يحملون رسالة تقتضي ردًا وجوابًا، فكان هذا بمثابة عقد أمان لحاملها مدة مجيئه ورجوعه، حتى إنه يحرم قتله ولو نطق بكلمة الكفر، ففى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: «فَمَا تَقُولانِ أَنْتُمَا» قَالا: نَقُولُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»(١٤٥).

---

(١٤٤) ينظر صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وباب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ٣/١٣٩٣ : ١٣٩٧.

(١٤٥) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه الإمام أحمد ح٣٦٤٢، و٣٧٠٨، و٣٧٦١، و٣٨٣٧، و٣٨٥١، و٣٨٥٥ من طرق إلى عبدالله

وسنذكر بعدُ نموذجين أحدِهما لملك عربى معين من قبل الدولة الرومانية، والآخر لهرقل نفسه؛ وذلك فى معرض الحديث عن غزوتى مؤتة وتبوك.

هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم

ظلت مشروعية الهجرة إلى رسول الله ﷺ فى مدينته واجبةً على كل مسلم ومسلمةٍ، حتى فُتِحَت مكةُ فى رمضان من العام الثامن للهجرة، وفى تلك الفترة وقعت هجرات من كثيرين من الصحابة لها دلالاتها وفوائدها، نذكر منها نموذجًا واحدًا لصحابيٍ جليلٍ، كان قبل إسلامه حربًا على الإسلام وأهله، وكان أحد سفراء قريش إلى النجاشى لاسترداد المسلمين المهاجرين إلى مكة، لكن محاولاتهم تلك لم تُفلِحْ، ودونك بعضَ حديثِه عن نفسِه كما أخرجه أئمةُ الحديثِ والسِّيَرِ فى مصنفاتهم:

فقد روى ابن إسحاق بسند حسن، ومن طريقه الإمام أحمد فى المسند واللفظ له مِنْ حَديثِ حبيب بن أبى أوس الثقفى، قال: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ(١٤٦) عَنِ الْخَنْدَقِ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا يَرَوْنَ مَكَانِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَنَكُونَ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا،

بن مسعود، وفى ٣/٤٨٧، ٤٨٨ ح١٥٩٨٩ عن نعيم بن مسعود الأشجعى، واللفظ له، وينظر: سنن أبي داود ح٢٧٦١، ٢٧٦٢.

(١٤٦) أنقل فى هذا الهامش وما بعده بعض التتمات من رواية الواقدى: وهو مع ضعفه فى الحديث؛ إمام فى السير لايُستغنى عنه، وقد سبقت ترجمته الجزء الأول الهامش رقم:١٠١.

روى الواقدى: عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: قال عمرو بن العاص: كنتُ للإسلام مجانبًا معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوتُ، ثم حضرتُ أُحُدًا فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق فقلتُ فى نفسى: كم أُوضِع؟ والله ليظهرن محمد على قريش.

كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مَنْ قَدْ عُرِفُوا، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: فَاجْمَعُوا لَهُ مَا نُهْدِي لَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الْأَدَمُ، فَجَمَعْنَا لَهُ أُدْمًا كَثِيرًا، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ، فَوَاللهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ(١٤٧)، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيهِ، فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أُدْمًا كَثِيرًا، قَالَ: ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَنَا، فَأَعْطِنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوِ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَهُ، فَقَالَ: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيَكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَكَذَاكَ هُوَ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، أَطِعْنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَبَايِعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي(١٤٨).

---

(١٤٧) فى رواية الواقدى: وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه ليزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان.

(١٤٨) فى رواية الواقدى: .. وفارقتهم كأنى أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شُحِنت تُدفَع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشُّعيْبة – على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر قرب جدة –، وخرجت من الشُّعيبة

ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِأُسْلِمَ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدِ اسْتَقَامَ الْمَنْسِمُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٌّ، أَذْهَبُ وَاللهِ أُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ مَا جِئْتُ إِلَّا لِأُسْلِمَ، قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(١٤٩)، فَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ،فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ، ثُمَّ دَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، وَلَا أَذْكُرُ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا» قَالَ: فَبَايَعْتُهُ ثُمَّ انْصَرَفْتُ(١٥٠).

قال الواقدى: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ الحارث بن هشام، قال: سمعت

ومعى نفقه، فابتعت بعيرًا وخرجت أُريد المدينة حتى خرجت على مر الظهران – جنوب الجموم على الطريق من مكة إلى المدينة، ثم مضيتُ حتى كنت بالهَدَّة، إذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يُريدان منزلاً، وأحدهما داخل فى خيمة، والآخر قائم يُمسك الراحلتين، فنظرتُ فإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم، قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت محمدًا وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بى فنزلنا جميعًا فى المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة.

(١٤٩) فى رواية الواقدى: فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبى عِنَبة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعنينى وخالد بن الوليد، ثم ولى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه يُبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننتُ، وأنخنا بالحَرَّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودى بالعصر فانطلقنا جميعًا حتى طلعنا عليه صلوات الله عليه، وإن لِوَجْهِهِ تهللاً، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا.

(١٥٠) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦: ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد ٤/١٩٨، ١٩٩ ح١٧٧٧٧، ودلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٤٦: ٣٤٨، وفى رواية الواقدى: إِنَّ عَمْرًا، وخالدًا، وعثمانَ بن طلحة، قدموا المدينة لهلال صفر سنة ثمان. المغازى للواقدى: ٢/٧٤١: ٧٤٥ ط الثالثة عالم الكتب – بيروت ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، ومن طريق الواقدى أخرجها البيهقى فى دلائل النبوة ٤/٣٤٣: ٣٤٦، وانظر الخرائط أرقام: ٣٥، ٤١، ٥٤ فى كتاب: أطلس تاريخ الإسلام، وراجع ما سبق تحت عنوان: «بَيتُ أَبِى سَلَمَةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» إذ فيه أن عثمان بن أبى طلحة ، هو الذى صحب أم سلمة إلى المدينة.

أبى يُحدّثُ يَقُولُ: قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: لَمّا أَرَادَ اللهُ بِي مِنْ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي، وَقُلْت: قَدْ شَهِدْت هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلّهَا عَلَى مُحَمّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إلّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنّي مُوضَعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ وَأَنّ مُحَمّدًا سَيَظْهَرُ، فَلَمّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْحُدَيْبِيَةِ خَرَجْت فِي خَيْلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَلَقِيت رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ بعُسْفان، فقمت بإزاءه وَتَعَرّضْت لَهُ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ الظّهْرَ آمِنًا مِنّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغِيرَ عَلَيْهِ، ثُمّ لَمْ يَعْزِمْ لَنَا- وَكَانَتْ فِيهِ خِيرَةٌ- فَاطّلَعَ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْ الْهُمُومِ، فَصَلّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنّي مَوْقِعًا وَقُلْت: الرّجُلُ مَمْنُوعٌ! وَافْتَرَقْنَا وَعَدَلَ عَنْ سَنَنِ خَيْلِنَا وَأَخَذَ ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمّا صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْحُدَيْبِيَةِ وَدَافَعَتْهُ قُرَيْشٌ بِالرّوَاحِ قُلْت فِي نَفْسِي: أَيّ شَيْءٍ بَقِيَ؟ أَيْنَ الْمَذْهَبُ إلَى النّجَاشِيّ؟ فَقَدْ اتّبَعَ مُحَمّدًا، وَأَصْحَابُهُ آمِنُونَ عِنْدَهُ، فَأَخْرُجُ إلَى هِرَقْلَ؟ فَأَخْرُجُ مِنْ دِينِي إلَى نَصْرَانِيّةٍ أَوْ يَهُودِيّةٍ، فَأُقِيمُ مَعَ عَجَمٍ تَابِعًا، أَوْ أُقِيمُ فِي دَارِي فِيمَنْ بَقِيَ؟ فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَتَغَيّبْت فَلَمْ أشهد دخوله، وَكَانَ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ دَخَلَ مَعَ النّبِيّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيّةِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَكَتَبَ إلَيّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، أَمّا بَعْدُ: فَإِنّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِك عَنْ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلُك عَقْلُك! وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ جَهِلَهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْك فَقَالَ: «أَيْنَ خَالِدٌ؟» فَقُلْت: يَأْتِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ: «مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ! وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجَدَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ». فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا فَاتَك، فَقَدْ فَاتَتْك مَوَاطِنُ صَالِحَةٌ، قَالَ: فَلَمّا جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشِطْت لِلْخُرُوجِ، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَسَرّنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ خَالِدٌ: وَأَرَى فِي النّوْمِ كَأَنّي فِي بِلَادٍ ضَيّقَةٍ جَدِيبَةٍ، فَخَرَجْت إلَى بَلَدٍ أَخْضَرَ وَاسِعٍ، فَقُلْت إنّ هَذِهِ لَرُؤْيَا. فَلَمّا قَدِمْت الْمَدِينَةَ قُلْت: لَأَذْكُرَنّهَا لِأَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَذَكَرْتهَا فَقَالَ: هُوَ مَخْرَجُك الّذِي هَدَاك اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَالضّيقِ الّذِي كُنْت فِيهِ مِنْ الشّرْكِ. فَلَمّا أَجْمَعْت الْخُرُوجَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْت: مَنْ

أُصَاحِبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ؟ فَلَقِيتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ فَقُلْت: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَمَّا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ إِنَّمَا نَحْنُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ فَاتَّبَعْنَاهُ فَإِنَّ شَرَفَ مُحَمَّدٍ لَنَا شَرَفٌ، فَأَبَى أَشَدَّ الْإِبَاءِ وَقَالَ: لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا اتَّبَعْته أَبَدًا، فَافْتَرَقْنَا وَقُلْت: هَذَا رَجُلٌ مَوْتُورٌ يَطْلُبُ وِتْرًا، قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ بِبَدْرٍ، فَلَقِيت عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فَقُلْت لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْت لِصَفْوَانَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ صَفْوَانُ، قُلْت: فَاطْوِ مَا ذَكَرْتُ لَك، قَالَ: لَا أَذْكُرُهُ وَخَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي تُخْرَجُ إِلَيَّ، فَخَرَجْت بِهَا إِلَى أَنْ أَلْقَى عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَقُلْت: إِنَّ هَذَا لِي لَصَدِيقٌ وَلَوْ ذَكَرْت لَهُ مَا أُرِيدُ! ثُمَّ ذَكَرْت مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ فَكَرِهْت أُذَكِّرُهُ، ثُمَّ قُلْت: وَمَا عَلَيَّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي، فَذَكَرْت لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ فَقُلْت: إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ، لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ ذَنُوبٌ مِنْ مَاءٍ لَخَرَجَ، قَالَ: وَقُلْت لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْت لِصَاحِبَيْهِ، فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَقَالَ: لَقَدْ غَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُوَ، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفَخٍّ مُنَاخَةٌ، قَالَ: فَاتَّعَدْت أَنَا وَهُوَ بِيَأْجَجَ، إِنْ سَبَقَنِي أَقَامَ وَإِنْ سَبَقْته أَقَمْت عَلَيْهِ. قَالَ: فَأَدْلَجْنَا سَحَرًا فَلَمْ يَطْلُعْ الْفَجْرُ حَتَّى الْتَقَيْنَا بِيَأْجَجَ، فَغَدَوْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْهَدَّةِ، فَنَجِد عَمْرو بْنَ الْعَاصِ بِهَا فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ! فَقُلْنَا: وَبِك! قَالَ: أَيْنَ مَسِيرُكُمْ؟ قُلْنَا مَا أَخْرَجَك؟ قَالَ: فَمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمْ؟ قُلْنَا: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي، قَالَ: فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَأَنَخْنَا بِظَاهِرِ الْحَرَّةِ رِكَابَنَا، فَأَخْبَرَ بِنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسُرَّ بِنَا، فَلَبِسْت مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمِدْت إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَقِيَنِي أَخِي فَقَالَ: أَسْرِعْ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِك فَسُرَّ بِقُدُومِك وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ، فَأَسْرَعْت الْمَشْيَ فَطَلَعْت عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْت عَلَيْهِ، فَسَلَّمْت عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْت: إِنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاك! قَدْ كُنْت أَرَى لَك عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسَلِّمَك إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ»، قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْك مُعَانِدًا عَنْ الْحَقِّ، فَادْعُ اللهَ

أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الإسلامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ» قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اللهُمّ اغْفِرْ لِخَالِدٍ كُلّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدّ عَنْ سَبِيلِك» قَالَ خَالِدٌ: وَتَقَدّمَ عَمْرٌو، وَعُثْمَانُ، فَبَايَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ قُدُومُنَا فى صفر سنة ثمان، فوالله مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِ أَسْلَمْتُ يَعْدِلُ بِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ(١٥١).

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه واللفظ له من حديث عبدِالرحمنِ بنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ

---

(١٥١) المغازى للواقدى ٧٤٥/٢: ٧٤٩، وهو يتقوى بما قبله وبما بعده.

بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي(١٥٢).

وهكذا كان عمرو بن العاص داهية العرب رأيًا وعقلاً ولسانًا، ومع ذلك تأخر إسلامه أكثر من عشرين سنة من بعثة النبى ﷺ، ولما أسلم كان النبى ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، وولاه غزاة ذات السلاسل، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعبُ – أى: أدفع – لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(١٥٣).

ومن مناقب عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أيضًا – أن رسول الله ﷺ استعمله على عُمان، فمات ﷺ وعمْرو أميرُها، ثم كان من أُمراء الأجناد فى الجهاد بالشام فى زمن عمر، وهو الذى افتتح قنّسرين، وصالحَ أهل حلب ومنْبج وأنطاكية، وولاه عُمر فلسطين، وقد وَلِيَ مصر عشر سنين وثلاثة أشهر: أربعة من قِبَلِ عمر، وأربعة من قِبَلِ عثمان، وسنتين وثلاثة أشهر من قِبَلِ معاوية، ولما حضرته الوفاة قال لابنه عبدالله: ائتنى بجامعة – رباط من قماش – فَشُدَّ بها يَدَىَّ إلى عنقى، ففعل، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللّهم إنك أمرتنى فعصيتُ، ونهيتنى فتجاوزتُ، ولستُ عزيزًا

(١٥٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١١٢/١، ١١٣ ح١٢١، ومسند الإمام أحمد ٢٠٥/٤ ح١٧٨٢٧ مختصرًا.

(١٥٣) مسند الإمام أحمد ١٩٧/٤ ح١٧٧٦٣ واللفظ له، وفى ٢٠٢/٤، ٢٠٣ ح١٧٨٠٢ بنحوه، وقد أسهب الشيخ شعيب فى تخريجه، فليراجعه من أحب.

فأنتصر، ولا بريئًا فأعتذر، ولكنى أشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، ثم وضع إصبعه فى فمه كالمتفكر المتندم حتى مات سنة ٤٣ من الهجرة، عن عُمْرٍ يناهز التسعين عامًا، فرحمه الله وغفر له، وزاد فى إحسانه، وتجاوز عن سيئاته، فإنه من صحابة رسول الله ﷺ(١٥٤).

غَزْوَةُ مُؤتَة

وكذلك كان خالد بن الوليد؛ سيف الله الذى فتح الله للمسلمين على يديه ونصرهم، حيث بَعث النبى ﷺ فى شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة: كتابًا إلى أمير بصرى(١٥٥) بأرض الشام مع الحارث بن عمير الأزدي، فاعترضه فى طريق عودته شرحبيل بن عمرو الغساني بمؤتة من بلاد الأردن، وسأله: أأنت من رسل محمد؟ قال نعم، فأوثق رباطه وقتله صبرًا(١٥٦) متناسيًا تلك المُسَلَّمة البدهية التي لا نقاش فيها: وهى أن الرسل لا تقتل، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فترامت تلك الأخبار إلى النبى ﷺ والمسلمين بالمدينة، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس، فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف(١٥٧) ولم يبين الأمر، فلما صلى الظهر جلس فى أصحابه وقال ﷺ: «زيدُ بنُ حارثةَ أميرُ الناسِ، فإنْ قُتِلَ زَيْدٌ: فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ: فَعَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فإن أصيب عبدالله بن رواحة فَلْيرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم» وعقد لواءًا أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فودع الناس الأمراء، وخرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف، وجعل المسلمون ينادون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى

---

(١٥٤) ينظر: الإصابة ٥٣٧/٤: ٥٤١، وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لأستاذنا الدكتور: موسى شاهين لاشين رحمه الله ١٠٧/٢: ١١٠.

(١٥٥) (بُصرَى): مدينة بها كثير من الآثار الرومانية والإسلامية جنوب شرق دمشق، بينهما نحو ١٤٠كم.

(١٥٦) أي حبسًا من غير طعام ولا شراب حتى مات، القاموس المحيط ٦٨/٢.

(١٥٧) (الجُرْف): مكان واسع يجتمع فيه الجيش، ويقع فى شمال المدينة دون جبل أحد. أطلس تاريخ الإسلام ص٦٦.

ثنية الوداع شمال غرب المدينة... وأمرهم أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير(١٥٨).

فمضى الجيش إلى مؤته؛ لزلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان، وإعادة هيبة الدولة الفتية أمام تلك الأمبراطورية، وكان عدد الجيش كبيرًا بالنسبة للمسلمين؛ لكنه لقي من الروم نحو مائة ألف، ومثلهم من العرب الموالين لهم، فكان الارتداد المأمون أفضل من النصر.

وهؤلاء القادة الثلاثة: كلهم فى سن الشباب، وقد أخبرهم رسول الله ﷺ بمصرعهم دون أن يَفُت ذلك فى عضدهم وحماسهم لنيل الشهادة، وانطلق الجيش تحت إمرة زيد بن حارثة الذى استشهد فى هذه الغزوة مقبلاً غير مدبرٍ، وهو ابنُ بضعٍ وثلاثين سنة(١٥٩).

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام؛ إلا أن أخباره سبقته إلى الروم، ولابد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقاتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف، فلما وصل المسلمون إلى معان– مدينة فى جنوب الأردن– عرفوا أن فى انتظارهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب.

والهجوم على جيشٍ تلك عُدته مجازفة مُخيفةٌ، فأقام المسلمون ليلتين بمعان يتدبرون أمرهم، وقال نفر منهم: نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالرجوع إليه، ولم يرق ذلك لعبدالله بن رواحة فشجع الناس قائلاً: يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون– الشهادة!– وما نقاتل الناس بِعُدَدٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم

(١٥٨) ينظر فى ذلك؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٧/ ٥١٠ ح٤٢٦١، وإمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٣٤٤: ٣٤٧.

(١٥٩) راجع : ما تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي».

إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلِقوا، والله! لقد رأيُتنا يوم بدر ما معنا إلا فَرَسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد! فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلفٌ؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان، فشجع الناس وزحفوا شمالاً إلى مؤتة، فالتقوا بعدوهم ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح، قال أبو هريرة: وقد شهدت ذلك فبرق بصرى، فقال لى ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة! مالك؟ كأنك ترى جموعًا كثيرة؟ قلت: نعم! قال: لم تشهدنا ببدر، إنا لم ننصر بالكثرة.

وقاتل الأمراءُ يومئذ على أرجلهم: واللواء بيد قائدهم زيد بن حارثة، فقاتل، وقاتل الناس معه؛ حتى قُتِل طعنًا بالرماح فكان أول شهيدٍ.

ثم أخذ اللواء القائد الثانى؛ جعفر بن أبى طالب الهاشمى؛ ذو الجناحين، وصاحب الهجرتين، الذى أسلم النجاشىُّ ومن تبعه على يديه، فنزل عن فرسه فقطع عرقوبها فكانت أول فرس عقرت فى الإسلام، وهذا مشروع عند اشتداد الحرب؛ كى لا تكون عائقًا له، وحتى لا يظفر بها العدو فيستعينَ بها على المسلمين.

ثم أقبل على الروم يجالدهم بعنف، وهو يُنشد:

يَا حَبـذَّا الجَنَّـة واقـتِرَابُـهَا! ❁❁❁ طَيِّبَـةً، بَـاردًا شَـرابُـهَـا!

وَالـرُّومُ رومٌ قَد دَّنَا عـذَابُهَا ❁❁❁ كَـافِرة بَعيدةً أَنسَـابُـهَـا!

عَلَيَّ إِنْ لاَقَـيتُـهَـا ضِـرَابُـهَا

وظل يقاتلهم حتى قُتِل وبه أكثر من تسعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فيما بين منكبيه مِن قِبَل يديه، كان قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد وهو ابن بضع وثلاثين سنة؛ فهو يطير فى الجنة بجناحيه.

يقول عبدالله بن عمر؛ وهو أحد فرسان تلك المعركة، وكان شاهد عيان: الْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي القَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، ليس شيء

منها فى دبره، يعنى فى ظهره، وكان إذا سلم على أحد أبناء جعفر يقول له: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين(١٦٠).

ثم تلقف اللواء القائد الثالث عبدالله بن رواحة؛ الخزرجى الأنصارى، الذى كان أحد النقباء فى بيعة العقبة، فجاءه ابن عم له بقطعة لحم قائلاً: شد بها صلبك؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فما كاد يقطع منها مضغة؛ حتى سمع الحطمة فى ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب، فقال لنفسه: وأنت فى الدنيا؟! ورمى بالطعام، ثم انتضى سيفه وهو يقول:

يَا نفسُ إنْ لم تُقتَلِى تَموتِى! ❁❁❁ هَذا حِمَامُ الموتِ قد صُلِيتِ!
ومَا تَمنيتِ فقد أُعطِيتِ! ❁❁❁ إنْ تَفعلِى فِعلَهُمَا هُدِيتِ!

وتقدَّمَ فقاتل حتى قُتل.

ثم أخذ اللواء الذى تداولته أيدى الأمراء الثلاثة: ثابت بن أقرم، وصاح: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فلما نظر إلى خالد بن الوليد؛ قال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: أنت أحق به، أنت رجل لك سِنٌّ؛ وقد شهدتَّ بدرًا، قال ثابت: خذه أيها الرجل، والله! ما أخذته إلا لك، وذلك الموقف من ثابت بن أقرم ليس تخوفًا من الموت ولا نكوصًا على الأعقاب، وإنما هو شعور منه بوجود الأكفأ فى القيادة، فهو قد حمل الراية؛ حتى لا تسقط.

فأخذ خالد بن الوليد اللواء، وشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا الموقف المتضايق؛ فإن الانسحاب بأقل الخسائر هو الأفضل فى تلك المعركة غير المتكافئة، ومما يدل على بسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى تلك الغزوة؛ قوله المدون فى الصحيح: لَقَدْ دُقَّ – أي كُسِر – فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِي يَدِي صَفِيحَةٌ لِي يَمَانِيَةٌ(١٦١).

(١٦٠) صحيح البخارى ٧/ ٧٥، ٥١٠، ٥١٥ ح٣٧٠٩، ٤٢٦٠، ٤٢٦١، ٤٢٦٤.

(١٦١) صحيح البخارى ٧/ ٥١٥ ح٤٢٦٥، ٤٢٦٦.

وكان استشهاد عبدالله بن رواحة فى آخر النهار، ثم دخل الليل وخالد أمير الجيش يبلى بهم أحسن البلاء وينكل بالعدو أشد التنكيل؛ حتى حجز الظلام بين المتحاربين، فكانت هدنةً مؤقتة، فلما أسفر الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة، فجعل المقدمة ساقه، والميمنة ميسرة.

وجعل هدفه مناوشة الرومان، بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت خطته فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه، وإنقاذ سمعة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدولة الكبرى.

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم انكشفت، وولت مهزومة.

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود- واللفظ له- من حديث عوف بن مالك الأشجعى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، فَرَافَقَنِى مَدَدِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ، فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَزُورًا، فَسَأَلَهُ الْمَدَدِيُّ طَائِفَةً مِنْ جِلْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرَ عَلَيْهِ سَرْجٌ مُذْهَبٌ وَسِلاَحٌ مُذْهَبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِىُّ يُغْرِى بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمَدَدِيُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِىُّ فَعَرْقَبَ فَرَسَهُ فَخَرَّ وَعَلاَهُ فَقَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلاَحَهُ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَخَذَ مِنَ السَّلَبِ، قَالَ عَوْفٌ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلَبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّى اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ لأُعَرِّفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، قَالَ عَوْفٌ: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَدَدِيِّ وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!

اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ». الحديث بطوله[١٦٢].

وفيه: أن المسلمين غنموا من الروم، وألحقوا بهم خسائر فادحة، فعلى أى شيء تكسرت الأسياف التسعة فى يد خالد؟! ثم ماذا صنع بالصفيحة اليمانية التى بقيت فى يده؟! ثم ماذا فعل أبو قتادة وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما من فرسان رسول الله ﷺ.

نعم: كانت هناك طائفة لاذت بالفرار لما رأت جموع الروم المحتشدة ولا حرج عليها فى ذلك؛ لأن الواحد منهم يقابله عشرات الأضعاف من الأعداد، يقول عبدالله بن عمر: لقينا العدو، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، واكتفى خالد بهذا النصر، وآثر الانحياز إلى النبى ﷺ الذى هو فئة كل مسلم، ورجع بالجيش إلى المدينة؛ فلم يكونوا فُرَّارًا، وإنما كانوا هم الكُرَّار[١٦٣].

وفى هذه الغزوة: آيةٌ باهرة، وعلم من أعلام النبوة الظاهرة، ومعجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر الناسَ بوقائعها ساعة حدوثها؛ وهو على المنبر يخطب، فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ» قال أنس: وَعَيْنَاهُ ﷺ تَذْرِفَانِ، ثم قال ﷺ: «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»[١٦٤].

كما أن عدد الشهداء فيها كان اثنى عشر رجلاً على أكثر تقدير؛ أربعة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار.

---

(١٦٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير/ باب استحقاق القاتل سَلَب القتيل ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية رقم ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٦/٢٧، ٢٨، وسنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب فى الإمام يمنع القاتل السلب ٣/١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩.

(١٦٣) راجع فى تفاصيل تلك الغزوة وما حصل فيها من غنائم: سنن أبى داود ٣/٦٢، ٧٣ ح٢٥٧٣، و٣/١٠٦، ١٠٧ ح٢٦٤٧، و٣/١٦٣: ١٦٥ ح٢٧١٩، وأصله فى مسلم ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح١٧٥٣ الرواية ٤٣، ٤٤، ومسند الإمام أحمد ٢/١٠٠ ح٥٧٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٣: ٣٨٩، والسيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٥٥: ٤٩١، وإمتاع الأسماع للمقريزى١/٣٤٤: ٣٥٢، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٠٩: ٤١٤.

(١٦٤) صحيح البخارى ٣/١٦٦ ح١٢٤٦، و٦/١٦ ح٢٧٩٨، و٦/١٨٠ ح٣٠٦٣، و٧/١٠١ ح٣٧٥٧، و٧/٥١٢ ح٤٢٦٢.

قال ابن كثير: وهذا عظيم جدًا؛ أن يتقابل جيشان متعاديان فى الدين، أحدهما: هو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل.. يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله: لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتِلَ من المشركين خلق كثير(١٦٥).

فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ الهِجْرِيَّة ❁❁ بُورِكَتِ الغَزْوَةُ وَالسَّرِيَّة
وَكَمْ أَتَى فِيهَا مِنَ الفَتْحِ المُبِينْ ❁❁ وَالانْتِصَارِ لِجُيُوشِ المُسْلِمِينْ
إِلَّا الذِي أَصَابَ أَهْلَ اللهِ ❁❁ زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَعَبدَاللهِ
فِيمَا جَرَى عَلَى حُدُودِ الشَّامِ ❁❁ يَومَ لِقَاءِ العُرْبِ وَالأَرْوَامِ
وَإِنَّ خَالِدًا لَسَيْفُ اللهِ ❁❁ سَمَّاهُ إذ ذَّاكَ رَسُولُ اللهِ
وَأَحْسَنَ التَّدبِيرَ فِي الكِفَاحِ ❁❁ كَبْشُ بَنِي مَخْزُومٍ لِلنِّطَاحِ

غزوةُ ذاتِ السَّلاسِل

وقعت هذه الغزوة فى جمادى الآخرة سنة ثمان فى قول الجمهور، وكان أميرهم فيها عمرو بن العاص، وأَمَره رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى مشارف الشام؛ حيث بلاد أخوال أبيه: العاص بن وائل السهمى؛ من بلى ومن يليهم من قضاعة ليتألفهم ويدعوهم إلى الإسلام، فلما وصل إلى ماء يقال له السلاسل؛ خاف غدر تلك القبائل الضارية، فبعث إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد، فبعث إليه بطائفة من المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر تحت قيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح، وعهد إليه: إذا لقيت صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، فلما قدموا على عمروٍ، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك؛ وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فلما رأى ذلك أبو عبيدة؛ وكان رجلاً حسن الخلق، لين الشيمة، قال:

(١٦٥) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤٨٩.

إن عصيتنى لأطيعنك، فسلم إليه الإمارة، وصلى عمرو بالناس.

وليس معنى ذلك أن عَمْرًا أفضل من أبى بكر وعُمَر وأبى عبيدة وغيرهم من السابقين الأولين إلى الإسلام والهجرة؛ بل لأنه أيقظ عينًا، وأبصر بالحرب، ولقد غضب عمر حين أمرهم عمرو بن العاص ألا ينوروا نارًا بالليل، فأخبره أبو بكر: أن رسول الله ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، ثم سار عمرو بالجيش؛ وقد بلغوا خمسمائة رجل، يواصلون الليل بالنهار فى السير، فكلما انتهى عمرو إلى موضع؛ قيل له: كان هنا جمعٌ فلما سمعوا بك تفرقوا، ولقى فى آخر ذلك على مشارف الشام جمعًا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، ثم حمل المسلمون عليهم فهربوا وتفرقوا فى البلاد، ودوخ عَمْرُو مَن هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون، وقد انزاح بهذا غبارٌ كثيرٌ عن سمعة المسلمين فى تلك البلاد(١٦٦)، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

وفى طريق عودته وقعت حادثة لعمرو بن العاص تدل على حُسن فَهمه وجميل اجتهاده وعظيم فقهه... فى مقاصد الشريعة وتأويل نصوصها، وأقره النبى ﷺ على ذلك، فأخرج أبو داود وغيره بسند صحيح إلى عمرو بن العاص قال: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنِ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ: فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الِاغْتِسَالِ، وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا(١٦٧).

---

(١٦٦) تُراجع روايات تلك الغزوة عند الإمام البيهقى فى دلائل النبوة ٣٩٧/٤: ٤٠١.

(١٦٧) سنن أبى داود: كتاب الطهارة/ باب إذا خاف الجنب البرد: أيتيمم؟ ٢٣٨/١ ح٣٣٤، ومن طريقه البيهقى فى

الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ

وهكذا شُغل المسلمون بعد صلح الحديبية بنشر الدعوة وعَرضِ تعاليم الإسلام على كل ذى عقل، وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره فى العالم كله، وكان أول ذلك التغيير الجذرى هو: أَنْ فَتَحَ الله على المسلمين مكةَ التى كانت من قَبْلُ قلعة الشرك وحصن المشركين، وكان ذلك الفتح العظيم فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

والسبب المباشر لذاك الفتح؛ يتضح فيما أخرجه البيهقي بسندٍ صحيح إلى ابن إسحاق قال: حَدَّثَنا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ جَمِيعًا، قَالَا: كَانَ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ: أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاثَبُوا خُزَاعَةُ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةَ أَوِ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَهْدِهِ لَيْلًا بِمَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ «الْوَتِيرُ»(١٦٨) قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، فَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ لِلضِّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ

دلائل النبوة ٤/ ٤٠٢، ٤٠٣.

(١٦٨) (الوتير) في كلام العرب: الورد الأبيض، ويطلق على ماء لخزاعة.

سَالِمٍ رَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.. يُخْبِرُهُ الخَبَرَ.. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ» فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عَنَانَةٌ(١٦٩) فِي السَّمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ» وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ... وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ الْعَقْدَ وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ»... ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ! مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ؟ أَوْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي (شَيْءٌ) أو (شَرٌّ)، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ، فلم يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ عُمَرُ: أَأَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ لَكُمْ إِلَّا الذَّرَّ -صِغار النمل- لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَمَسُّ الْقَوْمِ بِي رَحِمًا، وَأَقْرَبُهُمْ مِنِّي قَرَابَةً، وَقَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أَرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! وَاللهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ... الخبر بطوله(١٧٠).

وهكذا أنجز الله للمسلمين ما وعدهم ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ وفتح لهم: ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ [الفتح].

---

(١٦٩) جمعها: عنان، وهو السحاب.

(١٧٠) دلائل النبوة للبيهقي٥/٥:٨،وسيرة ابن هشام٢/٣٨٩:٣٩٧، وعيون الأثر٦/٥١٤بسند حسن فيه ابن إسحاق.

وَافتُتِحَتْ مَكَّةُ شَهْرَ رَمَضَان ❁❁ وَهُوَ الذِي فِيهِ نُزُولُ القُرَآن
وَقَد أَمَدَّتْ بَكْرَ بِالسِّلَاحِ ❁❁ وَبِالرِّجَالِ سَادَةُ البِطَاحِ
فَبَيَّتُوا خُزَاعَةَ وَقَتَلُوا ❁❁ مِنْهُم رِجَالاً بِالوَتِيرِ نَزَلُوا
وَجَاءَ وَفْدٌ فِيهِمُ المِقْدَامُ ❁❁ عَمرُو بنُ سَالِمٍ وَمَا اسْتَسَامُوا
حَتَّى أَتَى بِقِصَّةِ الخِيَانَهْ ❁❁ وَطَلَبَ النَّجْدَةَ وَالإِعَانَهْ
يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ❁❁ حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الأَتْلَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوعِدَا ❁❁ وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤَكَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا ❁❁ وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدًا
وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا أَبِي الزَّهْرَاءِ ❁❁ بِالدَّمعِ وَاستَعَدَّ لِلأَعدَاءِ
وَأَدْرَكَتْ مَكَّةُ مَا فِي الأَمْرِ ❁❁ فَأَرْسَلَتْ بِالعَبْقَرِي صَخْرِ
يُؤَكِّدُ العَهْدَ وَعِنْدَ رَمْلَه ❁❁ كَانَ نُزُولُه وَحَطَّ رَحْلَه
وَلَمْ يَجِد فِي طَيْبَةَ مَا يَهْوَى ❁❁ فَعَادَ رَاجِعًا بِغَيرِ جَدْوَى
وَقِيلَ مَن كَانَ يُعِزُّ دِينَهْ ❁❁ فَلْيَشْهَدِ الصِّيَامَ بِالمَدِينَهْ
وَاتَّخَذَ النَّبِيُّ أُهْبَةَ السَّفَرْ ❁❁ وَلَمْ يُبَيِّنْ لِلجَمَاهِيرِ الخَبَرْ
وَحَاطِبٌ مِنْ عُظَمَاءِ الصَّحْبِ ❁❁ قَدْ كَادَ يُفْشِي سِرَّ هَذا الحَرْبِ
وَأَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى ❁❁ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى(١٧١)

(١٧١) المجرور بحرف إلى: محذوف للعِلْم به، وهو (أهل مكة)، وقد ذكر السهيلى أن الْكِتَاب كان فيه: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَه» الروض الأنف ٨٦/٧، وحاطب بن أبي بلتعة صحابى شهد بدراً والحديبية، قال لرسول الله ﷺ: لا تعجل علي يا رسول الله، والله ما خنت الله ورسوله أبداً؛ ولكنه ما من أحد من أصحابك إلا وله في مكة من يحفظ أهله وماله بها، وليس لي أحد: فأردت أن أتخذ عندهم يداً يحفظ بها أهلي ومالي، وأنا أعلم أن ذلك لا يغني عنهم من شيء، فصدَّقه رسول الله

وَسَارَفِي جَيْشٍ مِنَ الأَمْجَادِ ❁❁ وَمِنْ حُمَاةِ الحَضَرِوَالبَوَادِي
فَمِنْ غِفَارِيٍّ وَمِن مُزَيْنَهْ ❁❁ وَالأَسْلَمِيينَ وَمِنْ جُهَيْنَه
عَشْرَةُ آلافٍ وَكُلُّ وَاحِد ❁❁ فِي عَزْمِ جُنْدِيٍّ وَرَاءَ القَائِد
مُسْتَخْلِفًا وَرَاءَهُ الضَّرِيرَا ❁❁ صَيَّرَهُ مِن بَعْدِهِ أَمِيرَا

غَزوَةُ تَبُوك والكِتَابُ الثَّانِى إِلَى هِرَقل

فلما أمَّنَ النبى ﷺ المدينة المنورة عاصمة الدولة المسلمة من الجنوب بفتح مكة والطائف فى العام الثامن الهجرى؛ استقبل ﷺ فى العام التاسع وفود القبائل المسلمة من كافة أقطار الجزيرة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، ثم أراد ﷺ أن يُؤمِّن الدولة المسلمة من جهة الرومان فى الشمال؛ لأنهم أهل كتاب فالخطر من جهتهم أعظم، واختلاطهم بالعرب أكثر.. فاعتزم ﷺ أن يرسى العلائق بينه وبينهم على دعائم مكينة؛ حتى يكون الدعاة إلى دين الله أحرارًا فى عرضهم دين الله على الناس: إن راقهم قبلوه ودخلوا فيه؛ وإن ساءهم تركوه وانصرفوا عنه، أمَّا أن يحاربوا الدعاة ويصدوا الناس عن سبيل الله: فهذا يرفضه الإسلام ويقاومه بالقوة.

أشارت سورة التوبة إلى غزوة حنين فى ثلاث آيات من ٢٥: ٢٧، ثم فصَّلتْ أحوال الناس فى غزوة تبوك ضمن آيات كثيرة فى السورة نفسِها، بدأً من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى فى

ﷺ، وقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق الذي خان الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عمر إنه من أهل بدر، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ونزل في ذلك الآيتين الأوليين من سورة الممتحنة.

السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

فاستحثَّ الناسَ رسولُ الله ﷺ إلى غزو الروم فى تبوك، على أطراف الشام مع جزيرة العرب بجيشٍ سُمِّى جيش العسرة، وكان ذلك فى شهر رجب من العام التاسع للهجرة.

وكان من عادته ﷺ في الحرب أنه لا يريد غزوة إلا ورى غيرها(١٧٢)، لكنه ﷺ أعلم أصحابه بالجهة التي يقصدها وذلك لبعد الشقة وعظم المشقة، حيث كان ذلك فى فصل الصيف سنة٦٣٠م؛ عند اشتداد الحر وطيب الظلال وجنى الثمار فى المدينة، أما فى الصحراء فإنها على العكس من ذلك؟، حيث يكابد الناس فيها شدة القيظ والقحط، قال عمر بن الخطاب: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ؛ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَنْحَرُ بَعِيرَهُ: فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ ﷺ يَدَيهُ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ فَأَظْلَمَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَازَتِ الْعَسْكَرَ(١٧٣).

---

(١٧٢) أي إذا أراد السفر إلي جهة سأل عن مكان بجهة أخرى، فيظن الناس أن تجهزه للسفر يريد به ما سأل عنه، أما أن يصرح بجهة معينة ويريد غيرها فلا، وذلك مشروع في الحرب ليتحقق الهدف ويتم النصر بأقل خسائر، وفي صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب إذا أراد غزوة ورى بغيرها ٦/ ١١٢، ١١٣، من حديث طويل لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عز وجل عليهم – قال «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلا وَرَّى بِغَيْرِهَا».

(١٧٣) إسناده حسن، وصححه ابن خزيمة، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، قال الهيثمى: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات. مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤، ١٩٥، وينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٤/ ١٦.

ثم إن الصدام مع الروم ليس قتالاً لقبيلة محدودة العَدَدِ والعُدَدِ؛ بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على عدة قارات من العالم، وتملك موارد كثيرة من الأموال، وتقهر شعوبًا عديدة تحتل بلادها وتستنزف مواردها... فليتحامل المسلمون على أنفسهم، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض عليهم من تضحيات فى سبيل إعلام الناس بهذا الدين(١٧٤).

لقد كانت هذه الغزوة درسًا عمليًا للمسلمين في نشر دين الله في العالمين لأنه ينبغي مقاتلة من يصد عن سبيل الله أو يحول دون تبليغ دينه للمكلفين ويبدو أن الرومان قد أحسوا بخطر المواجهة فلم يخرج منهم أحد إلى تبوك(١٧٥)، فلم يلق النبي ﷺ، ولا أصحابه بها كيدًا ولا حربًا، فلم يخرج أحد من الرومان، وصالح النبى ﷺ نصارى العرب الضاربين فى هذه الأرجاء؛ لأنهم أيقنوا أن اعتمادهم على سادتهم الأقدمين لا فائدة منه، فدخل فى عهده ﷺ أصحاب أيلة وتيماء ودومة الجندل وغيرهم، وكانت الرسالة الثانية التى بعث بها رسول الله ﷺ وهو في تبوك إلى هرقل تأكيدًا لنشره ﷺ دين الله في العالمين.

أخرج الإمام أحمد(١٧٦) بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد قال: لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ(١٧٧) رَسُولَ

---

(١٧٤) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤: ٥٠، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص٤٤٧: ٤٥٤.

(١٧٥) موضع شمال المملكة العربية السعودية بالقرب من حدود مصر والأردن، وكانت هذه الغزوة في رجب سنة ٩ هجرية، ورجع منها رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة نفسها. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٨/١/٢: ١٢١، الأطلس العربي ص ٣٥.

(١٧٦) المسند ٤٤١/٣، ٤٤٢ ح١٥٦٥٥، وفى ٧٤/٤، ٧٥ ح١٦٦٩٤ من رواية: عبدالله ابن الإمام أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ حَوْثَرَةُ بْنُ أَشْرَسَ، إِمْلَاءً عَلَيَّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ.. بمعناه مختصرًا، ومسند أبى يعلى ح١٥٩٧ بالإسناد نفسه... بمعناه مطولاً، وقال الهيثمي: رواه عبدالله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبدالله بن أحمد كذلك. مجمع الزوائد ٢٣٤/٨: ٢٣٦. وفات الهيثمى نسبته إلى الإمام أحمد، وهو الموضع الذى هنا، وضعف إسناده بعضهم، لأن فيه: سعيد بن أبى راشد لم يوثقه سوى ابن حبان؛ لكنه

هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمْصَ- وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا- فَقُلْتُ: أَلا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبُوكَ، فَبَعَثَ دِحْيَةَ (١٧٨) الْكَلْبِيَّ إِلَى هِرَقْلَ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا قِسِّيسِي وَبَطَارِقَتَهَا ثُمَّ أَغْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَابًا فَقَالَ: قَدْ نَزَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَيْثُ رَأَيْتُمْ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَدْعُونِي إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ: يَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ، أَوْ عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا- وَالأَرْضُ أَرْضُنَا- أَوْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ الْحَرْبَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ فِيمَا تَقْرَءُونَ مِنَ الْكُتُبِ: لَيَأْخُذَنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ، فَهَلُمَّ نَتَّبِعْهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ نُعْطِيهِ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا، فَنَخَرُوا نَخْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا: تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَدَعَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ نَكُونَ عَبِيدًا لأَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنَ الْحِجَازِ، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ أَفْسَدُوا عَلَيْهِ الرُّومَ رَفَأَهُمْ(١٧٩) وَلَمْ يَكَدْ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لَكُمْ لأَعْلَمَ صَلابَتَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، ثُمَّ دَعَا رَجُلاً مِنْ عَرَبِ تُجِيبَ(١٨٠) كَانَ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: ادْعُ لِي رَجُلاً حَافِظًا لِلْحَدِيثِ عَرَبِيَّ اللِّسَانِ، أَبْعَثْهُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِجَوَابِ كِتَابِهِ، فَجَاءَ بِي، فَدَفَعَ

تابعي لم يجرحه أحد قبل ابن حبان ولا بعده، وما اعترض على توثيق ابن حبان له أحد من الأئمة، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به، وعزاه إلى الإمام أحمد. البداية والنهاية ٥/ ١٥، ١٦.

(١٧٧) نسبة إلي تنوخ، ومعناها الإقامة، وأصلها: عدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا علي التناصر فأقاموا هناك فسموا تنوخا. اللباب ١/ ٢٢٥.

(١٧٨) بمهملتين الأولي مكسورة وقد تفتح، والثانية ساكنة بعدها مثناة تحتانية، ابن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي مشهور أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان جبريل ينزل علي صورته، لأنه كان حسن الصورة، حتى كان يضرب به المثل في ذلك، وهو الذي حمل الرسالة الأولى من رسول الله ﷺ إلى هرقل في أول سنة ٧ أو آخر سنة ٦ من الهجرة. الإصابة ٣/ ١٩٢، ١٩١.

(١٧٩) أي سكَّنهم وهدَّأهم وأبدى لهم موافقته مداراة وتوددًا. لسان العرب ٣/ ١٦٨٥، ١٦٨٦.

(١٨٠) بضم المثناة الفوقانية بعدها جيم فمثناة تحتانية فموحدة: إحدى قبائل العرب. اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٠٧.

إِلَيَّ هِرَقْلُ كِتَابًا فَقَالَ: اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَمَا ضَيَّعْتَ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلاثَ خِصَالٍ، انْظُرْ: هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، وَانْظُرْ: إِذَا قَرَأَ كِتَابِي، فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ، وَانْظُرْ فِي ظَهْرِهِ، هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيبُكَ؟ فَانْطَلَقْتُ بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ مُحْتَبِيًا(١٨١) عَلَى الْمَاءِ فَقُلْتُ: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ؟ قِيلَ هَا هُوَ ذَا، فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي، فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ»؟ فَقُلْتُ: أَنَا أَحَدُ تَنُوخَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ فِي الإِسْلامِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ»؟ قُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ، لا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]، يَا أَخَا تَنُوخَ، إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْرَى فَمَزَّقَهُ، وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزِّقٌ مُلْكَهُ، وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا، وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ وَمُخْرِقٌ مُلْكَهُ(١٨٢) وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْسًا مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ﴾ قُلْتُ: هَذِهِ إِحْدَى الثَّلاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي، وَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي، ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلاً عَنْ يَسَارِهِ، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمْ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ؟ قَالُوا: مُعَاوِيَةُ، فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ»؟ قَالَ: فَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهُ فِي جِلْدِ سَيْفِي، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي، قَالَ: «إِنَّ لَكَ

---

(١٨١) أي جالسًا ضامًا رجليه إلى بطنه بيديه. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٣٣٥، ٣٣٦.

(١٨٢) هذا مَلِك آخر وَلِيَ الحبشة، وكان نصرانيًا بعد وفاة النجاشي الذي كان قبله، لأن النجاشي الذي أسلم قديمًا وهاجر إليه المسلمون توفي في رجب سنة تسع من الهجرة، وقيل: توفي قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي ﷺ وأصحابه صلاة الجنازة وهم بالمدينة، ومعني خرق: قطَّع وشقَّ ومزَّق، والله أعلم. ينظر: الإصابة ١/١٧٧، فتح الباري ٣/١١٦: ١١٨، ١٨٨، النهاية ٢/٢٦.

حَقًّا وَإِنَّكَ رَسُولٌ، فَلَوْ وُجِدَتْ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ جَوَّزْنَاكَ بِهَا، إِنَّا سُفْرٌ مُرْمِلُونَ»(١٨٣).

قَالَ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ، قَالَ: أَنَا أُجَوِّزُهُ، فَفَتَحَ رَحْلَهُ، فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ(١٨٤)، فَوَضَعَهَا فِي حَجْرِي، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ؟ قِيلَ لِي: عُثْمَانُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ يُنْزِلُ هَذَا الرَّجُلَ» فَقَالَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَقَامَ الأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ» فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِمًا فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَلَّ حَبْوَتَهُ(١٨٥) عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ: هَاهُنَا امْضِ(١٨٦) لِمَا أُمِرْتَ لَهُ، فَجُلْتُ فِي ظَهْرِهِ، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ(١٨٧) الْكَتِفِ مِثْلِ الْحَجْمَةِ(١٨٨) الضَّخْمَةِ.

وهذه معجزة ظاهرة وآية بينة، وعلامة من علامات النبوة الواضحة، حيث كان التنوخي قد شغل بالجائزة وكرم الضيافة عن الأمر الثالث الذي كان هرقل قد كلفه به، فنبهه إليه رسول الله ﷺ، ومع هذا فلم يؤمن التنوخي إلا بعد وفاة النبي ﷺ بزمن طويل، ومن ثم لم يذكره أحد فى الصحابة، واتفقوا على أنه تابعي، لكن حديثه متصل لقبولهم رواية المسلم البالغ لما تحمله قبلهما في حال الكفر والصِّبَى(١٨٩)، والله أعلم.

ونلحظ كيف تغير أسلوب الرسالة الثانية من رسول الله ﷺ إلى هرقل، إذ في الرسالة الأولى كان يعرض عليه الإسلام ويدعوه إلى الدخول فيه، أما في هذه الرسالة فقد تجهز إليه

---

(١٨٣) أي: إنا مسافرون قد نفد زادنا أو كاد ينفد. القاموس ٢/ ٥٠، ٣٩٨/٣.

(١٨٤) يعني ثوبًا مصبوغًا بنبات طيب الرائحة كالزعفران وغيره. ينظر: القاموس ٧٣/٢.

(١٨٥) أي: ثوبه الذى يلبسه. النهاية ٣٣٥/١.

(١٨٦) أي: دقِّق النظر لترى ما جئت من أجله (خاتم النبوة). لسان العرب ص ٤٢٣٥، ٤٢٣٦.

(١٨٧) أي: ثنايا الجِلْد وتكسره بسبب عَظْم الكَتف. ينظر: مقاييس اللغة ٤٢٧/٤.

(١٨٨) الحَجْمُ من الشيء: ملمسه الناتئ تحت يدك. القاموس المحيط ١٠٩١/١.

(١٨٩) ينظر: تدريب الراوي ٢٠٧/١، و٤/٢، تعجيل المنفعة ص ٥٣٥.

رسول الله ﷺ قاصدًا إليه في بلده وبعث له بالرسالة من مكان قريب يرغبه في الإسلام ويخيره بين إحدى ثلاث: إما أن يقبل الإسلام ويدخل فيه، أو يؤدي الجزية، أو يبرز إليه في مكان الحرب حتى يحكم الله بينهما وتكون كلمته هي العليا.

حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع

ثم حج رسول الله ﷺ بالناس فى العام العاشر من الهجرة: حجة الوداع في أكثر من مائة وثلاثين ألف مسلم، بعد أن كانوا في صلح الحديبية خمس عشرة مائة على أكثر تقدير، وكانوا في فتح مكة نحو عشرة آلاف، وهكذا انتشر الإسلام واتسعت أرضه ودخل الناس في دين الله أفواجًا، قال أبو زرعة الرازى: قُبِضَ رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن رآه وسمع منه... كلٌّ رآه وسمع منه بعرفة(١٩٠).

وخاطب الله عز وجل ذلك الجمع المحتشد في حجة الوداع ممتنًا على الأمة ونبيها ﷺ بتمام النعمة وإكمال الدين، وانحصار رقعة الكفر وكبت أهله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

إن هذا التوجيه من الله تعالى للأُمَّةِ المسلمة في ذاك الوقت ليس قاصرًا عليهم بل هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان ومكان...

فالمؤمنون حقًا هم الذين يرتضون ما رضيه الله لهم من هذا الدين، بمعناه الكامل الشامل، الذين يتخذون هذا الدين كله منهاجًا للحياة، حتى إن أشد الناس عداءً لهذه الأمة ليحسدونها

---

(١٩٠) مقدمة ابن الصلاح ص٢٩٨، وتدريب الراوى ٢/ ٢٢٠.

على ما آتاها الله من فضله، وحباها بنعمه وكرمه، ففي أمهات كتب السنة الأصيلة ومصادرها الوثيقة بأسانيد صحيحة، عن طارق بن شهاب قال: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ(٣٦٤): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ(١٩١).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾: يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم، ويؤكد هذا: الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(١٩٢) يعني أن الشيطان رضي بذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ معناه: لا تخافوا منهم في مخالفتكم لأهل الشرك، واخشوني أنصركم عليهم

(٣٦٤) اللفظ للإمام أحمد في المسند ٢٨/١.

(١٩١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة: البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه ١٠٥/١، وفي كتاب المغازي/ باب حجة الوداع ١٠٨/٨، وفي كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٦٨/٨، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٤٥/١٣، ومسلم في صحيحه: كتاب التفسير ٢٣١٢/٤، والترمذي في جامعه: كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٥٠/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في المجتبى من سننه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ١١٣/٨، ١١٤، وكان ذلك اليوم بالتقويم الشمسى هو الموافق ٦٣٢/٣/٥م، وراجع ما سبق فى هذا الجزءتحت عنوان «التَّأْرِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ».

(١٩٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٢١٦٦/٤، والترمذي في جامعه: البر والصلة/ ما جاء في التباغض ٣٣٠/٤، وأحمد في مسنده ٣١٣/٣، ٣٥٤، والتحريش: هو إغراء بعضهم على بعضهم الآخر بإثارة التباغض والفتن والشحناء... ونحو ذلك مما يُوغر الصدور.

وأبيدهم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... فلما أكمل الدين لهم تمت بذلك النعمة عليهم، فارضَوْا لأنفسكم الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وأكمله لهم، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا(١٩٣).

وهكذا ابتدأ الإسلام في غار حراء بمكة برسول الله ﷺ منفردًا وهو شاخص ببصره إلى السماء، وجبريل يقول له أنت رسول الله وأنا جبريل، وها هو ذا يكمل بجوار غار حراء عند الصخرات من جبل عرفة، وحول رسول الله ﷺ مائة وثلاثون ألفًا من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة(١٩٤) يقتدون بالنبي ﷺ ويشاهدونه ويسمعون منه ويتلقون عنه، فتمت النعمة، وعظمت المنة، وكانت حجة البلاغ والوداع، وتم بناء صرح الإسلام الشامخ برسالة خاتم النبيين كما قال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»(١٩٥).

---

(١٩٣) تفسير الطبري: ٥١٦/٩ : ٥١٨، وتفسير ابن كثير ٢٢/٣، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

(١٩٤) ينظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ١٩٨/٣، ١٩٩.

(١٩٥) صحيح مسلم : كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/ ١٧٩٠، ١٧٩١، عن أبي هريرة واللفظ له،

إعداده ﷺ خلفاءه لتحمل الأمانة

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه يثبت قدمه على الخطوة التالية ويمكن لها ولو لم يخطوها، فلما أحس ﷺ بدنو أجله وانتهاء عمره ليلحق بالرفيق الأعلى أراد أن يؤصل في نفوس أصحابه الوسيلة التي بها ينشرون دين الله في الأرض، وهي: الجهاد في سبيل الله عز وجل، لأن هذه الفريضة ذروة سنام الإسلام وبها يعبد الله وحده لا شريك له، مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشر، وحفظ الأنفس والأموال، ورعاية الحق، وصيانة العدل، وتعميم الخير ونشر الفضيلة، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ١٦٨فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

فأمر ﷺ بإنفاذ الجيش إلى بلاد الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة؛ ولمَّا يبلغ عمره عشرين سنة، وتحت لوائه كبار الصحابة وفضلاؤهم رضي الله عنهم أجمعين.

ففى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر من العام الحادى عشر الهجرى: أمر رسول الله ﷺ بغزو الروم، وحثهم على الإسراع فى السير؛ حتى لا يسبقَهم الخبرُ إلى عدوهم، ووجههم إلى أُبنَى(١٩٦) من أرض فلسطين بين الرملة وعسقلان، وبالقطع لا بد أن يمر الجيش بمؤتة التى استشهد بها الأمراء الثلاثة.

وكذا نحوه عن جابر وأبي سعيد، وينظر مسند أحمد ٩/٣.

(١٩٦) (أُبْنَى): بضم الهمزة والقصر، وهى الآن تنطق بالياء (يُبنَى): اسم موضع من فلسطين بين عسقلان والرملة شمال غزة. ينظر: معجم البلدان ٧٩/١.

ولا بد هنا من إزالة اللبس حول كلمة وردت في حديث متفق عليه دفاعًا عن أصحاب رسول الله ﷺ:

قال البخارى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ -يعنى: ابن سلام-، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ الأَحْوَلِ، سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: يَوْمُ الخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الحَصَى، قُلْتُ يَا ابنَ عَبَّاسٍ: مَا يَوْمُ الخَمِيسِ؟ قَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا» فَتَنَازَعُوا، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: مَا لَهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ؟ فَقَالَ: «ذَرُونِي، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فَأَمَرَهُمْ بِثَلاَثٍ، قَالَ: «أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَأَجِيزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ» وَالثَّالِثَةُ إِمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا، وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيتُهَا، قَالَ سُفْيَانُ: هَذَا مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ.

وأخرجه مسلم عن سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَقُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَمْرٍو النَّاقِدِ، وَاللَّفْظُ لِسَعِيدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ.. به نَحْوَ حديث البخارى، وله متابعات كثيرة، وطريق ثانية عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى الصحيحين وغيرهما أيضًا، ولرواياته ألفاظ متقاربة يأتى ذكر بعضها(١٩٧)، وفى الرواية الأولى عند الإمام أحمد نقل عن شيخه سفيان بن تفسيره لكلمة «أَهَجَرَ؟» بقوله: يعنى هَذِىَ.

---

(١٩٧) صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب كتابة العلم ١/ ٢٠٨، وكتاب الجهاد/ باب جوائز الوفد، وهل يشفع إلى أهل الذمة؟ ومعاملتهم ٦/ ١٧٠، وكتاب الجزية والموادعة - واللفظ له-/ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ٦/ ٢٧٠، ٢٧١، وكتاب المغازى/ باب مرض النبى ﷺ ووفاته ٨/ ١٣٢ وكتاب المرضى/ باب قول المريض قوموا عنى ١٠/ ١٢٦، وكتاب الاعتصام/ باب كراهية الاختلاف ١٣/ ٣٣٦، وصحيح مسلم كتاب الوصية/ باب ترك الوصية لمن ليس له شىء يوصى فيه ١١/ ٨٩: ٩٥، ومسند الإمام أحمد ١/ ٢٢٢، ٢٩٣، ٣٢٤، ٣٣٦، ٣٥٥، وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحت أرقام ١٩٣٥، ٢٦٧٦، ٢٩٩٢، ٣١١١، ٣٣٣٦، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب العلم/ باب كتابة العلم ٣/ ٤٣٣، ٤٣٤، ح٥٨٥٢، ٥٨٥٤، وكتاب الطب/ باب قول المريض: قوموا عنى ٤/ ٣٦٠ ح٧٥١٦.

ومن ثَمَّ: أطال العلماء وأفاضُوا، وأجادوا الكلام فى بيانهم المراد من هذه الكلمة، ومن هؤلاء: الخطابى، والبيهقى، والقاضى عياض، وابن الأثير، والنووى، والقرطبى، وغيرهم، وكلامهم مبسوط فى شروح الحديث، وسأَنتخب منه هنا ما يفى بالغرض ويحقق البيان، ثم أُعقب بما يفتح الله به علىّ، فأقولُ مستعينًا بالله تعالى:

اختلفت الروايات فى ضبط كلمة «أَهَجَرَ» وأحسن ما قيل فى ضبطها ما ذكره القرطبى، ولخصه الحافظ ابن حجر بقوله: وحاصله أن قوله: «أَهَجَرَ» الراجح فيها: إثبات همزة الاستفهام وبفتحات على أنها فعل ماضٍ.

قال: ولبعضهم: «أَهُجْرًا» بضم الهاء وسكون الجيم والتنوين على أنه مفعول لفعل مضمر، أى: أقال هُجْرًا، والهُجْرُ بالضم ثم السكون: الهذيان، والمراد به هنا: ما يقع من كلام المريض الذى لا ينتظم، ولا يعتد به لعدم فائدته.

وأما وقوع ذلك من النبى ﷺ فمستحيل: لأنه معصوم فى صحته ومرضه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم]، ولقوله ﷺ: «إِنِّي لَا أَقُولُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا إِلَّا حَقًّا»(١٩٨).

فإذا عُرف ذلك؛ فإن قول من قاله يتجه إلى أنه قاله منكِرًا على مَن توقَفَ فى امتثال أمره ﷺ، فلم يُحضِر الكتف والدواة، فكأنه قال: كيف تتوقف فى أمره؟ أتظن أنه كغيره يقول

(١٩٨) حديث صحيح، قال النبى ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص حين نهته قريش عن كتابة كل شىء عن رسول الله ﷺ: لأنه بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فقال ﷺ: «اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا الحق» وأشار بيده إلى فِيه، أخرجه أبو داود فى سننه كتاب العلم/ باب فى كتابة العلم ٤/٦٠، ٦١، والإمام أحمد فى مسنده ٢/١٦٢، ١٩٢، والدارمى فى سننه: المقدمة/ باب من رخص فى كتابة العلم ١/١٣٦، والحاكم فى المستدرك – واللفظ له –/ باب كتابة العلم ١/١٠٥،١٠٦.

الهذيان فى مرضه؟!! امتَثِلْ أَمْرَهُ، وأَحْضِرْ ما طلبَهُ، فإنه؛ لا يقول إلا الحق، قال: يعنى القرطبى: هذا أحسن الأجوبة.

ويحتمل: أن يكون ذلك القول صدر من قائله عن دهشةٍ وحيرة، كما أصاب كثيرًا منهم عند موته ﷺ.

وقيل: قال ذلك من قال، لإرادة سكوت الذين لغطوا ورفعوا أصواتهم عنده، فكأنه قال: إن ذلك يؤذيه ويفضى فى العادة إلى ما ذكر.

ويحتمل أن يكون قوله «أَهَجَرَ» فعلاً ماضيًا –بفتح الهاء والجيم– من الهَجْر –بسكون الجيم– والمفعول محذوف تقديره: الحياةَ، بمعنى أنه ﷺ يقول ذلك لأنه مفارقهم فى الحياة وهاجرهم بسبب الموت، وذكره بلفظ الماضى مبالغة لما رأى من علامات الموت.

ثم ذكر الحافظ ابن حجر احتمالاً آخر، بالإضافة إلى ما ذكره القرطبى، فقال: ويحتمل أن يكون قائل ذلك أحد الذين دخلوا فى الإسلام قريبًا وكانوا يعتادون أن من اشتد عليه الوجع قد يشتغل به عن تحرير ما يريد أن يقوله لجواز وقوع ذلك، ولهذا وقع فى الرواية الثانية: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الوَجَعُ» وفى إحدى روايات مسلم: «فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر» ويؤيد ذلك أنهم قالوا: «استفهِمُوه» بصيغة الأمر على سبيل الاستفهام، أى اختبروا أمره، واستفهِمُوه عن هذا الذى طلبه: أهو على سبيل الاستحباب؟ أم على سبيل الوجوب؟ ولما وقع منهم التنازع والاختلاف: ارتفعت البركة، كما جرت العادة عند وقوع التخاصم والتشاجر.

قال المازرى: إنما جاز للصحابة الاختلاف فى هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ﷺ ظهرت منه قرينةٌ دلت على أن الأمر ليس على التحتم؛ بل على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لِمَا قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصدٍ جازم.

وقال ابن الجوزى: فى قوله ﷺ: «دعونى...» إلى آخره: يحتمل أن يكون المعنى دعونى فالذى أُعايِنُه من كرامة الله التى أعدها لى بعد فراق الدنيا: خيرٌ مما أنا فيه فى هذه الحياة، أو أن الذى أنا فيه من المراقبة والتأهب للقاء الله والتفكر فى ذلك ونحوه: أفضل من الذى تسألوننى فيه من المباحثة عن المصلحة فى الكتابة أو عدمها.

قال الحافظ ابن حجر: فعلى هذا كان أمره ﷺ اختبارًا وامتحانًا، فهدى الله عمر لمراده وخَفِيَ ذلك على غيره.

وقول عمر بن الخطاب: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» لم يُرِدْ به الاكتفاء بالقرآن عن بيان السنة، وإنما قاله خشيةً مما يترتب على كتابة الكتاب من الطعن الذى يفتح الباب للمنافقين للنيل من هذا الدين.

قال الخطابى: لم يتوهم عمر الغلط فيما كان النبى ﷺ يريد كتابته؛ بل امتناعه محمول على أنه لما رأى ما هو فيه من الكرب وحضور الموت خشى أن يجد المنافقون سبيلاً إلى الطعن فيما يكتبه، وإلى حمله على تلك الحالة التى جرت العادة فيها بوقوع بعض ما يخالف الاتفاق، فكان ذلك سبب توقف عمر؛ لا أنه تعمد مخالفة قول النبى ﷺ، ولا جواز وقوع الغلط عليه! حَاشَ وكلَّا.

قال ابن حجر: فرأى عمر أن الاعتماد على القرآن لا يترتب عليه شىءٌ مما خشيه، وأما ابن عباس فلا يقال فى حقه: لم يكتف بالقرآن مع كونه حبرَ الأمة وأعلم الناس بتفسير القرآن وتأويله، ولكنه أسف على ما فاته من البيان بالتنصيص عليه لكونه أولى من الاستنباط، وَاللَّهُ أَعْلَمُ(١٩٩).

وقال النووى: اعلمْ أن النبى ﷺ معصوم من الكذب، ومن تغيير شىءٍ من الأحكام

---

(١٩٩) ملخصًا من فتح البارى ٨/١٣٢ : ١٣٥، وأصل كلام القرطبى فى ١/٢٠٨ ، ٢٠٩ من الفتح.

الشرعية فى حال صحته وحال مرضه، ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه؛ وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه، وليس معصومًا من الأمراض والأسقام العارضة للأجسام ونحوها مما لا نقص فيه لمنزلته، ولا فساد لما تمهد من شريعته، ولم يصدر منه ﷺ وهو فى هذه الحال: كلام فى الأحكام مخالف لما سبق من الأحكام التى قررها.

فإذا علمتَ ما ذكرناه فقد اختلف العلماء فى الكتاب الذى هَمَّ النبى ﷺ به، فقيل: أراد أن ينص على الخلافة فى إنسانٍ معين، لئلا يقع نزاع وفتنة، وقيل: أراد كتابًا يبين فيه: مهمات الأحكام ملخصة ليرتفع النزاع فيها، ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه، وكأن النبى ﷺ هَمَّ بالكتاب حين ظهر له أنه مصلحة، أو أوحى إليه بذلك، ثم ظهر أن المصلحة تركه، أو أوحى إليه بذلك ونسخ ذلك الأمر الأول.

وأما كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد اتفق العلماء المتكلمون فى شرح الحديث: على أن من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره، لأنه خشى أن يكتب ﷺ أمورًا ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها، فقال عمر: حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فعلم أن الله تعالى أكمل دينه، فأمن الضلال على الأمة، وأراد الترفيه على الرسول ﷺ.

قال القاضى عياض قوله: «أَهَجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» هكذا هو فى صحيح مسلم وغيره، أهجر على الاستفهام وهو أصح من رواية من روى هجر ويهجر، لأن هذا كله لايصح منه ﷺ لأن معنى هجر: هذى، وإنما جاء هذا من قائله استفهامًا للإنكار على من قال لا تكتبوا أى لا تتركوا أمر رسول الله ﷺ وتجعلوه كأمر من هجر فى كلامه، لأنه ﷺ لايهجر، وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأً من قائلها، قالها بغير تحقيق؛ بل لِمَا أصابه من الحيرة والدهشة

لعظيم ما شاهده من النبى ﷺ من هذه الحالة الدالة على وفاته، وعظيم المصاب به، وخوف الفتن والضلال بعده، وأجرى الهجر مجرى شدة الوجع، وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ» رد على من نازعه لا على أمر النبى ﷺ، وَاللهُ أَعْلَمُ(٢٠٠).

وقال ابن الأثير: حديث مرض النبى ﷺ: «قالوا: ما شأنه؟ أهجر؟» أى اختلف كلامه بسبب المرض، على سبيل الاستفهام، أى هل تغير كلامه واختلط لأجل ما به من المرض؟ وهذا أحسن ما يقال فيه، ولا يُجعل إخبارًا، فيكون إما من الفحش أو الهذيان، والقائل كان عمر، ولا يُظَنُّ به ذلك(٢٠١).

وقال الإمام البيهقى: إنما قصد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما قال التخفيف على رسول الله ﷺ حين رآه قد غلب عليه الوجع، ولو كان ما يريد النبى ﷺ أن يكتب لهم شيئًا مفروضًا لا يستغنون عنه لم يتركهم لاختلافهم ولغطهم لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما لم يترك تبليغ غيره بمخالفة من خالفه، ومعاداة من عاداه، وفى ترك رسول الله ﷺ الإنكار عليه فيما قال دليل واضح على استصوابِهِ رأيَه، وبالله التوفيق(٢٠٢).

وبعد هذا الكلام النفيس من العلماء الكرام – رحمهم الله تعالى- أُنَبِّهُ القارئَ الكريم إلى أمر يتضح به ما يُتوهَمُ مِن لَبْسٍ فى كلام القاضى عياض، والعلامة ابن الأثير، فأقول:

إن القاضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقصد توهين الرواية التى فيها: «هَجَرَ» بدون همزة الاستفهام، فإنها قد وردت فى كتاب الجهاد من صحيح البخارى، وكذلك الرواية التى فيها «يهجر» فإنها فى

(٢٠٠) ملخصًا من شرح النووى لصحيح مسلم ١١/ ٩٠: ٩٤، وبعض كلام الإمام النووى مقتبس من كلام البيهقى فى دلائل النبوة ٧/ ١٨٤، ١٨٥.

(٢٠١) النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة هجر.

(٢٠٢) دلائل النبوة ٧/ ١٨٤، ١٨٥.

صحيح مسلم.

وهمزة الاستفهام إذا كانت محذوفة في الكتابة فإنها مقدرة في المعنى، ولهذا قال عن الرواية الأولى: هي أصح، وأما قول القاضي عياض: «وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأً من قائلها...» فقد أضرب عنه القاضي بقوله: «بل لِمَا أصابه من الحيرة والدهشة لعظيم ما شاهده من النبي ﷺ...» إلى آخر ما ذكره من التأويل.

والأولى من التأويل والتضعيف أن يقال: القصة واحدة لم تتعدد، ومخرجها واحد، وهو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد حدَّث بها كلُّ واحدٍ من تلميذيه على حدة، أعني: سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبا عبدالله المدني، وكلاهما من الفقهاء الثقات الأثبات من الطبقة الوسطى من طبقات التابعين[٢٠٣]، وقد حدَّث بها كلُّ واحدٍ منهما تلامذتَه... وهكذا، فما المانع أن يكون ابن عباس حدث بالقصة مرة بألفاظها التي وقعت فيها، ومرة أخرى بمعناها، أو وقع ذلك من تلميذيه، أو من تلامذة كلِّ واحدٍ منهما، فمثلاً نجد في رواية البخاري في المغازي: «فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع...» وفي كتاب المرضى بلفظ: «فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الوَجَعُ...» وهي هكذا في الرواية الأخيرة من صحيح مسلم[٢٠٤].

فالذي قص اللفظ منسوبًا إلى قائله أولى من الذي رواه بمعناه غير منسوب كما سبق في الروايات: «فقالوا: أَهَجَرَ؟» وغير ذلك، فينبغي رد الروايات المحتملة التأويل إلى الروايات الأخرى الواضحة الدلالة، وما دام الجمع بين الروايات ممكنًا فهو أولى من تخطئة بعضها.

---

(٢٠٣) تقريب التهذيب ص ٧٥، ٢٣٤، ٣٧٢.

(٢٠٤) أي أنها من المتفق عليه، ومن راجع ألفاظ الحديث في مواطن تخريجه: وجد فروقًا كثيرة بين الألفاظ، وإن كان معناها واحد، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وبهذا أيضًا ينبَّه على كلام ابن الأثير حين نسب كلمة: «أَهَجَرَ» إلى عمر، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فلما كان يوم السبت بعد ابتداء مرض النبى ﷺ وقبل موته بيومين: دَعَا أُسَامَةَ فَقَالَ ﷺ: «سِرْ إِلَى مَوضِعِ مَقْتَلِ أَبِيكَ؛ فَأَوْطِئْهُمُ الْخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ، وَأَغِرْ صَبَاحًا عَلَى أُبْنَى، وَحَرِّقْ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرِعِ الْمَسِيرَ تَسْبِقِ الْخَبَرَ، فَإِنْ ظَفَّرَكَ اللَّهُ بهم، فَأَقلِ اللَّبْثَ فِيهِمْ»(٢٠٥).

ونلحظ أنه ﷺ زادَه فى التكليف بتجاوز مؤتة التى استشهد بها أبوه متوغلاً فى أرض الروم حتى يصل إلى أُبنَى غرب بيت المقدس بفلسطين.

ثم عقد ﷺ اللواء لأسامةَ بيده، فأخذه أسامةُ فدفعه إلى بريدة بن الحُصيب، فعسكر بالجُرف، وقد انتُدِبَ كثير من المهاجرين الأولين والأنصار فى جيشه، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب (وكان من أكبرهم) ومَن قال: إن أبا بكر كان فيهم؛ فقد غلط، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيِّم بالجُرف، وقد أمَر النبى ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس: فكيف يكون فى الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين، ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة فى الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام(٢٠٦).

---

(٢٠٥) وفى سنن أبى داود بسند ضعيف أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «أَغِر علَى أُبنَى صَباحًا وَحَرِّق» كتاب الجهاد، باب فى الحرق فى بلاد العدو ٣/ ٨٨ ح٢٦١٦، وفيه: أن التحريق والتخريب فى بلاد العدو جائز لضرورة الحرب إن وقع تبعًا لها. نيل الأوطار ٧/ ٢٥١، وسبل السلام ٤/ ٥١، ٥٢.

(٢٠٦) ينظر: صحيح البخارى: كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ٢/ ١٦٤ ح٦٧٨، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ٢/ ٣١١: ٣١٦ ح٤١٨، ويراجع: هامش رقم ١٥٧.

وقال البخارى: بَعَثَ النبيُّ ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنهما فى مرضه الذى توفى فيه، ثم أخرج من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله بعث بعثًا، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس فى إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»(٢٠٧).

ثم اشتد برسول الله ﷺ الوجع، فقال: «أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ» فَأَنْفَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الصديق بعد أن ولى الخلافة.

ثم لما توفى ﷺ استطلق الصديقُ عمرَ بن الخطاب من أسامةَ بن زيد واستأذنه فى الإقامة معه، وخرج أبو بكر رضي الله عنه يشيع أسامة، فركب من الجرف لهلال ربيع الآخر فى ثلاثة آلاف: وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى جَنْبِهِ سَاعَةً، ثُمّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَك وَأَمَانَتَك وَخَوَاتِيمَ عَمَلِك، إنّي سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يُوصِيك، فَانْفُذْ لِأَمْرِ رسول الله ﷺ، فإني لَسْت آمُرُك وَلَا أَنْهَاك عَنْهُ، وَإِنّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرٍ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فخرج أسامةُ بالجيش سريعًا، فسار الجيش عشرين ليلة إلى الجهة التى وُجِّه إليها، وقَدَّم أسامةُ عينًا إلى أُبنى، فعاد فأخبره أن الناس غافلون؛ ولا جموع لهم، فعبَّأ أصحابه وأغار عليهم قبل أن يجتمعوا فقتل وسبى وحَرَّق، وقَتَلَ أسامةُ قاتِلَ أبيه، ثم رحل مساءًا حتى قدم المدينة، وقد غاب خمسة وثلاثين يومًا، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لى، فسألته فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، وعاش أسامة إلى سنة أربع وخمسين، وقيل قبلها، وكانت وفاته بالمدينة أو بوادى القرى، رحمه الله ورضى عنه(٢٠٨).

---

(٢٠٧) صحيح البخارى ح٤٤٦٩، وأصله فى ح٣٧٣٠، وراجع شرح الحديث فى فتح البارى ٨/ ١٥٢.

(٢٠٨) يراجع فى ذلك: فتح البارى ٧/ ٨٧، ٨/ ١٥٢ ح٤٤٦٩، والإصابة١/ ٤٥ ترجمة أسامة، والسيرة النبوية لابن كثير٤/ ٤٤٠، ٤٤١، وإمتاع الأسماع ١/ ٥٣٥: ٥٤٠.

لُحُوقُه ﷺ بالرفيق الأعلى

نعم: فارق رسول الله ﷺ الدنيا بعدما استقر الوحي في صدور الرجال، وبطون الكتب، وأصبح للإسلام فيها دولةٌ قائمة، ودعوة واضحة، وقوة مهيبة، وسلطان يعصم دماء المؤمنين وأموالهم، ويرد نزوات السفهاء عنهم، واتسعت الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم، حتى شملت الجزيرة كلها: من أطراف الشام إلى أقصى اليمن، ومن الخليج العربي إلى شواطئ البحر الأحمر، وأخذ أمر الإسلام يعلو، والرقعة التي يسودها تتسع، والأفواج التي تدخل فيه تزداد يومًا بعد يوم، نتيجة جهد دؤوب، وعطاء غير محدود طيلة ثلاث وعشرين سنة، من حياة رسول الله ﷺ هي مدة الوحي وزمن الرسالة، وقد استنار وجه رسول الله ﷺ حتى كأنه مُذْهَبَة، وذلك حين رمق المصلين في مسجده، وهم صفوف خلف أبى بكر يستمعون القرآن وينصتون له في خشوع ويقين، والدنيا في طول الجزيرة وعرضها تَدِين بهذا الكتاب، والأمة والدولة كلتاهما سند له وأشياع وحراس، كيف لا؟ وهو روحهم وحياتهم وعقيدتهم ومنهجهم ودستورهم وسر سعادتهم وسبب عزهم، والعناية بأمره لا تحتاج إلى تكلف أو مشقة.

قال الإمام ابن حزم: ثمَّ حَضرته ﷺ المَنِيَّةُ وأيقن بِالْمَوْتِ، وَله عَمٌّ أَخُو أَبِيه هُوَ أحبُ النَّاس إِلَيْهِ، وَابْنُ عَمٍ هُوَ من أخصِّ النَّاس بِهِ، وَهُوَ أَيْضًا زوجُ ابْنَته الَّتِي لَا وَلَدَ لَهُ غيرَهَا، وَله مِنْهَا ابنان ذَكَرَان، وكِلا الرَّجُلَيْن الْمَذْكُورين عَمِّه وَابْنِ عَمِّه: عِنْده من الْفضلِ وَالدِّينِ والسياسةِ فِي الدُّنْيَا والبأس والحلم وخلال الْخَيْر.. مَا كَانَ كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقًا -جديرًا- بسياسةِ الْعَالمِ كُلِّه: فَلم يُحَابِهما، وهُما مِن أَشد النَّاسِ غِنَاءًا عَنهُ وَمَحَبَّةً فِيهِ، وَهُوَ من أحبِّ النَّاسِ فيهمَا؛ إِذْ كَانَ غيرُهمَا مُتَقَدما لَهما فِي الْفضل، وَإِن كان بعيدَ النّسَب مِنْهُ؛ بل فَوَّضَ الْأَمرَ إِلَيْهِ قَاصِدًا إِلَى مُرِّ الْحق وَاتِّبَاع مَا أَمَرَ بِهِ، وَلم يُورِّث وَرَثَته ابْنَته ونِسَاءَه وَعَمَّه فِلسًا فَمَا فَوْقَه، وهُم كلُّهم أحبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وأطوعُهُم لَهُ، وَهَذِه أُمُور لمن تأملها كَافِيَةٌ مغنيةٌ فِي أَنه إِنَّمَا تصرَّفَ بِأَمْر الله تَعَالَى لَا بسياسةٍ وَلَا

بهوى: فوضحَ بِمَا ذكرنَا، وَلله الحَمدُ كثيرًا أَن نبوة مُحَمَّدٍ ﷺ حقٌ، وَأَن شَرِيعَته الَّتِي أَتَى بهَا هِيَ الَّتِي وَضَحَت براهينُها واضطرت دَلائِلُها إِلَى تَصدِيقِها، وَالْقطع على أَنَّهَا الْحقُّ الَّذِي لَا حَقَّ سِواهُ، وَأَنَّهَا دِينُ اللهِ تَعَالَى الَّذِي لَا دِينَ لَهُ فِي الْعَالمِ غَيرُه، وَالْحَمْدُ للهِ رب الْعَالمينَ عَدَدَ خَلقِهِ ورِضَا نَفسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ(٢٠٩).

- وبعدَ أنْ لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى فى ضُحى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر من الهجرة النبوية الموافق ٦٣٢/٦/٧م: بايع الناسُ أبا بكر الصديق بالخلافة وقد لخص ذلك الشيخ محمد سالم البيحانى فقال:

أَحَـقُّ أَهْـلِ الأَرضِ بِـالخِـلَافَـةْ ۞۞ بَـعْـدَ الـنَّـبيّ ابنُ أَبِي قُحَـافَـةْ
سَـيِّدُنَـا الـصِّـدِّيـقُ عَـبـدُاللهِ ۞۞ خَـيْـرُإِمَـامٍ آمِـرٍوَنَـاهِي
وَخُـطْبَـةُ الصِّدِّيقُ كَانَت جَامِعَـه ۞۞ لأمْـرِهِـمْ وَكُلُّـهُـم قَدْ بَـايَعَـهْ
إلاَّ الـقَـلِـيـلُ مِنْـهُـمُـولِـعُـذرِ ۞۞ وَأَنـتَ قَـدْ تَـدْرِي وَقَـدْ لا تَـدْرِي
وَأَوَّلُ الـمُـبَـايِـعِـيـن عُـمَـرُ ۞۞ ثُـمَّ أَبُـوعُـبَيـدَةَ الـمُـبَـشَّـرُ
وَجَـاءَ فِي خُـطـبَـةِ هَـذا الـوَالِي ۞۞ مَـا صَـدَّقَ الأَقـوَالَ بِالأَفعَـالِ
أَضعَفُكُم عِندِي القَوِيُّ الجَانِبُ ۞۞ مِن أَبْعَـدِ الـنَّـاسِ أَوِالأقَـارِبِ
وَإِنَّ أَقـوَى رَجُـلٍ عَـلَـيَّـا ۞۞ صَـاحِـبُ حَـقٍّ يَبْـتَـغِي لَـدَيَّـا
حَـتَّـى يُـؤدِّي الـقَـوِيُّ الـحَـقَّـا ۞۞ وَيَـأخُـذَ الـضَّـعِيفُ مَا استَحَقَّا
وَفِي عَـزِيـمَـةٍ وَفِي صَـرامَـهْ ۞۞ نَـفَـذَ جَـيـشًـا قَـادَهُ أُسَـامَـهْ
فَـأَصبَـحَ الإِسْـلامُ فِي الـجَـزِيـرَة ۞۞ يُضِيءُ مِثْلَ الشَّمسِ فِي الظَّهِيرَة
وَهَـبَّـتِ الآسَـادُ مِـنْ عَـرِينِـهَـا ۞۞ لِـنَـشْـرِعِـلـمِـهَـا وَنَـشْـرِدِينِـهَـا
وَجَـاءَ فِي وَصِـيَّـةِ الـصِّـدِّيـقِ ۞۞ مَـا يُـرشِـدُ الـنَّـاسَ إِلَى الطَّرِيقِ

---

(٢٠٩) الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٣٤١، ٣٤٣ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

فَـنَـمْ أَبَـا بَـكْـرٍ قَـرِيـرَ الـعَيـنِ ۞۞ وَقُـمْ إِلَى الـمَحْـشَـرِ ثَـانِيَ اثْـنَـينِ

وهكذا: حَمَلَ أصحابُ رسول الله ﷺ راية الإسلام ليؤدوا الأمانة ويواصلوا المهمة التي عهد بها إليهم نبيهم ﷺ، فأخذوا ينساحون في الأرض؛ لينشروا في العالمين ضياء الإسلام في دنيا الناس ويبددوا به الظلمات، ويزيلوا به الغشاوات، وصاروا كالغيث النافع في الأرض الطيبة: أحيا الله بهم البلاد وأسعد بهم العباد، فكانوا خير خلف لخير سلف.

وهكذا: أصبحت كلمة الإسلام بعد رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ تعني كل ما جاء به من عقائد وتشريعات وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق، وصارت -عند النطق بها أو سماعها- عَلَمًا على هذا الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لجميع المكلفين الذين بلغتهم دعوة الإسلام في أي زمان أو مكان، سواء في ذلك منهم: مَن قَبِلَه أو أَعرَضَ عنه، أو أذعن له أو ندَّ عنه، أو دَعَا إليه أو صَدَّ عنه، أو كان على ملةٍ صحيحة لم تبدل، أو على ملة حُرِّفت وبُدِّلت، أو لا ملة له ولا اعتقاد، أخرج مسلم وغيره(٢١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فمن سمع أو علم برسالة سيدنا محمد ﷺ وبمعجزاته، ثم أصر على كفره، ومات على ذلك فهو من المخلدين في النار، وذلك لأن رسالة نبينا محمد ﷺ نسخت جميع الملل قبلها، وأن شرعه ﷺ أبطل كل تشريع سابق عليه، وأما من لم تبلغه الدعوة فهو معذور لا عقاب عليه

---

(٢١٠) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلي جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٣٤/١، مسند أحمد ٣١٧/٢، ٣٥٠، وينظر شرح النووي صحيح مسلم ٣٦٩/١، وللحديث شاهد عن أبي موسى الأشعري أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٦٩/٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٢٦١/٨، ٢٦٢ والمراد (بالأمة فى الحديث): أُمَّة الدعوة، وليست أُمَّةَ الاجابة.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وكذا من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها، وتخصيص اليهودي والنصراني في الحديث للتنبيه على مَن سواهما، إذ اليهود والنصارى لهم كتاب، فغيرهم ممن لا كتاب لهم من باب أولى(٢١١).

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تصرح بعموم رسالته ﷺ للخلق عامة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي السنة المشرفة قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه(٢١٢): «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» وفيه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» وفي رواية لمسلم: «وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» وفي رواياته: «وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً».

وليس معنى أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة: أنه يأتي بدين غير الإسلام كاليهودية أو النصرانية مثلاً، بل معناه: أنه كان يبعث بالإسلام إلى قومه الذين أرسل إليهم، وكُلِّفَ بدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فكان هذا تخفيفًا على نبي ذاك الزمان ورفقًا به، ورحمة بأمته ورأفة بها، إذ كانت أحوالهم البيئية وظروفهم المعيشية تقتضي ملازمةَ كل رسول لقومه وكل نبي لأمته، وتَفَرُّغَ كلِّ واحدٍ منهم

---

(٢١١) ينظر فتح المنعم ٢/٢٥٢: ٢٥٤.

(٢١٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، قول النبي ﷺ «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» ١/٥٣٣، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١٣٧٠، وكذا عن أبي هريرة بلفظ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ... وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»، وأحمد ٣/٣٠٤.

لأتباعه، وتعهدَه بهم، ومعايشتَه لهم وقربَه منهم، وعدمَ الانشغالِ بسواهم، ليكون أبصرَ بدائهم، وأخبرَ بدوائهم، وأعلمَ بما ينفعُهم ويُفيدُهم، وذلك مثلُ كليم الله موسى وأخيه هارون مع بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف].

أما خاتم النبيين الذي كلفه ربه بتبليغ الرسالة للعالمين، فإن ذلك كان تشريفًا لقدره، ورفعة لذكره، وإكرامًا لأمته التي بلغت حدَّ النضجِ والكمال، فتحمَّلت أعباءَ الرسالة وأمانةَ هذا الدين وكانت بحقٍّ خيرَ أمة أُخرجت في العالمين.

وربما يفهم البعض من قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، أن لكل أمة من الأمم السابقة دينًا خاصًا بها أو اعتقادا تتميز به على غيرها.

والحق: أن الإسلام عالمي منذ نشأته تسميةً ومضمونا، وهو الذي بُعِثَ من أجله كلُّ نبي، وأُرسل به كل رسول، وأُنزل بيانًا له كلُّ كتاب.

وهكذا: لم يترك النبي ﷺ الدنيا، ولم يفارق هذه الحياة، وما لحق بالرفيق الأعلى... إلَّا بعد أن أدى رسالته وبلغها للناس على أكمل وجه وأتمه، وأبان لهم الحجة، وأوضح لهم المحجة، وتركهم على البيضاء ليلِها كنهارها لا يزيغ عنها إلَّا هالك.

وبهذا تنتهى هذه اللمحات السَّنِية من سيرة خير البرية ﷺ لكنها باقية فى قلب كل مسلم؛ ليسترشد بها فى سلوكه وأخلاقه وعباداته ومعاملاته، وينتفعَ بها على أحسن حال وأكملِه، ويهتدىَ بها إلى أقوم طريق وأعدلِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المُقَدِّمَة	٣ : ٨
الهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ والشَّرعِ وَمَسَالِكُ المُهَاجِرِينَ وَصِلَتُهُم بِكُلٍّ مِنهَا	٩ : ٢٣
الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ	٢٣ : ٣٢
طَلَائِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ	٣٢ ، ٣٣
مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهِجْرَةِ	٣٣ : ٤٠
بَيتُ أَبِى سَلَمَةَ أَوَّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ	٣٤ : ٣٦
أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الأَنْصَارَ: مُصعَبُ بن عُمَير	٣٦ ، ٣٧
تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فى هِجْرَةِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ	٣٧ : ٤٠
هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ	٤٠ : ٦٣
يَوْمُ الْهِجْرَةِ	٤٢ : ٤٤
لَيْلَةُ الْهِجْرَةِ	٤٥ : ٥٣
التأريخ من بدء الهجرة	٥٤ : ٥٧
اسْتِقْبَالُ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ	٥٨ ، ٥٩
بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ	٥٩ : ٦٣
تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِى مَدِينَتِهِ	٦٣ : ٧٣
صُهَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقصةُ هِجْرَتِهِ	٦٤ : ٦٩
الْمُؤَاخَاةُ فِى عَهْدِ النُّبُوَّةِ	٦٩ : ٧٣
العِفَّةُ والإِيثَارُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار	٧٣ : ٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
الإِسلامُ وتَربِيَتُهُ لأَمثَلِ مُجتَمَعٍ وإِقَامَتُهُ لأكمَلِ دَولَةٍ فِي التعَامُلِ مَع الغَيرِ	٧٩ : ٨٥
خُلاصَةُ الهِجرَةِ النَّبويَّةِ	٨٦ : ٩١
لَمْحَاتٌ مِن بَعضِ الغَزْوَاتِ	٩٢ : ١٢٧
تَمحِيصٌ للمُؤمنينَ فى بَدرٍ وأُحُد	٩٢ : ١٠١
خطَرُ النِّفَاقِ وَاليهُودِ عَلَى الدَّولَةِ النَّاشِئَةِ	١٠٢ : ١٠٧
شهداءُ بِئرِ مَعُونَةَ وأصحابِ الرَّجِيعِ	١٠٧ : ١١٩
فَوزُ القُرَّاءِ بِالشَّهادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	١٠٨ : ١١١
عَاصِمُ بنُ ثابتٍ ورِفَاقُهُ والاقتداءُ بِصنيعِهم	١١٢ : ١١٩
غَزوَةُ الخَندَقِ وبِدايَةُ الاستِقرَارِ	١١٩ : ١٢٧
الدَّعوةُ العَمَليَّةُ وصُلْحُ الحُدَيبِيَةِ	١٢٨ : ١٣٢
هِجْرَةُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ وَرَفِيقَيْهِ وإِسْلامُهُم	١٣٢ : ١٣٩
غَزْوَةُ مُؤْتَة	١٣٩ : ١٤٥
غزوةُ ذاتِ السَّلاسِلِ	١٤٥ ، ١٤٦
الفتحُ الأعظمُ وسببُهُ	١٤٧ : ١٥٠
غَزوَةُ تبُوك والكِتَابُ الثَّانِى إِلَى هِرَقل	١٥٠ : ١٥٦
حَجَّةُ البَلاغِ وَالوَدَاع	١٥٦ : ١٥٨
إعدادُهُ ﷺ خُلفاءَهُ لِتَحمُّلِ الأمانةِ	١٥٩ : ١٦٨
لُحُوقُه ﷺ بِالرفيقِ الأعلى	١٦٩ : ١٧٣
فهرس الموضوعات	١٧٤ ، ١٧٥